الكتب التاريخية

چورج مارسيه

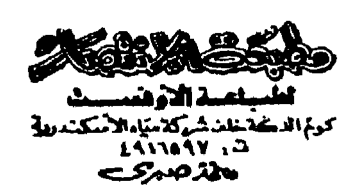
بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامى فى العصور الوسطى

ترجمه عن الفرنسية
محمود عبد الصمد هيكل

راجعه واستخرج نصوصه
الدكتور مصطفى أبو ضيف أحمد

توزيع : منشأة المعارف بالاسكندريه

رقم الايداع ٢٩٠٥ / ١٩٩١
الترقيم الدولى ٤ـ٥٩ـ٠٠ـ٠٣ـ٩٧٧



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الترجمة

هذه دراسة فى تاريخ العلاقات بين بلاد المغرب والمشرق الإسلامى منذ الفتح العربى حتى نهاية العصور الوسطى ، وتمتاز بغزارة المادة وسعة الأفق والاستناد الى المصادر الوثيقة بالموضوع ، ومنها يتكشف للمرء تنوع النزعات والأهداف بين كل من بلاد المغرب وبلاد المشرق فيما يطلبه كل منهما من الآخر وما يمثله له ، طوال العصور الوسطى .

ونظراً لأهمية الموضوع الذى تناوله جورج مارسيه بالدراسة ، والمنهج التاريخى الذى اتبعه ، إذ رغم اعتماد الباحث على جمع النصوص الكثيرة المتعلقة بالموضوع من مصادر متعددة ، والاكتفاء بها ، إلا أن منهجه التاريخى مكنه فى معظم الأحيان أن يكون محايداً ، لا تأثير لأرائه الشخصية ومعتقداته الدينية فيما تناول إلا قليلا نادرا . ولكن هذا كله لا يقلل من أهمية الكتاب وقيمته وفائدته للباحثين فى التاريخ الإسلامى بصفة عامة ، وتاريخ بلاد المغرب بصفة خاصة . فهذا الكتاب يعلمنا بطريقة عملية كيفية استخدام منهج البحث التاريخى العلمى فى دراسة التاريخ ، ويقدم لنا درسا قيما فى صبر العلماء على معاناة البحث حتى يتملكوا أدواته ، ويتمكنوا من استيعاب أحداثه ، ثم يعرضونها بطريقة موضوعية أخاذة .

لذلك أسعدنى أن أتعاون مع زميلى الفاضل الأستاذ محمود عبد الصمد هيكل فى ترجمة هذا الكتاب إلى العربية ، فهو له خبرة طويلة فى تدريس

اللغة الفرنسية بالجامعات المصرية . بالإضافة إلى أن تخصصى فى تاريخ المغرب والأندلس الذي سمح لى بمراجعة النصوص العربية المترجمة التى أوردها المؤلف على الأصول التى ذكرها فى لغتها الأصلية مراجعة دقيقة طلبا للدقة والضبط ، ولتكون بين يدى الباحث بلغة العصر التى كتبت بها . وقد يرى القارئ فى بعض الأحيان ما يشبه التفكك فى العرض ، فمرجع ذلك الى أن الكتاب ، كتاب علمى يعنى بضبط الوقائع معللا أسبابها وعارضا ما يستنبط منها ، وهذا لا يمنع أن بعض فصول الكتاب تمثل متعة ذهنية فى العرض والمنهج التاريخى الجدير بالاحتذاء .

ومؤلف الكتاب چورج مارسيه G. Marçais من خيرة الباحثين الذين توفروا على دراسة بلاد المغرب بحكم إقامته الطويلة بها ، وجلده المستمر على البحث فى مختلف مرافق حياته وتاريخه ، حيث كان أستاذا بجامعة الجزائر كما شغل منصب مدير متحف ستيڤان جسل بالجزائر الى جانب عضويته للمعهد الفرنسى .

ولقد تعددت مؤلفاته التاريخية والمعمارية الإسلامية أهمها (تاريخ العرب فى بلاد البربر من القرن الحادى عشر الى القرن الرابع عشر الميلادى) ، وتاريخ العلاقات بين بلاد المغرب والمشرق في العصور الوسطي الذي بين يدي القارئ ، ومجموعة أخرى من الأبحاث التاريخية حول تاريخ المشرق . أما مؤلفاته المعمارية فأهمها (فن الإسلام) وهو يتناول الفن الإسلامى فى حقوله المختلفة من العمارة الى الفنون والحرف والصناعات بصفة عامة . و (ملخص الفن الإسلامى) ويتناول العمارة فى بلاد المغرب والأندلس بصفة خاصة .

ولقد اكتفينا بالترجمة وتحقيق النصوص ، وفضلنا عدم التدخل بالتعليق على كثير من الآراء التى وردت بالكتاب ، نظرا لظهور دراسات متعددة تتولى هذه المهمة مثل أثر القبائل العربية فى الحياة المغربية خلال عصرى

الموحدين وبنى مرين لمراجع هذه الترجمة ، واكتفينا بتوضيح بعض المسميات والمصطلحات التى قد تغيب عن ذهن القارئ والباحث وقد أشير إليها فى الحواشى بالرمز (*) ، حتى يستقيم المعنى وتتحقق الفائدة .

وأخيرا نرجو أن يسد هذا الكتاب فراغا فى الدراسات المغربية التى ما زالت بكرا تحتاج لجهود الباحثين المخلصين ، ويجد الباحث المبتدئ فى هذه الدراسة نعم الفائدة والمعين .

وما التوفيق إلا بالله .

الاسكندرية ١١ فبراير ١٩٩١ م .

دكتور

مصطفى أبو ضيف أحمد

توطئة

يشكل دخول العرب الرحل الى بلاد البربر فى حوالى ١٠٥٠م (٤٤١هـ) وهو ما يسمى عادة بالغزو الهلالى ، تاريخ البلاد خلال القرون الثمانية التى تفصل بين الفتح العربى للبلاد والاستقرار التركى . ويشكل هذا الحدث الموضوع الرئيسى لكتاب ضخم عن (تاريخ العرب فى بلاد البربر من القرن الحادى عشر الى القرن الرابع عشر الميلادى) والذى نشرته فى ١٩١٣ م . لقد وجدت من الأفضل إعادته ودراسته بعد ثلاثين عاماً من العمل المتواصل ، ومع ذلك فالغزو الهلالى لن يعالج فى هذا الكتاب بنفس الصورة ، ولن يشغل نفس المكان مثل سابقه . إذ أننى سوف أتناول الغزو نفسه باختصار شديد ، إذ ليس لدى ما أضيفه الى روايتى الأولى ، وعلى القارئ الراغب فى معرفة التفاصيل الرجوع الى كتابى الأول . وبالإضافة الى ذلك لن يشغل الغزو الهلالى الباب الأول من هذا الكتاب بل سيشغل الجزء الثانى منه . إن هذا الغزو يوضح لنا أسباب فشل تطور الأحداث المعروض فى الجزء الأول من الكتاب ، ويقدم الظروف الجديدة ببلاد المغرب التى يتناولها الجزء الثانى والثالث.

سوف تظهر نتائج الغزو الهلالى فى جميع المجالات ، السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والفكرية . ولن تنجو منطقة أو شعب فى شمال إفريقيا من نتائجه . ومع ذلك تراودنا الرغبة فى فهمه على أنه حدث خاص بشمال إفريقيا وهذا يقلل من دوافعه . لقد أثر فى أجزاء العالم الإسلامى

التى تجاور بلاد البربر ، فالغزاة العرب خرجوا من مصر وانتقل بعضهم أو سلالاتهم إلى الأندلس ، كما تأثرت البلاد الغير إسلامية المحيطة وخاصة أسبانيا المسيحية وصقلية بنتائج دخولهم إلى مسرح الأحداث أو بنتائج الأحداث المعاصرة . لقد أثر القرن الحادى عشر فى الواقع على مصير العالم الإسلامى ، كما أثر على تطوره الداخلى ، وعلى علاقاته مع النصرانية . فمن المهم ذكر هذا قبل بدء قراءة هذا الكتاب ، وكذلك ذكر هذا التزامن . إن نظرة بيانية للأحداث التى جرت فى نفس الوقت فى الأجزاء الأخرى للعالم الإسلامى ، بل وفي المجال المسيحى كذلك ، تسمح لنا بإعادة الأحداث التى أرويها فى إطارها الزمنى ، وإبراز الروابط أو التشابه التى تساعد على فهمها بطريقة أفضل .

المقدمة
تزامن

إذا كانت هناك كما يقال عن (تحولات التاريخ) عصور تتغير فيها ظروف حياة الدول والشعوب تغيراً عميقاً لظهور أبطال جدد على مسرح الأحداث ولتداخل عناصر جديدة ، فالقرن الحادى عشر الميلادى (٥هـ) يعد واحداً من هذه التحولات بالنسبة للعالم الاسلامى . فالأحداث التى شاهدها أثرت على المشرق والمغرب . من بلاد فارس حتى أسبانيا ، والعالم المسيحى الذى كان له نصيب ملحوظ فى هذه الانقلابات تأثر بها أيضاً ولكن فى وقت لاحق .

فى المشرق شاهد القرن العاشر الميلادى (٤هـ) وضعية شاذة . فخلافة العباسيين كانت قائمة ولكنها كانت وهمية . فمنذ عام ٩٤٥ م (٣٣٤ هـ) تكونت فى بغداد حول الخليفة العباسى الكسول سلالة من رؤساء الديوان (قواد الجند) وأصبحت وصية على أمير المؤمنين . غير أن حماة الخلفاء العباسيين ـ الرؤساء الروحانيون للاسلام السنى ـ كانوا فارسيين تابعين للمذهب الشيعى (البويهيون) هذا المذهب الشيعى الذى انتشر فى مصر مع الفاطميين انتشر فى أسيا وكان على وشك أن يصبح المذهب الايرانى للاسلام . هذا هو الوضع الذى قضى الأتراك عليه بظهورهم . هؤلاء الأتراك

رعاة رحل ـ جاءوا من أسيا الوسطى ـ وزحفوا الى ايـران ودخلوا بغـداد فى ١٠٥٥ م (٤٤٧ هـ) وخلصوا الخليفة العباسى من وصاية هؤلاء الشيعة البويهيين وورثوا مكانتهم . ليصبحوا رؤساء الجند الأقوياء ورغم أن الخليفة العباسى لم يستعد استقلاله أو نفوذه السابق إلا أن هناك شئ ما قد تغير .

فالأتراك هم مناصرى المذهب السنى، سيجددون السنة ويحاربون تهديد المذهب الشيعى ويستخدمون القوة الحربية الهائلة المتوافرة لديهم لتحقيق دورهم البطولى للدفاع عنه ويتجلى تأثير السنة فى تنظيمات الدولة بتأسيس المدرسة التى كانت مركزاً للدعوة يلتف فيها الطلاب حول معلم مشهور وتطورت لتصبح مؤسسة رسمية وحلقة دروس يدعو لها الأتراك علماء مخلصين لسياستهم السنية . فهى أداة دعاية ضد الشيعة وبيوت علمية ذات طابع دينى تتنافى فيها الأبحاث الخارجة عن التقاليد الدينية كالدراسات الدنيوية ذات الطابع والمنهج الاغريقى الذى استعاره الخلفاء العباسيين . هذه العلوم ليس لها مكان فى مناهج التعليم الخاصة بهذة المدارس التى انتشرت فى العراق ثم فى سوريا ومنها اتجهت الى مصر والمغرب .

وبينما تمكن الاسلام السنى من محاربة البدع والفكر الشيعى فى الداخل ، فقد أخذ اتباع سياسة التوسع فى الخارج وساعد على ذلك ـ إن صح القول ـ طبيعة الأتراك ، فهو شعب محارب من الدرجة الأولى ـ رحال فيما مضى ـ متعود على الحيـاة على حساب المدنيين المسالمين . والتنظيم الذى أدخله الأتراك فى العالم الاسلامى هو نوع من الاقطاع الحربى وتطوير للطابع النضالى للاسلام . وسوف يعطون للجهاد دفعة كانت قد خبت منذ أكثر من قرنين . ففى ١٠٧١ م (٤٦٤ ـ ٤٦٥ هـ) حاز الأتراك النصر المدوي على البيزنطين فى موقعة ملازكرد حيث أسر الامبراطور البيزنطى ديوجين وسلمهم معظم أسيا الوسطى . فكانت القسطنطينية ترتعد من رؤية المسلمين

معسكرين أمام أسوارها مما اضطر ميشيل السابع الى مناشدة الغرب للمساعدة لانقاذ الامبراطورية . ومن ناحية أخرى فاحتلال الاتراك لسوريا ـ فلسطين جعل من الصعوبة زيارة المسيحيين للأماكن المقدسة التى كانت فيما مضى من الممارسات العادية . فكان الحجاج ضحية للابتزاز وسوء المعاملة ووصلت شكوى هؤلاء الحجاج للبابا ادريان الثانى الذى دعا للتدخل المسيحى الضخم وفى ١٠٩٠ م (٤٨٣ هـ) دخل الصليبيون القدس .

إذاً ففى المشرق أدى تدخل الأتراك الى سلوك الاسلام مسلكاً جديداً بدأت مراحله الأولى قبل نهاية القرن الثانى عشر . فقد قوى المذهب السنى وانطوى على نفسه مقاطعاً مغريات الفكر الوثنى محصناً نفسه ضد البدع والهرطقات متحفزاً ضد العالم المسيحى . فتجدد الصراع بين العالم المسيحى والعالم الاسلامى وكان رد الفعل مباشراً من جانب الغرب فقامت الحروب الصليبية رداً على الجهاد الاسلامى تلك هى مميزات التحولات التاريخية فى المشرق (قارة أسيا) .

أما فى الطرف الآخر (الغربى) للبحر الأبيض المتوسط الاسلامى يشهد القرن الحادى عشر (٥ هـ) أيضاً ظهور أحداث ذات أهمية كبرى . ولن تخلو من تشابه مع تلك التى ذكرناها بالمشرق .

ففى ١٠٣٠ م (٤٢١ هـ) اختفى آخر الخلفاء الأمويين فى الأندلس وعلى كل حال فى السنوات الأخيرة للقرن العاشر الميلادى (٤ هـ) لم تكن الخلافة إلا وهماً ، خيال بدلاً من واقع ، فقد كان أواخر الأمويين فى قرطبة لعبة بين أيدى رؤساء الديوان مثل العباسيين فى بغداد وذلك ابتداء من وصاية ابن أبى عامر وأبناءه الأثنين من بعده . ومع ذلك فالعامريون كانوا يبقون على الحظوة والقوة الظاهرية حول من كان يحمل لقب أمير المؤمنين الى أن انهار كل شئ على أيديهم . وفتح سقوط هذه الخلافة بالأندلس عهداً من عدم

الوفاق ليستمر حتى ١٠٨٦ م (٤٧٩ هـ) هذا العصر يتميز بخواص جديدة فى جميع المجالات :

ـ فالوحدة الصعبة التى حققها عبد الرحمن الثالث فى القرن العاشر الميلادى (٤ هـ) تحولت الى تجزؤ فى السلطة السياسية .

ـ حلت محل السلطة الدينيوية للخلفاء والمكانة الدينية المعترف بها لهم سلطات محدودة لملوك الطوائف ونوع من التوازن بينهم سيزول فى عهد خلفائهم .

ـ أصبحت ثقافة وفنون قصور ملوك الطوائف أكثر علمانية فازدهر الشعر فى أشبيلية وغرناطة وبلنسية إذ تناول حياة المتعة وأوهامها ، والحدائق والحب الدنيوى ولا تجد فيه أى احساس دينى ولا روح بطولية . ويبدو أن مسلمى أسبانيا فقدوا قوة مقاومتهم وحيويتهم .

فى هذا العهد ـ عهد ملوك الطوائف ـ بدأ ينمو بتصميم متواصل إسترجاع السلطة لايدى المسيحيين اللذين استفادوا من هذا الوضع المتدهور فمنذ عهد فرديناند الأول ملك ليون استردت المسيحية كل من قرطبة وطليطلة وأشبيلية وبلنسية ووجب على حكامها دفع أتاوة (جزية) للكافر .

وهكذا نلاحظ أننا أمام وضع معاكس للوضع المتزامن له فى أسيا ، فالنصرانية هنا فى وضع هجومى ورد الفعل سيكون من الاسلام الافريقى . ومثلما دعا الامبراطور البيزنطى أمراء الغرب المسيحيين لمقاومة التهديد الاسلامى مهدداً الغرب الاوربى بفقدان عرش الامبراطورية البيزنطية ، كذلك فى أسبانيا أرسل سلطان أشبيلية صرخة استغاثة مماثلة للمرابطين وحصل على مساعدتهم وكان المقابل ضياع إمارته .

هذه الحرب المقدسة المعاكسة (العكسية) قام بها المرابطون بقيادة يوسف

بن تاشفين الذى انتصر فى الزلاقة ١٠٨٦ م (٤٧٩ هـ) وكما فى المشرق فسوف تستمر الحرب التى شنت فى نهاية القرن الحادى عشر لمدة ٢٠٠ عام (وستزيد فى الأندلس ٥٠ عاما عنها فى الأرض المقدسة) ، ومع ذلك فالصراع بين الديانتين لازم ، وقوى التطور الداخلى للاسلام المغربى .

فالمرابطون ، وهم أصلاً بدو رحالة ، سنيون شديدو التدين وقد أصبحوا الآن أبطال العقيدة المهددة ، يتراءوا لنا - ولكن بدرجة أقل - كظل للأتراك . بفضلهم استطاعت الديانة الاسلامية تقوية عقيدتها والدفاع عن نفسها والوقوف أمام الأعداء فى الخارج والداخل ، لقد قاوموا التسيب فى العادات واغراءات الثقافة الدنيوية فى شبه الجزيرة الأيبيرية التى جاءوا لانقاذها . وبعد ٦٠ عاماً تقريباً استطاعت الأندلس أن تلين من صلابتهم وتهز قواهم النصف همجية فاضطروا لترك الساحة لخلفائهم الموحدين ليأتى مستقبلاً المرينيون ليحلوا بدورهم محل السابقين . الجهاد المقدس الذى نادى المرابطون به بغية فى النصر سيحدد من الآن فصاعداً الدور التاريخى للمغرب وستدوم هذه الحرب حتى استعادة المسيحيون شبه الجزيرة الأيبيرية بأكملها وما يقابلها من السواحل المغربية . لأن غزوات المسيحيين لسواحل بلاد البربر (شمال أفريقيا) وعمليات القراصنة أطالت تلك الحرب حتى فجر القرن التاسع عشر الميلادى .

إن تدخل المرابطين فى أسبانيا فى نهاية القرن الحادى عشر هو الذى وضع المغرب الاسلامى فى مهب هذه الأقدار التاريخية الجديدة . هناك أحداث لاتقل أهمية كانت تحدث فى نقطة أخرى من العالم الاسلامى فى نفس الوقت المحدد لدخول الأتراك بغداد ... وخروج المرابطين من الصحراء والاتجاه نحو الشمال.. هذه الأحداث هى موضوع دراستنا فى هذا الكتاب .

- انفصال بلاد البربر الشرقى (الصنهاجيون) عن الخلافة الفاطمية

بالقاهرة .

ـ غزو العرب الرحل لبلاد المغرب نتيجة لهذا الانفصال .

ـ احتياج هؤلاء العرب الرحل للبلاد التى غزوها .

لقد تأثرت وعلى الدوام حياة إفريقيا الشمالية بهذه الكارثة . والقرن الحادى عشر دمغ هذه البلاد ـ أكثر من أى مكان آخر ـ بانقطاع مع الماضى «وتحول للتاريخ» وذلك فى جميع المجالات السياسية والاقتصادية والفكرية والمسائل الدينية التى تظهر بدون شك فى المرتبة الاولى فى أسيا كما فى أسبانيا لا تخطر لأول وهلة على الأذهان ومع ذلك فعودة المذهب السنى لافريقية ـ المعادى للشيعيين الفاطميين ـ كان سبب الانفصال بين القيروان والقاهرة . ومن الآن فصاعداً يسود المذهب السنى كل بلاد البربر التى دفعت غاليا ثمن هذا التحرر . وبالرغم من المحن فقد قوى الإسلام أوضاعه ليصبح نضالياً وبذلك سيثير ردود الفعل المسيحية . وبعد الانهيار الناتج عن الغزو الهلالى ، أعاد امراء صنهاجة تنظيم سياستهم . فحولوا نشاطهم من الداخل نحو البحر أى نحو البلاد المسيحية للحوض الغربى للبحر المتوسط كنوع من التعويض عن الكوارث التى لحقت بهم فى الداخل ، وقبل كل ذلك استجابة لطلب مسلمى صقلية للحفاظ على كيانهم من النورمان المسيحيين . فالنورمان الذين حكموا جنوب ايطاليا زحفوا على الجزيرة وتلاحقت الأحداث ؛ وأستولوا على مسينا ١٠٦٠ م (٤٥٢ هـ) وبالرمو ١٠٧١ م (٤٦٤ هـ) وسرقسطة ١٠٨٥ م (٤٧٨ هـ) . وانتهى ضم الجزيرة بأكملها فى عام ١٠٩١ م (٤٨٤ هـ) وفى العام السابق لقيت مالطة نفس المصير وبذلك فقد الاسلام السيطرة على البحر ، تلك السيطرة التى امتلكها لأكثر من قرنين وبدأ يشعر بالخطر فى موطنه . بدأ المسيحيون فى مهاجمة سواحل بلاد البربر الشرقية لتصبح بذلك خلاف ما كانت عليه منذ ٣٠٠ عام أرض

الحرب المقدسة . وعلى كل حال فهذه الغزوات كانت حملات عقاب أكثر منها عمليات غزو . اتحدت قوات جنوه وبيزا لتدمير قواعد القرصنة الاسلامية التى كانت تتزايد بالرغم من ذلك عاماً بعد عام ، فالقراصنة يبحرون من المهدية وبجاية وجربة لسلب الشاطئ المسيحى المقابل والاستيلاء على البواخر التجارية .

هذا النشاط البحرى للبربر والذى ازداد فى القرن الحادى عشر ، ليس إلا امتداداً لهذه الخصومة بين الاسلام والنصرانية .

لذلك وقعت أحداث ، فى نفس القرن ، وبالتحديد خلال الخمسين عاماً الأخيرة منه ، تعتبر مستقلة عن بعضها ولكنها غيرت بعمق الحياة الداخلية لثلاث أقاليم من العالم الاسلامى تبعد عن بعضها البعض لأكثر من ألف كيلو متر ويتمركزوا الى حد ما على شواطئ البحر المتوسط . هذه الأحداث غيرت الحياة الداخلية للدول والشعوب وأيضا علاقاتهم الخارجية بالعالم اللا اسلامى المحيط بهم . ونرى انه من الضرورى التركيز على أن هذه الأحداث كما يبدو لا اتصال مباشر بينها أو حدثت نتيجة لسبب مشترك حدد إنطلاقتها فى نفس الوقت . لذلك فاستقلالية هذه الاحداث تلفت الأنظار لتزامنها وفى نفس الوقت لتشابهها . ومن المستطاع تحديد هذا التشابه والاشارة الى تشابهات أخرى .

وسبب هذه التطورات الثلاث المتوازية ليس افلاساً أو بتراً لخليفة واحد بل لثلاثة خلفاء كانوا يقتسمون آنذاك العالم الاسلامى وهم : ـ الخليفة العباسى فى بغداد والأموى فى قرطبة والفاطمى فى القاهرة . إذ أدى تنافسهم الى تأكيد ضعفاً عضالاً بالعالم الاسلامى . فوصاية الأتراك للعباسيين ، وتدهور الأمويين ، وانفصال الأتباع البربر عن الفاطميين ، ما هو إلا دلالات خطيرة لظهور أزمة نتج عنها وضع جديد . وقد أعفى هذا الوضع الجديد ذكرى الوحدة السياسية السابقة ، ولكنه بعث فى نفس الوقت العودة الى الوحدة

الروحية النسبية ، إذ نرى فى هذه المراكز الثلاث التى يبدو عليها التطور المستقل إنتصار المذهب السنى واستقرار إمتثالية صارمة توضح الاستعارة المستقبلية للمدرسة من المشرق الى المغرب انه نوع من الاصلاح الاسلامى العكسى الذى يظهر كرد فعل للبدع (اللاسنية ـ الحاد) والثقافة الوثنية .

إن تطور البلدان الثلاث فى نفس الاتجاه مصادفة ليس من السهل شرحها فالمجتمعات التى تثيرها أو المتحدة مصادفة فى إثارتها ، هذه المجتمعات لها نفس اسلوب الحياة .

هـذه المجتمعات فى أسيا كما فى أفريقيا هى عشائر من الرعاة الرحل والمحاربين وينتمون لثلاث شعوب من أجناس مختلفة : أتراك ـ عرب ـ بربر . هذه هى العوامل التى اختارها القدر التاريخى ، وفى وقت يبدو مصادفة ، فالقرن الحادى عشر هو ميعادهم ، والساعة التاريخية للبـدو الرحل . إنهم قوة فى خدمة عقيدة وتدخلت هذه القوة فى عالم أقل نضالية منهم . فمهمة الأتراك والمرابطين هى إصلاح السنة أما الهلاليون فلن يكونوا إلا أداة عمياء للبدع مما جعل العرب الأصليين والعالم الاسلامى يأسف لتدخلهم لأنهم هدموا ولم يصلحوا شيئاً . ولكن الوضع ليس كذلك بالنسبة للأتراك والبربر الصحراويين ، فدورهم فى ازدهار الحضارة وعظمتهم الحربية خصصت لهم مكانة مشرفة فى تاريخ البلاد الاسلامية .

كما لا يمكن اغفال أسمهم فى تاريخ الشعوب المسيحية . فقد رأينا كيف أعطو وثبة عظيمة للجهاد المقدس فى أسيا وأسبانيا ، وكيف أولوه حرارة عقيدتهم التى أوصلتهم للاستشهاد ، ورأينا أيضا حماسهم الحربى ورغبتهم فى الغزوات المثمرة . حتى فى بلاد البربر الشرقية (أفريقية) حيث بقى العرب البدو بعيدين عن أى اهتمامات دينية فقد تلى تدخلهم تصاعد القتال مع مسيحىّ ما وراء البحار . بذلك كانت المناطق الثلاث للعالم الاسلامى التى

ظهروا فيها ثلاث قواعد هجومية من الاسلام ضد العالم المسيحى .

وفى نفس الوقت أصبحت هذه المناطق الثلاث فى المستقبل القريب ثلاث محاور للحوار السلمى والتبادل المفيد . ومن ثم فأهمية هذه الفترة تعدت بكثير حدود المجال الاسلامى لأن الحرب المقدسة حملت الخصوم على التعارف بعد أن كانوا يجهلون بعضهم البعض . وسوف يستفيد كل منهم ـ رغم أنفه ـ وقبل كل شئ من طرق حرب الآخر ومن فاعلية النماذج الحربية المؤثرة . بالاضافة الى نتائج من نوع آخر إذ سينجذب المسيحيون للحضارة الاسلامية الخلابة التى كانوا من قبل يكنون لها الاحتقار ويبدو أن الاقتباس كان عبر المحاور الثلاث فى الأرض المقدسة (بالشام) وصقلية والأندلس حيث كانت الظروف التاريخية متشابهة نتيجة للتدهور المؤقت للمدافعين عن الاسلام .

لقد شعر هؤلاء المسيحيون بعد احتلالهم لبلاد كانت بالأمس للمسلمين بالثقافة الاسلامية خصوصاً وقد استمر بعض المسلمين فى الاقامة بها تحت نيرهم ، ومرة أخرى نشاهد فى ثلاث محاور دفعة واحدة انتقام المهزوم فارضا على المنتصر ذى الطباع الخشنة رفاهة عاداته وسحر فنه « عندما طاف بوهموند " BOEMOND " فرنسا عند عودته من الشرق وزار المعابد واحداً تلو الآخر ليروى قصته الخيالية من فوق درجات المذبح ، ترك للكنائس زخائر وعباءات من الحرير للذكرى (١) . هذه العباءات كانت غنيمة حرب وكانت مصنوعة من الأنسجة الشرقية الفاخرة جلبها معه هو وزملاءه ليدثروا بها أجساد القديسين ولتبقى ضمن كنوز الكاتدرائيات . وكانت مزوقة (مزركشة) بأشكال حيوانات قلد بها نحاتونا أعمدة مبانينا فى ذاك الوقت . وتراودنا الرغبة أن نرى مع

(1) E. MALE, L'ART RELIGIEUX DU XII[e] SIECLE. EN FRANCE, P. 343.

EMILE MALE محاكاة هذه الأقمشة فى تكوين زجاج نوافذنا الملونة .
على كل حال فهذا الأثر الذى كان يمارسه المشرق عن بُعْدٍ قام بتقوية حركة الاتصالات المباشرة بين العالم المسيحى والعالم الاسلامى . ففى صقلية كما فى أسبانيا أدخل الغزو مناطق من أرض المسلمين فى المجال المسيحى . وتلقت النصرانية المنتصرة ميراثاً حضاريا نقلته للبلاد الأوربية وأعطت لصورة المسلمين وتراثهم الدينى المهزوم رنيناً ذا حجم غير متوقع . ففى صقلية نعرف ما كان عليه البلاط العجيب للملوك النورمانديين والشغف الذى أظهرة هؤلاء الشماليون بالطراز الاسلامى ونعرف أيضاً من وصف المسافرين ، ومما لا يزال باقى فى بلرم فى عهد روجار الثانى ROGER II ووليم الثانى WIL- LIAM II إن زخرفة القصور والكنائس كانت الى حد كبير تقليداً للزخارف التى كانت تعمل فى الماضى فى قصور امراء المسلمين ومساجدهم ؛ هذا الفن المسيحى (النورماندى) هو عبارة عن مرحلة متطورة عن الفن الاسلامى . فمادة زخرفته مثل المربع الموضوع داخل زاوية وكل جانب منه به فص مستدير ظهر فى القرن التاسع فى مساكن العباسيين ببغداد أخذتها مصر فى القرن الحادى عشر وازدهرت فى القرن الثانى عشر فى السقوف الصقلية لكنيسة القصر وأصبحت من آنذاك جزءاً من تراث المزخرفين المسيحيين . ستصل هذه المادة الزخرفية الى L'ILE DE FRANCE ، ونورماندى NORMAN- DIE وسيستعملها فننا القوطى فى فرجة (مساحة) الكنانات فى مداخل المبانى وفى الفسيفساء المنير (الزجاج الملون) للوحاتنا الزجاجية الملونة وقد أظهر التحليل أن هناك أكثر من شكل اسلامى بل أكثر من تقنية (فنية) قد دخلت عالمنا الغربى من صقلية وإيطاليا الجنوبية .

وماذا يقال عن المنفذ الثالث الذى ينفتح من أسبانيا فى أحضان البلاد المسيحية ؟ هذا السؤال أتاح الفرصة لدراسات حديثة متعددة ولا تزال هناك

أكثر من نقطة يشوبها الغموض . فبعض الدلالات تسمح لنا بالتأكد ان التيارات بدأت فى القرن الحادى عشر نتيجة الظروف التاريخية التى أنشأها استرداد المسيحية للسلطة ، كما يبدو مؤكدا أيضا أن الفن الذى تأسس فى القرن الحادى عشر لخلفاء قرطبة هو الذى ألهم المعماريين فى أوفيرنيا L'AUVERGNE (جنوب فرنسا) فى القرن الثانى عشر والازدهار الفكرى لقرطبة ، رغم كونه كان بدون شك مرموقاً فى عصرها الذهبى ولكنه لم يتماس مباشرة ، والملاحظ أن فرنسا لم تشعر به إلا بعد قرن .

عوضاً عن قرطبة التى لم يفتتحها فرناندو الثالث ، إلا سنة ١٢٣٦ م (٦٣٤ هـ) استطاعت طليطلة ـ التى ازدهر فيها نفس الفن والتى سقطت سنة ١٠٨٣ م (٤٧٦ هـ) تقديم نماذج لمشيدى الكنائس وتحتفظ هذه المدينة بمسجد معاصر للخلافة أصبح فيما بعد «كنيسة يسوع النور» فقد ضم حكام المدينة الجدد مسجد الدين المنافس لعبادتهم . والسمة الملحوظة لهذا المسجد الذى تحول الى كنيسة هو سقف صحنه المكون من تسع عقود مضلعة والذى يوحد القبة مع تشابك (تداخل) الطاقات الكبيرة ليعطى شكل افريز من أسفل .

هذا المسجد هو على الأرجح بناية فارسية . ويحتفظ « المسجد الكبير » بقرطبة بنفس الحلية التى كانت مألوفة للمعماريين المسلمين والمستعربين فى أسبانيا القرن العاشر . والفترة التى تشغلنا كانت شاهداً على الانتشار المذهل لهذه الحلية وقد ذكر ايلى لامبرت ELIE LAMBERT ان هذا الانتشار لم يكن فى أسبانيا المسيحية فحسب ، بل وفى جنوب وغرب فرنسا ، وفى عدة كنائس لبلاد الباسك BASQUE ولونجدوك LANGUDOC واكيتين L'AQUITAINE وحتى فى شمال نهر اللوار . وهى توجد أيضا فى «المسجد الكبير» الذى شيده أحد المرابطين بتلمسان فى ١١٣٦ م (٥٣١هـ)

ازدهر هذا الابداع الشرقى فى قرطبة الخلفاء وفى نفس الوقت فى بلاد البربر المغربى (الأقصى) وغربنا المسيحى . لم يكن الفن المسيحى والفن الاسلامى أكثر قربا من ذلك الوقت . ولم تكن علاقات المجتمعين المتنافسين وثيقة ونافعة للطرفين إلا فى زمن السيد الكمبيادور (رودريجو دياث دى بيبار) هذا الفارس الأسبانى الذى حمل خدماته من ملك قشتالة « المسيحى » الى سلطان سرقسطة (المسلم) وفى آواخر أيامه فى قصره الخاص ببلنسية ، كان الشعراء العرب والأسبان على السواء يتغنون كل بلغته بالحب العذرى ويكرمون الأعمال البطولية للسيد الكمبيادور " CID CAMPEADOR " فى حضرته هو وزوجته خمينا CHIMENE .

الجزء الاول

البربر تحت وصاية المشرق

الفصل الاول

إستشراق البربر

أولاً : ما يمثله المغرب بالنسبة للمشرق وما ينتظر منه ؟!

ثانياً : ما أخذه المغرب من المشرق

أ ـ إخضاع البربر

ب ـ الديانة الاسلامية

جـ ـ التعريب

ثالثاً : رد فعل الخوارج

الفصل الأول

إستشراق البربر

عندما خضع شمال إفريقيا للغزو الهلالى الذى سنصف هنا نتائجه العديدة كانت هذه المنطقة ولمدة أربعة قرون جزءً من العالم الاسلامى وكانت تعترف بسلطة خلفاء المشرق . كيف حدث استبدال الطاعة البيزنطية بالطاعة العربية واعتناق شعب معظمه مسيحى للإسلام ؟ ما هى العلاقات السياسية والثقافية التى ربطت البربر بحكامهم وبالمسلمين خلال هذه القرون الأربع على التوالى ؟ بوضع أنفسنا أولا موضع الطرفين خلال الخمس وعشرون عاماً التى تلت الغزو وجب علينا ذكر وإيضاح الآتى :

أولاً : ـ ما يمثله المغرب بالنسبة للمشرق وما ينتظر منه .

ثانياً : ـ ما يمثله المشرق بالنسبة للمغرب وما أخذه عنه .

أولاً : ما يمثله المغرب بالنسبة للمشرق

إذ بدا لمصير شمال إفريقيا أن تظهر أرضا تابعة ، وأن تقبل رؤساء دنيويين وروحانيين مقبلون من الخارج ، فالقدر الفريد لم يجعل لهذه القوى الخارجية إرساء أعمق السلطات وأرسخها فى البلاد إلا على كره منها وتحت ضغط الظروف . فروما تخلصت من قرطاج ولم تأمل فى تكوين مجال إفريقى واسع . كما لم تهتم فرنسا باستغلال النصر بعد الاستيلاء على الجزائر العاصمة واعتنقت بدون حماس فكرة احتلال محدود . وكذلك بدت للخليفه عمر فكرة

ضم البربر للإسلام على أنها مغامرة مروعة . وقد رفض عمر رفضا قاطعا طلب عمرو بن العاص حاكم مصر الذى استولى على طرابلس السماح له بالاندفاع نحو الغرب . فقد قال عمر لعمرو بن العاص : « لا أغزيها أحد من المسلمين ما حملت عينى الماء » (١) ففتح إفريقية يبدو لأمير المؤمنين مهمة خطرة أكثر منها نافعة .

فأمير المؤمنين ـ المعترف به على أنه مؤسس الإمبراطورية العربية وكان بدون منازع واحد من أصحاب توسعها ومنظم غزواتها ـ يتشكك من هذه المنطقة لأن بُعْدها قد يفقده السيطرة على الجيوش والقادة . والأحاديث المغالى فيها نسبت له القول التالى : إن إفريقية « باب من أبواب جهنم » (٢) .

هذا يجعلنا نواجه هذا الحكم المؤثر بالتأكيد المنسوب للرسول نفسه على أن إحدى أبواب الجنة موجودة بالتحديد فى إفريقية (٣) . ربما جاء هذا الحديث ـ الذى لا يقل زورا عن الحديث الأول ـ ليحول المصير السيئ المرتبط ببلاد البربر ويحث المؤمنين للاستشهاد فيها . لقد ظهر المغرب بالنسبة للمشرق على أنه الأرض المباركة للجهاد المقدس . وظهر ذلك فى كثير من الأحاديث ومن المرجح

---

(١) أنظر أبو العرب : طبقات علماء إفريقية وتونس تحقيق على الشابى ونعيم حسن اليافى ـ تونس ١٩٦٨ م ص ٦٧ . النويرى نهاية الأرب فى فنون الأدب ، القسم الخاص بإفريقية والأندلس وصقليه ، تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد ، الدار البيضاء ١٩٨٤ ، ص ١٧٦ .

(٢) أبو العرب : طبقات علماء إفريقية وتونس ص ٧٢ .

(٣) أبو العرب : طبقات علماء إفريقية وتونس ص ٢ وما بعدها .. G. MARCAIS NOTE SUR LES RIBATS EN BERBERIE DANS les Mélanges RENÉ BASSET, PARIS , 1925 , II PP. 395 ss .

أنها لا ترجع الى فجر الإسلام ولم تختلق لتشجيع الدفعة الأولى نحو المغرب .

ولكننا نعتقد أنها تتدرج زمنيا وتدل على ما يسمى بالمتغيرات المتلاحقة. فهناك حديث يعطينا صدى الغزوات الأولى فى بلاد البربر . فمثلا : أرسل النبى جنودا فى حملة وعند عودتهم أخبروه عن قسوة البرد التى قاسوا منها فرد عليهم قائلا : « ولكن إفريقية أشد بردا وأعظم أجرا » [٤] وحديث آخر لاحق لهذا الحديث ويختص بالأفضال التى يحصل عليها مسلموا البلاد لمقاومتهم هجمات المسيحيين وهناك حديث يعلن عن سمعه مدينة المنستير أولى قلاع الشاطئ . وأخيرا هناك أحاديث أخرى تشير الى معاناة الحرب القاسية ضد البربر الملحدين ولقد قال الرسول «ينقطع الجهاد عن البلدان كلها فلا يبقى الا بموضع فى المغرب يقال له إفريقية» [٥] هذه الأحاديث البناءة ، رغم أى احتمال ، تربط تاريخ التوسع الاسلامى فى بلاد البربر بشخصية رسول الله الجليلة . ومع ذلك إذا كان غير معقول أن النبى صلى الله عليه وسلم عبر عن رأيه فى حرب بدأت بعد وفاته بـ ١٥ عاما فذكراه مرتبطة بالغزو بطريقة غير مباشرة وذلك للدور الذى لعبه أتباعه فيها . لقد مات الخليفة عُمر فى ٦٤٤ (٢٤ هـ) وقرر خليفته عثمان بناء على المعلومات المشجعة التى وصلته من طرابلس إرسال حملة ، ولكنه لم يقرر ذلك إلا بعد أخذ رأى مستشاريه [٦] . ففى مشروع يتعرض لمصير الإسلام فالخليفة الحذر فى

(٤) أبو العرب ص ٤٩ ، ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ١ : ٧ ، البكرى : المغرب فى بلاد إفريقية والمغرب ص ٢٢ .

(٥) أبو العرب ص ٥٠-٥١ ، ابن ناجى : معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان (مصر ١٩٦٨ م) ١ :٥ ، البكرى ص ٢٢ .

(٦) أبو العرب ص ٦٦-٧٦ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٣ : ٤٥ .

حاجة الى استفتاء من صحابة رسول الله (ﷺ).

وستتكون فرق الحملة من المهاجرين الأصليين الذين اشتركوا فى الهجرة الى المدينة . فكل منهم أحضر مجموعة محاربين من قبيلته .

وسلالتهم التى استقرت فى البلاد المفتوحة إفتخرت بذلك واعتبرت انتماءاتهم القبلية ألقاب شرف .

ستجد بدون شك عند الطلائع العسكرية الأولى الإخلاص فى انتصار الايمان إن لم يكن التعطش للاستشهاد . فشخصية عقبة بن نافع ـ المحاطة بهالة من الأساطير ـ ستبقى على الدوام أهم ممثل للإسلام النضالى ويليه زهير بن قيس الذى يتصف بحماسة الحربى وتقشفه فقد رفض الإقامة فى بلاد البربر بعد أن أعاد الوضع المتهدم فيها قائلا : « إنى ما قدمت إلا للجهاد ! وأخاف أن تميل بى الى الدنيا فأهلك » . (٧) ولكن هذه الصفات نادرة عند العرب المنتصرين . فقراءة التاريخ تجعلنا نحس أن المتع الدنيوية تسيطر على الكثيرين أكثر من الرغبة فى الاستشهاد والبعث بعد الموت « وأسيافهم على أعناقهم » (٨) فالمغرب يبدو للمشرقيين أرض غنيمة أكثر منه أرض جهاد .

وعن الموارد التى حصلوا عليها والتى عددها الاخباريون بمحاباة ، ومن البديهى أن نبدى تحفظا أو بالأحرى إعتبار هذه الأرقام مبالغ فيها

---

(٧) ابن عذارى : البيان ٣٢:١ ، التجانى : رحلته ، تحقيق ولهم مارسى (تونس ١٩٨١) ص ٥٧ ، ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، تحقيق عبد المنعم عامر (القاهرة ١٩٦١ م) ص ٢٧٢ـ ٢٧٣ .

(٨) أبو العرب ص ٦٠ .

نتيجة للخيال المشرقى وسراب الماضى والرغبة فى تعظيم المزايا التي أحرزها الاسلام .

بحساب المبالغات نستطيع التسليم بأن بلاد البربر كانت ـ بالنسبة للعرب المعاصرين لمحمد (ﷺ) وكذلك من ثلاث قرون سابقة بالنسبة للوندال Vandales وأربعة قرون لاحقة بالنسبة للرحل الهلاليين ـ كانت بلاد البربر أرض الميعاد . أرض غنية مثل التى غزوها من قبل إن لم تكن أكثر ، فهى بلاد الحياة السهلة . فرخاوة الحكام الكفار والوفرة كانت تحث على الاستهجان الظاهر والجشع الدفين للمنتصرين . فقد ظهرت إبنة البطريق جرجير من فوق برج محاطة بأربعين خادمة مُحَلاة بالمجوهرات وجرجير نفسه قد شهد الحرب خلف قُواته ممتطيا ركوبته الضخمة ذات اللون الرمادى وبجواره فتاتان تحمل كل منهما مظلة من ريش النعام تحميانه من أشعة الشمس [٩] . ومن البديهى لن تكون هذه المظلات من نسج الخيال .

فوفرة الأشجار هى التى لفتت نظر المهاجرين القادمين من مصر وطرابلس وذكرى هذه الخصوبة ترتبط فى التاريخ مع القصة الشبه اسطورية للكاهنة الملكة البربرية التى أمرت بتدمير البلاد . لقد قيل أن « إفريقية كانت ظلا واحدا من طرابلس الي طنجة » [١٠] . لولا الدلائل التى سوف نتكلم عنها والاكتشافات الحديثة لأعمال الرى والمزارع فى مناطق الآن صحراوية ، لراودتنا الرغبة فى وضع هذا العصر الذهبى موضع الأساطير . وكانت لدي الغزاة نفس هذه الفكرة وهى أن مزارع الزيتون التى كانت قديما تموّن الزيوت لروما والقسطنطينية هى التى أثرت شمال إفريقيا . وهناك قصة توضح ذلك :

---

(٩) ابن عذارى: البيان ١ : ١٠-١١ .

(١٠) ابن عذارى : البيان ١ : ٣٦ ، النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب . ص ١٩٨ .

بعد انتصار عبد الله بن سعد على البطريق جرجير ، « كانت توضع بين يديه أكوام الذهب والفضة » فسأل الإفريقيين عن مصدرها ، فقام واحد منهم ليبحث عن شئ ولما وجد زيتونة جاء بها الى عبد الله وقال له : « من هذا أصبنا الأموال » فرد عليه عبد الله : «وكيف ذلك ؟» فواصل الإفريقي : « لأن أهل البحر والجزر ليس لهم زيت ، فكانوا يمتارونه من هنا » (١١)

بالرغم من التدهور الاقتصادى الذى لم يوقفه الغزو البيزنطى كانت بلاد البربر تقدم للمسلمين موارد تثير جميع المطامع . ففى القصص الخاصة بمرحلة الفتوحات الأولى لم يهتم الاخباريون إلا بالمنافع المادية المذهلة التى يمكن أن نستخلصها من هذه الروايات . وبعد فتح المغرب سوف تنهب أسبانيا إذ ستقدم ثروة ملوك القوط Wisigolths سلسلة من الأساطير موضوعها الرئيسى هو المائدة المشهورة ذات الأحجار الكريمة والتى قيل عنها أنها من تراث سليمان (١٢) . ويأخذ جزء من هذه الثروات طريقه الى المشرق ويصل الى المدينة ثم دمشق وبغداد . وعلى كل فمن الثابت أنه خلال الغزو قام أكثر من جندى بنهب الأموال بعيدا عن التقسيم .

إذا كانت خزانة الدولة (بيت المال) تقدم لها الأموال والأشياء الثمينة ، فعمليات النهب فى الريف تقدم ثروات لا تقل قيمة .

أولا : الخيول ذات الحيوية التى أذهلت المشارقة . يقول النويرى أن عقبة بن نافع بعد أن هزم سكان باغاية : « أخذ لهم خيلا لم ير المسلمون فى

---

(١١) ابن عذارى : البيان ١ : ١٢ ، التجانى : الرحلة ص ٦٥-٦٦ ، ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٤٨ .

(١٢) Voir Dozy , RECHERCHES SUR L'histoire politique et littéraire de l'Espagne , 3 rd , I , 57 .

مغازيهم أصلب منها » (١٣)

ثانيا : الجمال ذات التحمل القوى وحسب قول الجغرافى ابن حوقل : إن البربر يمتلكونها بأعداد أكبر بكثير من عرب الجزيرة العربية . (١٤)

وأخيرا وخاصة الرجال ، فشمال إفريقيا منبع لا ينضب للعبيد . هنا أيضا يبالغ المؤرخون فى الأرقام ولكن يبدو أنه كلما كانت المادة خصبة فهى تسمح بتقديرات أوسع . فالأسرى تحسب بالقطيع التى تزيد عن عشرات الآلاف . وحسب قول " Thévphone " عقبة بن نافع جلب منها ٨٠,٠٠٠ (١٥) حسان بن النعمان ٣٥,٠٠٠ (١٦) وموسى بن نصير ١٠٠,٠٠٠ (١٧) فالرجال تجد المشترين فى أسواق المشرق للحصول على الأيدى العاملة للزراعة وبعض الوحدات العسكرية .

أما بالنسبة للنساء فلهن تقدير خاص . لقد وصل عقبة حتى مدينة سوس وبعد ملبحة للبربر استولى على بعض نسائهم ذات الجمال الذى لا يوصف ويقول النويرى إن واحدة من فتياتهم بيعت فى المشرق بألف قطعة ذهبية (١٨) ومن المؤكد أن كثير من الأرقاء ظهروا فى حريم الأمراء فى دمشق وكذلك فى بغداد .

(١٣) النويري : نهاية الأرب . ص ١٩١ .

(١٤) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٩٥ .

(١٥) Cité par Diehl . L'Afique byzautine . Paris , 1896 p . 572

(١٦) النويري : نهاية الأرب فى فنون الأدب ص ١٩٩ .

(١٧) ابن عذارى : البيان ١ : ٤٠ .

(١٨) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ص ١٩٢ ، القيروانى (ابن أبى دينار) : المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس (تونس ١٩٦٧ م) ص ٣١ .

ويبدو أنهن كن متفوقات ، ونقرأ فى البيان عن خلفاء المشرق الذين كانوا يطلبون الغريب من أصل مغربى ويحصلون عن طريق ولاة إفريقية على البربريات السنيات . (١٩) كثيرات منهن أنجبن خلفاء . فعبد الرحمن الداخل الذى رفع عظمة الأمويين فى أسبانيا كانت أمه بربرية من قبيلة نفزة وكانت تدعى رداح أو راح (٢٠) فعندما عبر هاريا منطقة سبتة نزل ضيفا على أخواله . أما بالنسبة للعباسين يذكرنا ابن حوقل بالذين ينتمون لأمهات إفريقيات من أصل بربرى أو مولدين من بربر وبيزنطيين فالخليفة المنصور ثانى الخلفاء كان ابن سلامة البربرية والخليفة الواثق من إمرأة تدعى قراطيس ، والخليفة القاهر من عشيقة (خليلة) المعتضد ربما تدعى قتول (٢١) .

الى متى دام سلب الأسرى الذى كانت نتائجه التاريخية ذات أهمية من جميع الوجوه ؟ فى أواخر القرن التاسع فى عهد الخليفة المعتضد ، رغم الولاة المسلمين فى إفريقية كانوا لا يزالون يحصلون على العبيد من أسواق الجنوب أو من المناطق المتمردة لامداد الحريم العباسى ، نعتقد أن الارسال الضخم قد انتهى من زمن بعيد . وهناك قصة طريفة تؤكد لنا أنه لم يكن من المستطاع القيام بهذا العمل من نصف القرن الثامن أى بعد مائة عام من وصول المشارقة

---

(١٩) ابن عذارى : البيان ١ : ٥٢ ، أبو العرب : طبقات العلماء (الترجمة الفرنسية) ص ٧٥ .

(٢٠) ابن عذارى : البيان ١ : ٤٧ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ٤ : ٣٦٢ ، R.Dozy , Histoire des musulmans d'Espagne , 2 nd éd., revue par E. Lévi Provençal , Leyde, 1932 , I, 189 ss.

(٢١) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٩٥ ، أبو العرب : طبقات العلماء (الترجمة الفرنسية) ص ٧٥ .

الأوائل . عند تنصيب الخليفة العباسى المنصور طلب من عبد الرحمن بن حبيب والى إفريقية إرسال هداياه فوافق وقام حسب التقاليد بارسال هدايا الى الخليفه ولكن على مضض . هذه الهدايا كانت تشمل كلاب وصقور ولم تشمل أى عبيد . أرفق الوالى مع الهدايا رسالة يشرح فيها عـدم إرسـال عبيد لأن " إفريقية اليوم إسلامية كلها وقد انقطع السبى عنها " .(٢٢) هذا اعتذار من تابع يتهرب ، ولكنه عذر مقبول من الصعب تجاهله . فقد مضى الوقت الذى كان يستغل فيه الانسان البربرى لصالح المشرق حين كان البربر ملحدين . ومضى أيضا عهد عمرو الذى تص فى معاهدة وافق عليها البربر (لواتـه) أن فى استطاعتهم بيع أولادهم وبناتهم لدفع الجزية (الضرائب) التى أرهقتهم بها .(٢٣)

اعتناق الاسلام رفع البربر الى مكانة الرجـال الاحرار ، وأنقذهم من استبداد المنتصرين . وسوف نرى الأزمة الخطيرة التي ستترتب بصفة خاصة على ذلك .

هذا التطور الذى ضم بالفعل شمال إفريقيا للمجال الإسلامى غير نظرة المشرق له .. فالمغرب ـ بلاد البربر وأسبانيا ـ التى كانت أرض استشهاد وأرض غنيمة فيما مضى أضحت بفضل إنضمامها للإسلام وبعدها عن المشرق أرض غنية بالآمال ومأوى للطوائف والعائلات المسلمة سيئة الحظ ومرساة للغرقى الهاربين من العواصف التى هزت المشرق . وسوف نحلل هذا الدور الجديد الذى سوف تقوم به بلاد البربر .

(٢٢) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ص ٢٢١ ، ابن الأثير : الكامـل فى التاريخ ٤ : ٢٨٠ .

(٢٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ٢٢٩ ، البكرى : المغرب ص ٥ .

ثانياً : ما أخذه المغرب من المشرق

من المسلم به أن الغزو الذى وسع من حدود المجال الاسلامى ووسع أيضا نفوذ الحكام المشرقيين ، جدد بعمق حياة المغرب نفسه . ومن المفيد الآن ذكر ما يمثله المشرق بالنسبة للمغرب وما أخذه المغرب من المشرق وسندرس بايجاز هذه الأحداث الثلاث المرتبطة وهى : الخضوع الاجبارى للبربر ، اعتناق الاسلام التعريب .

أ ـ إخضاع البربر

إذا وضعنا غزو شمال إفريقيا فى الاطار التاريخى للتوسع الاسلامى لظهر هذا الغزو على أنه المشروع الأكثر مثابرة والأكثر تعبا الذى قام الاسلام بتحقيقة . (٢٤) ليس هناك بلدا كلف الاسلام جهدا أكثر لترويضه مثل شمال إفريقيا . لقد احتاج المسلمون لأربع سنوات لفتح بلاد العراق وسبع سنوات لضم كل البلاد الايرانية وسبع سنوات تخللتها أحداث متفرقة سمحت أيضا بضم فلسطين وسوريا . أما مصر وأسبانيا لغزوهم كان أسرع : فثلاث سنوات لكل منهما . معركة هامة أو معركتان كانتا كفيلتان بسحق مقاومة الأعداء كما كان فى عهد اسكندر الأكبر . كانت موقعة إجنادين فى فلسطين ، واليرموك فى سوريا . ويرتبط اسم قائد مسلم أو قائدين لكل من هذه البلاد :

(٢٤) ابن الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ابن عذارى : البيان المغرب ، ابن خلدون : تاريخ العبر ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، ابن أبى دينار : المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ، البكرى : المغرب في بلاد إفريقية والمغرب Fournel , les Berbers, 2 vol. Paris 1857-1875 , E. Mercier , Histoire de l'Afrique septentrionale, Paris, 1888,I, pp. 494 ss., ; Caudel, Les Premiéres invasions arabes en Afrique du Nord, Paris, 1920 ; Diehl ; E . F . Gautier ; Jubien , Diel et G . Marçais, Le monde oriental de 395 á 1081, Paris, 1936 .

عمرو بن العاص هو المنتصر على مصر وطارق البربرى أخضع إسبانيا و سيأتي موسى بن نصير على عجل ليجنى ثمار النصر . ولكن الوضع يختلف في بلاد البربر فضم البلاد الذى بدأ فى ٦٤٧ م (٢٧ هـ) لم يتحقق إلا حوالى ٧١٠ م (٩٢ هـ) لقد لزم حوالى ٥٣ عاما للحصول على نتيجة غير أكيدة ، لأن كثير من الصعوبات والمشاكل بدأت تظهر بعد ذلك ولن تنتهى هذه الصعوبات إلا مع بداية القرن التاسع (الثالث الهجرى) بعد أكثر من ١٥٠ عام من القتال أو الصراع الخفى ، قرن ونصف قاسى فيها الغزو العربى كثير من الفشل ليطرح من جديد مستقبل الاسلام فى المغرب .

لقد استرجع البربر البلاد بأكملها مرتان الأولى فى أواخر القرن السابع والمرة الثانية فى منتصف القرن الثامن (الثانى الهجرى) وقد فرض على العرب إعادة كل شئ فى المرتين .

كيف نعلل شرح هذا التأخير ؟ ونوضح الصعوبات التي كانت سهلة في بلاد أخرى ؟ هل اصطدم العرب هنا بقوة أكثر انتظاما واجهه الغزاة ؟ إطلاقا . فليس لدى ولاية إفريقيا ما يماثل الجهاز الحربى للساسانيين بفيالقه التى يرأسها خمسة من القواد المشهورين وأفياله الخمس والثلاثين حاملة الأبراج المملوءة بالنبال لمقاومة الغزاة . ولم تعتمد المغرب مثل سوريا على الامدادات التى وصلتها بسهولة من القسطنطينية ولم يكن هناك أماكن حصينة تصمد للحصار ولا حواجز طبيعية مثل الأنهار والجبال تحول بينهم وبين العبور .

ولتبرير هذه المدة الغير طبيعية فى زمن الفتوحات نستطيع الاستناد على عدة أسباب :

أولا : بعد المسافة ـ الذى لا يلعب دور بالنسبة لأسبانيا الأكثر بعدا ـ ولكنه الوضع الشاذ للمغرب الذى كان يخيف الخليفة عمر . من الواضح أن

الحكم المركزى تنقطع علاقاته أحيانا بهذه الولاية التى تعتبر تابعة لمصر وامتلاكها لا يساوى التضحيات المقدمة لفتحها .

ثانياً : والسبب الثانى يعزز السبب الأول . فالمغرب يبعد عن المشرق والمشارقـة لم يهتموا به بالقدر الكافى فى الفترة التى كانت عندهم فيها أزمات ، والقرون الأولى شاهدت أزمات ذات أهمية حيوية فى المشرق ومن هنا فالتحرك غير متواصل والانقطاعات طويلة (ممتدة) وكل ذلك يتطلب استئناف أقوى للمجهود .

وأخيرا فضم شمال إفريقيا يتميز عن الغزوات الأخرى بتعدد الخصوم وشدة مقاومتهم . فليس على الغزاة هزيمة جيش أو عدة جيوش منتظمة فحسب وإن الانتصار على البيزنطيين والاستيلاء على قرطاج عاصمة إفريقيا وأكبر مدن عالم البحر المتوسط لم يسبب انهيار البربر : ولكن يبقى ترويض هذا الشعب فهو فى خصومة مستمرة ولكنه حريص على استقلاله . لذلك تضامن أمام الخطر المشترك .

وعندما شعر بتهديد قوة أعظم ، اضطر للتفرق واحتمى فى الصحراء أو فى الجبال ، وبقى بعيدا عن المنال . ولكنه خضع تماما عند الهزيمة . ولا تستمر السلطة التى يفرضها الأجنبى بصعوبـة إلا إذا بقى فى البلاد لفرض احترامها .

وعلى كل فاخضاع البعض لا يتبعه بالضرورة اخضاع الآخرين . واستسلام الابن لا ينهى مقاومة الأب . والمناطق المنيعة لمأوى الثوار كثيرة جدا . فالحكام الرومان والبيزنطيون فى إفريقيا من قبل عرفوا ثورات الوطنيين ودامت بعد ذلك ضد الحكام العرب . فمقاومة البربر تجد الحصون والزعماء من الجنوب التونسى حتى البحر الأطلسى . بدت حركة هؤلاء الزعماء أكثر فاعلية من

حركة قواد الجيوش البيزنطيين لذلك نعتبرهم كما اعتبرهم المشارقة شخصيات أسطورية ومن الرائع أن أحد الخصوم الأكثر تشددا ضد الانتشار العربى فى بلاد البربر كانت امرأة ذات شخصية اسطورية . ووفاتها فى السنوات الأولى من القرن الثامن جعل من الممكن للرسلام أن يتقدم تقدما ملحوظا . فموتها يعد علامة لبداية مرحلة حاسمة وسوف نلخص الأحداث التى سبقتها .

حدث هذا التدهور المؤقت للمقاومة البربرية بعد أربعين عاما من ظهور العرب فى إفريقيا . ففى ٦٤٧ م (٢٧ هـ) قام عبد الله بن سعد حاكم مصر بغزو ولاية إفريقية وكان الحاكم العسكرى البيزنطى جرجير الذى كان يحكم هذه الولاية البيزنطية قد تحرر من سلطة سيده قسطنطين الثانى لخلاف دينى وعين نفسه إمبراطورا بموافقة البابا . بدا أول غزو للجيش الاسلامى ـ الذى سبقته استطلاعات صغيرة ـ بدا وكأنه غارة وعملية سلب لأنه لم تتبعه إقامة قواعد للاستقرار وقد هُزم جرجير ومات الحاكم العسكرى الذى تصدى لهذا الغزو بالقرب من مقر اقامته فى سبيطلة . أنه انتصار هائل للعرب ونجد صداه فى أخبار Frédégaine : إنقطع الدفاع البيزنطي وانفتحت ثغرة فى الصف الأول للقلاع التى تحمى الولاية ، ولكن الاستراتيجية البدائية للمنتصرين أو عدم وجود قوات كافية أو الأوامر الآتية من المشرق لم تسمح باستغلال هذا النصر .

فاكتفى العرب بالحصول على غنيمة واسعة وأخذ مجاميع من الأسرى وخرجوا من البلاد وقتما بات الانتصار وشيكا . ولمدة خمس سنوات أو أكثر كانت تقوم وحدات مسلحة من طرابلس للابتزاز أو ترغيب البعض لاعتناق الاسلام . أما الحملة التى تقدمت بقوات ذات قيمة وأحدثت نتائج ملحوظة هى

حملة ٦٦٥ م (٤٥هـ) [(٢٥)] لأن بين الحملة الأولى والثانية تغير حكام الاسلام لأنهم كانوا فى صراعات دامية كادت تقضى على وحدة قوة الدين . فلم تبقى الخلافة بالانتخاب بل أصبحت وراثية فى سلالة الأمويين والعاصمة انتقلت من الجزيرة العربية فهى ليست « المدينة » بل « دمشق » هذه الأزمات امتصت نشاط العالم الاسلامى وشغلته عن أى عمل خارجى . نحن نعتقد أن هذه هى أسباب غياب العرب عن المغرب رغم أن المؤرخين لا يهتمون بالبحث عن الأسباب . كذلك نحن نفترض أسباب العودة للغزو : بعد خروج العرب من إفريقية استولى اليونانى جيناديوس على ميراث المغتصب جرجير المتوفى وذلك بمناصرة البربر ، فأراد الامبراطور قسطنطين الثانى المتمركز فى سرقوسة استعادة سلطانه فى إفريقية . فى نفس الوقت تخلى البربر عن جيناديوس وآزروا منافسا له الوتيرة Eleuthére الذى أبدى استعداده للخضوع للامبراطور قسطنطين الثانى فكون الامبراطور جيشا بيزنطيا أرسله من صقلية بقيادة نقفور لاستعادة البلاد . فاضطر جناديوس الاتجاه نحو العرب وطلب النجدة من الخليفة فأسرع العرب على التو .

ليست المرة الأولى ولا الأخيرة أن يتحدد غزو بلد ما بتدخل من الخارج فى شئونه الداخلية وبارادة أحد أحزابه .

بالطبع نحن نجهل مكان انزال قوات نقفور وهل حدث هذا الانزال قبل أو بعد وصول العرب بقيادة معاوية بن حديج ولكن الذى يبدو مؤكدا هو أن هذه الحملة تخلت عن القوة البيزنطية فى إفريقية . فأبحر جيش نقفور بعد موقعة غير محددة المعالم وسقطت ونهبت قلعة جلولاء التى كانت تكون جزء من خط

---

(٢٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، يضع هذه الحملة الثانية فى ٦٥٤ (٣٤هـ) ، والحملة الثالثة فى ٦٦٠ (٤٠هـ) والرابعة فى ٦٧٠ (٥٠هـ) ص ٢٦١ .

الدفاع الثانى . تلى هذا النصر ، اعتناق الكثير للاسلام ولكن فى هذه المرة أيضا لم يحدث أى استقرار للمنتصرين العرب .

وستكون الحملة التالية بقيادة عقبة بن نافع ذات طابع متغير عما سبقها من حملات . وقد أدارهـا بأسلوب وأهـداف أوسع من سابقتها . وكان الوقت مناسبا لأن قتل قسطنطين الثانى وانشغال خليفـته قسطنطين بوجونا Pogonat بمحاربة مغتصب فى صقلية معتمدا على كل القوات البيزنطية مما جعله يترك إفريقية خالية من القوات . من المؤكد أن عقبة لم يقابل بيزنطيين فى طريقه الى بلاد الجريد وفزان (بيزاسنيا Byzacene) إذن لا صدام جيوش ولا حصار مدن ، بل استسلام القلاع الخالية من الحماية . فكان النهب وتدمير الممتلكات وذبح أو استعباد السكان الذين يرفضون اعتناق الاسلام هذا الانتصار كان انتصارا سهلا على بلاد البربر المسيحى فى معظمه والغير مستعد للمقاومة . ولتثبيت هذا الغزو الحربى وتسهيل انتشاره مستقبلا أنشأ سيدى عقبة مدينة القيروان سنة ٦٧٠ م (٥٠ هـ) .

وفى ٦٧١ م (٥١ هـ) أو ٦٧٢ م (٥٢ هـ) « التسلسل الزمنى لكل هذه الفترة غير مؤكد » تولى حكم مصر حاكم يدعى مسلمة وكان والى إفريقية يتبع هذا الحاكم . فقام مسلمة باستبدال عقبة برجل من أتباعه هو أبو المهاجر من الموالى ويقول ابن أبى دينار : « إن هذا الحاكم الجديد تصرف فى كل شئ على نقيض ما قام به عقبة » .

يبدو أن والى مسلمة حاول مع البربر سياسة وفاق لم تكن من طباع سلفه المتحمس فبعد أن هزم كسيله حاكم قبيلة اوربة ، اعتنق هذا الحاكم الاسلام وأصبح حليفة وصديقه . كان هذا النصر بالقرب من مدينة تلمسان (نلاحظ أن العرب لم يتقدموا أبعد من ذلك) .

بعد عودة عقبة الى الولاية للمرة الثانية سيدفعه انتصاره أبعد من ذلك ، فطاف كل شمال إفريقيا عابرا المغرب من منطقة طنجة حتى وادي سوس . ويقال عند أنه دخل بجواده عبر أمواج البحر الأطلسي نادمـا لعدم استطاعته " توصيل الحق " أبعد من ذلك . بعد العودة من هذه الجولة التى حصل منها على غنائم وعبيد واجه هجوم من كسيلة وحلفائه الروم فقتل أمام تاهودة بالقرب من بسكرة وبذلك يدخل كسيلة بقبيلته القيروان بعد انتصاره على البطل الاسلامى ويبقى حاكما لها من ٦٨٣ م (٦٤ هـ) الى ٦٨٦م (٦٧ هـ) .

نحن نحاول تحديد المراحل الرتيسية لتاريخ هذا الانتصار المتقطع والغير موكد والمملوء بالأساطير لأن الثلاث سنوات التى حكم فيها رئيس بربرى لأول مدينة عربية في المغرب تعتبر هذه السنوات الثلاث فترة مشوقة من المفيد تحديد معالمها .

منذ ظهور سيدى عقبة للمرة الأولى فى البلاد لم يلاقى المسلمون إلا البربر وكان البيزنطيين خارج الموضوع ومع ذلك فهم ليسوا غائبون تماما . المؤرخون يعطون للروم دورا قاطعا فى صعود كسيلة . فأثناء ملازمته أسيرا لجيش عقبة وهو يجوب المغرب كان كسيلة على إتصال بالروم وخاصة الروم المتمركزين فى القلاع القريبة للولاية وعلى مشارف الصحراء فى بادس وتاهودة . وكان عقبة على رأس جيش ضعيف ، فبعثوا رسولا لكسيلة الذى هرب وبدأ يحث البربر على الثورة . فانهزم جيش عقبة بسبب الجهد المشترك للجنود البيزنطيين (٢٦) ورجال القبائل . ويدخل كسيلة القيروان منتصرا علي رأس العديد من البيزنطيين والبربر . وسيحكم البربر والعرب المقيمين في المدينة وكذلك المناطق المحيطة . فالعرب لهم حق الإقامة وحق الاحتفاظ بدينهم

(٢٦) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٧٤ .

وليس من الواضح أن يكون قد أرتد هو نفسه عن الإسلام نحن نجهل طبيعة الصلة التي ربطته مع البيزنطيين الذين ساعدوه علي النصر . هل هو حسن الجوار ؟ هل هو اتحاد أم تبعية ؟ والمؤكد هنا هو أن هذه الولاية التي أنشأها المسلمون رأت آخر أجمل أيامها علي يد حاكم وطني . هذا وضع مفارق أن يحكم رئيس وطني مملكة عربية ـ بربرية . أما في المشرق فقد هزم قسطنطين الرابع الجيوش الإسلامية وأجبر الخليفة الأموي علي دفع فدية سنوية من النقود والعبيد والخيل ، وحامياته في أفريقية لاتزال تحتفظ بأماكنها علي الشاطئ من سوسة إلي بونة وبدون شك تحتفظ أيضا بقلاع في الداخل .

في ٦٨٦ م (٦٧هـ) جاءت حملة بقيادة رفيق قديم لعقبة وهو زهير بن قيس للإنتقام لموت الشهيد وخرج كسيلة لملاقاتها فكانت المعركة الدموية في ممس حيث هزم ومات القائد البربري . ولكن زهير الذي جاء للحرب في « سبيل الله » اكتفي بترك حامية في القيروان وأخذ طريق العودة إلي المشرق ،، وعندما وصل إلي برقة وجد أن هناك أسطول بيزنطي هائل يقوم بانزال قوات لسلب البلاد منتهزا ضعف الجيش الإسلامي ، فشن زهير هجوما راح ضحيته هو وكثير من القواد العرب . وحكي الناجون للخليفة عبد الملك عن هذه الكارثة الجديدة فقام بدوره بالتحري عن قائد قادر علي « استتباب الأمن في أفريقية » ولكنه لم يتمكن من ارساله إلي أفريقية إلا بعد سبع سنوات إذ كانت عمليات الفتح هناك تتأثر ـ كما حدث بعد الحملة الأولى ـ بالقلاقل الخطيرة علي المسرح المشرقي . وكان الخليفة في صراع مع منافس آخر للسيطرة علي الجزيرة العربية كما كانت العراق في حالة انفصال ، ومصر تهدد أيضا بالثورة .، فبعد اخماد هذا التمرد أرسل الخيفة عبد الملك الأموي حسان بن النعمان علي رأس ٤٠,٠٠٠ رجل إلي أفريقية .

قام حسان بن النعمان بمهمته علي مرحلتين ، بدأ بمهاجمة البيزنطيين . فقد

كان علي رأس أكبر جيش اسلامي دخل بلاد البربر حتي الآن هذه القوات سمحت لـه وبدون عنـاء من اخضاع جميع القواعـد شمال ولاية أفريقيـة فقد قامت معركة أمام قرطـاج ودخلها العرب منتصرين في سنة ٦٩٥ . (٧٦هـ) (٢٧) . وتوج هذا النصر المجهود الذي بذل منذ ٤٨ عاما مضت في ٦٤٧ م (٢٧ هـ) . ولكن كان هناك البربر الذين يجب اخضاعهم أيضا ، فقد كانوا قد التفوا بعد موت كسيلة حول امرأة زعيمة قبيلة أوربة (٢٨) وأصبحت هذه القبيلة مركز جذب للقبائل المقاومة . وفي جبال الأوراس التي كانت رابضة كالقلعة ستنظم المقاومة صفوفها ، لسنا هنا في موضع نقاش عما قيل عن الكاهنة ملكة أوربة . من المؤكد أن الخيال الشعبي أثرى قضيتها بمسلسل من الأساطير ولكن لا يجب رفض كل ما قيل عنها ، فليس فريدا عند البربر أن نرى امرأة تحكم قبيلة ، وانتماؤها وذويها للديانه اليهودية رغم أنه مشكوك فيه يؤيده ابن خلدون لذلك فهو موضع اعتبار (٢٩) . أما ما قيل عن أنها كاهنة فهذا أمر مسلم به ، ونستطيع تصديق الكتاب المسلمين عند تسجيل الكارثة التي لحقت بجيش حسان بن النعمان علي مشارف وادي مسكيانة ، فهذه وقفة جديدة للغزو ، ثلاث سنوات للراحة والتمهل . قام أثناؤها أسطول بيزنطي باحتلال قرطاج وتستغل الكاهنة ذلك لاجتياح الريف وتقويض المدن لإحباط الغازى .

---

(٢٧) القيروانى (ابن أبى دينار) : يقول لهم إنهم هدموا القنطرة ص ٣٤ .

(٢٨) عن الكاهنـة انظر ابن عبد الحكم ص ٢٧٠ - ٢٧١ ، ابن الأثير : الكامـل في التـاريخ ص ٣٢ ، البكرى ص ٧-٨ ، ابن خلدون : العبر ٤ : ٢٣٩ ، ٦ : ١٤٠ ، ٧ : ١٢٠ .

(٢٩) العبر ٦ : ١٤٠ .

هذا التصرف البطولي الذي ضخمته الأساطير كان سببا في سخط البربر وكذلك البيزنطيين الذين كانوا يساعدونهم . فعاد حسان بقوات جديدة عندما علم بهذا الخلاف . ففي سنة ٦٩٨ م (٧٩ هـ) أستعيدت قرطاج وإلي الأبد . وفي سنة ٧٠٠ م (٨١ هـ) أو سنة ٧٠١ م (٨٢ هـ) انسحق البربر في موقعة حاسمة وماتت الكاهنة موتة بطولية كانت قد تنبأت بها لنفسها من قبل .

السقوط النهائى لقرطاج العاصمة البيزنطية وموت الكاهنة وهى روح المقاومة البربرية دمغ نهاية الفترة البطولية للفتوحات العربية ، وبالتالى لن يعرف المسلمون ولمدة عشرين عاما مقبلة متاعب تذكر . ولكن لم يغلق بعد عهد الحملات التي لها مظهر الرحلات (التنزهات) الحربية ولكن لن تكون كلها مثمرة كحملة موسي بن نصير . ويبدو أن دوافع المقاومة عند البربر قد تحطمت إذ يروي النويري « لم يختلف البربر بعدها » [٣٠] فعدم تعاونهم الطبيعي وتفككهم سهل مهمة المشرقيين . لكن هناك عاملين عملوا علي قيام الصلات الآمنه بين المهاجرين والوطنيين وهما أولا : الانتشار المنتظم للإسلام عند البربر . ثانيا تجنيدهم جموع غفيرة من البربر لغزو أسبانيا .

لن نتكلم هنا عند دور البربر في ضم شبه الجزيرة الأيبيرية وعن حماسهم الحربي والنفع المنتظر من وراء ذلك ولكن المهم هو دراسة هذا الحدث الموازى للغزو الحربي لبلادهم ، ألا وهو اعتناقهم الإسلام .

ب ـ الديانة الإسلامية

تثير إسلامية البربر موضوعا تاريخيا لا نأمل في حله ولكن من المهم ذكر معطياته . كانت بلاد المغرب أرض من الأراضي المختارة للمسيحية . فقد

(٣٠) انظر نهاية الأرب في فنون الأدب ص ١٩٧ .

دخل الديـن المسيحي وانتشر بالمدن الداخلية عن طريق قرطـاج والمدن الساحلية . وقد قال المسيحي الأفريقي ترتوليانوس Tertullien في نهاية القرن الثاني « نحن نمثل الأغلبية في كل مدينة » وكانت الكنيسة الأفريقية . تشمل عدد كبير من الشهداء ، ومع الإضطهاد كانت تفتخر بالقديس Cyprien وفي عظمتها كانت تفخر بأن صوت القديس أوغسطين Ougustin يرن في أذن المسيحية عامة . وعلي كل فالدين المسيحي لم يجند مناصريه من المدن فقط مثل Djemila أو تبسة ، حيث الأحياء المسيحية المأهولة بالسكان تحيط بالكنائس الكبيرة ذات الطراز المعماري الموحد . والعدد المؤهل للكنائس المتواضعة التي نجد أطلالها مبعثرة في ريف الجزائر يوضح انتشار الإنجيل عند فلاحي البربر وحماس الناس البسطاء في القرى والكفور له .

وفي أقل من قرن أسلم أولاد هؤلاء المسيحيين بأغلبية كبيرة وكان حماسهم قادر علي مواجهة محنة الاستشهاد وعملية الإعتناق النهائية والشبه جماعية سوف تتم في خلال القرنين أو الثلاث قرون التالية تاركة جماعات مسيحية لا تذكر ، حتي وجودها مشكوك فيه .

وبينما احتفظت معظم البلاد التي استقر فيها الدين الإسلامي بجاليات مسيحية لها مكانة محترمة في الدولة مثل اللبنانيون في سوريا والأقباط في مصر والمستعربون في أسبانيا وعاش هؤلاء في تكافل مع حكامهم المسلمين ، فلم يرى وطن القديس أوغسطين Augustin شيئا من هذا . ونضيف أيضا أنه إذا كانت التجمعات المسيحية قد ذابت بسرعة مذهلة ببلاد المغرب فالتجمعات اليهودية التي لم تكن ذات أهمية مماثلة من حيث العدد أثناء الغزو الإسلامي بقيت تحت ظروف معيشية صعبة . كيف نعلل هذا التخلص من المسيحية واعتناق الإسلام الملازم له ؟

لا يمكن انكار الدور البارز الذي لعبتة افريقية في تاريخ الكنيسة ولا يمكن انكار أن مذن وقرى كثيرة بربرية كانت مرتبطة بالعقيدة المسيحية ومع ذلك يبدو أنه كانت هناك مناطق لم يدخلها التبشير . فقصيدة La Johannide للشاعر Corippus توحي لنا أنه في منتصف القرن السادس الميلادي كانت لا تزال هناك قبائل بربرية وثنية أو ارتدت إلي الوثنية . ويذكر ابن خلدون أن صنهاجه سوس (لم يدينوا بالنصرانية)[٣١] نحن نعتقد أن هؤلاء الرحل احتفظوا بالمعتقدات الحياتية المماثلة لمعتقدات الزنوج وكانوا يوحون بها في تنقلاتهم ولم يكونوا الوحيدين الذي يزاولون هذه المعتقدات لأن علماء الأجناس كشفوا لنا عن ممارسات سحرية ـ دينية لا علاقة لها بالإسلام .

ومن ناحية أخرى كانت توجد جاليات يهودية في عدد كبير من المدن . فاليهودية تغلغلت في الريف البربري بواسطة هذه المراكز أو مباشرة بهجرة القبائــل المشرقيــة . وقد أحصي ابن خلدون أن الذين التصقوا باليهوديــة هم نفوسة في الجنوب التونسي ، وفندلاو ، وأوربة الأوراس ، ومديونة ، وبهلولة ، وغياثة ، وفزاز في المغرب الأقصي [٣٢]

فالمجال المسيحي مهما كان اتساعه لم يكن يغطي بلاد البربر بأكمله ، فكانت هناك عبادات قديمة أو غريبة موجودة بمناطق هامشية أو منتشرة هنا وهناك ، كما يبدو أيضا أن اتساع المسيحية وحيويتها المناضلة التي كانت تتسم بها قد ساعدت علي هدم قوة مقاومتها . فكثرة الأسقفيات التي كانت تفخر بها أفريقية في القرن الرابع فتتت السلطة وأضرت بمكانتها وبالحفاظ علي النظام . وساعدت الذاتية وحماس الأهواء علي حدة الهرطقة (البدع)

(٣١) ابن خلدون :العبر ٦ : ١٤٢ .

(٣٢) ابن خلدون : العبر ٦ : ١٤٠ .

علي النظام . وساعدت الذاتية وحماس الأهواء علي حدة الهرطقة (البدع) وظهور ممارسات خرافية . لذلك فالتعبد المحمود للشهداء كان يأخذ مظهر العودة إلي الشرك بالله . والصراعات الحامية والوشايات والاضطهاد والتعذيب سبب الجفاء وهجرة المسالمين إلي أن جاء غزو الوندال في سنة ٤٢٩ م بالضربة القاضية للمسيحية الأفريقية ، فكان التعذيب وسجن أو نفي الأساقفة ونهب المعابد وإلحاقها لمذهب المتنصرين الأريوسية Orianisme ولم ينتهي كل ذلك إلا في عهد هلدياريك Hildéric سنة ٥٢٣ م . ولم تقم نهضة أخرى إلا مع الغزو البيزنطي فعادت المقرات الأسقفية في عهد جستنيان Justinian المجيد ووجدت الصراعات الدينية الجو الملائم لازدهار المذاهب المنشقة المتعددة مثل المانوية والأريوسية والبيلاجوسية والدوناتية والتشهير بالفصول الثلاثة * التي هزت أفريقيا لمدة عشر سنوات ونعرف أنه حتي عند ظهور العرب كانت تدمت القطيعة بين حاكم قرطاج وسيده الأمبراطور الروماني بسبب نزاع ديني .

وبالتأكيد فهذه الصراعات اللاهوتية المحمومة السابقة للحركات الدينية ستظهر علي مسرح البربر الإسلامي تؤكد اهتمام المسيحية بحياة الأفريقيين والعناية بمسائل العقيدة والتدين وحماسهم للعقائد ولكنها في الوقت نفسه توحي بالخلافات الدائمة السائدة بينهم والتي تبشر بعدم تضامنهم وضعف مقاومتهم لدعاية دين أجنبي .

يحكى لنا النويري عن الحملة الإسلامية الأولي (العبادلة) إلي بلاد البربر ويروي ما قاله أحد ممثليها قائلا : بعد الاستعدادات اللازمة اتجهنا نحو جيش

* الفصول الثلاثة هي النصوص الثلاثة التي كان يظن أنها مستوحاة من النسطورية وشهر بها الامبراطور البيزنطي بناء على نصيحة الامبراطوره تيودورا وفشل مجمع ٥٤٤ م في إدانتها ، انظر جوليان : تاريخ إفريقيا الشمالية : ١ : ٣٧٣-٣٧٤ .

جرجير ومضت عدة أيام في التفاوض . ودعوته لاعتناق الإسلام ولكنه رفض بكل غرور : فعرضنا عليه دفع الخرج السنوى ولكنه رد قائلا : « لو سألتمونى درهما واحدا لم أفعل » فأخذنا العدة لمحاربته (٣٣).

بالطبع نحن لجهل إذا كانت الأمور قد سارت علي هذا النحو ولكن الحوار شبه رسمي لأن تلاحم الجيوش يسبقه دائما نداء للكافر لاعتناق الإسلام . فلو كان هذا الكافر من أهل الكتاب وينتمي لدين (مثل المسيحية أو اليهودية) فخضوعه بدون اعتناق الإسلام يستلزم دفع الخرج ، إيجار الأرض المتروكة له ، علاوة علي دفع الجزية ، فإذا رفض هذا الاقتراح فلابد من الحرب . وفي حالة انتصار الإسلام تصبح ممتلكات العدو غنيمة وتسلب منه ويصير عبدا . وبعد الحرب تصبح السلطة للمسلمين ويستطيع هذا الكافر التمتع بالنظام سالف الذكر : فهو يستطيع مع شئ من الالتزام مزاولة دينه واستخدام ممتلكاته بشرط دفع الضرائب التي ينص عليها القانون .

ليس من المبالغ فيه أن نؤكد أن الإسلام دين تسامح وقد جعل من الجهاد المقدس واحد من تعاليمه الرئيسية . ولتقديم البراهين علينا أن نري عدد غير المسلمين الذين عاشوا في معظم البلاد الإسلامية فمنهم من عكف علي التجارة ، ومنهم من زاول حرفته وخاصة الطب ، ومنهم من مارس مهام عامة ، أو خدم في جماعات ، فنشاطهم المهنى حر ، وقدراتهم محل تقدير ، والسلطات لا تلجأ للشدة إلا ضد الذين لا يحترمون الديانة الإسلامية أو الذين يرتدون لدين آبائهم بعد اعتناق دين حكامهم . فالإسلام دين ليس من صفاته الاضطهاد فحسب بل هو عادة قليل الميل إلي التبشير . وقد يرجع هذا إلي أن الضرائب المدفوعة من أهل الذمة كانت تشكل جزء من دخل الدولة .

(٣٣) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ص ١٧٩ .

فوجود أهل الذمة يعتبر تقريبا شرط أساسى لتوازن الميزانية العامة .

ولكن يجب أن ندرك أن نظام الإيرادات بالميزانية لم يؤخذ به إلا بعد التغاضي عن التعليمات الإسلامية فنحن نعرف تماما إلى أى مّدي كانت الحرب طويلة ونعرف أيضا ما كانت تمثلة هذه البلاد بالنسبة للمشرق : أرض غنيمة وخزان عبيد . فالقبائل البربرية التي لم تكن لا مسيحية ولا يهودية لم يكن لها الحق في أية مراعاة ، وقد رأينا المداهمات الضخمة للغزوات الأولى في الريف الأعزل وما حققته من مكافآت . إذن الوسيلة الوحيدة للوقاية من النهب والاستعباد هى اعتناق الجماعات البربرية الإسلام وإن عادوا لممارسات أجدادهم بمجرد اختفاء الفرسان العرب وإن عادوا مرة ثانية فما علي هذه الجماعات إلا اعتناق الإسلام مرة أخرى ليأمنوا من متطلباتهم . هناك نص يوضح لنا أن بعض القبائل ارتدت إكثر من أثنى عشر مرة . لذلك قام سيدى عقبة بتأسيس مدينة القيروان خصيصا لتجنب هذا الارتداد الدورى فكانت القيروان مأوى مرحلي ومعسكر دائم وكان لها في خيال مؤسسها دور ديني أكثر منه حربي . ولكنها ليست بعد المركز الكبير للدراسات الإسلامية الذي ستكون عليه مستقبلا ، فقد كانت في هذا الوقت نقطة انطلاق ، لناشرى الإسلام وفيها ترك عقبة بعض زملائه لتعليم البربر مبادئ العقيدة والعبادة . وبعد عشرين عاما وسع موسى بن نصير هذا العمل إلي المغرب الأقصي ويبدو أن موسي عمل بمهارة علي الغزو الروحاني للوطنين . فالأسري بالنسبة له ليست غنائم بل رهائن (٣٤) . وهؤلاء الرهائن بتضامنهم مع المتنصرين سيؤلفون أعظم القوات لغزو أسبانيا . وقد قام موسى بتحويل الكنائس إلي مساجد وقام ببناء مساجد جديدة كما فعل في أغمات حيث ترك سبعة عشر عربي متفقه لتعليم قبائل مصمودة الأطلس القرآن ومبادئ الإسلام . ولكن لن تتابع بانتظام

(٣٤) ابن عذارى : البيان ١ : ٤٢ .

إسلامية شمال إفريقية إلا في عهد عمر بن عبد العزيز . فقد حصل في عهده القصير (٧١٧ ـ ٧٢٠ م / ٩٩ ـ ١٠١ هـ) علي مكانه بين رعيته لم يطمح إليها فرد من أفراد أسرته " فقد هدف إلي توسيع الدخول في الإسلام " (٣٥) باختيار حاكما لإفريقية وهو اسماعيل بن عبد الله علاوة علي عشرة من العلماء الأتقياء اختارهم من بين خلفاء أتباع الرسول (ﷺ) . فتفرغوا تماما للعمل الحميد داعين للإسلام الذين لم يعتنقوه بعد ومصححين للممارسات الخاطئة للذين اعتنقوه . وأبو العرب يعطينا أسمائهم ويضيف أنهم عرفوا البربر تحريم الخمر الذي كان مسموح به حتي الآن (٣٦) لم يبق الحاكم اسماعيل إلا عامين إلا أن مجهوده بقي من بعده . فصاحبت الديانة الإسلامية دعاية لم يكن الخليفة الورع يتوقعها أو يأملها . وسنجمل أزمات القرن الثامن الميلادي دفعة واحدة وانتشار المذاهب الإسلامية المرسلة من المشرق لبلاد المغرب والنتائج التي استخلصها هؤلاء لمحاربة العرب أنفسهم .

جـ ـ التعريب

تعريب شمال أفريقية ، هذه الولاية الرومانية التي ضمت للمشرق ، الذي جعل من هذا الجزء من عالم البحر المتوسط بلدا شرقيا برغم جغرافيته ، لم يكن بمعني الكلمة تطور موازى لاعتناق الديانة الإسلامية بل كان نتيجة وتتويجا لها . فالتعريب يرتكز ليس فقط علي هجرة أفراد أو مجموعات كثيفة من العرب لتغيير التكوين السكاني لهذه المنطقة الشاسعة بل يرتكز علي تبني المواطنين البربر لحضارة تشبههم بالمهاجرين .

ومن جميع عناصر هذه الحضارة فاللغة هى العنصر المميز الأكثر عمقا

(٣٥) - H. Lammens : La Syrie, précis historique, 2 vol. Beyrouth 1921, I, 91 .

(٣٦) أبو العرب : طبقات علماء إفريقية ص ٨٤-٨٧ .

والأكثر وضوحا .[٣٧] فانتشار اللغة العربية في شمال أفريقية وخصوصا النصوص المكتوبة باللغة العربية هى التي تتيح لنا معرفة تاريخ هذه البلاد ، كل هذا يبشر حقا بفجر عهد جديد .

كيف حدث هذا الانتشار ؟ فالوقائع التي نلاحظها تسمح لنا بتخمين ذلك. نلاحظ أولا أن اللغة العربية لم تلغي اللغة البربرية ، وهي الوريثة المرجحة للغة النوميدية والليبية فهذه اللغة لا تزال باقية حتي يومنا هذا في المناطق الشاسعة أو صعبة الاختراق مثل جنوب طرابلس والأوراس والقبائل والجزء الأكبر لجبال المغرب . محيط هذه المناطق يقل أمام أعيننا الآن ومن المؤكد أن اللغة العربية وجدتها في ذاك الوقت ممتدة ومتلاحمة مكونة مناطق واسعة متصلة . بقيت اللغة البربرية هي السائد في العصور الوسيط في الجبال والوديان وعند الفلاحين الوطنيين المقيمين والرحل ، ومع ذلك إذا كانت لغة المنتصرين لم تبعد اللهجات القديمة للسكان فقد وجهت الضربة القاضية إلي اللغة اللاتينية وحلت محلها . جاءت اللغة العربية ووجدت أمامها اللغة البربرية واللغة اللاتينية . بالنسبة للبربرية لم تكن لغة حضارة بل كانت لغة تكتب قديما كالألغاز وطريقتها بدائية وغير صالحة وكانت لا تصلح إلا لأدب شفهي فقير وأصبحت علي مر العصور لغة كلام تكفي للمتطلبات المحدودة للريفيين الغير متطورين . أما اللاتينية فكانت تبدو كأداة عظيمة لأدب بديع ومنتشر عالميا ، فهي لغة الصفوة في المدن الإفريقية ، لغة الدواوين والكنيسة ، فهذا الدور بالذات كان سببا لإهمالها . لم يكن هذا الإهمال مباشرا ومن المرجح أن يكون المنتصرون قد استعانوا أولا في أفريقية ـ كما حدث في

---

(٣٧) عن تعريب البربر إرجع إلى W . Marçais , Aunales de l'Institut d'études arieu tales , Alger IV , 1938 , pp . 1 ss .

سوريا وفي مصر ـ بموظفين من البلاد لتدوين العقود والحسابات باللاتينية . « تحت أيدينا نقود مسكوكة في أفريقية ، علي الأرجح في قرطاج ، مسطرة باللاتينية وذلك حتي نهاية القرن الأول الهجرى ، والبعض يحمل اسم الأمير موسي بن نصير بالحروف اللاتينية . » وقطع أخري مدون عليها صيغة لاتينية تترجم تماما الدعوة « لا إله إلا الله » . هذه البقية من اللاتينية التي توافق بصدق فترة الانتقال سوف تنتهي في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز . سبق أن حاول الخليفة عبد الملك (٦٨٥ ـ ٧٠٥م /٦٦ ـ ٨٦ هـ) تعريب الإدارة وفرض اللغة العربية في جميع المكاتبات الرسمية لكن عمر الورع (٧١٧ ـ ٧٢٠ / ٩٩ ـ ١٠١ هـ) أعطي هذا الإصلاح حماس عقيدته وكانت حركته فعالة .

فمن المعلوم حقا أن التطور الديني هو الذي قضي علي اللاتينية لأن التعريب ملازم للتحول للإسلام . كما أن اللغة اللاتينية والمسحية كانتا مترابطتين في هذه الكنيسة الأفريقية « الأكثر لاتينية من الغرب نفسه » وكما أنها كانت ظافرة في الأعمال اللاهوتية وفي صلوات الشهداء والمراسم والطقوس ، فاللغة العربية كانت مرتبطة بمصير الإسلام ، فهي لغة الكتاب المنزل ، لغة القرآن وترجمته لأى لغة أخرى كانت تبدو إنتهاكا لقدسيته كما أن فهمه استوجب تعلم اللغة العربية . إذا كان اكتساب البربر للغة المسلمين ضروريا للصلاة ومعرفة العقيدة الجديدة فهو يمدهم أيضا بمزايا أخرى لأنه يشبههم بحكامهم الجدد ويرفعهم الى مكانة المنتصرين . فاللغة العربية أبرزت مدن مثل القيروان وتونس عن الريف المحيط بها بسبب رجال الدين وجند الحاميات التي تحكم البلاد . كما أن التبادل الدوري للأسواق أجبر سكان الضواحي علي تكلم اللغة العربية محتفظين في الوقت نفسه باللغة البربرية لمعاملاتهم الخاصة . أما بالنسبة للغة اللاتينية فلم تحظي بنفس المصير الذي

حدث للغة البربرية بل كان محكوم عليها بالزوال مثل نخبة المثقفين البالية التي كانت تفخر بها . ومع ذلك فقد بقت لعدد من القرون في بعض الأماكن لاستعمالات خاصة ، كلغة للكنيسة الأفريقية ، عند بعض الطوائف المسيحية التى استخدمتها في الطقوس والصلوات الجنائزية . وسوف نعود للكلام عن ذلك .

ثالثا : رد الفعلي الخارجي

بمصادفة طريفة قدم لنا التاريخ المسيحي إطارا تذكاريا نافعا ومناسبا تماما للفترة التي تطرقنا إلي دراستها والتي يجب علينا الإنتهاء من تصفحها ، ففي تاريخ لم نصل إلي تحديده ولكنه بالتأكيد قريب من عام ٧٠٠ (٨١ هـ) وضع سقوط قرطاج النهاية لتاريخ إفريقيا البيزنطية ، كما أن هزيمة ووفاة الكاهنة نتج عنه اندحار المقاومة البربرية . سنري في عام ٨٠٠ (١٨٤ هـ) قيام سلطة إسلامية مستقلة ابتداء من أسرة الأمراء الأغالبة . وهكذا أصبح القرن الثـامن الميلادى نقلة بين نهاية العصور البطولية للفتح وبين بدايـة نظام جديد ، بين الأيام الأخيرة لمدينة عظيمة ذات تقاليد قديمة وبين فجر نهضة جديدة يرجع فضلها للإسلام .

لقد رأينا علي مر العشرين عاما الأولي لهذا القرن (الثامن) توطيد واتساع السيطرة الإسلامية بدون إثارة ردود فعل جادة ورأينا أيضا تحقيق الغزو الروحي للبربر . وبوصول يزيد بن أبي مسلم لحكم افريقية (في ٧٢٠ / ١٠٢ هـ) تم وضع نهاية لهذا الهدوء ، وبدأت المشكلات التي دامت ٨٠ عاما ، فبلاد البربر في ذهن الحكام المشرقيين هي دائما أرض غنيمة . وهذا البلد البعيد المشهور بالثراء كلف الغزاة تضحيات ضخمة ، وسكانه همج طالما أنهم ليسوا بمسلمين ، لذلك فهو أرض غنيمة لإثراء المنتصرين .

ولكنه أصبح الآن أرض إسلامية . وقد شرع بنجاح رجال ذوى عقيدة راسخة في كسب النفوس . وظهر فيه مناضلون مستعدون للإستشهاد ولنشر « الحق » . فكيف التوفيق بين احترام كرامة هؤلاء المهزومين وبين شرعية الخدمات التي يقدمونها والأفكار المسبقة للمنتصرين ومتطلبات الميزانية الإسلامية ؟ وكيف التسليم بأن النجاح التام للجهاد المقدس أنضب نهائيا الموارد المنتظرة ؟

سوف تتغير السياسة تجاه البربر بتغيير الحكام . هؤلاء الحكام وهم من كبار الموظفين بالطبع وقد قاموا بمهام مماثلة في عديد من ولايات الإمبراطورية لا يستقرون طويلا في مكان واحد . فمن ٧٢٠ (١٠٢ هـ) إلي ٨٠٠ (١٨٤ هـ) لا نحصي أقل من واحد وعشرين حاكما : سبعة حكام يمثلون الأمويين والأربعة عشر الأخرين ينتمون للعباسيين باستثناء عبد الرحمن بن حبيب الذي استولي علي الحكم بالقوة واحتفظ به لمدة عشر سنوات (٧٤٥/ ١٢٧ هـ - ١٣٨/٧٥٥هـ) ويزيد بن حاتم (١٥٤/٧٧١هـ - ١٧٢/٧٨٨هـ) الذي قضي ١٧ عاما من الحكم الحازم وكانت ولايته بمثابة بداية مملكة حقيقية . وأما بقية الولاة فبعد عام أو عامين بل وعدة شهور إما يستدعون من الخليفة أو يفقدون حظوتهم عنده بسبب الوشاية أو يقتلون من الثوار . ولذلك كان عدم استقرار القيادة الناتج عن ذلك سببا لضعف سلطة المشرقيين . ويزداد هذا الضعف نتيجة للخصومة التي تفرق المجتمع العربي وهي خصومة غامضة وقديمة جدا ولكنها في الوقت نفسه حادة . فتتعارض هنا عشيرتان مثلما في المشرق : عشيرة قيس أو المعديين وعشيرة كلب أو اليمنية واحتفظ خلفاء دمشق بتوازن خطير بين قيس وكلب . فهم يختارون ممثليهم في الولاية من هذا البعض أو من ذاك البعض الآخر حسب الأهواء الشخصية أو مقتضيات الساعة ، فعند وصول ممثل أحد الفريقين يقوم مباشرة بتغيير سياسة سلفه

نظرا لأن بداية ولايته تبدأ بعزل أعضاد الفريق الآخر . هذه الخصومات الضارة بمكانة المشرقيين عقدت علي وجه الخصوص مهمة الحكام أنفسهم فهي خلقت الفوضي واثارة غضب جنود الحاميات التي تحمي البلاد فهؤلاء المشلون للطبقة الحربية ، بدلا من معاونة السلطة المحلية ، خلقت لها أخطر الورطات . ولذلك، فنتيجة الانتفاضات البربرية والهزات التي خلقها العرب ، وإرسال الجيوش المكلفة التي تتطلبها الظروف بدا ضم بلاد البربر وكأنها صفقة خاسرة لحكام دمشق وبغداد الذين كانوا يأملون في الحصول علي دخل وفير ، فبدأوا في البحث عن طريقة لتخفيف العبء والحل هو : تكوين دولة مستقلة وراثية . والاعتراف بالمملكة الأغلبية وهو نهاية التطور الذي سنشير إلي مراحله الرئيسية .

فقد باشر يزيد بن أبي مسلم ، حاكم إفريقية ، وظيفته في ٧٢٠م (١٠٢هـ) وكان ينتمي إلي عشيرة قيس : فهو مولي الحجاج وخدم لديه كأمين سر وتدرب علي الطرق الإدارية خلال مرافقته الحجاج خادم الأمويين العزيز عليهم وذا الشخصية القاسية . فالحجاج لم يأبه بالشرعية بل كان يفرض علي مزارعي العراق الذين اعتنقوا الإسلام دفع الجزية والخراج (ضريبة الأرض) وحتي لا يتهربون من دفع الخراج كان يمنعهم من الهجرة الي المدينة ويعيدهم إلي قراهم . وعندما تولي يزيد الحكم في إفريقية أراد تطبيق هذه الطريقة المتهورة وسلك مسلكا مماثلا تجاه سكان شمال إفريقيا الذين أصبحوا مسلمين [٣٨] . وقرار آخر اختص به البربر الذين يكونون حرسه الخاص . فقد

---

(٣٨) عن الحجاج وأسلوبه انظر : Périer , Vie d'El Hadjdjadj (Bibliothèque de l'Ecole de Hautes Etudess) Paris , 1908, Gaudefroy - Demombynes , Le monde musulman et byzantin , Paris , 1931, pp. 200 ss ، النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ص ٢١١-٢١٢ ، ابن عذارى : البيان ١ : ٤٨ .

الآتية « حرس يزيد » علي اليد اليسري مثلما كان يفعل الملوك المسيحيون مع خدمهم . لم يتحمل البربر ذلك فقتلوه وعملهم هذا لم يكن إلا فورة غضب يرجع سببها إلي حاكم مستبد وأرعن : يقول النويري « وكتبوا الى يزيد بن عبد الملك : إنا لم تخلع أيدينا من طاعة ، ولكن يزيد بن أبى مسلم سامنا ما لا يرضاه الله والمسلمون فقتلناه وأعدنا عاملك ، فكتب إليهم : إنه لم يرض بما صنع ، وأقر محمد بن يزيد على عمله » [٣٩] ورغم أن هذا العمل كان ينذر بالعواصف فقد أعقبته ثلاث عشر عاما من الهدوء . وفي سنة ٧٣٤ م (١١٦ هـ) عُيِّن عبيد الله بن الحبحاب حاكما بواسطة الخليفة هشام . كان هذا الحاكم من عشيرة قيس مثل يزيد ويبدو أنه كان مثله مستعدا لفرض ضرائب لا حد لها . وكان قد قام من قبل بهذه التجربة في مصر بزيادة الخراج الذي يدفعه الأقباط بنسبة ١/٢٠ فكانت هذه الزيادة سببا لانتفاضة قام بها هؤلاء الناس المسالمون بطبيعتهم . وقد فعل الأعوان الذين اختارهم عبيد الله في البربر أكثر من ذلك . فقامت حملة علي السوس وبلاد السود بقيادة قائد من سلالة سيدى عقبة وعادت هذه الحملة بعدد كبير من الأسري . وفي الشمال الأقصي للمغرب قرر حاكم طنجة استقطاع خمس (١/٥) المخصص للخزينة العامة من البربر المسلمين . والنصوص المكتوبة تسمح لنا بالتأكد بأن الشأن لايمس الموارد الاقتصادية فقط بل والبشرية كذلك [٤٠] فكان واجبا علي البربر المسلمين تقديم حصتهم من الجوارى الجميلات وإرسال فراء خرافهم أيضا . فكانت تذبح قطعان كاملة من النعاج للحصول علي الصوف « ذات اللون العسلي » الذي يغطي الأجنة النادرة وذلك لتقديمه للخليفة . وهذا الابتزاز كانت له نتائجه . فاغتيل حاكم طنجة في ٧٤٠ م (١٢٢ هـ) واندلعت

(٣٩) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ص ٢١٢ .

(٤٠) ابن خلدون : العبر ٤ : ٢٤١ . ، النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ص ٢١٣ .

ببلاد المغرب فقد التف عدد كبير من القبائل حول سقا ء يدعي ميسرة وانتهزوا فرصة ارسال عبيد الله الحملة العربية إلي صقلية فزحفوا نحو طنجة واستولوا عليها واجتاحوا بعد ذلك السوس . فتدخلت علي عجل فرقة من أسبانيا ولكنها هزمت . فسحبت حملة صقلية وقامت حرب ضروس بالقرب من طنجة لم تسفر عن نتيجة واضحة ولكن ميسرة استطاع الانسحاب داخل المدينة وقتل داخلها بواسطة أعوانه واستبدل برئيس جديد لمتابعة حركته . تقدم الثوار المغاربة نحو المشرق ووصلوا حتي ضفاف نهر شلف وهناك تصادموا مع جيش مكون فقط من العرب الأصليين . فكانت معركة الأشراف وفيها انتصر الثوار . وقال ابن خلدون « وانتفضت إفريقية على ابن الحبحاب وبلغ الخبر الى الأندلس »[٤١]

هذه الخصومة بين المهاجرين والسكان ذات المظهر العنصري جديرة بالإنتباه ، ولكن الأكثر من ذلك الطابع الديني الذي كان يكسو للمرة الأولي رد الفعل البربري . فميسرة ليس مشاغبا عاديا يحث إخوانه المضطهدين علي الثورة ولكنه ينتمي للمذهب الخارجي وكان يدعو البربر للإنضمام إليه .

ولد مذهب الخوارج[٤٢] في المشرق قبل ٨٢ عاما بسبب الخصومة بين الخليفة علي ومعاوية الذى سيؤسس الدولة الأموية . ووافق الخصمان علي إثنين من المحكمين للفصل في الخلاف إلا أن مبدأ التحكيم نفسه الذي طرح لمناقشة اختيار الطائفة الإسلامية الشرعية بدا غير مقبول لمجموعة من المؤمنين الورعين الذين انشقوا ، هؤلاء المنشقون هم «الخوارج» . فإن كانوا اعترضوا

(٤١) ابن خلدون : العبر ٤ : ٢٤٢ .

(٤٢) I . Goldziher , le dogme et la loi de l'Islam , Jnad , franç . F . Arin , Paris 1920 , pp . 160 ss ; A . Bel , la religion musulmane en Berbérie , Paris , 1938 , pp . 140 ss .

علي استنكار مبدأ الاستفتاء الذي يعتبر أساس السلطة في الإسلام إلا أنهم كانوا حاقدين خاصة علي « علي » الذي قبل التحكيم بعد انتخابه وبما أنه خرج عن الطريق المستقيم فهو غير جدير بالخلافة . أما كونـه زوج ابنة رسول الله (ﷺ) فهذا لا يخول له أية أهليه فالسلطة العليا ترجع للأصلح أيا كان أصله وجنسه . فهذه المبادئ ـ التي نرى فيها التوجيه العادل ـ كانت مدعمة بالتعصب ومن لا يتبعها يصبح عدو الدين ويستحق الموت . ثورة الخوارج التي أخمدها عليٌ بشدة ظهرت مرة أخرى بتوسع أثناء خلافة الأمويين وجلبت لخليفة دمشق مصاعب خطيرة . والحجاج حارب الجماعات المختلفة الناتجة عن هذا المذهب مثل الأزارقة والصفرية ، والأباضية . فلما وجدوا أنفسهم مطاردين في المشرق ، تواروا وتفرقوا في البلاد الإسلامية ناشرين الدعوة في شعوب البلاد المفتوحة ، شعوب سلهة التأثر بهذه الدعوة مثل بربر المغرب .

نحن نجهل حقا ظروف انتشار المذاهب المستوردة من المشرق ، يقول ابن الأثير « وظهر في ذلك الوقت جماعة بإفريقية فأظهروا مقالة الخوارج »(٤٣). ويروي ابن خلدون أيضا « ولقنوها من العرب الناقلة ممن سمعها بالعراق ـ مهبط الخوارج ـ وتعددت طوائفهم »(٤٤) . فإفريقية كانت بدون شك المرحلة الأولى من بلاد البربر لاستقرار الخوارج المطاردين . ونسجل هنا أن ميسرة كان سقاء في القيروان ، ومع ذلك إجتاحت الدعاية بسرعة المغرب الأقصى ، وانضمت لحركة الخوارج المناطق الشاسعة للسهول الشبه أطلسية المسماه برغواطه وذلك قبل أن يتزعمها ميسرة . كانت الخوارج الصفرية تخضع لرئيس يدعى " عبد الأعلي بن حديج الافريقى " وهو من أصل مسيحى واعتنق

(٤٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٤ : ٢٢٢ .

(٤٤) ابن خلدون : العبر ٦ : ١٤٤ .

الاسلام على يد العرب [٤٥] . من كان هذا الرجل الذى يحدثنا عنه ابن خلدون ؟ ما هو الرأى فيما يقوله لنا ابن خلدون عن انتشار هذه الحركة " بين بربر الطبقة السفلى " ؟ نحن نعتقد أن الفصاحة السياسية المذهبية التى اشتهر بها أساتذة الحركة لم يستوعبها الفلاحون البربر تماما كما كان موقف أجدادهم من المناقشات التى زعزعت الكنيسة الإفريقية . لكن مذهب الخوارج يرتكز على بنود أساسية سهلة المنال للعامة وهى التى أشرنا إليها ، فالنزعة المنبثقة منها كانت تلبية لآمال الشعوب المفتوحة الذى أحبطها المسلمون ، فالسلطة العليا توكل للأكثر تقوى وصلاحا وعلما من أى جنس حتى ولو كان عبداً زنجيا . وأى تفوق فى الاجناس لا يعطى للعرب حق حكم المسلمين الآخرين . هذا المذهب المشرقى النابت من الإسلام قدم إسلاما صارما فى عدالته وكان محققا لمطالب الكادحين (البروليتاريا) فى شمال إفريقيا ، فانضمت له هذه الطبقة بحماسها وتدنيها الساذج وعدائها الطبيعى ، وانتشر هذا المذهب عبر بلاد البربر بأكملها كرمز لتحرره وأصبح الشكل الخاص بالاسلام فى بلاد البربر . وبعد النجاح الأول وتدهور مكانة العرب ، ظهر تيار غامض للتضامن بين البربر فاق ماحدث فى عهد ميسرة .

لم تضع معركة الأشراف حداً لانتصارات الثوار ولذلك اضطر الخليفة الأموى الى ارسال ١٢ ألف من الجند الشامى وعزز الجيش فى مصر وطرابلس. ولكن قضى عليه بالقرب من وادى سبو ولجأت بقايا هذا الجيش الى أسبانيا (٧٤١ م/١٢٧ هـ) وفى العام التالي وصل إلى إفريقية حنظلة بن صفوان الذى علم أن الخوارج البربر يتقدمون نحو القيروان منقسمين الى مجموعتين ، المجموعة الأولى بقيادة بربرى من قبيلة هوارة الإفريقية ، والمجموعة الثانية

(٤٥) ابن خلدون : العبر ٦ : ١٤٤-١٤٥ .

التي تتمثل فيها كل القبائل الافريقية يرأسها عكاشة الفزارى ، وهو عربى كان يرأس فرقة الاستطلاع الشامية فى المعركة السابقة ، ولكن ميوله الخارجية جعلته ينضم للثوار ، فأسرع حنضلة بمهاجمة المجموعتين كل على حده قبل أن تلتحما .

أبيدت مجموعة عكاشة فى القرن وهزمت الأخرى فى الأصنام بالقرب من القيروان بواسطة جيش من المتطوعين جندوا على عجل وذلك بعد أن تمكنوا من هزيمة الفرسان العرب الذين أرادوا قطع الطريق عليهم ، كان لهذين النصرين ثمنا باهظا التكاليف ودوى هائلا في المشرق ، فقد شبها بغزوة بدر التى انتصر فيها الرسول والتي أكدت مستقبل الاسلام . ولقد قال عالم مصرى « ما من غزوة كنت أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر أحب من غزوة القرن والأصنام » . (٤٦)

كان هذا الانتصار المزدوج آخر أمجاد الأمويين إذ بدأت الخلافة الأموية فى الإنهيار وفي نفس الوقت بدأت بلاد البربر تنظم شئونها بعيدا عنهم . فقد استبعد عبد الرحمن بن حبيب الذى نزل فى تونس عند عودته من أسبانيا حنظلة والى الأمويين ، كما استقل استقلالا تاما عن العباسيين ، ولكنه اغتيل بواسطة أشقائه الأثنين فترتب على ذلك صراع بينهما وبين نجل ضحيتهم . بذلك أصبح الحكم فى إفريقية مجال لمشاحنات عائلية بدا فيها الخليفة غير مهتم أو غير قادر على التدخل فيها . ولكن ما يسترعى الانتباه خاصة ، هو الدور الذى يلعبه البربر فى هذه الخصومات والمزايا التى يحصلون عليها من وراء ذلك . اضطر واحد من الأخوين الهرب من القيروان ولجأ هو وأعوانه الى قبيلة ورفجومه فى الجنوب التونسى وهى قبيلة بربرية مرموقة .

(٤٦) ابن عذارى : البيان ١ : ٥٩ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ (بيروت ١٩٦٧ م) ، ٥ : ١٩٠-١٩٤ .

هذه القبيلة تعتنق المذهب الخارجي الصفري مثل الضيف الذى نزل بها . فاتجهت نحو القيروان واستولت عليها . وارتكبوا فيها أسوأ التجاوزات وقاموا بذبح القرشيين ، وهم من أهل الرسول ، ووضعوا جيادهم فى الجامع الكبير ، ومن الغريب أن الذين يعاقبون هذا الجرم وهذا التدنيس ليسوا ، كما حدث سلفاً ، عربا مرسلين من المشرق بل بربر خوارج على مذهب الاباضية يستولون على القيروان ويبقون فيها من صيف ٧٥٨ م / ١٤٠ هـ الى صيف ٧٦١م/١٤٤هـ ألا يبدو وجود هؤلاء البربر الثائرين في مدينة سيدى عقبة ولمدة ثلاث سنوات هو عودة الى عهد كسيلة الذى استولى هو أيضا عليها لمدة ثلاث سنوات .

لذلك توجه مجموعة من أعيان العرب الى بغداد لاطلاع الخليفة المنصور على الحالة فأمر هذا الأخير والى مصر بتدارك الموقف . فقام الوالى بارسال جيش ولكنه هزم . فأرسل الخليفة للمرة الثانية جيشا ضخما بقيادة ابن الأشعث يشمل قوات من خراسان ، هؤلاء الفرس الذين كانوا من أخلص صناع العظمة العباسية وبعد لقاء مؤسف مع الخوارج انتصر العرب وأعيدت مدينة القيروان بسبب تفكك الخوارج ومهارة القائد العربى فاستغل ابن الأشعث هذا النصر وعن طريق الارهاب الذى فرضه على البربر والمذابح المتعددة أجبر الثوار على الخضوع . نتيجة ذلك ساد النظام إفريقية ولكن باقى بلاد البربر لم تكن فى يد العرب بقى الخوارج فيها ذو نفوذ . ففى تلمسان قام هؤلاء الخوارج بتعيين " أبى قرة " زعيم قبيلة بنى يفرن العظيمة خليفة ليصبح رمز المقاومة . أراد " الأغلب " الذى تولى الحكم بعد الأشعث ، مهاجمة تلمسان والتقدم حتى مدينة طنجة ولكن أثناء السير تخلى عنه الجند العربى ، وأخذوا يعودون الى القيروان للاستيلاء عليها ، فتخلى هو أيضا عن محاربة البربر وعاد لمعاقبة العرب ولكنه قتل .

ولذلك ، ففى غضون ٧٦٨ م (١٥١هـ) بدا أن سيادة المشرقيين على بلاد البربر عملية متعبة ومستقبلها غير مضمون فعدم النظام وضعف روح الجهاد في صفوف العرب ، في مواجهة الحماس الحربى عند البربر وحب التحرير ، الذى يعززه التعصب الدينى ، كل ذلك جعل مهمة الولاة المشرقيين صعبة ، كما أن هؤلاء الولاة هم من كبار الموظفين الذين لا يرتبطون بالأرض ولم تكن مهمتهم إلا مهمة عابرة .

وعلى كل كان الخلفاء لا يجهلون هذه الصعاب ويحاولون تخفيف الأخطار التى يواجهها الإسلام فى هذه الولاية البعيدة . فلهم فيها جواسيسهم ووسطاء يستقون منهم المعلومات . وأهم هؤلاء " عمال البريد " الذين يربطون العاصمة بأجزاء الامبراطورية المختلفة ويرسلون تقاريرهم السرية عن تصرف الولاة . فواحد من هؤلاء وكان شيخا هرما ، وكذلك القائد أبو العفير وكثير من رؤساء الجند ، قاموا بتحذير هارون الرشيد كتابة مبينين له أهمية ولاية إفريقية المتاخمة للخوارج . فهذه الولاية تتطلب حاكما حازما . [٤٧] وفعلا أصبحت إفريقية ولاية متاخمة وأرض الجهاد المقدس . ومن المرجح أن تكون الأحاديث التى أشرنا إليها فى بداية هذا الباب والتى تنص على دوام الحروب الإسلامية على المسرح الافريقى والتى تنبأ بها الرسول قد ظهرت ابتداء من فترة الصراع مع الخوارج . فالحروب تتجدد باستمرار ولفترات طويلة . ويقول ابن عذارى " فقيل أنه كان بين العرب والبربر من لدن قاتلهم عمرو بن حفص الى انقضاء أمرهم ، ثلاثمائة وسبعون وقيعه " [٤٨] .

وجود والى حازم هنا كان ضروريا أكثر من أى مكان آخر . وكان الحظ

(٤٧) ابن عذارى : البيان ١ : ٨٥ .

(٤٨) ابن عذارى : البيان ١ : ٧٧ ، النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ص ٢٣٨ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٥ : ٣٣ .

حليف الخلفاء العباسيين فى الحصول على كثيرين منهم أمثال عمر بن حفص ويزيد بن حاتم اللذين حصلا على نتائج هامة وشبه قاطعة : فبالرغم من عودة هجوم البربر والخوارج ، إلا أنهم لم يحققوا نفس النجاح والانتشار ويبدو أن بعض التدابير التى اتخذتها العاصمة بغداد قد ساعدت على فرض الهدوء .

فقد كانت الجيوش المشرقية المرسلة أكثر عددا وأحسن تسليحا من البربر الخوارج وبذلك استطاعوا محاربتهم أو فرض السلام عليهم ، فيزيد بن حاتم جلب معه ۳۰ ألف رجل من الجند الخرسانى و ٦۰ ألف من جند البصرة والكوفة والشام .

ومع وصول العناصر الجديدة الأسيوية الى بلاد البربر ، تم اعادة استغلال بعض القلاع البيزنطية القديمة فقد أتخذها الولاة كقواعد أمامية للجند وكذا أماكن لراحتهم بعد أن كانت قد قوضت فى عهد الكاهنة . فقد أمر الخليفة المنصور واليه عمر بن حفص بتحصين مدينة طبنه التى تقع فى شرق شط الهدنة لتصبح عاصمة ولاية الزاب حيث استقر الجند العباسي وسيتوالى على حكمها نخبة من القواد لضمان سلامتها ففيها كان يوجد ابن الأغلب ـ الحازم الماهر ـ عندما عينه الخليفة حاكما على إفريقية .

وساعد على تحسين الاوضاع بإفريقية سياسة العباسيين الجديدة تجاه بلاد المغرب . فعمر بن حفص الذى قام المنصور بتعيينه كان من عائلة المهلب التى قدمت خمس حكام آخرين . والذى قاد فى المشرق الصراع ضد الخوارج الأزارقة وسلالته تحارب فى المغرب الخوارج الصفرية والإباضية . فكأن الصراع مع الخوارج أصبح سمة من تراثهم العائلى خصوصا وقد استمرت الولاية فيهم وهذا يناسب حسن الادارة . وهكذا أخذت ولاية إفريقية وبقبول من الخلفاء شكل الولاية الوراثية أو المملكة المستقلة وهى مملكة المهلبيين وكان هذا طبيعيا إذ بعد وفاة يزيد بن حاتم حكم ابنه داوود لمدة تسمة أشهر ونصف وكان قد ولاه

أبوه أثناء مرضه الأخير ، فتصدى لعدة حملات خارجية فى انتظار وصول عمه روح بن حاتم - الذى عينه الخليفة - ليتقلد زمام الحكم .

بالطبع بدت التجربة مفيدة وما لبثت حكومة بغداد أن تلجأ اليها صراحة ، وعلى كل لم تكف إفريقية عن جلب المتاعب لحكامها المشرقيين ، فالبلاد لم تكن فى مأمن من هجمات بيزنطة أو على الأقل نزول مغامرين من صقلية أو ايطاليا . ففى عام ٧٩٦م (١٨٠هـ) شرع الحاكم هرثمة بن اعين فى بناء السور البحرى لطرابلس وسور رباط المنستير وهو يعد أشهر وأضخم القلاع الحصينة التى تحمى الشاطئ التونسى . (٤٩)

وهكذا حينما كادت ثورة الخوارج أن تهدأ فى بداية القرن التاسع الميلادى ، دخل ابراهيم بن الأغلب مع البربر فى " حروب يطول ذكرها " (٥٠) ولكن الذى كان يجلب المتاعب للولاة العرب هم العرب أنفسهم فمشاغبات رؤساء الجند يتصدى لها الولاة إما بالمداراة أوبصلابة حسب الحالة . وآخر الولاة المهلبيين " استخف بالجند ، وسار بهم سيرة قبيحة " تسبب فى ثورة خطيرة جدا استشهد فيها . فقام ابن الجارود رئيس الجند الثائر بمساعدة زملائه فى حامية تونس بالثورة التى انتشرت فى إفريقية بأكملها وأصبح سيدا على القيروان لمدة سبعة أشهر ولم يغلبه إلا هرثمة بن اعين .

وجد هارون الرشيد أن هرثمة هو أصلح من يعيد الهدوء للبلاد لما يتمتع به

---

(٤٩) ابن عذارى : البيان ١ : ٨٩ ، النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ص ٢٤٦ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٥ : ٩٥-٩٦ عن رباط المنستير انظر , G . Marçais Notes sur les ribats en Berbérie , dans les Mélanges R . Basset , pp . 288 ss .

(٥٠) ابن عذارى : البيان ١ : ٩٢ .

من سماحة تجاه جند خراسان ، ولكن ابن الرفيق يروى " تلما رأى هرثمة بن أعين ما رأى من الخلاف بإفريقية ، وسوء طاعة أهلها ، طلب الاستعفاء ، فكتب إليه الرشيد بالقدوم عليه فرجع إلى المشرق " (٥١) هذا الاعتراف السابق من والى كبير تمرس بالخبرة فى ولايات متعددة للامبراطورية الاسلامية يوضح الكثير مما كانت عليه بلاد البربر فى القرن الثامن أو على الأقل الجزء الخاضع لسيطرة المشرقيين ، ففتح البلاد كان شاق والحكومة متعبة ، ولكن القرن التاسع سوف يبدل ذلك وتتعرض إفريقية الخاضعة لوصاية المشرق لنهضة عصر ذهبى .

(٥١) ابن عذارى : البيان ١ : ٨٩ .

الفصل الثانى

نهضة القرن التاسع (الثالث الهجرى)

مقدمة

أولاً : مملكة الأغالبة

أ ـ العلاقات مع الخليفة

ب ـ غزو صقلية

جـ ـ شعب إفريقية (تونس)

د ـ الحياة الاقتصادية .

هـ ـ الحياة الدينية والفن الإسلامى

ثانياً : بلاد البربر الخارجية ومملكة تاهرت

ثالثاً : بلاد البربر العلوية ومملكة الادارسه

مقدمة

فى تقديرنا أن فى نهاية القرن الثامن إنتهى الفتح الاسلامى لشمال إفريقيا بنصف إفلاس . فمن مائة عام مضت ، كان كل من سيدى عقبة وموسى بن نصير قد عبرا البلاد منتصراً من القيروان حتى المحيط الأطلسى . ولكن لم تتجدد بعد ذلك هذه الحملات الملحمية ، ففى ٧٦٣ م (١٤٦هـ) عندما أراد الوالى الأغلبى التقدم ضد تلمسان والوصول إلى طنجة ، تخلى عنه رؤساء الجند . كما تنازل الخلفاء العباسيين عن السيطرة على ثلثى بلاد البربر ، كما اهتم ممثلوهم بإعادة السلام فى ولايتهم وتقوية الدفاع عنها أكثر من توسيع الحدود . ومع ذلك ورغم أن هذه المجهودات والتضحيات لم تحظ بالتوسع السياسى والايرادات المالية المرجوة فقد حققت نتيجة هائلة فى المجال الروحانى : فبلاد البربر بدون شك لم تصبح كلها إسلامية ، ولكن الإسلام ظهر فى كل مكان . وتغلغل فى السكان الذين لم يخضعوا بعد ، فى صورة المذهب السنى أو الخارجى . وسوف يرى القرن التاسع إتمام عملية إنتشار العقيدة وغزو الإسلام لمواقع جديدة بفضل النظام الجديد الذى أقيم فى البلاد .

هذا النظام الجديد يذكرنا إلى حد ما بالتنظيم فى العهد الرومانى وهو تقسيم البلاد إلى ثلاث مناطق كبيرة . ولاية إفريقية و Numidie ثم المغرب الأوسط (موريتانيا القيصرية) ثم المغرب الأقصى (موريتانيا الطنجية) . هذا التوزيع كان يسبق توزيع القرن ١٣ (٧هـ) ، ١٤ (٨هـ) وهو توزيع شمال إفريقيا بين ملك تونس وملك تلمسان وملك فاس ، والى حد ما ، منطقة شمال

إفريقيا الفرنسى . وبتعبير أدق كانت الدولتان الحديثتان الموجودتان فى طرفى البلاد محددة ومتماسكة وهما مملكة الأغالبة التى تشمل تونس الحالية والجزء الأكبر من ولاية قسطنطينية والمملكة الإدريسية التى تشمل المغرب من المحيط الأطلسى حتى وادى ملوية . أما المنطقة التى تمتد بينهما فكانت مفتتة ، كانت تشبه الفسيفساء ذات العناصر المتشابكة والغير محددة المعالم لنا . كانت تتكون من قبائل مستقلة أو خاضعة لرؤساء محليين ينتمون للمذهب السنى أو الخارجى . وأهم بلاد المغرب الأوسط تعد مملكة تاهرت الممتدة وسط بلاد البربر وكانت ذات طابع واضح وازدهار واسع . هذه الممالك الثلاث كانت تكون لوحة ثلاثية للقوى الإسلامية ببلاد المغرب .

برغم الخصومة والتنافس بين هذه الممالك الثلاث ، إلا أنها تتشابه . فبينها عدة ملامح مشتركة تسمح لها بمزاولة أحداث متقاربة فى شمال إفريقيا وبالتعاون فى نهضة القرن التاسع رغماً عنها .

أولاً : الأصل المشرقى للمؤسسين الذين شجعوا وصول نخبة من أبناء جنسهم ، وخلقوا تيارا متصلا بين أسيا السالفة والمغرب كل ذلك رسخ اتصال هذه الأرض البعيدة التى انضمت الى العالم الإسلامى ومهد الدين ، وفى نفس الوقت بالمراكز القديمة للثقافة اليونانية والإيرانية .

ثانياً : أهمية المذاهب الدينية فى الممالك الثلاث . ففى كل من مملكتى تاهرت والادارسة ترجع حظوة الاسرة الحاكمة لما تمتعت به كل منهما من تأييد شعبى لمذهبيهما الدينى ، وأما مملكة الأغالبة فرغم افتقارها لهذه الحظوة ، إلا أنها عملت على التقرب الى الفقهاء والعلماء ورجال الدين . وهكذا قامت الممالك الثلاث كل على انفراد بالعمل على نشر الإسلام وترسيخه ببلاد البربر ، ومنذ ذلك الوقت أخذ المذهب السنى فى شمال إفريقيا الشكل الذى احتفظ به حتى يومنا هذا

وأخيراً يلاحظ أن نهضة هذه القوى الثلاث فى القرن التاسع انطلقت من ثلاث مدن : فالقيروان تصل ذروتها ، وتتسع تاهرت فى منطقة محرومة من مراكز مدنية ولكن سمعتها تصل حتى أسيا . وتنشأ مدينة فاس وتستمر على مر العصور . فتطور هذه المدن ومدن أخرى هو الحدث الأكثر بروزاً والأكثر تميزاً لنهضة حضارية . كما تعود البربر على العادات الأقل خشونة وعلى تقبل الثقافة نتيجة لظروف تأسيس هذه العواصم وقوة الجذب الذى أحدثته والتبادل الذى قامت به والتعاليم التى تفرغت لها .

هناك ترابط فى اللغة العربية بين كلمة "مدينة" وكلمة " تمدين" (حضارة) : نلاحظ اشتقاق كلمة من الأخرى . هذه الحضارة المدنية (المعنى اللفظى عائد من مدينة) هى استيراد مشرقى . ومع ذلك يمكن الاشارة الى أن ظهور الحضارة وازدهارها بالبلاد بدأ فى المدة التى كانت تحت الحكم الرومانى ، إذ أن الثقافة الإسلامية فى بلاد البربر بدت وكأنها نهضة ، أو كأنها إحياء لشيئ من ماضى بعيد . فمدينة فاس عاصمة الأدراسة ، وحتى تاهرت عاصمة الرستميين ستزدهر كل منهما وفقا لمدينة القيروان عاصمة الأغالبة . لذلك سنبدأ بالكلام عنهما .

أولاً : مملكة الأغالبة (١)

أ ـ العلاقات مع الخليفة

فى منصف يوليو سنة ٨٠٠ (جمادى الثانى ١٨٤) لم يندهش ابراهيم بن الأغلب عند استلامه ولاية حكم إفريقية من الخليفة العباسى هارون الرشيد . فتعيينه كان لازما ، وحل محل «ابن مقاتل» شقيق الخليفة فى الرضاعة فقد كان غير كفء ومكروه لدى القيروانيين والجند العربى لرعونته واستبداده . فثار الجند وقامت حامية تونس وعلى رأسها « تمام » حاكم المدينة واتجهت نحو القيروان واحتلتها فى أكتوبر سنة ٧٩٩(١٨٣هـ) فأسرع ابراهيم بن الأغلب نحو القيروان لإنقاذها وكان آنذاك والى للزاب . واضطر الثائر لترك المدينة عندما علم بقرب وصول ابن الأغلب. فعاد « ابن مقاتل » للحكم . ولكن القيروانيون أسفوا لعودتـه برغم اعجابهم الشديد بشجاعة ابن الأغلب وإخلاصه . فتشاوروا فى مصيرهم المحزن .. " ففزع الناس إلى تمام " لنجدتهم وهو ثائر الأمس . (٢) فاتجه للمرة الثانية نحو القيروان ولكن ابن الأغلب هاجمه مرة ثانية وانتصر عليه فلجأ تمام الى تونس . ولكن الى متى سيكون انقاذ هذا الحاكم السيئ ، من شعبه ، الحـانق عليه والمنزعج منه ؟ وحسب قول ابن الأثير (٣) قام القيروانيون باقناع ابن الأغلب بولاية إفريقية لنفسه

(١) حول الأغالبة انظر M. Vonderheyden, LaBerbérie oriental sous la dynastie des Benoû " l-Arlab (800-909), Paris, 1927 ; G. Demombynes, art. Aghlabides, dans L'Encyclopédie de l'Islâm ; Fournel, Les Berbers, 2 vol. ,Paris, 1857-1875 ; Ch. Diehl et G. Marçais, Le monde Oriental de 395 á 1081. (Histoire générale de G. Glotz) , pp. 413-419 .

(٢) ابن عذارى ؛ البيان المغرب ١ : ٩١ .

(٣) ابن الأثير ؛ الكامل فى التاريخ ٥ : ١٠٤ .

وقد وافق هارون الرشيد على ذلك بعد استشارة العارفين بوضع الولاية وبقدرة ابن الأغلب .وابن الأثير هذا هو الوحيد الذى يدعى أن ابن الأغلب عرض على الخليفة الاستغناء عن معونة ١٠٠,٠٠٠ مائة ألف دينار التى تقدمها مصر معونة لإفريقية والتعهد بدفع معونــة للخلافــة تســاوى أربعون ألف دينـار مقابل توليته !! هذه المعلومة من كاتب مشرقى متـأخر عن الأحداث (ت ١٢٣٣م/ ٦٣٠هـ) ولكن موثوق فى شهادته تجعلنا نعتقد أن بلاد البربر التى كانت فيما مضى تساهم فى ثروة الخلافة بفضل الغنائم المقدمة من أهل البلاد ، أصبحت منذ أن أسلمت وهدأت الى حد ما حمل ثقيل عليه وعلى مصر بصفة خاصة . ونحن نعرف أن هذه المعونات المرسلة الي حاكم إفريقية كانت لنفقات الجند وهى حاميات الدفاع . وكان من ضمن مساوئ الحاكم السابق « ابن مقاتل » إنه كان متهما بتحويل هذا الرصيد لحسابه الخاص ومن المشكوك فيه أن تستطيع إفريقية فى هذه الآونه الانفاق وحدها على مصاريفها الحربية . وسوف نشير فيما بعد عما نعرفه عن الطريقة التى كانت تدار بها هذه الاختصاصات .

كانت الخلافة فى أوج عظمتها عند الاعتراف بالوضع الجديد لإفريقية . فهارون الرشيد كان عاهلاً عظيماً ويرتبط عهده بعهد الملك شرلمان ولم يكن اتفــاق سنة ٨٠٠م (١٨٤هـ) إلااخلالاً بوحدة الامبراطورية الإسلامية العظيمة ، كان هذا الاتفاق أول حركة انفصالية يتبعها سنة ٨٢٠م (٢٠٥هـ) انفصال خراسان وبعد ستين عاما انفصال مصر . ومع ذلك فمن الخطأ أن نتصور أن تحرر أو انفصــال واليا بعيدا ، كان يضمن له الأمان طوال فترة حكمه ، كما لا نستطيع القطع بأن ما فعله الخليفة بالنسبة لإفريقية وما فعله خلفاؤه من بعده بالنسبة لخراسان ومصر هو إقرار لوضع قائم والمحافظ على الظواهر فقط ولكن كان هذا الاتفاق بمثابة الحل المفيد لوضع صعب لم يدم

طويلاً . فلم تصبح إفريقية ولاية للإمبراطورية ، كانت إفريقية بالنسبة لبغداد أكثر من بلد مستقل سياسياً ولكنه يخضع لولاء بغداد كدول العصر الحديث ، بخلاف دولة تابعة كدول العصور الوسطىٰ ، فكان بعدها يجعلها غير صالحة للخدمات الاقطاعية مثل تقديم المحاربين ، ونظام حكمها قد يجعلنا نفكر فى خضوعها لبغداد ولكن بشئ من الاختلاف الذى أدخلته نظرية السلطة فى الإسلام .

تؤكد هذه النظرية الإسلامية اللقب الذى اتخذه ابراهيم الأول وخلفاؤه . فالكتـــاب والمؤلفون يستعملون لقب " حكام " وكثيراً مــا يستعملون لقب "أمراء" الذى يبدو لقباً رسمياً . فالإمارة كما يصفها مؤرخ مثل الماوردى هى : السيادة الدنيوية بما فيها من اختصاصات حربية وقضائية ومالية وادارية مفوضة من الخليفة على ولاية محددة . فالولاية هنا هى أرض البربر بأكملها التى كانت نظريا جزء من الامبراطورية . فالأمير يستمد سلطته من الخليفة الحاكم . وعند ولاية خليفة جديد يقوم باقرار ما فعله سابقه ويحصل بدوره على ولاء الأمير ، فهذا الولاء يجعل سلطة الأمير شرعية . فهو يجعل من هذه السلطة انبثاق من القوة المبجلة فى الإسلام (وهى سلطة الخليفة) وهكذا فالأمير ممثلا لأمير المؤمنين . هناك حدث عرضى ولكنه يوضح التضامن بين الخلافة والامارة : نحن نعلم بأن اللون الأسود كان اللون الرسمى للعباسين فأعلامهم كانت سوداء وملابسهم الرسمية كانت سوداء وكانت توزع على من يقومون بخدمتهم بإخلاص . ففى سنة ٨٠٢ (١٨٦هـ) ثار حمديس الكندى على ابراهيم الأول الأغلبى وكان رئيسا كبيراً فى تونس ، فأول مظهر للقطيعة كان تجرده من ملبسه الأسود فى المحافل . (٤)

(٤) النويري : نهاية الأرب فى فنون الأدب ص ٢٥٤ .

وعلى كل فتبعية الأغالبة كانت تؤيدها بوضوح الرسوم (الضرائب) التى كانت تمول خزينة الخليفة . كانت إفريقية تقدم كل عام ـ تنفيذاً لاتفاقية عام ٨٠٠ ـ قطعاً ذهبية مسكوكة لهذا الغرض . ولقد بين حسن حسنى عبد الوهاب قطعة مؤرخة ٨٠٥ (١٨٩هـ) تحمل كلمة " للخليفة " (٥) ولكننا مع ذلك نجهل قيمة هذه الضريبة . فهى حسب ابن الأثير ٤٠,٠٠٠ دينار أى ٨٠٠,٠٠٠ درهم . وابن خلدون الذى يستقى معلوماته من مصادر مؤكدة يقول ثلاثة عشر مليون درهم و ١٨٠ سجادة (بُسُطْ) ويقول ابن خلدون أيضا أن الأمراء كانوا يهتمون بوضع عدداً من القطع الذهبية الادريسية فى إرسالياتهم ، وهذه القطع الجميلة التى كان الادريسيون يسكونها فى فاس وذلك لإعطاء العباسيين فكرة مثيرة عن منافسيهم المغاربة . (٦)

من المحتمل أن تكون هذه الضريبة قد تغيرت ومن المشكوك فيه أيضاً أن تكون قد دفعت بانتظام لأن أمير مثل " أبو الغرانيق " الذى ترك خزانة الدولة خاوية نتيجة لمصروفاته الباهظة لم يسددها إلا بصعوبة . ومع ذلك فهى كانت بمثابة إيراد إن لم يكن محدداً فهى على الأقل متوقعة تقريباً . وعندما نقرأ لابن الأثير (٧) أن الخليفة المتوكل أقطع إفريقية والمغرب لولده محمد بصفة مقاطعة نفهم من ذلك أن المقصود قيمة الضرائب المدفوعة من هذه الدولة التابعة وهذا يجعلنا نفترض أن اختصاص كهذا لم يكن وهمياً .

---

(٥) Farrugia de Candia, Monnaies aghlabites du Musée du Bardo, dans Revue tunisienne, 1935, p. 272 .

(٦) ابن خلدون : العبر ١ : ٢٢٦ ، ٣ : ٢٨٦ ، ٤ : ٢٥٠ ، ابن الأثير : الكامل ٥ : ١٠٤ .

(٧) انظر الكامل فى التاريخ ٥ : ٢٨٤ .

هذه الالتزامات التى جعلت الأمراء يخضعون بموجبها للخلفاء لم تفرض عليهم الرقابة فكانت إفريقية تتمتع بالاستقلال المالى مثل مصر فى عهد الطولونيين . فالخليفة لا يتدخل فى إدارة المملكة ولا فى نظام خلافة حكامها ، فقد قام بالخلافة ثلاثة من أبناء ابراهيم الأول واثنان من أحفاده ، ثم ثلاثة من أولاد أحفاده ، وأخيرا ابن وحفيد واحد من أولاد أحفاده . أى أن الإمارة استمرت فى إحدى عشر حاكما ، من نفس الاسرة ، ينتمون الى ست أجيال . والجدير بالذكر ، أن الحاكم قبل الأخير ، مات مقتولاً . والذى قتله هو ابنه للإستيلاء على الحكم . ويعتبر هذا الحدث فريد من نوعه فى هذه الاسرة . كان يحدث كل ذلك بدون استشارة الخليفة العباسى . ما عدا حالتين اضطر الخليفة العباسى التدخل فى عهد ابراهيم الثانى الأغلبى الذى كان مكروها لاستبداده ، فتدخل الخليفة عندما قام ابراهيم بمعاقبة سكان تونس الثائرين بشراسة فى ٨٩٦م(٢٨٣هـ) فطلب منه الخليفة الرجوع عن هذه الطرق البربرية أو ترك العرش لابن عمه[٨] . فلم يخضع الأمير لهذا الأمر وقتل ابن عمه المفضل عليه . وبعد ٦ سنوات فى ٩٠٢م (٢٨٩هـ) ولنفس الشكوى أمره الخليفة بالتنازل عن العرش لصالح ابنه فوافق المستبد هذه المرة واجداً بدون شك بعض المزايا [٩] وبعد أن تنازل عن العرش استطاع بحياة بنا مة أن يكفر عن جرائمه . ومن البديهى أنه فى حالة الرفض كان الخليفة لا يستطيع فرض احترام أمره لأن الأمير ليس موظفا يمكن اقالته . وقد وضع النويرى أن هذا الوضع هو الفرق الأساسى بين « أمير » وحاكم ولاية ، فهو يقول « وكان من قبلهم عمالا اذا مات أحد منهم أو صدر منه ما يوجبه العزل . عزله من يكون

---

(٨) ابن عذارى : البيان ١ : ١٢٩ .

(٩) البيان ١ : ١٣٣ .

أمر المسلمين إليه من الخلفاء فى الدولة الأموية والعباسية فلما قامت هذه الدولة كانت كالمستقلة بالأمر ، وإنما كانت ملوكها تراعى أوامر الدولة العباسية وتعرف لها حق الفضل والأمر وتظهر طاعة مشوبة بمعصية ولو أرادوا عزل واحد منهم والاستبدال به من غير البيت لخالفوهم وصار ملوك هذه الدولة يوصون بالملك بعدهم لمن يروه من أولادهم وأخوتهم » (١٠)

يقول المؤرخ « خضوع لم يكن دائماً تاماً » وبتعبير أوضح فهو احترام رسمى ليس فيه إذلال للأمير التابع بل يعطيه مساندة شرعية لتصرفاته . عندما استولت قوات الأمير أحمد على قصر يانه . أرسل المنتصر الخبر الى الخليفة ومعه بعض الأسيرات الصقليات (١١) . هذه الهدية ترفع من مكانة الأمير لدى الخليفة وباشراكه فى سببها تأخذ الحملة شكل الشرعية . وإظهار هذا الاحترام يبدو فى أكثر من مناسبة خصوصا فى الساعات الحرجة حيث تكون الدولة فى خطر . ففى سنة ٩٠٣م (٢٩١هـ) عندما علم زيادة الله الثالث ـ آخر الأغالبة ـ بتهديد الجيش الشيعى وفكر فى تكوين المقاومة ، أرسل هدية للخليفة العباسى فيها عشرة آلاف مثقال ، فى كل مثقال منها عشرة مثاقيل ، وكتب فى كل مثقال هذين البيتين :

يا سائراً نحو الخليفة قل له ... أن قد كفاك الله أمرك كلـه

بزيـادة الله بن عبد الله ... سيف الله من دون الخليفة سله (١٢)

وهكذا تعطى الظروف هذا المتبجح (الصلف) لهجة مأسوية .

(١٠) النويرى : نهاية الأرب ص ٢٥١

(١١) ابن خلدون : العبر ٤ : ٢٥٦

(١٢) ابن عذارى : البيان ١ : ١٣٧ .

إذا كانت المراجع لا تزودنا بالمعلومات الكافية التى تمس تنصيب خلفاء ابراهيم الأول والإرسال المنتظم للرسوم السنوية فهذا يجعلنا نفترض أن الصلة بين القيروان وبغداد قد تراخت وأن مملكة إفريقية كانت تتجه نحو الاستقلال التام ولكن هذه الهدية التى قدمها زيادة الله توضح لنا أن الأمير التابع كان يتذكر خليفته العباسي وينتظر منه مساعدة مادية أو سنداً معنوياً . والخليفة من جانبه كان يطلب حقوقه من الإمارة البعيدة بالتظاهر بالاهتمام بمصيرها . ففى سنة ٨٥٩م (٢٤٥هـ) حدث زلزال فى إفريقية وهدم عدة قلاع ومراكز سكانية فقام الخليفة المتوكل بتوزيع ثلاثة ملايين درهم على الضحايا (١٣) . وهناك نقش فى تونس يظهر لنا حدثا مميزا بهذا الشأن ، هذا النقش يوجد أسفل قبة الجامع الكبير ويعلن أن هذا الجزء من المسجد الجليل شيد فى ٨٦٤م (٢٥٠هـ) بأمر الخليفة « المستعين » (١٤) . نلاحظ أنه لم يذكر اسم الأمير الأغلبى الحاكم ويبدو أن القرار كان صادرا من الخليفة العباسى الذى تكفل بدون شك بالإنفاق ويبدو أن عدم مشاركة الأمير الحاكم فى هذا العمل ربما يرجع لموقف أهل تونس المشاغبين . وهكذا نرى الدليل على العناية المستمرة التى توليها حكومة بغداد لتطوير الإسلام فى هذا البلد وتأكيدها الوصاية الروحية التى تقوم بها .

ب ـ غزو صقلية

لولا حملات ما وراء البحار والنزاع المطلق مع الشيعة الذى هدد الأسرة

---

(١٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٥ : ٢٩٨ .

(14) G. Marçais, Manuel d'Art musulman, Paris, 1926, I, 13 : Creswell, Early Muslim architecture, II, 325 .

بالانهيار ، لإحتلت السياسة الخارجية للأغالبة مكانة متواضعة فى تاريخهم . فحروبهم مع جيرانهم شغلتهم بدرجة أقل من العمليات الحربية ضد رعاياهم البربر وقمع ثورات الجند العربي . فلم يكن هناك أى نزاع جاد مع مملكة تاهرت الخارجية ومحاولتهم الفاشلة لغزو مصر الطولونية سنة ٨٩٦م (٢٨٣هـ) رداً على هجوم فاشل أيضاً من الطولونيين ضد إفريقية سنة ٨٨٠م (٢٦٧هـ) أما بالنسبة للأدارسة فى فاس فكان العباسيون يأملون التخلص منهم ولكن أمراء القيروان كانوا يعتبرون أن الصراع معهم سيكون أخطر من المنافع المأمولة . فكانوا يحاولون بدعايـــة خداعة التقليل من حقوق الادارسة الوراثية فى الخلافة ، فهم يتظاهرون باحتقارهم ويتجنبون مواجهتهم خوفا من القبائل البربرية التى تساندهم . ولم يكن البذخ الحربى فى عهد الأغالبة ليساعدهم على تطوير البلاد لولا تمكنهم من ضم صقلية للمجال الإسلامى ، الذى أدى الى شهرتهم . لن نخوض فى مسألة الغزو ولكن سنحاول فقط الاشارة الى المزايا التى جعلت الأمراء يقومون بهذا الغزو وما تمخض عنه من نتائج .

ان الحملة التى قررها زيادة الله الأول والتى أبحرت من سوسه فى ١٣ يونيو سنة ٨٢٧م (٢١٢هـ) لم تكن الأولى التى قام بها المسلمون ضد الجزيرة الكبيرة . فمنذ سنة ٦٥٢م (٣٢هـ) حاولت حملة خارجة بلا شك من الشام مداهمة الجزيرة [١٥]. وسوف تستخدم إفريقية كقاعدة لعمليات ما وراء البحار ابتداء من ٦٦٦م (٤٦هـ) وهو العام الذي يلى الاستيلاء على قلعة جلولاء البيزنطية . وكان معاوية بن حديج قد أرسل الى الجزيرة مائتى سفينة وعند عودتها كانت محملة " أصناما من ذهب وفضة مكللة بجوهر » من

---

(15) Ch. Diehl, l'Afrique byzantine, p. 565 ; Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia, Catania, 1933, I, 194 .

المحتمل أنها أخذت من كنوز كنائسها [١٦] . وفى ٦٦٩م (٤٩هـ) خرجت حملة نظمها سيدى عقبة بالاتفاق مع المصريين » [١٧] . الذى أدى تعاونهم مع حسان ابن النعمان الى انشاء دار لصناعة السفن بتونس ، إذ بعد استيلائه على قرطاج أقام فى تونس ميناء بجانب البحيرة تجعله فى مأمن من مفاجآت الأسطول البيزنطى الآتية من جهة البحر . وزود هذا الميناء بدار لصناعة السفن جلب لها من مصر ألف عائلة قبطية متخصصة فى بناء السفن مما سمح بإرسال حملات بعيدة المدى . ويبدو أن موسى بن نصير قبل التفكير فى حملة أسبانيا تركزت سياسته البحرية نحو الجزر المجاورة للشاطئ الإفريقى ، فعين قائدا للأسطول لمهاجمة سرقوسة فى سنة ٧٠٥م (٨٦هـ) لينهبها ويعود محملا بالغنائم . وفي سنة ٧١٠م (٩١هـ) كان الدور على جزيرة سردينيا [١٨] وتضاعف الهجوم علي صقلية وسردينيا فى عهد خلفاء موسى بن نصير للحصول على الأسرى والغنائم . ففى عهد الأمويين ظهر شمال إفريقية الإسلامى كقوة بحرية . ففى سنة ٧٣٤م (١١٦هـ) حاول الأسطول البيزنطى نقل جيش لجزيرة صقلية ولكنه هزم بعد صراع بحرى [١٩] . ومن الملاحظ أن هذا النشاط اختفى فى عهد الحكام العباسيين . فمن سنة ٧٥٥م (١٣٨هـ) الي سنة ٨٠٠م (١٨٤هـ) بل وحتى سنة ٨٢٧م (٢١٢هـ) لا يذكر المؤرخون أية عملية جديدة ، فإما أن الصراع مع البربر ومع العرب أنفسهم قد امتص الحماس النضالى لحكام إفريقية أو أن صقلية كانت أكثر تحصينا من ذى قبل .

(١٦) البيان ١ : ١٨ .

(١٧) البيان ١ : ١٩ .

(١٨) ابن الأثير : الكامل ٤ : ١٢٤ .

(١٩) ابن الأثير : الكامل ٤ : ٢١٩ .

ويقول ابن الأثير : « وعمرها الروم من جميع الجهات وعمروا فيها الحصون والمعاقل وصاروا يخرجون كل عام مراكب تطوف بالجزيرة وتذب عنها وربما طارقوا تجاراً من المسلمين فيأخذونهم » (٢٠)

ومن المحتمل أن دور البحرية المسيحية لم يكن مقصوراً على الحماية فقط وأنها كانت تهاجم كذلك الشواطئ الإفريقية . ففى هذا الوقت أمر الوالى هرثمة ببناء رباط المنستير العظيم وتلاه بناء الكثير من الأربطة بعد ذلك . إذ كانت تحاط إفريقية « بحصون ومخابئ » لأن هجوم المسلحين والقراصنة كان من صنيعة الطرفين . وفى سنة ٨١٣م (١٩٨هـ) كانت رغبة الطرفين واضحة لوضع حد لهذه القرصنة فتمت معاهدة بين جريجوار بطريق صقلية وأمير القيروان ، لمدة عشر سنوات (٢١) ولكن سرعان ما عادت الغارات المتبادلة بعد أربعة عشر عاما .

ويمكن اعتبار حملة صقلية سنة ٨٢٧م (٢١٢هـ) وسيلة وقائية ضد الهجمات المسيحية وفى الوقت نفسه عودة مرة أخرى للسياسة الهجومية أيام الأمويين فصقلية تقدم للمسلمين آفاقا للغنائم التى افتقدوها ببلاد المغرب كما قدمت صقلية لهم أيضا أرضا جديدة لاستقرار العرب والبربر كما استقروا فى إسبانيا . فغزو صقلية أخذ مظهر عملية استعمارية مختلفة تماما عن الغارات السابقة :

إذا كان المكسب المادى قد شجع أكثر من واحد للاشتراك فى حملة صقلية ، فالمؤكد أن هناك كثيرون ، قد دفعتهم المصالح العليا للدين ،

---

(٢٠) الكامل فى التاريخ ٤ : ٣٤٥ .

(21) Voir Amari, Storia dei Musulmani, I, 357 .

والرغبة فى الحصول على فضل من عند الله . فإفريقية القرن التاسع كانت عقيدتها الإسلامية قوية . إذ كان كثير من الرجال الورعين يعيشون في عزلة فى أربطة السواحل للصلاة والتعبد والجهاد فى سبيل الدين فرحيل هؤلاء لمحاربة مسيحيى صقلية لهو التفانى فى « العمل الجليل » . واختيار رئيس الحملة (٨٢٧ م) كان يضفى عليها طابع الجهاد المقدس . فلم يعين زيادة الله قائداً عسكرياً محترفاً بل عين القاضى أسد بن الفرات وهو فقيه مشهور بحماسته وقدرتـــه على إفحام معارضيه . فكان الشخص المناسب لقيادة الجيش . ويقول ابن عذارى « فخرج معه أشراف إفريقيـــة ، من العرب ، والجند ، والبربر ، والأندلسيين ، وأهل العلم والبصائر ، وذلك فى حفل عظيم وعدة جليلة » فى سوسة وهى المدينة البحرية التى زودها زيادة الله برباط لحمايتها ، كان يموج بجماعات من سائر الألوان وكان حماسهم يذكرنا بالحملة الصليبية الأولى . فاختيار زيادة الله وشروعه فى الحرب كان ضمن السياسة الدينية للأغالبة وسوف نتكلم عن هذه السياسة فيما بعد . وقد فاز الأمير بحب رعاياه لولاءه لقضية الإسلام والثقة فى ممثليه . ولكن كانت هناك استفادة من نوع آخر .

ففى سنة ٨٢٧م (٢١١هـ) كانت مملكة الأغالبة خارجة من أزمة كادت تقضي عليها . فكان زيادة الله وللمرة الرابعة منذ ولايته فى صراع مع ثورة الجند العرب [٢٢] فثورة ٨٢٤م (٢٠٩هـ) بدأت هذه المرة أيضا من تونس ويعني أدق طنبذة وهى قلعة قريبة من المدينة حيث يعيش منصور بن نصر

(٢٢) البيان : ١ : ١٠١ ـ ١٠٢ ، ابن الأثير : الكامل ٥ : ٢١٤ ـ ٢١٥ ،
Abdul-Wahab. Un tournant de l'histoire aghlabite, dans Revue Tunisienne, 1957, pp. 345 ss.

الملقب بالطنبذي ودخل منصور مدينة القيروان منتصرا بعد أن هزم هو وأنصاره لمرتين متتاليتين الجيوش المرسلة لمحاربته . وبعد أن طرد منها عاد إليها في العام التالى . كان الجند العربى ملتف حوله لدرجة أنه كان يسك النقود باسمه وأصبح سيداً على إفريقية بأجمعها ما عدا المنطقة الساحلية من سوســة إلى طرابلس . وشاءت الأقــدار أن ينجو الأمير واسرتــه بفضل إخلاص نفزاوة القبيلــة البربرية الخارجة المجاورة لبلاد الجريد . ففى سنة ٨٢٦م (٢١١هـ) انهزم منصور ودب الشقاق فى حزبه وأصبح وحيداً وحاصره خصم له فسلم نفسه للخصم الذى قام بقتله . وبعد موته تفكك الثوار ونجت المملكة الأغلبية ولكن كانت هذه المحنة تنذير خطر . فكيف يتجنب الأمير الأغلبي هذه المحنة مرة أخري ؟ وكيف نجح فى إبعاد هذه العناصر المشاغبة من الجند العرب ؟

يقول ابن الأثير (٢٣) هناك حدث طارئ شد انتباه زيادة الله نحو صقلية . لقد ثار القائد البيزنطى فيمى (أوفيميوس) ـ وهو قائد الأسطول الصقلي ـ ضد الامبراطور ميشيل الثانى واستولى علي سرقوسة ونصب نفسه ملكا عليها . فلما تخلى عنه كل أتباعه هرب الى إفريقية لحث الأمير الأغلبى على غزو الجزيرة . وتذكرنا هذه المغامرة بمغامرة عودة المسلمين لبلاد البربر فى سنة ٦٦٥م (٤٥هـ) ومغامرة سنة ٧١١م (٩٢هـ) التى أوحت لهم باجتياح اسبانيا . وتقارب هذه المغامرات الثلاث يعطيها الى حد ما شكل الفولكلور . ولكن مهما كان سبب الحملة فالرغبة فى ابعاد ثوار الأمس المعفى عنهم والمختلطين بصفوف المجاهدين فى سبيل العقيدة قد راودت أمير القيروان . والغزو سيدوم طويلاً ويجب تمويله بالرجال وستصبح بذلك صقلية منفذا لعناصر الشعب

(٢٣) الكامل فى التاريخ ٥ : ١٨٦ ـ ١٨٧ .

والجهاد البطولى المقدم للمشاغبين المراد التخلص منهم مثل ما ستكون عليه اسبانيا بالنسبة للقبائل البربرية .

ولكن سيكون لضم الجزيرة الكبيرة مصلحة أسمى من هذه الفرص المواتية . فصقلية تعتبر مجال مغلق حيث يصطدم الإسلام بالمسيحية مثل شبه الجزيرة الأيبيرية (أسبانيا) والشام . لذلك فامدادات المسيحيين سوف تصلهم من القسطنطينية وإيطاليا أما الإفريقيون العرب والبربر فسوف تصلهم إمداداتهم من الأندلس والمشرق . فالنجاح ونتائجه يبرران حماس الخصوم . بعد غزو صقلية واحتلال مالطة أصبح الإسلام يسيطر على الحوض الغربى للبحر المتوسط وأصبح هذا الجزء من البحر الرومانى القديم بحيرة إسلامية كما أصبحت أوربا المسيحية فى متناول يد البحرية الإفريقية حتى قبل الاحتلال التام لصقلية ، كان الأسطول الإفريقى يوجه ضرباته كل عام لشبه الجزيرة الإيطالية . ففى سنة ٨٤٦م (٢٣٢هـ) قاموا بنهب كنيسة القديس بطرس فى روما وكان لهذا العمل دوى مؤلم لا ينسي في كل العالم المسيحى . (٢٤)

جـ ـ شعب إفريقية

إن المؤرخين الذين يمدونا بالمعلومات عن بذخ وترف عهد الأغالبة ، لم يفيدونا عن الحالة السكانية ، والحياة الاقتصادية للإمارة . ولحسن الحظ ، تتوفر لدينا أوصاف جغرافية ، وبالأخص الوصف الذى تركه لنا رحالة معاصر، ألا وهو اليعقوبى (٢٥) . زار هذا المشرقى ، معظم بلاد الإسلام ، وأقام فى

(24) Ph. Lauer. Le Poéme de la Destruction de Rome et les origines de la Cité Léonine, dans Mélanges de l'Ecole de Rome, XIX, 1899. pp. 307 ss.

(٢٥) اليعقوبي : البلدان ، =

العديد منها وقام بتحريات عن السكان ، وعن المنافع العائدة من هذه البلاد ، وذلك إما فضولا منه وإشباع هذا الفضول ، أو للقيام بمهام رسمية منوطة إليه. فكان فى بلاد البربر بين سنة ٨٧٩م (٢٦٣هـ) ، ٨٨٩م (٢٧٦هـ) وطاف فيها من أدناها إلى أقصاها . وإفريقية التى يصفها لنا هى إفريقية الإرهابى ابراهيم الثانى الأغلبى ، ونرى من الصورة التى يقدمها لنا ، إننا أمام فسيفساء ذات عناصر مميزة كما كانت عليه بلاد الغال فى القرن السابع . فلم يتحقق بعد المزج بين المشرقيين وأهل البلاد وكذلك بين . أناس من أجناس مختلفة . واللغة التى يتكلمونها هى التي تميزهم . فاليعقوبي يرتبهم حسب أجناسهم : هناك أولا العرب ، ومن ناحية أخرى الغير عرب (العجم) ، الذين يعتبرون أن لغة القرآن لغة غريبة بالنسبة لهم . والعجم ينقسمون الى قسمين : القسم الأول عجم البلاد وهم من أصل بربرى أو سلالة حكام البربر القدامي (روم أو بيزنطيون) والقسم الثانى غير عرب مهاجرون وبالأخص الفرس .

ومن المعروف أن قاع الشعب يتكون من البربر المنقسم إلى عدد محدود من القبائل الكبيرة . ولكن اذا كانت هذه المجموعات تظهر بعض التلاحم فى باقى بلاد البربر واذا كان اليعقوبى يميز فى ريف وسط المغرب قبيلة أوربة وبنى دمر فانه لا يتناول الذين يعيشون فى إمارة إفريقية واليعقوبى لا يصف إلا المدن وضواحيها ففى هذه المدن تفتت القبائل المحلية الخاضعة نتيجة للاختلاط بالعناصر الوافدة . فهم يشعرون بالغربة فى وطنهم الأصلي . وعن سوسة التى أصبحت مركزاً صناعيا بعد إقامة دار صناعة السفن ، يقول لنا اليعقوبى : «وأهل سوسة أخلاط من الناس » ولكنه لم يحاول تحليل هذا التكوين .

= G. Marçais, La Berbérie au IX siécled'aprés El-Ya'qoûbi, dans Revue Africaine, 1941, pp 40 ss.

وبالنسبة للقيروان فهو يعدد العناصر المختلفة الممثلة فيها بادئاً بالعرب القريشيين ومنتهيا بالبربر المحليين وآخرين غيرهم . فهم فى هذه المدن يكونون السواد الأعظم المميز ونفترض أنهم كانوا يكونون الشعب الفقير ذوى المظهر المزرى والذى كان يحظى بعداء واحتقار المشرقيين الذين استقروا بإفريقية ولتعليل ذلك يجب ألا ننسى الآتى : ١ ـ محاربة المسلمين للبربر منذ موقعة الأشراف حيث تمكن البربر بقيادة السقاء ميسرة من هزيمة صفوة السلالة العربية . ٢ ـ إنتماء معظم بلاد المغرب للمذهب الخارجي والثلثمائة وخمسة وسبعون معركة ٣ ـ سقوط القيروان لمدة ثلاث سنوات فى أيدي البربر الخوارج ٤ ـ مجزرة المدينة والقرشيين ٥ ـ دخول الخيول المرابطة فى الجامع الكبير لسيدى عقبة .

بالرغم من أن الخصومة امحت مع الماضى ، لكن هذه المآخذ كانت أساس تفاقم « الإرهاب البربرى » فى كثير من الأحاديث والأمثلة السيئة تعطينا الدليل على ذلك . ألم ينسب إلي الرسول قوله : « قسم الله تعالى الخبث على سبعين جزءا فجعل فى البربر تسعة وستين جزءا والثقلين (بقية الناس) جزءا واحدا » ، ويروى عن شيخ ثقة من أهل الاسكندرية أن سليمان بن داواود ، أرسل بربريا مع شيطان فى حاجة ، فرجع الشيطان يتعوذ بالله عز وجل من البربرى (٢٦) فوصمة عار أن يكون الانسان من أصل بربرى والتخلص منه مصدر فرحة ، فالشيخ الورع البهلول عندما علم أنه ليس من سلالة بربرية احتفل بهذا الاكتشاف وأقام وليمة لأصدقائه . (٢٧)

ومن غير المؤكد أن يكون الأمراء الأغالبة قد شاركوا إحساس عرب

---

(٢٦) المالكى : رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية ٢ : ٣٥٤ .
(٢٧) أبو العرب : طبقات علماء إفريقية وتونس ،ص ١٣٤ (الترجمة رقم ٩) .

إفريقية تجاه الوطنيين أو يبدو على الأقل أن موقفهم تطور بتطور موقف الوطنيين أنفسهم . فإبراهيم الأول اضطر لمعاقبة أكثر من ثورة بربرية ملاحقا المناطق الثائرة بالإمارة . ويدعى ابن عذاري (٢٨) أن ابراهيم الأول « كان له مع بربر إفريقية حروب يطول ذكرها » ولكن استفاد خلفاؤه من حزمه لأن الانتفاضات أصبحت نادرة . انضم البربر لحملة غزو صقلية عن طيب خاطر وقد ساعد ذلك على حسن معاملتهم ويعرفنا البيان (٢٩) بأن فى ٨٩٨م (٢٨٥هـ) قام نزاع فى صقلية بين العرب والبربر فأرسل ابراهيم الثانى خطابا يحث فيه الجميع على التصالح وإنه عفى عن الجميع .

واليعقوبى يشرك دائما الروم والأفارقة مع البربر الممثلين لسكان المدن الإفريقيـــة ، على أنهم يكونون اللاعرب من أهل البلاد وتختلف معنى كلمة « روم » فى إستعمالها عند الكتاب وبالنسبة لليعقوبى الكاتب المشرقي الذى كتب عن تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، فاسم الروم يطلق على رعايا القسطنطينية وإذا وجد اليعقوبى فى إفريقية (فى إفريقية وحدها وليس فى جزء آخر من بلاد البربر) « روم قدامى » أو « بقايا روم » فهو يعني بهذا سلالة الجنود والموظفين فى الإمبراطورية ، اللذين جاءوا من بيزنطة من ٢٠٠ أو ٣٠٠ سنة مضت ، ولم يشاركوا فى هذه الهجرة الجماعية فى القرنين السابع والثامن ، اللذين يليان الغزو العربى وخاصة بعد سقوط قرطاج . ونحن نفترض أنهم عاشوا فى عزلة ، ولقلة ميولهم للإندماج بالبربر ، استطاعوا الإحتفاظ بعراقتهم ولغتهم وعـاداتهم . وعلى كل سوف نرى أن أيام هذه الأقلية العنصرية معدودة ، ولن تأتيهم إمدادات جديدة لسد هذا الفراغ .

---

(٢٨) البيان ١ : ٩٢ .

(٢٩) البيان ١ : ١٣٠ ـ ١٣١ .

ويشير اليعقوبى عن وجودهم فى الحاميات البيزنطية القديمة مثل طبنة أو باغاية وفى المدن الصغيرة لبلاد الجريد التى استخدمت كمأوى لغير العرب من أهل البلاد ، وأخيرا في القيروان المدينة الكبيرة حيث استقرت جميع الأجناس على أمل كسب العيش وحيث وجد الروم عملا لهم .

اذا كانت هوية الروم تظهر بيسر ، فهوية الأفارقة تبدو غامضة : « فهم لا عرب (غير عرب) ومولدهم إفريقية » وحسب ما ورد عن اليعقوبى . فهم لم يختلطوا لا مع الروم ولا مع البربر . وخليق بنا أن نفترض أنهم يتميزون عن أهل البلاد الآخرين ببعض الخواص الملموسة . وأن هذه الخواص لها صلة بماضى البلاد ، وبإفريقية التى يحملون اسمها وأبرز هذه الخواص ، هى اللغة التى يتعاملون بها ، فهى ليست العربية ولا البربرية ولا اليونانية ، بل اللغة اللاتينية ـ لغة المقاطعة القديمة . هناك نص للإدريسى يسمح لنا باثبات أن زمنه وهو منتصف القرن الثانى عشر (٦هـ) ، كانت اللغة اللاتينية متداولة في الجنوب التونسى . ويقول لنا هذا العالم الجغرافى أن الناس فى قفصه « أكثرهم يتكلم باللسان اللاتينى الإفريقى » (٣٠) . وكل شئ يجعلنا نعتقد أن من مائة وخمسين عاما مضت ، كانت اللاتينية هى لغة الأفارقة التى سجل اليعقوبى وجودها ، فى مدن الجريد بالقرب من قفصه . إنهم سلالة أحفاد لاتينيين ، إستقروا فى إفريقية ، منذ عدة أجيال ، أو على الأرجح من مواليد البربر اللاتينيين ، واستقروا فى البلاد ، فى مأوى أجدادهم ، ويسهل التعرف عليهم بممارستهم للغة اللاتينية (لغة بدون شك محرفة ولكنها ستبقى منعزلة لعدة قرون) .

---

(٣٠) الإدريسي : صفة المغرب وأرض السودان والأندلس ص ١٠٤ .

ويتميز عدد كبير منهم ، بخاصية أخرى مرتبطة باللغة . ألا وهى . وفاءهم للعقيدة المسيحية أشرنا من قبل عن التضامن الوثيق الذى كان يربط إستخدام اللغة اللاتينية بالعبادة المسيحية خصوصا فى إفريقيا ، وسوف نرى فيما يلى أدلة جديدة متواضعة ولكنها بليغة . فبعد مائة وخمسين عاما من عهد الأغالبة تؤكد الكتابة على القبور المدونة بلغة لاتينية حوشية بوجود مخلفات كنسية فى القيروان ونعلم مصادفة أن فى القرن التاسع كانت توجد كنيسة لحاجة السجون ؟ (٣١) وكان بين الأفارقة من عاش بجانب الروم فى العاصمة نفسها . وقد وجدنا روم يعيشون فى المدن الآتية الجريد ، وتوزر ، ونفطة ، وتقيوس ، والحامه وكذلك مدينة الزاب وطبنة كانت بها أفارقة متمسكين بعقيدة ابائهم أو أسلموا حديثا . وكان بعض المسيحيين يعيشون فى عزلة عن المدن التى كانت بمثابة مراكز إسلامية ، وبغض النظر عن الذين كانوا مستقرين فى واحة بشرة فى الجنوب الشرقى لشط الجريد (٣٢) فقد كان منهم من يعيشوا فى سهول الشاطئ حيث يتفرغون كأجدادهم لزراعة الزيتون . ويحكي لنا أبو العرب عن مسيحى من الساحل كان يصنع أجود الزيوت فى المنطقة . فجاءوا إليه لشراء زيت للصالح البهلول بن راشد ، فلما علم بذلك تنازل المسيحى عن نصف الثمن ولكن الورع بهلول رفض كرم هذا الكافر ورد الزيت (٣٣) . إذا لم تكن هذه الحكاية أسطورية فالمقصود منها تقويم القارئ ، فهى بدون شك توضح تقدير المسيحى للفقيه العابد والموقف المتحفظ للمسلم المتحمس لدينه وهذا لا يدهشنا طبعا . ولكن حماس العقيدة

(٣١) أبو العرب : طبقات علماء إفرقية وتونس (الترجمة الفرنسية) ص ٢٤٤

(٣٢) اليعقوبي : البلدان ص ١٠٢

(٣٣) أبو العرب : طبقات علماء إفريقية وتونس ص ١٣٢ ، المالكى : رياض النفوس ١ : ٢٠٦ .

يترجم أحياناً عند رجال الدين بتصرفات أقل رقة ولطف مما سمعناه عن البهلول . وقد قرأنا فى « رياض النفوس » أن القاضى أحمد بن طالب الذى عاش فى النصف الثانى من القرن التاسع (٣هـ) أنه فرض على اليهود والنصارى وضع رقاع بيضاء على الكتف مرسوم عليها قرد وخنزير وتسمير ألواح مصور عليها قردة على أبواب دورهم [٣٤] .

ويجب أن نلاحظ أن هذه المضايقات ، لم تصدر من أمير ، بل من قاض وهو رجل متدين . وكان للأغالبة دوافع تجعلهم يبدون أقل تشدداً . فقد كان من بين معاونيهم فى الحكم أناس مسيحيو المولد ، منهم من بقى على عقيدته ومنهم من أسلم . لكن الجميع كانوا تابعين للأمير إما كعبيد أو موالى وتؤكد لنا كثير من الأحداث أن الأمراء كانوا يلجأون للقدرات المتميزة للإفريقيين ويولوهم مناصب ثقة فى الادارة أو القيادات الحربية العليا . لقد أرسل زيادة الله الأول جيشا ضد الثائر منصور الطنبذى وكان محمد بن عبد الله الإفريقى على رأس هذا الجيش .[٣٥] فوالد محمد كان قد اعتنق الإسلام من قبل واسم «عبد الله» يوحى لنا بذلك ، أما اللقب «الإفريقى» الذي يحتفظ به الإبن ، فهذا دلالة على أصله . وخصص زيادة الله الثالث لفتوح «المسيحى» خمسين فارسا لإرجاع واحداً من أفراد عائلته الثائرين [٣٦] وكان سجيناً فى طبنة . لم يكن هذا المسيحى المكلف بالقبض على فرد من العائلة المالكة إلا مولى للأمير . ونستطيع المغالاة فى الدور الذى لعبه هؤلاء الموالى فى المجتمع وفى تاريخ الثقافة الإفريقية وقد كانوا قديما عبيد وفى كثير من

---

(٣٤) المالكي : رياض النفوس ١ : ٣٧٦ ـ ٤٧٧ .

(٣٥) ابن الأثير : الكامل ٥ : ١٨٥ ـ ١٨٧

(٣٦) البيان ١ : ١٣٦ .

الأحيان غير مسلمين . ولنا عودة فى هذا الموضوع .

هل كان الأمراء يستخدمون المسيحيين الأحرار فى مناصب الثقة ؟ هناك واقعة ينقلها لنا ابن عذارى تجعلنا نشك فى ذلك . ففى سنة ٨٩١م (٢٧٨هـ) عرض ابراهيم الثانى على سواده النصرانى ديوان الخراج بشرط أن يعتنق الإسلام فرد عليه سواده « ما كنت لأدع دينى على رياسة أنالها !! » ، فأمر الأمير بقطعه نصفين وصلبه (٣٧) . وكان ابراهيم الثانى مستهدا قاسيا لا يراعى لا مسيحيين ولا مسلمين ويبدو أن شرطه فى إسلام سواده كان ضروريا لتوليته وظيفة عامة . وعلى كل حال يبدو أن هذا الرجل الذى نفترض فيه أنه من الأعيان ومعروف بنزاهته لم يكن مولى وكان فى إمكانه الاستمرار فى ممارسة دينه لولا فكرة الأمير المحزنة التى تكفلت بمصيره .

وفى البلاد التى عبرها اليعقوبى ، كان يجد الأفارقة ، يعيشون جنبا إلى جنب مع الروم ، والبربر ، ويكونون جمهوراً من أصل وطنى . كما كان يقابل أيضا جماعات من المشرقيين من العرب والعجم . هؤلاء العجم كانوا من الفرس الذين جاءوا من خراسان مع الولاة العباسيين . ولقد انضموا للعرب وعززوا العسكرية فأصبحوا جزء من الجند وكان سلف بعضهم من الجند الخراسانى فهم يعيشون فى الحاميات التى كانت تحمى الولاية القديمة مثل قابس والقيروان وبونة وباجة ومجانة (فى شمال تبسة) أو فى قلاع نوميديا القديمة التى أصبحت منطقة الحدود الشرقية للملكة مثل طبنة وباغاية ، أو مقره . ولم يشير اليعقوبى الى وجودهم فى تونس لأن زيادة الله هدم أسوارها بعد ثورة الطنبذى وفقدت بذلك أهميتها العسكرية .

ويظهر كثير من العرب فى ديوان الجند ولكنهم ليسوا ملزمين بخدمة

(٣٧) البيان ١ : ١٣٢ .

مستمرة بل كانوا فى حالة استنفار حسب الحاجة . ومنهم من وجد عملا فى الوظائف العامة وكلهم يفخرون بعراقتهم . والبعض يتباهى بأنه من بنى قريش، أهل الرسول ، ويشير اليعقوبى الى وجودهم فى القيروان وطبنة بجانب جميع القبائل العربية الكبيرة مثل مضر وربيعة وقحطان وقضاعة. وإلى جانب بنى مضر هناك مكانة خاصة لبنى تميم لأنهم قبيلة الأغالبة فأولاد بنى تميم يلودون حاميات أربع مدن محصنة لمنطقة الحدود الغربية وهى بلزمة وثلاث نقاط حدود لا يمكننا تحديدها الآن (أصبح موضعها مجهول لنا الآن) (٣٨) . ومن الملفت للنظر أن اليعقوبى يحكى لنا أثناء زيارته لبلاد البربر أن الجميع كانوا فى ثورة ضد أمير القيروان . فهذه الثورة لم تكن إلا فصلا من ثورات الجند وما عدا السهو والغلط فهى الفصل الأخير لهذا العصيان .

وقد عرفنا من قبل الصعوبات التى خلقها الجند العربى لولاه إفريقية وكيف ساعدت على تمكين وصول ابراهيم بن الأغلب للحكم . فقام بأخذ الحيطة ليتقى عدم انضباط الجند . فبدأ بترحيل الذين يبدون العصيان الى بغداد ، أما الباقى فكانوا موضع اعتباره ورفقه وبدأ فى البحث عن عبيد زنوج بأعداد وفيرة « وأظهر أنه يحب أن يتخذ من كل صناعة من يغنيه عن استعمال الرعية من كل شئ » (٣٩) وجعل بعضهم لحمل سلاحه وهكذا كون فى الواقع حرسا شخصيا ضخما ، مخلصا له وتحت إشارته وغير مرتبط بالبلاد وكان يستطيع أن يواجه به وبفاعليــة زعماء العرب من الجند . ومع ذلك فقد بقى بعض رجال الجند أوفياء له إذ ذهب بعضهم للإقامــة معه فى قصر العباسية (مقره الجديد) وكان بصحبته أفراد عائلته والمقربين فى البلاط وعبيده . وكان

(٣٨) اليعقوبي : البلدان ص ١٠٣ .

(٣٩) النويري : نهاية الأرب ص ٢٥٣ .

قد أمر بتشييد هذا القصر على مسافة من القيروان . فالهجرة من العاصمة الى مقره الملكى كانت تعتبر نوع من إشباع روح البذخ ورغبة فى الأمان وكذلك تكوين حرس زنجى كل ذلك كان مستوحى من تقاليد الأسر المشرقية.

لم تكن هذه الحيطة من الكماليات ، ففى سنة ٨٠٢م (١٨٦هـ) ثار بتونس أحد رؤساء العرب وهو « حمديس الكندى » وفى سنة ٨١٠م (١٩٥هـ) انفصل القائد عمران بن مخالد الذى ردع أول ثورة وكانت تونس نقطة البداية ثم استولى على القيروان وحاصر العباسية لمدة عام ولكن أتباعه تخلوا عنه لأنهم لم يحصلوا على مرتباتهم (٤٠)

وظهر عداء الجند أكثر خطورة فى عهد زيادة الله الإبن الثانى لإبراهيم الأول . فقد كان يعامل العرب بدون مداراة وقتل كثير منهم ، وثورة المنصور الطنبذى هى نتيجة لهذه القسوة الرعناء . لهذه الثورة هزت إفريقية كلها لمدة ثلاث عشر عاما . ولقد أشرنا إلي خطورتها ومداها وكان غزو صقلية واحدة من نتائجها .

لقد ساعدت هذه النتيجة بدون شك على ضمان الهدوء النسبى للعرب فى العهود المقبلة ولكن فى عهد ابراهيم الثانى التهبت الثورة مرة أخرى وحدث فى سنة ٨٩٣م (٢٨٠هـ) المذبحة المأساوية لجند بلزمة حيث استخدم الأمير كل النفاق الدموى المقتدر عليه . فبعد أن هدأت ثورة عرب بنى تميم المقيمين فى هذه القلعة أحضر الأمير سبعمائة من أشجع رجالهم الى قصر رقاده للحفاوة بهم وأمر ببناء قصر مجهز بباب واحد فلما وقعوا فى هذا الفخ ذبحهم عن آخرهم . (٤١) هذه المذبحة القاسية مضافا إليها مآسى أخرى كانت سببا

---

(٤٠) ابن الأثير : الكامل ٥ : ١٠٤ ، النويري : نهاية الأرب ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ .

(٤١) ابن عذارى : البيان ١ : ١٢٣ .

لعواصف مروعة هبت على الإمارة . فثارت كل من شبه جزيرة بونه ولاربس وباجة وقمودة وبالطبع تونس بقيادة قادة من الجند . ومرة أخرى كانت البلاد كلها تقريبا فى ثورة ، فأمر الأمير ابراهيم بحفر خندقا حول رقاده ، وهو مقر اقامته ، وأمر بغلقه بأبواب من الحديد ، وجند خمسة الاف زنجى ، فانهزم الثوار ، ووصلت القيروان عجل مملوءة بالجثث . فعاد النظام للبلاد ، ولكن عملية بلزمة عجلت بدمار الأغالبة ، لأن الردع الدموى للثوار أضعف الحدود التى تحمى الإمارة ، كما كانت سببا لتشجيع قبيلة كتامة فى جبال القبائل الصغرى الذين كانوا يستعدون لمداهمتها فبلزمة هى ثغرة من الثغرات التى أباحت لهم التدخل لإسقاط الإمارة .

د ـ الحياة الإقتصادية

كانت الحياة الاقتصادية ، فى البلاد الإسلامية أكثر من أى مكان آخر من صنع الوضع السياسى ، فقد كان توفر الدخل الكافى لدولة ما يمكن حكومتها من تأمين الطرق اللازمة للتجارة وأعمال الرى أو مد المدن بالماء . وكما سمح تأسيس الدولة الطولونية المستقلة بمصر من تخصيص موارد البلاد للأعمال المائية كذلك كان تأسيس مملكة الأغالبة السبب الرئيسى للنهضة الاقتصادية في القرن التاسع . وسوف نرى أن باقى بلاد البربر سوف تنعم بنفس الرخاء ولكن بنسبة أقل اتساعا وذلك بسبب ظروف سياسية متشابهة .

بالنسبة لإفريقية لن ننخدع بتفاؤل المؤرخين ونعتقد أنها عرفت نهضة تذكرنا بأيام عز السلام الرومانى . فالتدهور الاقتصادى كان قديما وقائما منذ النصف الثانى للقرن الثالث الميلادى [٤٢] ودليل ذلك انتشار الإقطاع ، ولفقر

---

(٤٢) ولكن هناك عودة للرخاء المؤقت خلال القرن الرابع الميلادى .

المزارعين ، وقلة التبادل ، وثورات ونهب البربر ، خصوصا بربر القبائل . وبعد أقل من قرن وبالتحديد سنة ٤٢٩م جاء الوندال بقيادة جنسريق وتفاقمت الأزمة إذ أن الوندال يتشككون من ولاء المدن الرومانية التى لا يستطيعون ادارتها أو حمايتها ولذلك أجبروا سكانها على تقويض أسوارها ولقد استفاد البربر من ذلك وقامت انتفاضات الاوراس ، وأورنى L'Oranie ، وطرابلس ثم بعد قرن من الزمان سنة ٥٣٣ « أعاد الانتصار البيزنطى على قدر المستطاع إفريقية المستعمرة الرومانية » (٤٣) ولكنه لم يحقق لا الرخاء ولا أمن عهود أسرتى الانطونيين والسيفريين ، ومرة أخرى عادت الأسوار للمدن فشيدوا منها الكثير وبسرعة فائقة . ولكن هذا المعمار الحربى يوحى لنا بالشعور بالرعب من هجمات الجبليين أو البدو الرحل فكانت لوازم البناء مأخوذة من مبانى قديمة ، وموضوعة كما هى ، فوق الحوائط ، وعلى الأبراج ، لحماية المدن الشبه مهجورة ، والتى قلت مساحتها عن ذى قبل . هذا يعنى أن الريف لم يسترد الأمن الضرورى للزراعة وتنقل التجار بحرية . إننا نعرف كيف قضى الإسلام علي هذا الوضع القلق ويمكن التصور كيف عاشت بلاد البربر أثناء المائة وخمسون عاما الأولى للفتح الإسلامى فى ظروف غير ملائمة للإنتعاش الاقتصادى : هناك الغارات الأولى ، وهروب وذعر الشعوب المتميحية ، وحملات النهب وسلب العبيد ، والاجتياحات المنظمة للكاهنة ، وابتزاز الولاة الأمويين للبلاد وثورات البربر الذين اعتنقوا مذهب الخوارج . ولكن وصول الحكم لعائلة يبدو على أعضائها أنهم قادرون على الحزم وحريصون على واجبهم كحكام وولاة أعطى المزارعين ما كان ينقصهم من زمن بعيد وهو الثقة فى المستقبل والأمل فى حصاد ما زرعوه .

---

(43) Albertini, dans L'Afrique du Nord française dans l'histoire, p. 122

من البديهى أن هؤلاء المزارعين كانوا يتخوفون من تقلبات الطقس فبلاد البربر هى بلاد البقر السمان والبقر العجاف مثل وادى النيل . وهذه لم تظهر قبل النصف الثانى من القرن التاسع (٣هـ) ، ولم يشار إلى أية مجاعة قبل حكم أبى الفرانيق ، ثامن أمراء الأسرة الأغلبية (٤٤) وعدم تناول المؤرخون هذا الموضوع يجعلنا نعتقد أن المجاعات تجنبت إفريقية لأكثر من سبيعين عاما .

والجغرافى اليعقوبى الذى اَهتم بالمدن أكثر من الريف قد تأثر بمنظر الاخضرار وكثرة الأشجار فى المنطقة ما بين قموده (سيدى بوزيد) وشاطئ البحر أى على مسافة ١٥٠ كيلومتر هذه المنطقة التى نراها فى أيامنا هذه شبه صحراوية برغم الانتشار البديع للأشجار فى صفاقس .(٤٥) وتعتبر الزيتونة شجرة هذه السهول الرملية ، شجرة كل الساحل ، شجرة هذه المنطقة الساحلية الطويلة ، ذات الحدائق والقرى « العديدة المتشابكة » . وبكل قرية معصرة للزيوت (٤٦) وتزرع أيضا الأشجار المثمرة المختلفة والكروم لاستهلاك عناقيدها عند الجنى إن لم يصنع منها النبيذ ، هذا المشروب المسكر والمرغوب فى إفريقية خصوصا من أمراء القيروان . وما وراء قمودة إلي الجنوب فضواحي قفصة مشهورة بأشجار الفواكه . ونرى أيضا الكروم والزيتون فى واحات الجريد ولكن بنسبة قليلة عن النخيل الذى تعتبر بلاد الجريد مجاله

---

(٤٤) مجاعة سنة ٨٧٣ (البيان I ١٥٠)، مجاعة ٨٧٩ (البيان I ١٥٣) ، مجاعة ٨٨١ (٢١٨هـ) النويري في ابن خلدون I ٤٢٦ .

(٤٥) اليعقوبي ص ٢١٢ - ٢١٣ ، J. Despois, La Tunisie orientale. Sahel et Basse steppe, Paris, 1940, pp. 121 ss.

(٤٦) المالكي ـ رياض النفوس في إدريس ـ مجلة الدراسات الإسلامية ١٩٣٣ ص ٣٠٤

الطبيعي . ومن قمودة نحو الشمال تمتد حقول الحبوب ، فسهل القيروان يعطي محاصيل جيدة ، وحياة سكان سهل القيروان مرتبط ارتباطاً وثيقا بحياة الريف المجاور كما هو الحال فى أيامنا هذه . والمدنيون كانوا يمتلكون بعض الأفدنة فى الضواحي ، وكانوا يشتركون مع المزارعين لزراعتها ، ويرسلون قطيعهم للمرعي أو يزرعون الحدائق والحقول بأنفسهم . وكذلك بالنسبة للسهوب فهى جرداء صيفا ولكنها تمتلئ بالمزارعين بعد الأمطار الأولى . والمالكى يظهر لنا مجالس علماء الفقه خالية في فترة الحصاد (٤٧)

واليعقوبى لا يهتم بانتاج المحاصيل فالبلاد المنتجة للقمح مثل باجة لا يستهويه فيها إلا ملاحظاته عن السكان رغم أن ابن حوقل فى القرن العاشر والبكرى فى القرن الحادى عشر قد امتدحا خصوبتها . ولكنه أول من أعطانا تفاصيل دقيقة عن مناجم مجانة التى ذكرها البلاذرى بطريقة عابرة . فيروى اليعقوبى : « من القيروان الى مدينة يقال لها مجانة أربع مراحل ... بين جبال وشعاب » نحددها نحن على الحدود بين الجزائر وتونس على بعد ٤٠ كيلومتر شمال وشمال شرق تبسة توجد مدينة مجانة المعادن . (٤٨)

تعتبر « مجانة المعادن » مركزا لاستخراج « الفضة والتوتياء والحديد والرصاص » . لا نستطيع الشك فى أن هذا يعتبر عنصرا هاما للنهضة الاقتصادية ولكن ليس من المنصف استخدام لفظ « نهضة » ولكن هو بالأحرى تنمية موارد لم تستخدم بعد . إذ أننا لا نستطيع التأكد من أن الرومان قد استغلوا هذه الحقول الغنية . وقد ذكر Stephone Gsell عدة أماكن فى

---

(٤٧) المالكي ـ رياض النفوس ، . G. Marçais, Tunis et Kairouan, p. 69

(٤٨) اليعقوبي ترجمة ص ٧٤ ، البلاذري نص ص ٢٣٧ ، ترجمة ص ٢٦٦ .

شمال إفريقيا حيث قام المسلمون بدور الرواد (٤٩) فقد كتب فى عمل من أعماله الأخيرة « إننى أعتقد أن أنشط وقت للصناعات المعدنية في بلاد البربر كان فى العصور الوسطى وليس فى العهد القديم » وذكر لنا أسباب ذلك: كان الرومان يمتلكون فى إمبراطوريتهم العظيمة حقولا أغنى وأسهل من الموجودة هنا . « لم تستخدم مناجم إفريقية إلا لاحتياجات البلاد على فرض أن الاستيراد من وراء البحار لا ينافسها . ولكن عندما تفتت الإمبراطورية الرومانية ، وقام الصراع بينِ الإسلام والمسيحية وتصادف ندرة الاتصال مع تدهور الصناعة فى أوربا زادت القيمة الاقتصادية لهذه المناجم لا فى بلاد البربر فقط ولكن فى بقية العالم الإسلامى » . لذلك عندما افتتح المسلمون حقولا للنشاط كانت مهملة حتى الآن ظهر الرخاء الذى ينسب لأمراء القيروان كنتيجة للظروف الجديدة التى وجب علي العالم القديم تقبلها . ولدينا من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أنه منذ منتصف القرن الثامن كانت منطقة مجانة تحظى بنشاط اقتصادى يرجع إلى وجود مناجم بها . فالكشف المفاجئ فى هذا المكان عن زجاج ومعايير يعود إلى سنة ٧٤٥م(١٢٨هـ) يجعلنا نفترض أن الولاة الأمويين تنبهوا إلى تنمية هذه الثروات الطبيعية . (٥٠)

واستغلال مناجم إفريقية ينقلنا إلى مجال الصناعة . فكان يجب معالجة هذه المواد المستخلصة فى البلاد . كما كان من الضرورى تدبير لوازم دور

(٤٩) Stéphane Gsell : vieilles exploitations miniéres dans l'Afrique du nord, dans Hespéris, 1928, pp. 1 ss. Concession de mines de l'Afrique á un frére de l'Emir Ibrahim, EL MALIKI تعبير ذكر ص ٣٠٣

(٥٠) G. Marçais et E Lévi-Provençal , Note sur un poids de verre du VIII siéded , dans Annales de l'Institut des Etudes Orientales Alger, 1957, pp. 6 et ss .

الصناعة فى تونس وسوسة ، وتمثل لنا بعض المسامير التى تجمع الألواح المدهونة لأسقف جامع القيروان الكبير الدليل المتواضع والافتراضى لصناعة الحديد . ويروى لنا المالكى عن جواهرجى كان يصنع سلاسل من النحاس لعمل حناك الخيل وكان يطليها بحامض النيتريك لبيعها فى السودان [٥١]

نحن لا نشك فى وجود صناعة الزجاج لأنها كانت منتشرة وأن بعض دور الصناعة بالقرن الثامن الميلادى لا تزال موجودة الى الآن . وكان يوجد حى لصانعى الزجاج فى القيروان [٥٢] وسوف يبين لنا القرن العاشر والحادى عشر الميلاديين التطور الملحوظ لهذه الصناعة الإفريقية ، فاستقر هنا (إفريقية) تأثير المشرق (أسيا القديمة أو مصر) .

ويرجع أيضا الفضل فى صناعة الخزف الى المشرق وبالتحديد الى العراق قلب الدولـة العباسية . وكانت تمتلك إفريقية الرومانية والمسيحية « فن الفخار » ولكن ظل مجهولا لها سر الفخار المطلى بالمينا والذى يزين بالفرشاة قطع الجاهزة التصنيع كانت تستورد من بغداد وهناك رواية قديمة تدور حول امداد دار صناعة الخزف ببلاد العراق ببعض انتاجها ذات الانعكاس المعدنى لمسجد القيروان حيث زينت محراب الجامع الكبير [٥٣] . فالتشابه البديهى بالأجزاء الموجودة فى سامراء والرقة و سوس ، يعطى لهذه القصة المصداقية التاريخية. وبخلاف هذه الرواية فقد وفد من بغداد الى القيروان خزفى لاستكمال تزيين المحراب . ونفترض أنه كون بعض التلاميذ وتوجد مجموعة أخرى متواضعة استخرجت من الربوة التى شيد عليها مقر الأمراء الأغالبة

---

(٥١) المالكي في إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ١٩٣٥ ص ٣٠٥ .

(٥٢) أبو العرب : طبقات علماء إفريقية وتونس ، ترجمة ابن شنب I ، ١٤٦

(٥٣) G. Marçais , Les Faiences á reflats métalliques de la Grande Mosquée de Kairouan , Paris 1928 .

« العباسية » . هذه الشقف من الخزف الأبيض ذات الزخرفة المريضة باللون الأسود والأخضر والأزرق إن لم تكن مستوحاة مباشرة من النماذج المشرقية فهي على الأقل مشتقة منها إذ يعتبر الخزف والفخار المطلى من المستوردات التى وصلت إفريقية بفضل الولاة المسلمين وقد أتت من آسيا .

ليس لدينا للأسف فيما يختص بصناعة المنسوجات بإفريقية أى تأكيد مما توفر لصناعة الخزف . ولكن نستطيع الجزم على الأقل بأن إفريقية كانت فى القرن التاسع الميلادى تشتهر بالسجاجيد التى تصنعها . وهذه الصناعة يعمل بها حتى الآن عديد من النساء فى القيروان وغيرها والرواية التى تكلمنا عنها من قبل اعتمادا عن ابن خلدون والخاصة بدفع ثلاث عشر مليون درهم علاوة على مائة وثلاثين سجادة للخليفة المأمون (٨١٣ ـ ٨٣٣) ضريبة ولاية إفريقية كإحدى ولايات الامبراطورية العباسية (٥٤) نلاحظ اشتراك ثلاث ولايات تقرر عليها هذا النوع من الرسوم العينية : طبرستان (جنوب بحر قزوين) وهذه الولاية تأتى فى المقام الأول بعدد ٦٠٠ سجادة وتأتى ولاية إفريقية فى المرتبة الثانية ثم أرمينيا التى ترسل عشرين فقط . ونعتقد أن هذه الصناعة كانت من صناعات إفريقية المحلية لم يستوردها مسلموها من الخارج ولكنهم كانوا يقدرون قيمتها الفنية والنفعية ويرجع ذلك دراسة M . C . Painssot للرسالة الموجودة فى Histroise Auguest ومرسوم الامبراطور Dioclétien وكليهما يؤكدان وجود « سجاد إفريقى » فى بداية القرن الرابع الميلادي إذن فصناعة السجاد بإفريقية أقدم مما قدم لخزائن العباسيين . (٥٥)

---

(٥٤) ابن خلدون : مقدمات ، ترجمة دي سلان I ٣٦٦ .

(٥٥) L. Poinssot et J. Revault, " Tapis tunisiens " I. Tapis de Kairouan, pp. 9 - 10 .

إن الجغرافيين الذين جاءوا بعد القرن التاسع (٣هـ) كانوا يمتدحون جمال الأقمشة الإفريقية ومن المحتمل أنها كانت معروفة فى بغداد فى عهد الأغالبة كما كانت في القرن السابق فى دمشق فقد كان لإفريقية كما كان لوادى النيل دور للطراز حيث تصنع الأقمشة المنسوجة لحساب الخليفة ويطرز اسمه عليها . وقد قرأنا على واحدة منها أنها صنعت للأموى مروان « بواسطة طراز إفريقية » (٥٦)

وفى الولايات الإسلامية ، نشعر بالتدخل المباشر للدولة فى النشاط التجارى، فانتظام التبادل في الأسواق ، وردع التزوير ، وإعلان الأسعار وملاءمتها للتسعيرة الرسمية ، ومساواة الموازين والمكاييل للمعايير المدموغة من رئيس الدولة ، وباختصار إن الوضع الأخلاقي للتجارة عامة كان يخضع لرقابة الخدمة العامة أى الحسبة ، والموظف المكلف بهذه المهمة ، ويدعى المحتسب ، وله اختصاصات واسعة ، تجعله كمراقب أخلاقى . فهو شخصية هامة ذات ثقافة فقهية ويتولى سلطة ذات طابع شبه دينى . وبما أن اختصاصاته تمتد الى كل تفاصيل الحياة الاقتصادية ولدراسة هذا المجال ليس هناك أفضل من مؤلفات الحسبة التى تحتوى جميع الحالات المراد التحكيم فيها وجميع الخلافات المراد كشفها ، وجميع الجرائم المراد معاقبتها . ونحن نمتلك مؤلفا يرجع الى عصر الأغالبة (٥٧) .

(٥٦) Revon Guest, Islamic textiles (Burlington magazine , 1932 , p. 185) : Wiet, L' exposition persone de 1931, p. 5 .

(٥٧) يحيى بن عمر المتوفي سنة ٩٠٢ « أحكام السوق » النص به ملحوظات وضعها عبد الوهاب وترجمها L.BErcher

إن معيار المسكوكات المستخدمة في المعاملات من اختصاص الأمير موظفي السكة (دار سك النقود) . ويقال أن في عهد الأغالبة كان الروم من بين هؤلاء الموظفين وتشهد لهم الأسماء المذكورة على المسكوكات نفسها وهي: موسى في عهد ابراهيم الأول ، مسرور في عهد زيادة الله الأول ، خلف في عهد أبي العباس ، حسن في عهد أبي الغرانيق ، بلاغ وشاكر في عهد ابراهيم الثاني وخطاب في عهد زيادة الله الثالث . ولم يذكر اسم آباء هؤلاء الناس لكنهم كانوا موالي الأمير وهم من العبيد أو محررين من أصل مسيحي لكن لهم كل الثقة من جانب أسيادهم (٥٨)

المسكوكات الذهبية (دنانير) التي كانت تخرج من دار سك نقود القيروان أو دار سك نقود العباسية لم يطرأ على وزنها أي تغيير رغم الظروف الصعبة التي مرت بها الخزانة ولكن في عهد آخر الأمراء انخفضت انخفاضا ملموسا (بدلا من ٤,٢٠ جرام وصلت الى ٤,١٢ أو ٤,١١ جرام) .

أما إصدار المسكوكات الفضية (دراهم) فقد كان بقرار من ابراهيم الثاني الذي كان يستحق الذكر لعدة أسباب (٥٩) ففي سنة ٨٨٨م (٢٧٥هـ) أمر ابراهيم الثاني بسك دراهم بوزن مضبوط ومنع استخدام أجزاء الدنانير الذهبية والدراهم المستهجنة المنتشرة في هذا الوقت . فأغلق التجار حوانيتهم (جميع الثورات المدنية تبدأ هكذا) ، وزحف الشعب نحو رقادة - المقر الملكي -

(٥٨) Farrugia de Candia, Monnaies aghlabites du Musée du Bardo, dans Revue Tunisienne, 1935, pp. 271 ss. : Lavoix, Catalogue des Monnaies de la Bibliothéque nationale. Espagne et Afrique, p. 360. Stanley Lane Poole, The coins of the Mohammedan dynastics in the British Museum, Londres, 1876 ; H. Nutzel, Katalog der Orientalischen Munzen, II, Berlin, 1902.

(٥٩) ابن عذاري : البيان ، ترجمة I ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

هاتفين ضد الدولة فأمر ابراهيم باعتقال هؤلاء المزعجين فى المسجد . ولما علم تجار القيروان بما حدث (وهم بدون شك المحرضون) تجمعوا فى مدخل المدينة لمنع الأمير ورجاله من دخول العاصمة . فأرسل الأمير وزيرة للتشاور معهم فاستقبلوا هذا الوزير بالحجارة ففر عائدا الى سيده . فامتطى الأمير جياده وذهب إليهم برافقة حاجبه ومجموعة من فرسان الجند . وبعد معركة قصيرة استطاع ابراهيم فض المعركة وانسحب نحو المصلى ونزل من علي جواده وجلس في الهواء الطلق وبعد أن عاد له هدوء أمر باحضار الفقيه الورع أحمد بن مغيث وأقنعه بفائدة الإصلاح المالى فرافق الفقيه الوزير للمرور على الأسواق لتهدئة القيروانيين وبعد ذلك عاد الأمير الى رقادة وأخلى سبيل المعتقلين . فعاد الهدوء مرة أخرى ومنذ ذلك الوقت أصبحت الدراهم ذات الوزن المضبوط هى العملة الرسمية . وبقى الحال على ما هو عليه حتى زمن ابن عذارى صاحب هذه القصة ، أى بعد أربع قرون .

إن ابراهيم الثانى لرجل غريب . يصورونه لنا طاغية غريب الأطوار وسادي وهناك عدة علامات فى حياته تجعله رجلا كربها . ويقول لنا النويرى « إنه اسرف فى سفك دماء أصحابه وحجابه ... (ولكنه) كان أنصف الملوك للرعية لا يرد عنه متظلم يأتيه » (٦٠) ففى ثورة الدراهم يصور لنا ابراهيم الثانى حاكما مهتما بالغاء ظلم كان منبع استغلال ويفرض تغيير نافع ولكنه غير شعبى ككل التغييرات التى تمس العملة . فبعد نوبة الغضب يتمالك نفسه ويترك الثوار يفكرون ويسامحهم ولكن بدون المجازفة بكرامته ومع ذلك يتمسك بقرار يجده مناسبا للأخلاق وللصالح العام .

وابن الأثير يعرفنـــا أن أمن المواصلات استتب أيضا فى عهد ابراهيم

(٦٠) النويرى فى ابن خلدون : تاريخ البربر - ترجمة I ص ٤٣٥ - ٤٣٦ .

الثانى (٦١) . « كان القوافل والتجار يسيرون آمنين » . لم نتصور أن هذه الطرق كانت مصانة ومعتنى كعهدها أيام الرومان ومع ذلك يحكى لنا بأن الأمير أبو ابراهيم أحمد شيد الكبارى فكانت العربات تمر عبر البلاد ولكن ذلك يصبح مشكوك فيه بالنسبة للقرون اللاحقة . فقد تغير مركز تباعد خطوط الرحلات (المسالك) وقد ورثت القيروان دور قرطاج ويعتبر اليعقوبى القيروان مركزا لبقية جميع مدن إفريقية ومنها يحسب المراحل التى تسمح للوصول إليها .

ولنا أن نؤكد أن مدينة سيدى عقبة التى شيدت لهدف استراتيجى ودينى أصبحت فوق ذلك مدينة تجارية كبرى ، وأن فى ذلك تشابه آخر بينها وبين مكة . ويقام حى السوق فى وسط المدينة . وكان محوره طريق كبير مستقيم أقيمت المحلات على جانبيه ويدعى السماط وعند وسط الطريق نجد الجامع الكبير (٦٢) كان الناس يأتون من جميع البقاع للتموين ولكن تجارة التجزئة هذه ليست إلا واحد من أوجه النشاط التجارى للمدينة . فجزء كبير من السكان يهتم بالتجارة فهناك تصدير الحبوب الى الإسكندرية ويشترون زيوت الساحل أو طرابلس ، والعاج والعبيد من السودان لتصديرها مرة أخرى للخارج . وهناك المضاربة فيوضع المال بالمشاركة للاستثمار وذلك ابتداء من أصغر تاجر الذى يعطى لصديقه ديناره الوحيد ويحصل على ثمانية عشر دينار كنصيب فى الربح ... قلنا ابتداء من أصغر مالي ووصولا الى والدة ابراهيم الثاني ويحكى لنا النويرى هذه النكته (الحكاية) (٦٣) : حضر

(٦١) تاريخ المغرب وأسبانيا ص ٢٤٨ .

(٦٢) G. Marçais, Tunis et Kairouan, pp. 27-28.

(٦٣) النويرى فى ابن خلدون ترجمة I ص ٤٣٣ .

رجلان من القيروان لمقابلة الأمير فى مقره برقادة وفى مقصورة المسجد قصا عليه أنهما شاركا الأميرة الأم فى تجارة الإبل وأشياء أخرى ولكنها حجزت منهما ستمائة دينار . ويسمع لهما الأمير بعطف كعادته . ويسأل والدته التى لا تنكر الواقعـة ولكنها تعلن أنهما كانا مدانان لها بهذا المبلغ عن عملية سابقة . فهدد ابراهيم بتحويل هذا الخلاف للقاضى مما يصبح تحقيرا للجميع . فاضطرت والدته برد المبلغ لشريكيها وهما بدورهما يقومان بتأدية دينهما نحوها .

والمعروف أن فى مدينة كبيرة حيث تتراكم الأموال فالصرف يصبح سهلا وعادة يكون جزافـا . ففى سنة ٩٠١م (٢٨٩هـ) عندمـا قرر ابراهيم الثانى التنازل عن الحكم والتوبة عن جرائمه السابقة ، أعطى أعيان القيروان مبالغ ضخمة لتوزيعها على المرضى والمحتاجين ولكنهم بددوها . ويقول لنا البيان (٦٤) « انفقت فى اللذات وصرفت فى الشهوات » ولكن أبو العباس ، ابن ابراهيم استرجعها ثانية للخزانة .

ومن بين العناصر المختلفة لسكان القيروان كان العلماء والفقهاء وأتباعهم المتدينين يمثلون حشدا ينعم بحظوة الأمير وفى نفس الوقت التزموا بدورهم تماعى تجاه الشعب أما الأعيان المتمسكين بمتاع الدنيا فلن يكون لهم نفس ور . ومن هذه الناحية لا يختلف السنى القيروانى عن خارجى تاهرت (الذى نتكلم عنه فيما بعد) . والقيروان معروفة بالرخاء ولذة الحياة السهلة بيد أنها تفتقد بذخ وإباحية مقر الأمراء فى العباسية ورقـادة . ويروى المالكى (٦٥) عن شخص يدعى أبو عقال (ت ٩٠٦م /٢٩٤هـ) كان يقيم

(٦٤) ص ١٧٦ ـ ١٧٨ .

(٦٥) فى إدريس : مجلة الدراسات الإسلامية ، ١٩٣٥ ص ٣٠٢ .

فى مكة . هذا الشخص كان يحذر أخته من ترك حياة الترف فى القيروان حتى لا تقاسمه الحياة الشاقة فى المدينة المقدسة .

وعلى كل ليست القيروان بالمكان الوحيد للحياة الحضرية السهلة فإفريقية ولاية قديمة وبها المدن العديدة ويبدو أن الحضارة الإسلامية كانت سببا فى إنشاء مدن أخرى جديدة أو في تطوير المدن القديمة الراكدة . فتونس مدينة جديدة ولكنها تأمل في الوصول الى مرتبة قرطاج القديمة ، وأصبحت مذكرة مركزا للحاكم وتحاول إحتلال مكان سبيطلة ، ومدن أخرى محاطة بأسوار بيزنطية مثل قفصة وباجة و لربس أصبحوا ذو قيمة اقتصادية أو حربية . ولربس القديمة ذات الأسوار التى ترجع الى عهد جستنيان والتى حاولت بدون جدوى أن تحمى المملكة من مداهمة الشيعيين . وهناك مدن اكتسبت أهمية منذ عهد المسيحية ، فمدينة قابس كانت مرحلة من مراحل القوافل ومدينة مزدهرة ومقرا لحاكم أغلبي . وكانت صفاقس مركزا لزراعة الزيتون ومدينة صيادين ، وكانت سوسة ميناء للقيروان وضواحيها ومخزنا وسوقا للزيوت وترسانة بحرية وحامية المجاهدين . فكانت على اتصال دائم بصقلية . وقد عرفت هذه المدن الساحلية القديمة نهضة جديدة لنشاطها واحتمالات الثروة وبدون شك وفود السكان . كل ذلك يرجع للإسلام وسلطة الأمراء الحسنة .

ولقد شارك الحكام المشرقيين بدون شك بالجزء الأكبر فى هذه المحاولة العمرانية التى تحمل علامة التراث الرومانى . ويعتبر العمران الإسلامى وريثا للعمران الرومانى فى شمال إفريقيا أكثر منه فى أى مكان آخر . فالتبنى الذى يجمعهما يزرع فينا الشك والقلق فى محاولة تزامنهما . نحن نعرف أن أول مشكلة تواجه أى مجتمع هى تزويده بالمياه واطفاء عطش سكانه خاصة فى المناطق الشبه جافة التى وصلها القرآن وهذا العمل يعتبر رحمة أوصى بها الإسلام لتابعيه وقد أعطى الأغالبة كل عنايتهم لتحقيق ذلك . فكانت تجمع

مياه سهل القيروان عبر قنطرة مائية فى خزانين وتصفى فيهما لشرب سكان المدينة والسماح بالوضوء الديني . وهناك نص [٦٦] يوعز هذا العمل العظيم الى أبى ابراهيم أحمد (٨٥٦ ـ ٨٦٣ م / ٢٤٢ـ ٢٤٩ هـ) . وقد زود نفس الأمير مقر العباسية بخزان مياه ولكنه لا يوجد له أثر الآن . ولكن خزان رقادة لا يزال موجودا ومن المحتمل أن يكون من المجاز ابراهيم الثانى فهذا الخزان الذى يشبه بالمرآة المستطيلة كان يضيف جمالا الي جمال المدينة الملكية . وكثير من الخزانات المماثلة ولكنها أقل حجما سجلها مؤلفو « بحث عن الانشاءات المائية الرومانية فى تونس» وتعد هذه الخزانات من مفاخر الرومان . ولكن تخصيصها للرومان شئ غير مؤكد خصوصا الخزانات الأكثر أهمية مثل خزانات القيروان ورقادة . هذا الخطأ يوحى لنا بأن استمرار التقاليد المتروكة من قبل حكام إفريقيا القدامى كانت مستمرة فى أعمال العمران الإسلامى .

وما قيل عن المياه والخزانات ينطبق أيضا على الحصون : لم يبقى شئ من السور الأغلبى للقيروان ولكن احتفظت صفاقس وسوسة بأسوارها التى تشبه أسوار المدن البيزنطية ؛ فلها تقريبا نفس الحوائط المسننة (المدببة ـ المحززة) ، نفس طرق الحراسة (طرق الداورية) نفس الأبراج المدعمة للدفاع . وفى سوسة نجد نقشا على السور ينسبه الى مولى الأمير والبكرى يذكر لنا اسم هذا المولى ويدعي « خلف » وقد وجدنا اسمه وذكرناه من قبل على مسكوكات الأمير أبى العباس .

وبالنسبة لتخطيط سوسة نفترض أن الرسم المستطيل للسور قد حافظ على سور سوسة القديمة ، والمشكوك فيه أن سور صفاقس يرجع لمعماريين

(٦٦) البكري : وصف إفريقيا الشمالية ، ترجمة دى سلان ، الطبعة الثانية ، الجزائر ١٩١٣ . ص٥٩ ، G. Marçais, Manuel d'art musulman, pp. 53-55 .

قدامى ، وليس هناك ما يؤكد أن المدينة الإسلامية قد توسعت أكثر من موقع مدينة تبسة القديمة . إلا أن سور صفاقس يأخذ شكل المستطيل وعلاوة على ذلك نرى أن فى تشابك شوارعها يوجد شارعان رئيسيان مميزان يعبران المدينة فى الاتجاهين ويتقاطعان عموديا فى الوسط حيث يوجد الجامع الكبير . ولا تزال تحتفظ القيروان بقسم من شارعها العريض (السماط) المحاذى للجامع الكبير والذى كان يربط بين بابين متقابلين شمال وجنوب المدينة .(٦٧) ويذكرنا بطريق المدن الرومانية الرئيسية التى تربط باب المدينة الجنوبى ببابها الشمالى ويتقاطع كما هو الحال فى صفاقس مع الطريق الذى يربط الشرق بالغرب ، فى الساحة الكبيرة التى كانت مركز التكتل السكانى وروح الحياة العامة . وقد حل الجامع الكبير محل الساحة الكبيرة حيث يتجمع المسلمون . وكان المواطنون فى عهد الأغالبة يأتون الى المسجد الكبير لمناقشة المصالح الجماعية وسماع الخطب والابتهالات لصالح خليفة بغداد كما كانوا يشاركون فى صلاة الجماعة مثلما كان يفعل أسلافهم يذهبون الى الساحة الكبيرة أيام الرومان حيث كانوا يناقشون المسائل البلدية وسماع القرارات ويذبحون الضحية ويصلون فى معبد حامى المدينة .

هـ ـ الحياة الدينية والفن الإسلامى

سأل رجل عائدا من المشرق مجموعة من الشباب قائلا : « عن أى شئ يتحدث اليوم سكان القيروان ؟ » فرد عليه الشباب قائلين : « إنهم يتحدثون عن الله وصفاته » (٦٨). ويعتبر القرن التاسع (٣هـ) بلا شك فترة تفاعل

(٦٧) عن سماط القيروان ، انظر ص ٨٤ ، البكري ترجمة ص ٥٩ ، وعن سماط طبنه البكري ص ١٠٩ .

(٦٨) ابو العرب : طبقات العلماء فى إفريقية ، ترجمة أبو شنب ص ٣٠٤ .

دينى شديد فى بلاد البربر كلها وخاصة فى القيروان كما أن المسائل الفقهية كانت تشغل الأذهان . وكان هذا قدر القيروان التى أنشأها سيدى عقبة لغرس الإسلام والعمل على ازدهاره . فالدراسة والوصول " للحق " هما أفضل الأعمال الدينية التى يقوم بها الفرد . وقد قال البهلول فيما يخص البحث العلمى « ما أعمال البر كلها عند الجهاد إلا كبصقة في بحر وما أعمال البر كلها والجهاد عند طلب العلم إلا كبصقة فى بحر » (٦٩) .

إذا بدا العلم على أنه أفضل من محاربة الكفار فليس معنى ذلك أن الحرب اختفت بل أخذت من جديد مظهر هجومى مع غزو صقلية واحتفظت بطابعها الدفاعى فى رباط الساحل . ومع ذلك فالرجال الصالحون فى رباط الساحل الذين كانوا يعتكفون للرياضة الروحية كانوا يهتمون بالتقوى أكثر من التدريب العسكرى ويهتمون بالصلاة أكثر من الدوريات للحراسة ولم تعد هجمات الخوارج ذات أهمية كبرى خلال هذا العهد . كما هدأ أيضا الصراع معهم فى الداخل ، حتى أقاموا حلقات للدراسة بالمسجد الجامع ، ويقول أبو العرب(٧٠) بأن سحنون الذى تقلد مهام القضاء فى ٨٤٨م (٢٣٤هـ) " كان أول من شرد أهل الأهواء من المسجد الجامع وكانوا فيه حلقا للصفرية والإباضية مظهريهن لزيغهم " ، ومع ذلك فالسنيون لا يضمرون لهم نفس العداء حتى فى القيروان ، ولن يطول الوقت حتى نراهم يتحالفون معهم ضد الشيعة . أما أمراء البلاد فكانوا أحيانا سعداء إذا ما وجدوا مساعدة من الإباضيين أو أى مذهب آخر فى الوقت الذى كانت ثورات البربر والمذهب الخارجى يمثلان عند أسلافهم شيئا واحدا . وقبيلة نفزاوة الجريد كانت من

---

(٦٩) أبو العرب : طبقات علماء إفريقية وتونس ص ٨٢٩ .

(٧٠) ترجمة ص ١٧٦ .

أخلص الرعايا فى الوقت الذى كانت تعتنق مذهب الإباضية [٧١] ولما اندلعت ثورة الجند وانتشرت فى إفريقية كلها وكادت تضيع من أيدى زيادة الله الأول كانت مساعدة نفزاوة هى التي غيرت مجرى الأحداث لصالحه .

لم يكن مذهب الخوارج مادة جدال عند العلماء القيروانيين ولكنهم كانوا يجادلون فى صفات الله كما ذكرنا من قبل ، بمعنى أنهم يتحزبون مع أو ضد المعتزلة . فقد كان هذا المذهب كما كان فى بغداد وسمرقند موضوع مجادلات حماسية . هل نستطيع التسليم بأن صفات الله هى عين ذات (هى هى هو) ؟ إن المعتزلة يرفضون ذلك فالتسليم بأن العلم وقدرة الله على أنهما متميزان عن الذات أو مرتبطان ارتباطا وثيقا به أليس هذا تسليما بتعدد الذات الإلهية وتشويها لها والشرك به ؟ أما كلمة الله وخلق القرآن فى وقت معين علي مر العصور هو الموضوع الشائك ولكنه مفهوم لدى العامة . ولقد أصبح رأى المعتزلة الذين كانوا يعتبرون أن القرآن مخلوق هو المذهب الرسمى فى عهد الخليفة المأمون الذى ساند هذا الرأى بسلطته العليا واضطهد كل الذين رفضوا اقرار ذلك . (كان هذا بإيعاز من الباطنية وليس من المعتزلة) .

وفى نفس الوقت كان الأمير زيادة الله الأول قد أعلن عن نفس المعتقدات [٧٢] فى القيروان وعين أبى محرز الجاهر بمذهبه المعتزلى فى وظيفة القاضى[٧٣] . فالنموذج المستورد من بغداد والميل الشخصى جعلا الأمير يميل نحو ما يسمى بالعقلانية الإسلامية ، رغم أن الشعب لم يشارك الأمير هذا الرأى . إذ كانوا يرمون نعش أحد العلماء بالحجارة لشكهم أنه من

(٧١) Abdu'l-Wahab, Un tournant de l'histoire aghlabite, dans Revue Tunisienne, 1937, p. 347 .

(٧٢) أبو العرب : الطبقات ، ص ١٦٤ .

(٧٣) أبو العرب : ص ١٥٧ .

المعتزلة ، وكانوا يصيحون من خلفه إلى « الوادى » (٧٤) أما عن القاضى اليحصبى . فعندما استعرضوا أمامه فكرة خلق القرآن بتأييد من زيادة الله أسكت معارضه باحتقار قائلا « وما للملوك وللكلام فى الدّين ؟ » (٧٥)

إذا كان الرأى السائد عند الفقهاء القيروانيين لا يناسب جرأة المعتزلة فليس من العجيب أن يعتنقوا موقف الجبريين ـ أنصار القدر المحتوم ـ فى النقاش بينهم وبين القدريين ـ أنصار حرية الاختيار ـ فبالنسبـة لأتباع بهلول إن مجرد التساؤل عن الحجج التى تستند عليها حرية الاختيار فهو من وحى الشيطان (٧٦) وفى إطار السنة نفس النزعة سوف تجعل من هؤلاء العلماء أكثر الناس تحمسا للمذهب المالكى .

سوف تعرف بلاد البربر إثنين فقط من المذاهب الأربع التي تكونت فى المشرق فى القرن الثامن والنصف من الأول من القرن التاسع وهما : المذهب الحنفى ، مذهب مدرسة العراق ، والمذهب المالكى ، مذهب مدرسة المدينة . وإفريقية بها كثير من ممثلى المذهب الحنفى . إن أبو العرب يذكر لنا خمسة وعشرون ولم يذكر من بينهم أسد بن الفرات الشهير الذى تتلمذ فى العراق على يد أنصار أبى حنيفة فقد كان يميل الى التحررية النسبية للمذهب راقي ويعارض بشدة بهلول رئيس الأنصار . نحن نعرف أنّ التباعد بين المذهبين يرتكز على الميول العامة التى وضعها لهما المؤسسان فى استخدام القياس الذى يرتضيه المذهب الحنفى أو احترام التراث الذى يتمسك به المذهب المالكى . ولكن تقل حدة هذا الخلاف في الأحكام القضائية . رغم أن

---

(٧٤) أبو العرب : ص ١٦٨ .

(٧٥) أبو العرب : ص ١٦٤ .

(٧٦) المالكى : مجلة الدراسات الإسلامية ، ١٩٣٥ ص ١٤٠ .

رغم أن المدرستين من السنة والفارق بينهما ليس إلا فكرى لكن أنصار المذهبين في القيروان كانوا يمقتون بعضهم البعض ويضطهدون بعضهم كلما سنحت لهم الفرصة بذلك . [٧٧] وكان المالكيون يرفضون الاشتراك في الصلاة إذا كان الإمام حنفى . كما أن الحنفيين كانوا يستأجرون رجلا لسب عالم مالكى أثناء إلقاء درسه . ومع ذلك فالمالكيون كانوا أكثر عددا وكان بينهم علماء أجلاء وبقوا مهيمنين على الموقف ولن يجد مذهب مالك بن أنس فى كل البلاد الإسلامية أنصارا أكثر حماسا ممن فى هذا البلد (إفريقية) . فقد قابل قيروانى فى الحجاز رجلا من بغداد واحتد بينهما النقاش فقال المشرقى « يقال أن الرسول كان يقول ... » فقاطعه القيرواني قائلاً « يروى حسب ما علمنا أن مالك له رأى آخر » . فصاح فيه البغدادي « بشّع الله وجهكم يوم القيامة يا أهل المغرب ! أترفضون كلمة الرسول وتصدقون ما يقوله مالك ! » [٧٨] وتعتبر القيروان المهد الثانى للمالكية وبعض الناس كان يجعل من المذهب المالكى دراسته الوحيدة ويكتفى بذلك مثل أحمد بن نصر هذا القاضى الذى يمتدحه أبو العرب « إذا تكلم فى أى شئ لا يصل أبداً إلى حل سليم أما إذا عالج الفقه المالكى فإنه عالم جليل » [٧٩] .

ولحسن الحظ كان لمعظمهم أفق أوسع وشخصية سحنون بن سعيد تفوقهم جميعاً وتبدو أعظم شخصية بين صفوة القيروانيين . ويكتب عنه أبو العرب قائلاً : « اجتمعت فيه خلال ما اجتمعت فى غيره : الفقه البارع ، والورع

---

(٧٧) المالكى : نص ص ١٦٥ ـ ١٦٧ : كان أنصار المذهب المالكى يلعنون الحنفيين فى خطب المساجد ، أبو العرب ص ١٩٣ .

(٧٨) أبو العرب : ترجمة ، ص ٢٠٨ .

(٧٩) أبو العرب : ترجمة ، ص ٢٤٥ .

الصادق ، والصرامة فى الحق ، والزهادة فى الدنيا ، والتخشن فى الملبس والمطعم ، والسماحة والترك ، لا يقبل من السلطان شيئا » (٨٠) . هذه هى الملامح التى نجدها مذكوره فى السير اللاتية القيروانية : « رياض النفوس » للمالكى و « معالم الإيمان » لابن ناجى أو « طبقات علماء إفريقية » هذا المؤلف الذى كان بمثابة نموذج للجميع .

إن كل الشخصيات التى تظهر فى « طبقات علماء إفريقية » تربط بينهم جميعاً العلوم الدينية . ويبدو أن إفريقية القرن التاسع لم تعرف غيرهم وكان كل منهم بمثابة محدث لأنهم جمعوا فى ذاكرتهم التراث الخاص بالرسول وسلسلة الفقهاء الذين تداولوه مع تقدير القيمة الأخلاقية لكل منهم . وعدد كبير من هؤلاء العلماء يعرفون أيضا الفقه وأبرزهم سحنون . وبالرغم من أن الأحاديث تعتبر مصدرا من المصادر الرئيسية للفقه الإسلامى فهذان النوعان من المعرفة (الحديث والفقه) يبقيان مستقلان تماما . والدليل علي ذلك المحدث الصمادحى الذى درس الفقه كان راوية ومصدر لعدد ضخم من الأحاديث .. هذا المحدث لم يستطع البت فى نزاع خاص بحمار إلا بعد أخذ رأى مجموعة برة من الفقهاء . (٨١)

بعض علماء إفريقية من أصل مشرقى والبعض الآخر رحل إلىَ المشرق طلبا للعلم . فالقدامى أخذوا الحديث والفقه على يد الإمام مالك نفسه ، أما الأجيال اللاحقة فكانوا مستمعين لأتباعه أو أتباع هؤلاء الذين لم يبارحوا إفريقية . وبذلك تصبح القيروان مدينة متبحرة فى العلم تجذب الطلبة الذين يستقرون فيها . فأهل المدينة من التجار والعمال الزراعيين يكوّنون بعد عملهم

---

(٨٠) أبو العرب : طبقات علماء إفريقية ، ص ١٨٤ .

(٨١) أبو العرب : ص ١٩١ ـ تعليق (٦) .

حلقة استماع حول الشيوخ المشهورين ، وكان المستمعون يأتون من الأندلس ومصر وحتي من بلاد فارس . ويقال أن أندلسيا كان ذاهبا إلى المشرق وعندما سمع سعيد بن الحداد يشرح الأحاديث صاح قائلاً : « مالى حاجة بالتقدم إلى المشرق وأنا أعلم أنى لا ألقى مثلك » [٨٢] وأصبحت شهرة القيروان تتعدى البحار وسوف تعبر العصور . فشهرة القيروان التعليمية وخاصة شهرة سحنون أكثر من أى عالم آخر بكتابه « المدونة » الذى كان سبباً فى كتابة خمس تعليقات ضخمة لتفسيره (- يرجع التعليق الأخير إلى القرن الرابع عشر ويشمل إثنى عشر مجلد) سيؤكدون الإنتصار الساحق للمذهب المالكى فى بلاد البربر حتى وصول الأتراك .

هناك كثير من العلماء على شاكلة سحنون ، يعيشون فى ورع وصلاة مستمرة [٨٣] . يؤرقهم الخوف من جهنم والندم على الذنوب يوحي لهم بالتوبة المرة ، فدعواتهم يتخللها النحيب وكان لبعضهم « ملكه البكاء » وعندما قيل لعبد الله ابن اسماعيل البرقى وقد ذهب بصره من كثرة البكاء إلى كم هذا البكاء ؟ رد قائلاً : « إنما جعلت عيناى للبكاء ، ولسانى لتعظيم الله عز وجل وتحميده ، والصلاة على نبيه ، وبدنى للتراب والبلى ، وقلبى للخوف والرجاء » [٨٤]

ويسيطر عليهم الورع ، خوفا من البدع ، لأن التصرفات البريئة فى ظاهرها ، ربما تكون مبادرات آثمة أمام الله ، لولم يكن لها ما يبررها . فقد

(٨٢) المالكى : رياض النفوس ٢ : ٦٥-٦٦ .

(٨٣) انظر حالة البهلول بن راشد فى أبو العرب ص ١٢٦ ، وما بعدها .

(٨٤) المالكى : رياض النفوس ٢ : ٢٠٠ .

طلبت زوجة بهلول ، أن يحضر لها زوجها شيئا عند عودته ، فقام بربط خيط رفيع حول خنصره ليتذكر طلبها ، ولكنه خشى أن يصبح ربط هذا الخيط بدعة فى الإسلام ، ولم يهدأ له بال إلا عندما علم أن واحداً من الصحابة ، كان يقوم بنفس الشئ ، وحمد الله علي أنه ابتعد عن البدع . (٨٥)

وبجانب سحنون الذى يمتدح أبو العرب زهده ، كان هناك كثير من الزهاد ، لا نجد لديهم أى أثر من الصوفية ، كما لا نجد بينهم أى نظير للصوفيين المشرقيين المعاصرين لهم . فمن بينهم من كان يكتفى بملبس واحد من الصوف للصيف والشتاء ، وينام على قوالب من الطوب مرصوصة على الأرض ، ومنهم من لا يأكل إلا الخبز الذى يعجنه ويخبزه بنفسه ، ويروى أن واحداً من هؤلاء الزهاد أعطى خبزه للفقراء وقام بعجن غيره بنفسه لأنه شك فى أن يكون خادمه قد بالغ فى طهيه .

ومع ذلك فهناك من العلماء من لم يرفض رغد العيش . ولكن من كانت ظروفه متواضعة فهو قانع بالبساطه والزهد والتواضع كرجل علم . إنهم لا يبحثون عن التقشف ولكن هناك من يتحمل العذاب الذى تفرضه الحياة بصبر وحلم . فابن اللباد يتحمل باقتناع شراسة زوجته قائلاً : « لكل مؤمن محنة وهذه محنتى » وقد رد على تلاميذه الذين كانوا يحثونه علي التخلص منها « أخشى إن طلقتها أن يبتلى بها مسلم ، ولعل الله عز وجل دفع عنى بمقاساتى لها بلاء عظيما . » (٨٦)

بجانب حبهم للعلم ، وتقواهم وورعهم ، الذى يبعث فينا الضحك أحيانا ، وبجانب بساطة عاداتهم وشجاعتهم على تحمل المحن المنزلية التى برهن لنا

---

(٨٥) أبو العرب : ص ١٢٨ .

(٨٦) المالكى : رياض النفوس ٢ : ٢٨٣-٢٨٤ .

عليها واحد منهم ، هناك سمة أخيرة نضيفها لهم وتطبعهم بشكل خاص وتعطيهم دورا تاريخيا ألا وهي : صلتهم بالأمراء الأغالبة .

إنهم مدركون للسلطة الأخلاقية (الروحية) التى وكلت إليهم . فرجال العلم والدين يعتبرون أنفسهم مراقبين على حكام البلاد وهذا هو تقليد فى الإسلام . إن نقد العادات واجب مفروض على كل مؤمن ، وسوف تسمح لنا الظروف بالكلام عن ذلك فيما بعد . الدرس الملقى على الملوك يصلح عادة كموضوع فى آداب التقوى والإصلاح . ولن نندهش من تصرف علماء القيروان فقد كان لهم الحق فى مزاولة هذا القضاء الروحى وعندما يخاطبون الأمراء تصبح لهجتهم وأسلوبهم خاليان من الوداعة وهو أسلوب المرشد الروحى الذى يدعو المذنب (المخطئ) إلى التوبـة . فقد كتب سحنون لمحمد بن الأغلب : « أعاذك الله أيها الأمير من قسوة التجبر ، ونخوة التكبر ، وأسأله أن يرزقك فهما للخير وعملاً به ، ومعرفة بالحق وأثره له » (٨٧) . وأحيانا تصبح اللهجة أكثر شدة فقد كان الزاهد الصـالح أحمد المكفوف ثائراً على الاستبـداد الدموى لإبراهيم الثانى وأملى رسالة للأمير قائلا فيها : « يا فاسق ! يا جائر ! يا خائن ! قد حدت عن شرائع الإسلام ! وعن قريب تعاين مقعدك من جهنم ، وسترد ، فتعلم ! » . فثار إبراهيم ولكنه لم يجرؤ على معاقبة المكفوف بل طلب الشخص الذى خط الرسالة فرفض المكفوف هذا المطلب ولعن الأمير مرة ثانية فاضطر الأمير إلى التغاضى عن طلبه (٨٨) .

والذى كان يثير إستهجان رجال الدين ضد الأمراء هو التسيب فى عاداتهم والفساد الحقيقى أو الوهمى فى القصور فالعباسية وخصوصا رقادة كانت تبدو

---

(٨٧) أبو العرب : ص ١٨٧ .

(٨٨) البيان : ١ : ١٣٠ .

بالنسبة للقيروانيين مدينة الفضائح . ونلاحظ أن الاتجار فى الخمر كان محرما فى القيروان ولكنه كان مسموح به فى رقادة ومن المؤكد أن معظم الأمراء كانوا يشربونها بشراهة . ويبدو أن القتل الجماعى الذى كان يقوم به ابراهيم الثانى يرجع سببه إلى الشذوذ المتقلب للثمالة . ويقال عن الأمير أحمد الذى كان حاكما صالحا « أنفق مبالغ ضخمة فى حفر الخزانات وبناء المساجد وتشييد القناطر بسبب كلمة قالها فى حالة سكر » (٨٩)

إذا كان رجال الدين لا يستطيعون إثبات العربدة فى القصور فهم يجدون فرص أخرى لإدانة حياة الطيش التى يعيشها أعوان الأمير ويطاردون الآلات الموسيقية التى تعتبر من أسباب الضلال فى ذهن المتشددين المسلمين . عندما ذهب مروان بن أبى شحمة إلى الأمير محمد وجد على باب القصر خصيا حاملاً آلة العود فنزعه مروان من بين يدى الخصى وحطمه (٩٠) فدخل الخصى القصر ومزق ملابسه وشكى لسيده فعلة الشيخ ولما مثل مروان بين يدى الأمير تحمل عتابه ولكنه أعلن « رأيت منكراً فغيرته » وانتهى الموضوع ولم يعلق الأمير بشئ .

وتوجد مناسبات أفضل نشاهد فيها هذه الرقابة على الأخلاقيات ونحن نصفق بحرارة لسحنون عندما رأى خصياً يقود إلى القصر رغما عنهن فتيات من الحرائر كسبايا فى القيروان ، تدخل سحنون وأخذهن منه وعمل علي إرجاعهن إلى ديارهن . ولما عرف الأمير بما حدث اكتفى بالقول : « إن سحنون يريد لنا الخلاص رغما منا » .

لكن فرض الضرائب الغير شرعية هى التى كانت تثير غضب رجال الدين .

---

(٨٩) البيان : ١ : ١١٣ .

(٩٠) أبو العرب ص ٢٠١ ، المالكى : رياض النفوس ، ١ : ٣٩٢ .

فقصة الأمير عبد الله كما يرويها لنا ابن عذاري لها شكل المثل الأخلاقي لجميع الملوك الأشرار (٩١) . كان عبد الله ثاني أمير لسلالة الأغالبة وكان وجلا وسيما ولكنه مستبداً مع رعاياه . « أحدث بإفريقية وجوها من الظلم شنيعة ، منها أنه قطع العشر حبا وجعله ثمانية دنانير للقفيز أصاب أو لم يصب ، وغير ذلك من الظلم والمغارم والمظالم ، فاشتد على الناس ذلك » . فقام الفقيه حفص بن حميد وبعض رجال الخير بمقابلة الأمير ووجهوا إليه التحذيرات الدينيه الخاصة بواجباته نحو رعاياه ، فرفض نصائحهم باحتقار فانسحبوا ولكنهم توقفوا بالقرب من واد وتوضؤا حيث أقاموا الصلاة داعين الله أن يخلص المسلمين من ظلم حاكمهم . وبعد ستة أيام توفى الأمير عبد الله نتيجة خراج في أذنه ويضيف الراوى : « وقال من حضر غسله أنه ، لما كشف عنه ثيابه ، ظن أنه عبد أسود بعد جماله . وذلك بسوء فعاله » . أما عن ابراهيم الثانى كاد يكون ضحية اللعنة التي وجهها له سعيد بن اسحق . واعترف ابراهيم الثاني بنفسه لمن سألوه قائلا « لما صال على سعيد بن اسحق تلك الصولة حسبت أن الفحص اشتعل نارا على » (٩٢) .

ومهما كانت صحة هذه الروايات من عدمها فاحترام الأمراء لرجال الدين يدخل فيه جانب من الخوف من اللعنات التى يوجهها لهم هؤلاء الأتقياء . وكان الأمراء يجدون أيضا منفعة سياسية فى مهادنة الذين يعتبرون أنفسهم مدافعين عن الشعب . كان هؤلاء العلماء مفخرة المدينة وتمتد حظوتهم إلى كل البلاد الإسلامية . فهؤلاء المتقشفون يحتقرون ترف الأمراء ويعترضون علي تجاوزاتهم فى الحكم . فقد كانوا حاملى التراث الإسلامي ويؤثرون فى الرأي

---

(٩١) البيان : ١ : ٩٥-٩٦ ، النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ص ٢٥٧ .

(٩٢) المالكى : رياض النفوس ، ٢ : ١٥ .

العام وإثارة الشعب ضد الملوك الأذلاء . فهم يمثلون سلطة يحاول الامراء الاعتماد عليها لصالحهم . لقد ترك الأغالبة مدينة القيروان للابتعاد عن شعب متقلب وعديم المراعاة وعاشوا فى مقرهم فى الضواحى للاحستاس بالأمن تحت حراسة مشددة من مواليهم وعبيدهم السود ، بالرغم من ذلك لم يستطيعوا مقاطعة العاصمة القديمة ولا مسجد سيدى عقبة الكبير ، وعامة الشعب والحضريين والبرجوازية والطلبة ورجال الأسواق (التجار) وخصوصا رؤسائهم الروحانيين وهم رجال الدين . رغم عدم اهتمام معظم الأمراء بقوة تأنيب رجال الدين لهم إلا أنهم يقدمون لهم الاحترام ويظهر ذلك فى الواجب الذى يفرضه الأمير علي نفسه عندما يتوفى واحد من هذه الشخصيات المحترمة فهو يحضر غسله ويتصدر صلاة الجنازة كما أن أهل الفقيد لا يحرمونه من هذا الشرف . إن أبا محرز الذى عينه زيادة الله الأول قاضيا لإفريقية قد أخذ حيطته حيال ذلك . ويروى لنا البيان (٩٣) : « وكان قد أوصى أخاه عمران أن يكتم موته حتى يكفنه ويصلى عليه . خوفا أن يكفنه زيادة الله ويصلى عليه . ففعل عمران ذلك فلما حمل نعشه وخرج من داره ، أقبل خلف الفتى بمسك كثير وأكفان من قبل زيادة الله فقال له عمران : « قد كفناه » فذر خلف المسك الذى كان معه عليه » .

كثير من الروايات تؤكد لنا هذا التصرف من رجال الدين تجاه الأمراء ، وكان أبو العرب يمدح سحنون الذى « لا يقبل من السلطان شيئا » ونستطيع بدون شك الاسترسال فى الأمثلة المماثلة لكثير من رجال الدين . فقد كان بهلول بن راشد مدعو عند أحد أصدقائه وامتنع عن الأكل فقال له صديقه « أفسلطان أنا طعامى حرام »(٩٤) إن أبسط الكرم والثقة الزائدة يصطدم

(٩٣) البيان : ١ : ١٠٦ .

(٩٤) أبو العرب : ص ١٣٠ ، ١٨٤ .

بعنادهم المتشكك .

كما أن الوظائف العمومية لا تستهويهم ولكن معرفتهم للفقه تؤهلهم لوظيفة القاضى ورغم ذلك فهم يرفضونها . إن رفض مهمة القاضى وتحمل المسئولية التى يفرضها الواجب لمحاكمة الغير تعتبر تقليدا فى البلاد الإسلامية . وإذا وافقوا علي تحمل المسئولية والحكم بالعدل فيقبلون ذلك على مضض منهم معتقدين أن فى استطاعتهم تقويم الأخطاء . وقبل عدد كبير منهم هذه الوظيفة بشرط ألا يتقاضى مقابلا ماديا . فقد وافق سحنون على تولى هذه الوظيفة تحت إلحاح محمد بن الأغلب وأضاف شرطا آخر وهو تطبيق العدالة بكل حرية حتى على الأمير نفسه أو أحد أفراد عائلته . وقد لاحظنا خيبة أمل حاشية الأمير عندما علموا أن سحنون قد قبل هذه الوظيفة . وبعد قبوله لهذا المنصب جاء لزيارته صديق وبـادره بهذه الكلمات « نهنئك أو نعزيك ؟ » ثم قال له رجل من أهل الأندلس : « وددنا إن رأيناك اليوم على أعواد نعشك ولم نرك فى هذا المجلس » (٩٥)

إذا كنا قد أطلنا فى دراسة الصفوة المتدينة فى إفريقية فليس فقط لانتهاز الفرصة التى أتاحتها لنا كتب السيرة الذاتية لتقديم بعض عناصر الحياة فى تاريخ لا تتوفر فيه هذه العناصر بكثرة . إن استخدام هذه المنابع يتطلب منا بعض التحفظات لأن أبا العرب والمالكى ليسوا إلا مقرظين ومدافعين ولا يجب أن ننخدع بسرعة تصديقهم أو كذبهم الصالح خوفاً من تكوين فكرة خاطئة وغير مكتملة عن المجتمع القيروانى إذا لم نصحح هذه الصورة البناءة بما علمناه من مصادر أخرى وما نعرفه عن المجتمعات المماثلة . نحن نعرف أن القيروان مركز للدراسات المنزهة ومدينة زاخرة بالبركات ولكنها فى الوقت نفسه

---

(٩٥) أبو العرب : ص ١٨٦ ، تعليق (٧) .

مدينة تجارية حيث المزايدات والاثراء ورغد العيش ، كما أن رجال الدين يتمتعون بحظوة كبيرة ونوع من القضاء الروحي والصالحون الذين يحيطون بهم سريعوا الإثارة لذلك نرى الاهتمام الزائد بالرأى الآخر وبعض التصرف الأخلاقى والثمن إذا هو نوع من النفاق . فإذا قبلنا هذا التصحيح وجب علينا الاعتراف بأن علماء إفريقية ـ الذين تكلم عنهم المترجمون بشئ من المجاملة ـ كانوا يشغلون مكانة سامية فى ماضى بلاد البربر ولن نفهم حضارة القرن التاسع بدونهم فاختصاصاتهم يعتبر حدث إسلامى مستورد من المشرق ويكمل وظيفة الأمراء . فهؤلاء الأمراء الذين يمثلون بدون شك السلطة الدنيوية أى العنصر العلمانى ولكن هذا التعبير له قيمة نسبية فى أرض إسلامية . فرجال العلم والدين لا يشتركون عادة فى الحكومة ولكنهم يراقبون تصرفها . فهم لسان حال الشعب للاعتراض على التجاوزات التى تدينها التعاليم القرآنية إن الأمراء لا يحصلون على السلطة إلا من خليفة بغداد ولكنهم يراعون رجال الدين ، ويطلبون ودهم احتراما لهم وخصوصا للصالح السياسى نفترض إذاً إن قرار زيادة الله للعودة الى الجهاد المقدس وغزو صقلية (٩٦) كان يحمل فى طياته استمالة رجال الدين ، وكان الحال كذلك بالنسبة لإقامة المبانى الدينية والمنافع العامة ، فقد كان زيادة الله يؤكد أن بناء مسجد القيروان الكبير وبناء رباط سوسه وقنطرة أبى ربيع وكذلك تعيين أبى محرز لوظيفة القاضى كل ذلك يضمن له الجنة . لذلك فالسياسة الدينية للأمراء كانت مرتبطة إرتباطا وثيقا بهذا النشاط العمرانى الذي يفرض علينا الإعجاب . فخلاف قصورهم هناك المساجد الكبيرة فى القيروان وتونس والرباطات المحصنة للساحل

---

(٩٦) لم تكن النتيجة فى صالحه كما كان ينتظر لأن العلماء أدانوا الحملة إلا أن أسد بن القرات الذى كلف بها بسبب معاهدة قديمة ، انظر أبو العرب ص ١٦٥ .

والخزانات التى تمون المدن بالمياه وبعض القطع الفنية للأثاث التي تخلد الذكرى المجيدة للأغالبة وتساعدنا على معرفة ما كانت عليه حضارة عصرهم .

ينبعث من دراسة هذه المبانى وهذه القطع الفنية ـ التى لن نتطرق لدراستها هنا [٩٧] ـ الإحساس بفن متين له شخصيته القوية رغم تعدد المؤثرات التى تسيطر عليه مثل الشعب الذى ازدهر هذا الفن المبدع من أجله ومثل المجتمعات الحضارية حيث يتجاور المهاجرون مع أبناء الوطن ومثل أفراد قصور الأغالبة حيث الأمراء العرب وفرق الحرس الفارسية التى تجاور الموالى من إفريقية ومن أوربا الذين كانوا يدينون بالمسيحية قديما . كذلك عناصر البناء والزخرفة التى تتجلى فى التحليل فهى إما مستوردة من المشرق أو موروثة من الفن القديم للبلاد . إن تخطيط مساجد القيروان وتونس مستلهم من تخطيط الكنائس الكبيرة ولكنه يتلاءم مع العبادة التى نشأت فى الجزيرة العربية . فالممر المنصف أعلى وأعرض من الممرات الأخرى وله قبتان ذات بداية ونهاية وهي تذكرنا ببعض الكنائس الإفريقية لكن تعدد الصحون وسعة الفناء تماثل الطراز العربى الأول أما المكان والشكل المربع للمئذنة يرجع إلي الأصل السورى أما الركائز وتخطيط الأقواس والأسقف على شكل الأسطح فهى على الأرجع من أصل مصرى . أما هيكل القبة فيعود إلى الطراز العراقى مثل دهان الأسقف ولكن الزخرفة المنحوتة ربما تكون من عمل الورش المحلية .

والقليل الذى وصل إلينا من مدينة رقادة يوضح تجاور الاستيراد الأجنبى مع المؤثرات الإفريقية . كان الخلفاء العباسيون يزينون مقر إقامتهم فى سامراء بمسطحات مائية واسعة ينعكس فيها واجهات القصر والأشجار ، كذلك الأغالبة ـ وهم صورة مصغرة من العباسيين ـ فقد هيأوا (كيفوا) الخزان الكبير

---

(٩٧) أنظر مرجعنا . Manuel d'art musulman, ch. I .

وسمي « قصر البحيرة » باسمه .. هذا الخزان لا يزال موجودا ولكن كل المباني المحيطة به قد اندثرت ولم يبق إلا بعض التبليط من الفسيفساء الذى يؤكد لنا تدخل الصناع المحليين وهم الورثة المباشرين للذين كانوا يعملون فى تزيين الكنائس منذ قرنين مضت .

والخزف ذو الانعكاس المعدنى المحفوظ الآن بمسجد القيروان الكبير يوضح لنا أول غزو فى مجال الفنون الصغيرة . وقد رأينا أن المجموعة المستوردة من بغداد قد استكملت فى القيروان بنفس الاتقان وأسلوب الورش الأسيوية .

كما أن أجمل الألواح الخشبية المنحوتة الخاصة بالمنبر ترجع بنا إلى العراق ولكن بعض الألواح الأخرى تذكرنا بالتراث اليونانى أو المسيحى السورى .ويصبح هذا الأثاث الرائع ابداع متنافر حيث تتمثل فيه عدة عهود وعدة أقاليم للعالم المشرقى : سورية الأموية وعراق العباسيين وبتعبير آخر فهو وثيقة لا مثيل لها تساعدنا على فهم ميلاد الفن الإسلامي .

إن الفن الإسلامي .... فى عهد الأغالبة لم تتحدد بعد خطوطه . وهذا الفن المشرقى يرجع أصلا إلى الفن اليونانى والإيرانى وقد أوصل هذه الولاية الإفريقية الغنية بالتراث الفنى الإسلامى عن طريق الغزو العسكرى نتشار الإسلام .

إن استخدام الأدوات القديمة والدور المتفوق الموكول للموالى الذين كانوا مسيحيين فيما مضى ، وتوظيف اليد العاملة ذات الخبرة الموجودة فى البلاد .. كل ذلك ساعد بالتأكيد على دفع هذا الفن بطابع إقليمى يجعلنا نتذكر الفن الأوربى الذى ظهر بعد قرنين من الزمان . إن الحضارة التى يعبر عنها هذا الفن الجذاب تبدو لنا مليئة بالوعود وأيا كان المستقبل الذى ينتظرها فهى جديرة بوضع إفريقية فى مكانة عظيمة فى ماضى العالم الإسلامي .

ثانيا : بلاد البربر الخارجية ومملكة تاهرت

إنه من الصعب وضع خريطة لبلاد البربر فى القرن التاسع وخصوصا للمغرب الأوسط الذى يفصل مملكة الأغالبة عن مملكة الأدارسة . وموقع المدن التى ذكرها الرحالة اليعقوبى ليست مجهولة بالنسبة لنا فحسب بل وكذلك توزيع القبائل التى ذكرها تبدو أكثر غموضا من التوزيع الذى ذكره ابن خلدون بعد خمس قرون . فتوزيع ابن خلدون يسمح لنا بوضع خريطة غاية فى الدقة . فمن مميزات وصف اليعقوبى (٩٨) والمعاصرين له تفتيت المجموعات القديمة التى تعود إلى أصل مشترك وانتشارهم عبر بلاد البربر ، وهذه نتيجة محتملة للهجرة التى سببها الغزو الإسلامى وردع ثورات قرن بأكمله . فمثلا قبيلة لواتة الكبيرة لها ممثلين فى جنوب قابس وفى جبال أوراس وشماله وبالقرب من منداس فى منطقة تاهرت ، وكذلك قبيلة هوارة المنتشرة فى ثلاث أماكن مختلفة . هناك بحث من الصعب تناوله بالتفصيل هنا يربط هذا التفتيت بتقهقر المذهب الخارجى ولقد أصبح مجال هذا المذهب الذى كان يغطي الجزء الأكبر لشمال إفريقيا لا يشغل إلا جزء صغير ممتد إلى حد ما ، من منطقة الزاب وهى الممر الغربى للملكة الأغلبية فإنه يواجه أول هذه الجزر وهى بقعة بنى برزال فى منطقة المسيلة وبشرح أدق نقول أن البلد المحكوم بأمراء القيروان محاط تقريبا بمجتمعات خوارج أو على الأقل محاط بعناصر غير مطيعة . ففى جبال القبائل الصغرى توجد قبيلة كتامة الكبرى وهم مناصرون للشيعة فى المستقبل وكانوا يعرفون بميولهم للمعتقدات الدينية القديمة للبربر

(٩٨) انظر اليعقوبى : البلدان ترجمة . G. Wiet et notre article de la Revue Africaine, 1941, pp. 40 ss.

والتى استفاد منها الداعية الشيعى . ويقول لنا البيان [٩٩] أن « أشهر رؤسائها كان يميل فى مذهبه الى مذهب الإباضية النكارة » . وفى جنوب هضاب قسنطينة توجد جبال الأوراس التى لا تزال متمردة وكانت بجانب هوارة واحدة من حصون الخوارج . وكان هـذا المذهب أكثر قوة وجهاداً فى جبل نفوسة . ويقول اليعقوبى إن أهل نفوسة « لا يؤدون خراجا الى السلطان ولا يعطون طاعة إلا الى رئيس لهم بتاهرت » . وعندما يترك اليعقوبى بنى برزال متجها نحو الغرب يقابل بعد عدة مراحل أقارب لبنى برزال وهم أولاد بنى دمر وفى الإمكان تحديد مقرهم فى جنوب أومال Aumale « وهم شراه (خوارج) كلهم عليهم رئيس منهم يقال له مصادف من جرتيل فى بلد زرع ومواشى » وعلى مسافة يوم أو يومين من السير علي الأقدام تبدأ الإمارة الرستمية فى تاهرت التي لا نعرف لها حدود . وشمال غرب تاهرت على مسافة عشرة أميال أو أكثر من العاصمة توجد مجموعة من الإباضية المنفصلة وتخضع لابن مصالة وهو من هوارة ويستقر فى كدال بالقرب من قلعـة بنى راشد المستقبلية .

إذا اتجهنا نحو الغرب نترك مجال الخوارج ونجد مدينة تلمسان التى كانت محكومة من سنة ٧٩٠ م (١٧٤هـ) بفرد من أفراد عائلة الأدارسة وقد لعبت دورا رئيسيا فى الصراع الحربى للخوارج فى عهد بنى قرة من بنى يفرن فادريس وسلالته قد أصابوا المغرب الأقصى بالتشيع لآل البيت الذى بقي قويا هناك . وفى جنوب المغرب الأقصى نجد المذهب الخارجي أيضا فى منطقة تافيلالت وسجلماسة عاصمة منطقة الواحات أسست فى منتصف القرن الثامن

(٩٩) ١ : ١٢٤ ، من بين الشيوخ الستة الأوائل الذين غينهم عبد الرحمن بن رستم يوجد بينهم كتامى (أبو زكريا : كتاب سير الأئمة وأخبارهم ص ٥٥)

بواسطة بربر مكناسة الخوارج الصفريين وقد عرفت مع أسرة بنى مدرار إزدهارا حقيقيا . وعند أقصى الرمال تمتد منطقة تافللت على الطرف الآخر لبلاد البربر وكأنها امتداد لخوارج نفوسة . وعلى كل فالمذهب ثبت أقدامه حتى فى قلب الصحراء . كما انضم للمذهب أيضا قبيلة سدراته المستقرين بمنطقة وارجلة وسيكون لهؤلاء الفضل فى استقبال أئمة الرستميين الهاربين بعد انهيار مملكتهم .

إذا كانت مناطق نفوذ البربر الخارجى فى القرن التاسع (٣هـ) تبدو لنا وكأنها مكونة من عناصر مفككة ومختلفة فإن لها دورا فى تطور الحضارة الإسلامية بفضل تاهرت وحكامها . فهذه المدينة أسست سنة ٧٦١م (١٤٤هـ) بواسطة عبد الرحمن بن رستم الذى طرده ابن الأشعث من القيروان . وهى تبعد تسعة كيلومترات عن مدينة تاهرت الحالية . وقد أصبحت هذه المدينة عاصمة المذهب الخارجى مثل القيروان بالنسبة للمذهب السنى . والمعلقون يؤكدون هذا التقابل . وكما فعل سيدى عقبة فى القيروان فمؤسس مدينة تاهرت أنذر الحيوانات المتوحشة ـ التى كانت تجعل هذا المكان غير آهل بالسكان ـ على ترك المكان للمؤمنين (١٠٠) . فذهبت الحيوانات طواعية ويقال أنهم رأوا وحشا يهرب حاملاً صغاره بين فكيه .

تعتبر تاهرت الوريثة الشرعية لتلمسان أبى قرة . فهى تنشر إزدهارها على كل المجتمعات الخارجية فى بلاد البربر وأبعد من ذلك . وترجع هذه الحركة إلي الحظوة الشخصية للعائلة الحاكمة . فبعض الأئمة ـ مثل أبى اليقظان خامس الأئمة ـ كانوا بمثابة شخصيات مقدسة . ويقول ابن

(١٠٠) أبو زكريا : سير الأئمة وأخبارهم ص ٥٣ ، عن تأسيس القيروان انظر ابن عذارى : البيان ١ : ٢٠ ، ابن الأثير : الكامل ٣ : ٢٣٠ .

الصغير (١٠١) « وكان المغرب كله مفتونا بهذا الرجل حتى إن من كان من الإباضية بسجلماسة يبعثون إليه بزكاتهم يصرفها حيث يشاء » . وكان الوضع مختلفا بالنسبة لقبيلة نفوسة « وكانت نفوسة الجبل مفتونة بأبى اليقظان حتى أنهم أقامته فى دينها وتحليلها وتحريمها مثل ما أقامت النصارى عيسى بن مريم » . وإذا صدقنا المؤرخ أبى زكريا (١٠٢) فسمعة الإمام عبد الرحمن - مؤسس الأسرة - ونفوذه الروحانى قد وصلت حتى العراق . ويروى لنا أيضا عن البعثة المرسلة من خوارج البصرة محملة بثلاث حمولات هدايا ثمينة فيقبلها عبد الرحمن ولكنه رفض بعد ذلك هدايا أثمن مما جعل المشرقيون يميلون له بسبب نزاهته « فأقروا بإمامته وواصلوه بكتبهم ووصاياهم » ومع مراعاة التحيز الخاص للمؤرخ الخارجى نحن لا نشك فى الحظوة الحقيقية التي كانت لتاهرت فى العراق ولدينا الدليل على ذلك . ولم تقتصر مكانة الأئمة بين الخوارج فقط بل كانت صلات الود تربط الرستميين بالأمويين فى أسبانيا . ففى سنة ٨٢٢ م (٢٠٧هـ) وصل إلى بلاط قرطبة إثنان من أنجال عبد الرحمن بن رستم ولقد تكلف الأمير الأموى عبد الرحمن الثانى لنفقاتهم المالية والهدايا من الأشياء الثمينة والجياد مليون دينار . إنها قصة لمجهول فى القرن التاسع (١٠٣) . وكان كثير من أفراد العائلة الرستمية من بين كبار موظفى الإمارة الأندلسية . ومن البديهى أن المكانة الدينية للأئمة لم تكن موضع جدال بقرطبة التى عملت على الاستفادة منهم على الصعيد السياسى . فالرستميون والبربر المنحازون لهم وخاصة الزناتيون كانوا يمثلون بالنسبة للأمويين أتباعا لدعم مصالحهم فى شمال إفريقيا ضد الأغالبة أتباع بغداد .

(١٠١) ابن الصغير : أخبار الأئمة الرستميين ص ٩٧

(١٠٢) سير الأئمة وأخبارهم ص ٥٤ .

(١٠٣) لقد وصلتنا هذه القصة من .M. E. Lévi-Provençal

إن تاهرت العاصمة المتواضعة لوسط بلاد البربر وجدت مكانها فى تاريخ المغرب الإسلامى بهذا الدور السياسى العرضى والذى يعتبر من وجهة نظرنا تخمينى . وفى نفس الوقت ساعدت بدورها الدينى وبأصل ومكانة أئمتها وبحياتها الاقتصادية أيضا فى تطور وتوجيه شمال إفريقيا (وهو موضوع دراستنا) بمنافستها للقيروان . ومن الجدير بالذكر أننا نجد هناك تشابها كبيرا بينهما إلا أن تاهرت تتميز ببعض النقاط الأساسية : أولا : الطابع الدينى لحكومتها . وثانيا : المكانة المتفوقة التى تمتع بها سكانها من البربر ويجب إيضاح هذه النقطة الأخيرة لأنها تقيم المملكة الخارجية وتربط ظهورها برد فعل الأهالى فى القرن الثامن (٢ هـ) .

إن الأمثال المهينة عن البربر والأحاديث المزيفة التى استعرناها من مؤرخى العلماء القيروانيين نجد عكسها فى تأريخ أبى زكريا (١٠٤) ونقرأ له أن الرسول سأل الروح الأمين جبريـل عن الـدور المخصص للبربر فرد عليه جبريل « قوم يحيون دين الله بعد أن يموت ويجددونه بعد أن يبلى » وهناك أحاديث أخرى تتكلم عن عقيدتهم القوية . « فإن الله سيفتح للإسلام بابا من المغرب بقوم يعز الله بهم الإسلام ويذل بهم الكفر » .

هذه الأحاديث وعلامات إرتقاء البربر بين الظرفاء التى سجلها أبو زكريا مجاملة توضح واجهة الحياة فى تاهرت وتبرز ما يخالفها فى القيروان . والبربر المحتقرون فى القيروان ، خصوصا لانتمائهم للمذهب الخارجى ، يظهرون ولنفس السبب فى تاهرت المتعاونون الأكثر نفعا للدولة . ومع ذلك نجد أبى زكريا يمتدح بنفس الحرارة أيضا الفارسيين . (١٠٥) فهم أيضا لهم دورهم

(١٠٤) سير الأئمة وأخبارهم ص ٣٣ـ٣٤ .

(١٠٥) سير الأئمة وأخبارهم ص ٢٨ـ٣١ .

الفعال فى انتصار الإسلام وكانوا أيضا موضع الأحاديث النبوية . لقد قال النبى « لو أن الديـــن متعلق بالثريا لتناولته رجال من العجم وأسعدهم به فارس » ويوضح لنا أبو زكريا ميزة أخرى لدولة تاهرت : إن مؤسس هذه المملكة البربرية الصغيرة هو عبد الرحمن بن رستم ، من سلالة نبيلة لعائلة إيرانية قديمة . وفى سنة ٧٧٦ م (١٦١هـ) بعد خمسة عشر عاما من وصوله للبلاد أعطاه الإباضية لقب « إمام » وبقى هذا اللقب في سلالته لمدة مائة واثنان وثلاثون عاما .

إن تاريخ هذه العائلة المتمركزة فى المغرب الأوسط يقدم لنا سلسلة من المفارقات التى لا يمكن تفسيرها ، لو لم نبررها بالخلاف الأبدى بين المثالية والواقع . فالمملكة الإباضية كدولة مثالية تضع فى الاعتبار المطامع المادية لجيرانها المحيطين بها . وفى نفس الوقت سمح الموقع الجغرافى لمدينة تاهرت (مدينة الله) ، نتيجة للنشاط التجارى ، بالحصول على خيرات هؤلاء الجيران المحيطين بها ، وهكذا كانت الدولة الرستمية تحت وطأة نظريتان متوازيتان ومتصارعتان بغير تكافؤ وبدون انتصار الواحدة على الأخرى ولكنهما سيساعدان على تهيئة الكارثة التى تعجل بانهيار الدولة فى النهاية .

المفارقة الأولى تخص المبدأ الذى ترتكز عليه السلطة العليا : الإمامة الإباضية وهى وظيفة انتخابية ولكنها فى الواقع وراثية . ورغم أن الرستميون يكونون أسرة وراثية إلا أنهم من الناحية النظرية يعتبرون أنفسهم منتخبين . فقد اختارهم صفوة المجتمع الإباضى بحرية تامة على أنهم الأجدر كما أن سلطتهم غير مستمدة من نظام عشائرى أو تفوق عددى كما هو الحال بالنسبة للملوك البربر . بل العكس هو الصحيح ويقول أبو زكريا أن أنصـــار عبد الرحمن بن رستم استغلوا هذه النقطة لصالحهم « ليست له قبيلة تمنعه إذا تغير

وتبدل » [١٠٦] والمفهوم هنا من التغيير هو تغيير التنظيم الأولى المثالى إلى مملكة ما . ويجب أن نلاحظ من الآن أن الإمام الثانى انتصر بفضل مساندة بنى يفرن لأن والدته كانت من هذه القبيلة . لقد أغفلوا إذا القاعدة المتبعة من البداية .

إن الإمام المختار أصلا لجدارته يعتبر عاهلا من نوع خاص . فسلطته واسعة وفى الوقت نفسه محدودة . فسلطته واسعة لأنه ليس فقط أميرا للمؤمنين وقائدا للحرب والسيد المطلق للمملكة لا يطلع أحدا علي الإدارة المالية بل هو الحاكم المطلق والقائد الروحى الذى يصدر القرارات الخاصة بالحياة العامة والخاصة لرعيته وهو أيضا رقيب للأخلاق « سلطة شرعية دنيوية » . ومع ذلك فهذه السلطة ليس فيها إشباعاً لمستبد لأن مزاولة هذه السلطة واجب لا مفر منه وعند استخدامها يجب عليه عدم الابتعاد عن القرآن والأحاديث أو تقاليد زعماء المذهب المعترف بهم . فإذا قام العاهل بأى تغيير أو أدخل تجديدات أقيل من منصبه بل ويحكم عليه بالفصل من الجماعة .

ليس لكل المؤمنين الحق فى تقييم سلوك العاهل أو تعيينه ، لكن هناك رجال الدين المتخصصين فى العلوم الفقهية وحراس المتابعة الدقيقة . فبخلاف الشعائر الدينية ليس لهؤلاء الشخصيات مهام أخرى غير المتابعة الدائمة لإدارة الحكم ونظام المدينة .

لوحظ بدون شك أن دور رجال الدين الإباضيين يشابه دور نظرائهم المعاصرين لهم فى القيروان مع الفارق أن الإباضيين كهيئة دينية وطبقة قوية لهم حق النقد الذى لا يقبل الجدل على سياسة الدولة والسلطة الروحية والشخصية للإمام الإباضى .

---

(١٠٦) أبو زكريا ص ٥٣ .

ومن الملاحظ أنه لم يقم عداء عملى بين هاتين المملكتين المتجاورتين والمتعارضتين سياسيا ودينيا ولم يكن لدى كل منهما الرغبة فى السيطرة أو الإثراء على حساب الأخرى إلي أن ظهرت القوة التى محتهما معا . إن التاريخ الداخلى للرستميين هو الذى يلفت الأنظار أكثر من التاريخ الداخلى للأغالبة . فتاريخ الرستميين كان مضطربا أكثر مما رواه لنا أبو زكريا . فالأزمات السياسية الأولى لها طابع الانشقاق وهذا وضع طبيعى فى دولة مذهبية . فهذه الأزمات تسبب انفصال الحزب المهزوم الذى يرفض طاعة الإمام . والأزمات الأخيرة التى سببها التنافس العائلى انقلبت إلى فوضى مهدت لنهاية الدولة ومن المفيد أن نعطي فكرة عن هذه الأزمات لفهم العناصر التى جلبتها مملكة تاهرت إلى بلاد البربر وكيف كانت تدار السلطة والعوامل التى هددت هذه السلطة .

انفجر الانقسام (١٠٧) الأول والأكثر خطورة فى عهد عبد الوهاب ، الإمام الثاني للأسرة . فقد انتخب عبد الوهــاب بفضل مساندة بنى يفرن أقارب والدته . أما معارضوا اختيار عبد الوهاب فقد أعلنوا أنهم لن يبايعوه إلا إذا قبل أن يحكم بمعاونة مجلس استشارى . وبما أن وظيفة الإمام انتخابية يستنتج من ذلك أن يصبح الحكم دستوريا . ولكن المعارضة طالبت بأن يستقيل الإمام إذا وجد من بين المسلمين رجل أعلم منه . فتقرر الرجوع إلي الأساتذة الإباضيين فى المشرق . فجاء الرد من مكة مستبعدا تماما مبدأ الدستور وتدخل المجلس الاستشارى وأن هناك سببا واحدا يفرض إقالة الإمام ألا وهو : خرق تعاليم الإسلام المتهمة شرعاً من رجال الدين الإباضيين . لم يقبل الإنفصاليون هذا الحكم وخرجوا من المدينة وكونوا طائفة جديدة سميت بالنكارية .

(١٠٧) أبو زكريا : ص ٥٨ ، ٩٩ .

ومن بين الأزمات التى دمغت العهود الأخيرة تلك الأزمة التى انفجرت فى عهد أبى حاتم وقد كانت فى الواقع خطيرة جدا . وتكلم أبو زكريا عن هذا العهد قائلا : « ولم ينقم عليه من رعيته أحد » أما الأحداث التى يقصها علينا ابن الصغير (١٠٨) وهو مؤرخ لا ينتمى للطائفة . هذه الأحداث تلقى ضوءاً خاصاً على تطور الإمامة .

لقد حقق أبو اليقظان والد أبى حاتم مثالية الأئمة الدينيين المتقشفين . وقد كان أبو حاتم شابا جوادا ودودا مع الشعب وكانت أمه طموحه وخيرة وفى يوم احتفال وغياب أبيه رفعه الناس فوق درع وهتفوا له بالإمامة . وعندما توفى أبو اليقظان فى سنة ٨٩٤ م (٢٨١هـ) حصل أبو حاتم علي الإمامة ولم يؤخذ رأى فقهاء المذهب الإباضى وأرسلت الوفود إلي القبائل المجاورة الذين أقروا الاختيار . أما أفراد العائلة الرستمية فابن الصغير يشرح لنا موقفهم « فلما كمل أمره وتمت بيعته خلت به عشيرته وأخوته وأعمامه وبنو أعمامه ومواليه فأحبوا أن يجعلوا له حجابا وهيبة ، وأبت العوام من ذلك وأرادت الدنو إليه في كل الأوقات على ما كانت تعرف قبل إمارته » نرى من ذلك أن أعضاء الأسرة الرستمية أرادوا جعل نظام الحكم نظرية تختلف عن المثالية الدينيـة التى اقتنع فقهاء المذهب بها ، وعن المظهر الأبوى التقليدى عند البربر ، لقد أرادوا إعطاءه مكانة الخلافة الحقيقية .

قامت الثورات التى أثارها مشايخ تاهرت الذين لا ينتمون للمجتمع الإباضى وحسب قول ابن الصغير « وكانوا هؤلاء قد طمعوا أن يبيتوا خبر الإباضية ويطفوهم » . ونجح أبو حاتم فى طردهم من المدينة ولكنهم تمكنوا بمناوراتهم من العودة إلى تاهرت فاضطر أعوان الإمام من الرستميين وغيرهم

(١٠٨) أخبار الرستميين ص ١٠٢ ـ ١٠٣ ، ١٠٥ .

إلى الإنسحاب من المدينة والإقامة فى مساكنهم المحصنة التى يمتلكونها فى ضواحيها . واضطر أبو حاتم إلى اللجوء الى البدو الرحل وقام بتسليحهم لإستعادة العاصمة واستطاع استردادها بعد ثلاث معارك . فتغلب علي الأزمة وعاد النظام . أما أعيان المدينة من المتشككين ومعارضى العقيدة فقد قاموا بتأييد يعقوب بن أفلح الرستمي منافس أبى حاتم والمطالب بالعرش والمعروف بعقيدته القوية . فنجحت المؤامرة وتفتت وحدة الإباضية لأن جزء منهم انضم ليعقوب بن أفلح الذى عين إماما . أخيرا عقد الخصمان معاهدة للوصول الى السلام المنشود من الجميع فاستغل أبو حاتم هذه المعاهدة لكسب أنصار جدد ، واستطاع دخول المدينة وحكم حسب مبادئ التقشف والتسامح الذى اشتهر به أسلافه الأجلاء .

كشفت لنا هذه الأزمات عن تعايش عناصر مختلفة فى تاهرت وكان لكل منها مصالحها المختلفة ، التى تجعلها إما مخلصة أو معادية تجاه حكومات الأئمة ، والمجتمع الرستمى هنا مبرقش أكثر منه في القيروان والصراعات تتفاقم بسبب مساحة العاصمة المحدودة التى يتحركون فيها ، وحدة المصالح الشخصية التى يدافعون عنها . هذا الطابع المزدوج الذى ذكرناه يشرح جليا تنافر هذا الشعب حيث كانت مدينة تاهرت تجذب المتدمتين الصالحين بالإضافة إلى رجال الأعمال الحريصين على الربح .

إن الإكتشافات الأثرية ، ووصف المؤرخون والجغرافيون للمدينـــة ، والرجوع إلى الخريطة ذاتها ، يثبت لنا أن تاهرت كانت تقدم سبل كثيرة للإثراء . هذه المنطقة ذات الطقس الشديد البرودة ، كانت قادرة على تنمية زراعية واسعة ، والاستخدام الحكيم لمياه الأمطار والأنهار سمح بذلك قبل العهد الحديث . فالبكري يكلمنا عن واد تاتش ـ وهو مجمع لعدة عيون ـ ويقول أنه كان يمد سكان المدينة بالغذاء وري حدائقهم ويقول لنا أيضا

« وفيها جميع الثمار وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسنا وطعما وشما » [١٠٩] . وعلى مدار أوسع فالسهل الذى يمتد فى جنوب وشرق موقع تاهرت مملوء بأطلال القرى [١١٠] ومن الصعب تحديد تاريخها ولكن نفترض أنها كانت معاصرة « لجدار » وهى مدافن كبيرة مربعة على شكل أهرامات مدرجة وموجودة فى نفس المنطقة ، فبقايا هذه المدافن ذات الطابع المعمارى المسيحى وكذلك هيكلها سمح لنا بتأريخها الى القرن السادس والسابع وترجع الى سلالة من أمراء البربر الأسلاف المباشرين للذين صدوا الفزاة العرب مثل كسيلة . لنذكر هنا أن عندما توجه سيدى عقبة نحو الغرب إصطدم فى طريقه بالقرب من تاهرت ـ والتى ستبنى بعد ذلك ـ بقبائل بربرية تساندها الروم .

لا نشك فى أن المنطقة كانت مزدهرة وآهلة بالبربر الذين اعتنقوا مذهب الخوارج عندما جاء ابن رستم بأمواله للإستقرار فيها . إلا أنه ليس فقط الصلاحية الزراعية للمناطق القريبة من تاهرت هى التى كفلت ثروتها بل العلاقة التى نشأت بين منطقة تاهرت ومنطقة السهول العليا بالجنوب أى بين البلد الزراعي وبلد الرعاة ، أى التبادل بين الأشياء الآتية من الساحل ومن وراء البحار والسلع الآتية من الصحراء ومن إفريقيا السوداء ، ونقولها باختصار أن الشئ الذى كفل ثروة تاهرت هو السوق الكبير الذى كانت تقوم به مدينة أئمة الرستميين .

لم يغفل المؤسس وسلالته هذه المزايا ، ولم يكونوا سلبيين أمام مجئ التجار وهى ضرورة حيوية للمدينة . ولقد قام أبو اليقظان قبل موته بقليل بإرسال ابنه أبى حاتم مع مجموعة من أعيان زناته ليجيروا قوافل قد أقبلت

---

(١٠٩) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٦٦ـ٦٧ .

(١١٠) Voir Gsell, Atlas archéologique, feuille 33, n°° 83-127 .

من المشرق وهى محملـــة بالثروات الكبيرة خوفـــا من مهاجمة قبائل زناتة لها . (١١١)

والذى يجذب البربر الرحل المحملين بالسلع هو الأمن الذى عمّل الرستميون على استتبابه فى البلاد وسهولة التبادل الذي تقدمه تاهرت وكذلك الود والتعظيم الذى تحظى به حكومة الأئمة . وابن الصغير يعطينا الدليل على إن تاهرت كانت مركز جلب واستقرار متزايد إذ يروى (١١٢) « إنْ قبائل مزاته وسدراته وغيرهم ، كانوا ينتجعون من أوطانهم التى هم بها من المغرب وغيرها في أشهر الربيع الى مدينة تاهرت واحوازها لما حولها من الشلأ (الكلأ) وغيره .... وكانوا اذا انتجعوا دخل وجوههم ورؤسائهم المدينة ، فيبرون ويكرمون ثم يخرجون الى شياههم وبعيرهم فيتيمون بها الى ظعنهم » . ونقرأ له أيضا أن مزاته كانوا يتداولون مع ذويهم الذين يسكنون المدينة أو مع الحضريين الذين يعولوهم . « وخلا كل قبيلة من سكان المدينة بمن انتجع إليهم من رؤسائهم » .

وهكذا كانت تتردد عائلات مزاته طرابلس والجنوب التونسى الى تاهرت إذ كانوا ينتمون الى مذهب الخوارج ، وكانوا وكلاء تجاريين نشطاء ومتيسرين وكذا جيرانهم قبيلة نفوسة ذات العقيدة القوية وشكلوا معا السند النافع والمخلص للأئمة . فقد كانوا يشغلون المناصب العمومية ويقدمون الجنود ، وكان الإمام عبد الوهاب يقول « إنما قام هذا الدين بسيوف نفوسه وأموال مزاتـــه » (١١٣)

---

(١١١) ابن الصغير ص ١٠٤ .

(١١٢) ابن الصغير ص ٤٧ .

(١١٣) أبو زكريا ص ١٠٣ .

استقر أيضا فى واد غرب المدينة أفراد من قبيلة هوارة وكانوا يأتون (نازحين) أيضا من البربر الشرقى ربما هروبا من عداء الحكام السنيين فى إفريقية . هذه القبائل وأخرى مثل لواته ومطماطة وزواغة وكذلك أفراد من المجموعتين المتنافستين صنهاجه وزناته ومعظمهم من الخوارج كانوا يمثلون فى تاهرت سكان المدينة . لكن كان للمهاجرين المشرقيين الى المدينة مكانة هامة سواء من ناحية عدد الأفراد أو الدور الاقتصادى لكثير منهم ، بالإضافة الى العنصر العربى ومعظمهم جاءوا من إفريقية وكانوا من الجند الذين انفصلوا عن الأمراء الأغالبة ووجدوا هنا نفس وظائفهم ـ وهى الوظائف التى تلائمهم ـ فى جيش الأئمة . ونلاقى أيضا الفرس الذين جاءوا أيضا من بلاد البربر الشرقية أو مباشرة من العراق اجتذب هؤلاء الفرس « للسلوك الطيب للإمام » وهم أهل وطنه ويتبعون مذهبه وفي الوقت نفسه بهرتهم « الوفرة التى تسود تاهرت » والظروف المواتيـة للثراء ، فاستقروا فى هذه المدينـة التى سموهـا « عراق المغرب » (١١٤) فشيدوا مساكنهم وفتحوا متاجرهم وكانوا يتجمعون مع أهل وطنهم . ويقول ابن الصغير « حتى لا ترى دارا إلا قيل هذه لفلان الكوفى وهذه لفلان البصرى ، وهذه لفلان القروى ، وهذا مسجد القرويين ورحبتهم ، وهذا مسجد البصريين ، وهذا مسجد الكوفيين » (١١٥) ويعرفنا المؤرخ فى مجال آخر أن رئيس الشرطة الذى له حق دخول الأسواق امتنع عن دخول إحدى هذه الأسواق احتراما لمالكه الذى شيده وهو فارسى مرموق .

وهكذا نرى كم كان سكان تاهرت الرستمية متنوعين ونحن نتخيل صراعات المصالح التى تعكر صفو السكان والصعوبات التى يلاقيها الإمام للحفاظ

---

(١١٤) اليعقوبى : البلدان ص ١٠٤ .

(١١٥) ابن الصغير : ص ٣٦ ، ٦٢ ، ٦٣ .

على سلطته ـ التى لا تمس ـ وسط المطامع المتضاربة والمؤمرات . إن وحده مثل هذه الجماعات معاً لمخيفة ولذلك لجأ ثالث أمراء هذه الأسرة وهو أفلح بن عبد الوهاب الى سياسة « فرق تسد » .

وعندما نجح تماما فى هذه السياسة يقول ابن الصغير يقال أنه « استلقي على ظهره آمنا ومد يديه ورجليه مطمئنا وعلم أنه قد كفى أمرهم » (١١٦) ولكن ما أن توفى الإمام أفلح سنة ٨٧١ م (٢٥٨هـ) حتىٰ شهدت السبع وثلاثون عاما التالية حتى انهيار الدولة أكثر من أزمة كانت سببا فى إضمحلالها ، كان الإمام يعتمد على قوتين : أولا على الفرس أبناء جنسه وكانوا ذو تقوى صادقة وميسوري الحال ويأملون الهدوء . ثانيا : كان يعتمد على قبيلة نفوسة الإباضيين الأوفياء وكانوا يمثلون القوة الحربية ويسيطرون علي الإمامة . ومن العدل أن نضم إليهم المسيحيين (*) الذين يعدون من بين أعيان المملكة والذين أظهروا عدة مرات إخلاصهم للعاهل الإسلامى . أما المعارضة فقد كانت مكونة من بعض أفراد البدو والعرب المشاغبين كعادتهم فى

(١١٦) أخبار الأئمة الرستميين ص ٦٤ .

(*) وردت فى الأصل " المسيحيين " وهو خطأ فادح والصحيح " السمحيين " مثلما قال بذلك البارونى أزهاره ، وهؤلاء هم أتباع السمح بن أبى الخطاب سعيد الأعلى بن السمح المعافرى ، وهم من الإباضية الوهبية الذين قبلوا إمامة عبد الوهاب ، ورفضوا ولاية خلف بن السمح بن أبى الخطاب نفوسه دون إذن من الإمام بتيهرت وهذا لما توفى عامل نفوسه من قبل الإمام عبد الوهاب السمح ، أى والد خلف . وحاول خلف الاستقلال عن الإمامة ة فسمى الذين اتبعوه بالخلفيين والذين رفضوا رأيه ولم يقفوا الى جانبه بالسمحيين ، انظر التفاصيل فى البارونى : الأزهار ٢ : ١٤٨ ومابعدها ، ٢٣١ علما بأن البارونى اعتمد على مخطوط لكتاب ابن الصغير لديه ، مجاز ابراهيم : الدولة الرستمية ص ١٢٦ ومابعدها ، ١٣٥ .

كل مكان بالإضافة الى الإنفصاليين أو الخصوم العلنيين من الطائفة الرستمية يعيشون فى تاهرت بسبب تسامح الأئمة .

ومن أهم السمات وأطرفها عن سيكلوجية الرستميين هو بعدهم عن لتغصب المقترن بعقيدتهم الصلبة . عندما أراد أبو حاتم اختيار قاضيا قام باستشارة الإباضية وغير الإباضية لأن هؤلاء ليسوا مستهعدين عن إدارة الإمارة بل يعاملون معاملة حسنة والمناقشة مطلوبة مع من هم غرباء عن الطائفة على أمل اكتسابهم فى الطائفة الحقة ولا يخلو الحوار من المجاملات المهذبة . إن حب الجدال الذى يبدو لهؤلاء الفقهاء إثم بسيط كان مألوفا لهم مع الشعوب المحيطة بهم . وكان بين هذه الشعوب الزناتية الذين اعتنقوا أفكار المعتزلة المدمرة ولما كانوا ينادون بالثورة ضد أئمة تاهرت فقد بدأ الاستعداد لمحاربتهم ولكن تم الاتفاق على عدم الاشتباك إلا بعد المحاورة بين اثنين من المجادليـــن للطرفين مشهودا لهما بعـــدم التغلب عليهما . ويقول أبـــو زكريا (١١٧) « ثم إنهما جرت بينهما وجوه من المناظرة والناس يعلمون ما يقولون فلم يفلح أحدهما على صاحبه . ثم إنهما دخلا فى فنون العلم ، فخفى ذلك عمن حضرهما ـ غير أن الإمام يعلم ما يقولان ، حتى صار كلامهما عند جماعة من حضرهما كالصفق بين الحجرين عند الإمام وعند غيره » . وأخيراً انتصر بطل الرستميين وتلاحمت القوات وانتهى القتال بانتصار تاهرت .

إذا لم يكن الإمام أعلم علماء المملكة أو أمهرهم فى النقاش فهو ملم إلماما عميقا بالمسائل الدينية ولا يتوقف عن التعمق فيها . وكان محمد بن أفلح له « من الرد على المخالفين كتبا كثيرة بليغة شافية » وعمل عبد الوهاب على

(١١٧) سير الأئمة وأخبارهم ص ٧١ .

نسخ كتب فى المشرق (١١٨) فحملوا له أربعين طردا وبعد قراءتها بات سعيدا لأنه فهم كل ما فيها ما عدا نقطتين فقط ولكنه عرفهما بعد شئ من التفكير .
وعندما قام الشيعة بالاستيلاء على تاهرت أحرقوا جميع المخطوطات التى كانت تملأ برج من أبراج المدينة ولم يحتفظوا إلا بالمخطوطات التى تخص الحكم والرياضيات . حتى علم الرياضيات كان من اهتمام الأئمة رغم أنه بعيد عن الدين . ويبدو لنا - إن لم نكن مخطئين - أنهم تفوقوا فيه عن معاصريهم فى القيروان .

على كل ليس الأئمة فقط الذين يميلون الى المعرفة . ولكن كثير من رعاياهم كانوا يبدون نفس الحماس ابتداءاً من أفراد عائلتهم ، فأخت الإمام عبد الوهاب كانت تقضى الليل بطوله فى النقاش مع أخيها عن تقسيم التركات .
وبالنسبة للعلوم الدنيوية مثل علم النجوم والفلك كان يتحمس لها بعض من أفراد الشعب وكان الجميع عنده فكرة عنها . وقد قال فرد من الرستميين : « معاذ الله أن تكون عندنا أمة (جارية) لا تعلم منزلة يبيت فيها القمر » حتى الآداب فقد اهتم بها واحد من الأئمة . فابن الصغير يكلمنا عن أبى بكر ابن أفلح (١١٩) كان « يحب الآداب والأشعار وأخبار الماضيين » ولكن هذا الفارس المرموق الذى عينته قبيلة نفوسه بدون استشارة رجال الدين « لم تكن فيه من الشدة فى دينه ما كان فيمن كان قبله من آبائه » وكان سيئ السمعة بين هؤلاء الزاهدين . أما الآخرين فجميعهم يمثلون نموذجا للتقشف والزهد . فعندما حضر وفد إباضى من العراق لمقابلة عبد الرحمن بن رستم أول الأئمة رآه وهو يقوم بسد شقوق سطح منزله بالطين . حتى آخر الأئمة « يعقوب »

(١١٨) أبو زكريا ص ٦٥ ، ٩٨ .

(١١٩) أخبار الرستميين ص ٧١ .

كان لا يلمس أبداً القطع النقدية بيديه بل كان يضعها تحت البردعة المستخدمة كمقعد ويسحب منها ما يلزمه بقطعة من الخشب [١٢٠] وكلهم يجمعون بين شيئين : أولا : ثقافة العلوم التى تفرضها عليهم مهمتهم الروحية وأساسها الدين ، ثانيا : بساطة الحياة التى يبينها التشدد الذى يجهرون به وقسوة عادات البربر المحيطين بهم .

والذى يقوله المؤرخون عن بساطة حياتهم لا يجعلنا نفترض أن الرستميين استسلموا للاهتمام بالفنون . فحفريات حديثة فى مقر تاهرت وصلت لاكتشاف قلعة على سهل مستطيل كان يسيطر على المدينة . وهذا المبنى ذا المدخل الوحيد والفناء الأوسط الكبير المحاط بالحجرات المرتكزة على السور يذكرنا بالقصور السورية للعهد الأموى . وعدم وجود أى زخرفة يرجع للطابع العسكرى للمبنى أو بالأحرى للتقشف الذى يجهر به الأئمة . ومع ذلك فجميع مساكن تاهرت لا تقدم لنا هذا التجرد الفنى لأن أطلال سدراته تسمح لنا بهذا القول .

فى سنة ٩٠٨ م (٢٩٦هـ) عندما استولى جيش بربر كتامة على العاصمة الرستمية بقيادة الداعية الشيعى أبو عبد الله تمكن الخوارج الذين فروا من المذبحة الشيعية من التوغل في الصحراء ولجأوا وسط المجموعات الإباضية فى واحة يمتلكها بدو سدراته الضيوف الموسميون لتاهرت وكان هذا بالقرب من وارجلة ومدينة سدراته الصحراوية كانت فى القرن العاشر عاصمة للخوارج الإباضيين انتظارا لنقل المستعمرة الى ميزاب وهي لا تزال موجودة حتى الآن وقد ظهر من تحت رمال سدراته جزء من مسجد ومساكن خاصة واسعة . ونحن نخمن أن الهندسة المعمارية لهذه المبانى وزخرفتها المنحوتة تمثل التراث الفنى

(١٢٠) ابن الصغير ص ٣٢ ، ١١٢ .

لتاهرت ذلك التراث الذى تجمد نتيجة لوجوده فى بلاد نائية .

والزخرفة المنحوتة فى طلاء الجص والتى تزين الحوائط لها الطابع البالى (القديم) لأنها ركيكة وبدون تشكيل . (١٢١) وتوحى لنا بزخرفة الكنائس الصغيرة التي شيدها مسيحيو إفريقيا وخاصة الدوناتيين فى قرى منطقة تبسه شمال الأوراس وبالقرب من القبائل الكبرى . وبعض الصيغ الزهرية توحي بزخرفة الأديرة المصرية . هذا الفن الإسلامي المولود فى بلاد البربر هو بقايا أو انبعاث لقاع الشمال الإفريقى القديم المتأثر ربما بالتفاعل القبطى . ومع ذلك لا يغيب تماما عن هذا المكان الأنماط المشرقية المألوفة بدون شك لدى تجار العراق الأغنياء . وبعض خطوط الأقواس المقسمة إلى فصوص توحى بزينة المساكن الجميلة فى سامراء . وبينما يذكرنا قصر تاهرت بقصار الأمويين فأطلال سدراته هى صدى ضعيف لفخامة العباسيين . إن هذا الفن الخارجى المختلف تماما عن فن القيروان كان معقدا مثله لأنهما كانا يستقيان من نفس المنهل .

لذلك فالأئمة الذين جاءوا من بلاد فارس والذين أوجدوا أو نموا الإزدهار الاقتصادى لمنطقة مهمة فى بلاد البربر قد شاركوا مثل منافسيهم أمراء عرب إفريقية فى نهضة القرن التاسع حيث يتجاور التراث المغربى مع معطيات المشرق .

(١٢١) Voir G. Marçais, Manuel d'art musulman, pp. 81 ss.

ثالثا : بلاد البربر العلوية ومملكة الادارسة

إن مملكة الادارسة فى فاس ما هى إلا الجزء الثالث من اللوحة الثلاثية في شمال إفريقيا (مملكة الأغالبة فى القيروان ، ومملكة تاهرت فى الوسط ، ومملكة الادارسة فى فاس) . وهذه المملكة توازن بانسجام هذا التكوين ، ولكنها تتميز عن المملكتين الأخيرتين بأكثر من ميزة أهمها شخصية مؤسسها لأن ادريس ينتمى لسلالة الرسول ، لقرابته « لعلى » ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة . لقد وصل « على » إلى الخلافة بدون مشقة ولكن الأمويين عارضوا خلافته ولم يكف أفراد عائلته عن التمسك بما يعتبرونه حقهم الوراثى للسلطة العليا . وسوف تواتينا الفرصة للكلام عن هذه المطالب والسبل المستخدمة لتدعيمها رغم الأسر الحاكمة . ففى سنة ٧٨٦ م (١٦٩هـ) حاول « الحسين » الوصول للخلافة واستطاع الاستيلاء على المدينة ولكنه تصادم بالقرب من مكة مع أنصار الخليفة العباسى الذين كانوا بمدينة مكة والجيش العباسى الذى وصل من بغداد . وانتهت مغامرة الحسين بمذبحة أفراد العائلة العلوية . ولجا ادريس بن عبد الله ومولاه راشد ففرا إلى مصر ووصلا الى المغرب الأقصى وتوقفا فى أوليلى (القديمة Volubitis) ونزلا ضيوفا على قبيلة اوربة القوية(١٢٢) .

(١٢٢) Sur l'arrivée, la répartition et le rôle des " Alides " , cf. Marçais, La Berbérie au IXe siécle d'aprés EL-Ya qoûbi, dans la Revue Africaine, 1941, pp. 57 . عن الأدارسة البكرى : المغرب فى ذكر إفريقية والمغرب ص ١١٥ ومابعدها ، ابن خلدون : العبر ٤ : ١٦ـ٢٤ ، ابن أبى ذراع : روض القرطاس ص ١٥ ومابعدها ، ابن عذارى : البيان ، المغرب ١ : ٢١٠ ، Fournel, Les Berbers, passim ; R. Basset, art. Idris, Idrissides dans l'Encyclopédie de l'Islam .

إن هجرة إدريس تلفت انتباهنا وليس لدينا أسباب الاعتراض علي صحتها ولكن ما هو الدافع الذى دعا هذا العربى من سلالة النبى للجوء الى بلد منزو وأكثر البلاد الإسلامية توحشا ؟ هل كان الهروب من المطاردة ؟ أم كان بأمل فى الحصول على عرش ؟ وبما أن هذا الموضوع التاريخى لا ينطوى على إجابة محددة ، هناك عدة ملحوظات تسمح لنا بإيضاح بعض جوانبه . أولا : إن إدريس ليس المشرقي الوحيد الذى ظهرت له بلاد المغرب الأقصى كأرض الميعاد ، فكثير من المنفيين قبله وبعده جاءوا الى المغرب «ليجربون حظهم» . ففى القرن السابق لإدريس هرب الأموى عبد الرحمن من الشام فاراً من حقد العباسيين ومر ببرقة وتاهرت وجاء يطلب ضيافة بربر نفرة أقارب أمه وفى فترة الخمس سنوات التي سبقت مروره لأسبانيا كان ينتقل من قبيلة الى أخرى علي أمل الاستيلاء علي بعض أملاك خلفاء دمشق فى بلاد المغرب . وبعد قرن تكررت مغامرة مشابهة وهى مغامرة المهدى الفاطمى الذى هرب من الشام الى العراق ومنها الى مصر ثم بلاد البربر حيث لجأ الى إمارة سجلماسة حيث يقبض عليه أميرها الخارجى . هناك تشابه بين المغامرتين حيث أن المهدى ادعى مثل إدريس أنه من سلالة النبى وأن الإثنان من العلويين وأن الوراثة التى تجعل منهما شخصيات شبه مقدسة تعطى لمهمتهم الدعائية فرص كبيرة للنجاح خصوصا فى بلاد البربر . وهناك حادثة طريفة حدثت فى إسبانيا ولكنها توضح لنا عن الفضيلة التى ترتبط بلقب « علوى » بالنسبة للقبائل المغربية . ففى سنة ٧٦٨ م (١٥١هـ) . فى المنطقة بين نهرى التاجة ووادى آنه إدعى مدرس ابتدائي (معلم) بربرى من مكناسة أنه من سلالة (الحسين) بن على وفاطمة . وكان يسمى شقيا بن عبد الواحد فانضم إليه عدد كبير من البربر وقام بثورة ضد الأموى عبد الرحمن الأول وهزم القوات التى حاربته

وتحصن فى الجبال وبقى مستقلاً حتى عام ٧٧٦ م (١٦٠هـ)(١٢٣). والملاحظ أن هذه القلاقل انفجرت سبعة عشر عاما قبل مذبحة العلويين فى الجزيرة العربية ووصول إدريس الى بلاد البربر .

عندما نتذكر الأحداث المماثلة التى سبقت ولحقت وصول إدريس الى بلاد البربر ، فوصوله لبلاد البربر يصبح لنا واضحا وخصوصا عندما نقارنها بالأحداث المماثلة التى نتجت عنها . فلم يكن إدريس هو العلوى الوحيد الذى لجا من المذبحة والإضطهاد ولجأ للمغرب ، فأخيه سليمان قد لحقه بعد ذلك . وعندما وصل إدريس الى أوليلى شرع بعد عدة شهور بمساعدة القبائل التى استقبلته فى إخضاع القبائل التى كانت ترفض الإمتثال له . وفى سنة ٧٨٩ م (١٧٣هـ) زحف إدريس الى تلمسان واستولى عليها واستقر فيها أخوه سليمان وعاش سليمان يتنقل بين المدينة وضواحيها . وكادت وفاة إدريس الأول تقضى على تلك التبعية لولا إدريس الثانى الذى أعاد الأمور الى نصابها . ففى سنة ٨٠٨ م (١٩٣هـ) جدد إدريس الثانى المسجد الذى بناه أبوه وسلم تلمسان لمحمد بن سليمان .

ففى هذا الوقت أو فى السنوات التالية تم تقسيم عدد من مدن المنطقة الساحلية فى المغرب الأوسط بين أبناء محمد بن سليمان . وبعد سبعون عاما وجد الرحالة اليعقوبى هذه المدن وقد احتلها أحفاد محمد بن سليمان . الذين عملوا على اتساع نفوذهم ما عدا منطقة تلمسان التى كانت تحمل اسم العائلة " مدينة العلويين " فقد كان يحكمها رئيس من قبيلة زناته . فالمعلومات التى حصلنا عليها من اليعقوبى بالإضافة الى معلومات البكرى تؤكد لنا أن فى سنة ٨٧٥ م (٢٦٢هـ) انتشر العلويون من سلالة سليمان فى المناطق التالية :

(١٢٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٥ : ٣٤-٣٥ ، ٥٨ .

مغنية ، و فلوسن (ندرومة) ، و جراوة التى أسسها عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان سنة ٨٧٢ م (٢٥٩هـ) فى سهل قريب من مصب ملوية فى ارشكول ، ثمطلاس (شرق تلمسان على الطريق المؤدى لتاهرت) وفى تنس وفى وادى شلف وفى سوق ابراهيم والخضراء وأخيرا فى مذكرة (مليانه) . لم يكن ذلك فقط ، فبخلاف سلالة سليمان شقيق إدريس جاء الى المغرب الأوسط علويون آخرون إما مباشرة من الحجاز أو بعد الإقامة فى المغرب الأقصى مثل محمد بن جعفر سلف الذين يقطنون سهل متيجة ، حسن بن سليمان الذى يحكم مدينة هاز على بعد ٤٠ كيلومتر غرب مسيلة ، وحمزة بن الحسن مؤسس سوق حمزة (بويرة) جنوب القبائل الكبرى . بذلك ففى شرق الممتلكات المحتلة من أحفاد سليمان استقر علويون آخرون جرفهم نفس التيار أو الهجرة الأولى التى مهدت لهم الطريق .

كيف كانت سيادة هؤلاء ، علما بأنهم لم يكن لديهم جيش يساندهم إلا التطوع من القبائل ؟ لم يكن لديهم إلا سلطة روحية مثل المرابطين الذين التفت حولهم الفرق الدينية بالمغرب الأوسط ابتداء من القرن السادس عشر الميلادى (١٠هـ) ونفترض أن نشاطهم الدينى كان واسعا ومنتشرا فى مناطق التل التى تتاخم مقاطعات الخوارج . وقد ساعدت على استقرار الإسلام السني بين البربر الريفيين . ساعدت هذه الشخصيات فى العمل الذى يحققه العلماء الأجلاء فى القيروان ولكن بطرق تتقبلها الشعوب الجاهلة المحيطة بهم ، ولعبوا دورا مماثلا (مع الفارق طبعاً) لذويهم الأدارسة . وإذا لم يؤسسوا مدنا مماثلة لمدينة فاس فإنهم أقاموا على الأقل بلديات تحدد فيها النشاط الاقتصادى . ومن الواضح أنهم أعطوا لقب (سوق) لاثنين من هذه المراكز : سوق ابراهيم فى وادي شلف وأسسه ابراهيم بن محمد ، وسوق حمزة وقد أسسه حمزة بن الحسن فى سهل حمزه الفسيح . وهذه ليست الأمثلة الوحيدة التى

يقدمها لنا شمال إفريقيا عند المقارنة بين الحياة الدينية والحياة التجارية أى بين المعبد وهو ملتقى الزوار وبين السوق وهو ملتقي التجار . وإقامة مدينة جديدة حول السوق يعتبر تطورا طبيعيا ولذلك يكون العلويون الذين لا نعرف عنهم إلا أسمائهم قد ساهموا بطريقتهم فى نهضة القرن التاسع .

ومن البديهى أن النهضة قد ثبتت بتوسع آخر بانشاء مدينة فاس . سوف تتضح لنا الظروف الخاصة باستقرار إدريس وإنشاء العاصمة الإسلامية . إن الاكتشافـــات الحديثة سمحت لنا بإلقاء بعض الأضواء على هذا التأسيس فقد اكتشف فى أوليلى نقش لاتينى يرجع الى سنة ٦٥٥ م (٣٥هـ) ونشره J. Carwipneo (١٢٤) يثبت انتشار الديانة المسيحية فى هذه المنطقة التى لم تكن تابعة للكنيسة القسطنطينية ، كما كانت مرتبطة بمنطقة تلمسان (بوماريا العتيقة) المسيحية .

لا شك أن مدينة جبل زرهون ـ التي يسميها المؤلفون العرب أوليلى أو وليلى ـ كانت بمثابة مركز مدنى حتى سنة ٧٨٨ م (١٧٢هـ) عند وصول ادريس ولجوءه الى قبيلة اوربة . ما هي الأسباب التى دفعته فى العام التالى لمجيئه على إنشاء مدينة جديدة تبعد خمسن كيلومتر نحو الشرق ؟ ونحن لا نقبل إدعاء المؤرخين العرب الذين يقولون أنه شعر بضيق المكان لأن سعة آثار أوليلى وإمكانيات التوسع لا تسمح لنا بتصديق ذلك . إن احتمال وجود مسيحيين ويهود فى المنطقة بدا كنوع من المعوقات لنشر رسالته (١٢٥) . أو

(١٢٤) Note sur une inscription chrétienne de Volubilis, dans Hespéris, 1928, pp. 135 ss.

(١٢٥) Voir H. Terrasse, Maroc, Villes impériales, Grenoble 1937, pp. 12 ss. ; sur les avantages que présentait le site de Fés pour l'alimentation en eau, voir E. F. Gautier, Le passé de l'Afrique du Nord (Les siécles obscurs), pp. 307 ss.

ربما وجد أنه من الأفضل الاقتراب من القبائل التى اعتقد بإمكانية الاعتماد عليها . أو بدا له أن انشاء عاصمة ـ مدينة خاصة به ـ كان ضروريا للدولة الجديدة . أن قيروان سيدى عقبة وخصوصا تاهرت الجديدة لابن رستم توضحان لنا نيابة عن المدينة القديمة أسباب انشاء فاس . لقد قام ليفى بروفنسال E . Lévi Provençal بمراجعة النصوص المهملة ومراجعة النقود التى لا مجال للطعن فيها ومراجعة الرأى الذى قبله المغاربة وعلماء أوروبا الذين نسبوا إنشاء فاس لادريس بن إدريس الثانى (١٢٦) . وجاءت آراؤه مقنعة : فاختيار المكان والتأسيس الأول هما فعلا من عمل إدريس المهاجر فهو الذى عرف مزايا اختيار هذا المكان وهى : وجود طريق طبيعى ، وانفتاح المناطق الكبيرة ذات الموارد الطبيعية المختلفة ، وإمداد ماء الشرب الذى يمكن الحصول عليه باستمرار وبدون مشقة ، وخصوبة المزارع المجاورة وقرب مواد البناء . فهو الذى أسس سنة ٧٨٩ م (١٧٣هـ) أول مدينة باسم فاس وكانت تمتد على الضفة اليمنى للنهر « حى الاندلسيين فى المستقبل » . ويتصورها ليفى بروفنسال E . Lévi Provençal على أنها « مدينة على الطريقة البربرية » وهى عبارة عن دار للإمارة وحولها المساكن البسيطة والخيام لرؤساء البربر وحظائر للقطيع ويشرف عليها المسجد بمئذنته والحوائط العالية المبنية من الطوب والقيسارية وهى سوق المدينة المركزى .

ومهما كانت هذه المدينة صغيرة وشبيهة بقرية ليس لها دفاع إلا سياج من جذوع الأشجار فهى عاصمة المملكة . وإدريس يسكنها وفى الوقت نفسه يسكن أوليلى أثناء الحملتين ضد القبائل المغربية المسيحية واليهودية أو الملحدة التى لا تزال ثائرة ضد الإسلام . وسوف تسك فيها النقود منذ سنة

(١٢٦) E.Lévi-Provençal, La fondation de Fés, dans Annales de l'Institut d'Etudes orientales d'Alger, 1938, IV, pp. 23 ss.

٨٠١ م (١٨٥هـ) باسم خليفة الرسول .

توفى إدريس سنة ٧٩١ م (١٧٥هـ) مسموما ويقال أن رسول من العباسيين دس له السم ودفن فى أوليلى . وبعد فترة وضعت خليلته البربريـة « كنزه » طفلاً سمته إدريس على اسم أبيه وأدوا له قسم الولاء فى مسجد أوليلى . وقام مولاه الوفى راشد بتربية إدريس الثانى لتهيئته لحكم القبائل البربرية بمساعدة رؤسائهم وخصوصا قبيلة أوربة صانعى عظمة الأدارسة . كان هذا الشاب العربى يشعر بالعزلة وسط رعاياه الشبه همجيين ولذلك كان يستقبل أبناء جنسه بكل ترحاب . وفى سنة ٨٠٥ م (١٩٠هـ) حضر الى المغرب خمسون منهم على أمل الإثراء فى بلد جديد . فمنهم من جاء من إفريقية وهم هؤلاء النبلاء المهاجرون أعضاء الجند الذين أثاروا المشاكل لحكام القيروان . واستقبلهم إدريس الثانى وقربهم منه وأبعد البربر الذين يدين لهم بعرشه . وشعر هؤلاء بمرارة عدم العرفان بالجميل . وأصبح « له الآن بلاط عربى ووزير وكاتب وقاضى اختارهم من أشهر الوافدين » (١٢٧) وقام إدريس بنقل مقره من أوليلى الى مدينة فاس بناء على نصيحتهم ولكن مدينة إدريس الأول مدينة بربرية ولذلك أقنعه وزيره « عمير بن مصعب » ـ الذى اشتهر والده فى إفريقية وإسبانيا ـ بتأسيس عاصمته الخاصة منفصلة عن فاس . وفى سنة ٨٠٨ م (١٩٣هـ) أسست المدينة الجديدة على الضفة اليسرى فى عالية النهر لتكون المدينة الرسمية ، ويصبح مسجدها مسجد الأشراف ويجاوره مقر الأمير الإدريسى ، مثل قصر والى إفريقية بالنسبة لمسجد القيروان الكبير ، وقصر الأمويين بالنسبة لمسجد قرطبة . وستزود المدينة مثل قرطبة بمركز للحياة التجارية «القيصرية» ودار لسك النقود ومن الملاحظ أن بعد سنة

(١٢٧) E. Lévi-Provençal, loc, cit. ,p. 44.

٨٠٨ م (١٩٣هـ) يختفى اسم فاس من النقود الادريسية وقد وافق كثير من المؤرخين على هذا التأريخ مثلما وافقوا على تاريخ تأسيس فاس وبعض هذه النقود كانت تحمل آنذاك ولمـــدة ستة وثلاثين عاما مقر سكها وهو « العالية » وهذه هى المقر الملكى . ولكن اليعقوبى يذكرها باسم إفريقية وهذا الاسم ربما يوضح قدر المهاجرين بين السكان . وسرعان ما تصبح هذه المدينة المطلة على الضفة اليسرى مدينة القيروانيين .

اتبع ادريس الثاني تجاه البربر سياسة جديدة بعد أن خاب أمله فى المحيطين بـــه . ويقول لنـــا ابن خلدون [١٢٨] أنه فى سنة ٨١١ م (١٩٦هـ) « أعطى البربر اسمى التشريفات فى الإمبراطورية » وأصبح لهم نصيبهم فى الحكومة بجانب العرب وقد كان لهم من قبل نصيب فى الجيش واستمرت المجموعة العسكرية فى شغل مدينة الضفة اليمنى بخيولها وقطيعها الذى يمثل الثروة الرئيسية واحتفظت هذه المدينة بطابعها الشبه قروي . ومع ذلك ظهر عنصر جديد ساعد فى تمدينها فى حياة إدريس الثانى نفسه . ففى سنة ٨١٤م (١٩٩هـ) اندلعت انتفاضة خطيرة من قبل رجال الدين وأتباعهم فى الحى الجنوبى لمدينة قرطبة وكانت هذه الانتفاضة ضد الأموى « الحكم » فعاقبهم الحكم بهدم الحى وطرد سكانه من إسبانيا فرحل بعضهم الى مصر وجاءت حوالى ثمانية آلاف عائلة الي المغرب . فسمح لهم إدريس الثانى بالإقامة فى مدينة الضفة اليمنى التى أصبحت مدينة الأندلسيين .

إن تأسيس مدينة فاس وتطورها ، يشكل تاريخ الأدارسة ، وتبقى المدينةعلي مر العصور أجمل ما يفخرون به ، إذأصبحت هذه المدينة ملتقى المهاجرين من عرب إفريقية والأندلس بعد أن كانت حامية لعشيرة بربرية .

(١٢٨) الترجمة ٢ : ٣٦٢ .

وأصبحت من أعظم العوامل للإستشراق وتزايد نشاطها رغم المصاعب التي ستلحق بالسلالة . ولكننا نجهل هذا التاريخ ويكفينا ذكر مراحله باختصار شديد .

بعد العصر النضالي لإدريس الأول والمنجزات السريعة التى حققها رفع استكمال بناء فاس فى سنة ٨١٨ م (٢٠٣هـ) حكم إدريس الثاني الى القمة خلال العشر سنوات المتبقية له فى الحكم . وقد خلفه ابنه الأكبر محمد فى الحكم سنة ٨٢٨ م (٢١٣هـ) ومنذ ولايته اتخذ قرارا شمل فى طياته دمار عمل والده . لقد قام بتقسيم المملكة التي ورثها بين أخوته واحتفظ لنفسه بمدينة فاس والمنطقة الصغيرة التى تحيط بها . ولكننا نرى المدينة تزخر بالسكان وتتجمل . وفى عهد يحيى الأول قامت امرأة عربية ببناء مسجد القرويين ويقال أن هذه السيدة جاءت من القيروان . أما أفراد العائلة الذين أثراهم تقسيم سنة ٨٢٨ فقد بدأوا يدخلون فى نزاع مع الأمير الإدريسى وتتفجر الأزمة حوالى سنة ٨٥٩ م (٢٤٥هـ) فى عهد يحيى الثاني وكانت حياته فاضحة ومدمن للخمر لدرجة أنه تتبع امرأة يهودية الى داخل حمام المدينة العام . ويقول ابن عذارى [١٢٩] « فملك أخوته أنفسهم ، واستمالوا القبائل وقالوا لهم : إنما نحن أبناء أب واحد ، وقد ترون ما صار إليه أخونا يحيي من إضاعة أمره » وبناء على ذلك اعترف البربر بحكمهم المطلق ، واستولى على العرش أقوى الأمراء . وهذه بداية الصراعات التى سوف تستمر لمدة خمسة وأربعين عاما : وهي خصومات بين أفراد العائلة الإدريسية وبين العشائر البربرية التي تساند العلويين المتنازعين وكان القتال فى فاس بين حى القيروانيين وحى الأندلسيين . وفي سنة ٩٠٤ م (٢٩٢هـ) استطاع يحيى

(١٢٩) البيان : ١ : ٢١١ .

الرابع ـ العـاهل الشجاع ـ فى إعـادة الوحـدة ويروى ابـن خلدون(١٣٠) «وخطب له على سائر أعمال المغرب» وكان مشهودا له بالعلم والفقه والرواية . ولم تكن هذه الوحدة إلا عودة وهمية للعظمة والحظوة لأن يحيى الرابع هُزم فى أخطر هجوم رأته المملكة . جاء هذا الهجوم من مكناسة وهى قبيلة بربرية قوية كانت تقطن فى المنطقة من تازا الى تلمسان . فى هذا الوقت كان الأئمة الرستميين قد فقدوا حكم تاهرت على أيدى مصالة القائد الفاطمي وأحد رؤساء مكناسة . وكان « مصالة » مكلفا بغزو المغرب الأقصى . فحاول يحيي الرابع إيقاف هذا الزحف ولكنه هزم ولجأ الى فاس واضطر لتسليم المدينة والاعتراف بسيادة المهدى الفاطمى . وبعد عامين طرد نهائيا من عاصمته ومات بائسا فى إفريقية . فأخذ رئيس مكناسة جزءا من دول الأدارسة أما بالنسبة للاسرة الإدريسية فسوف تبقى مدحورة فى جبال شمال المغرب وعاش أعضاء العائلة الجليلة فى قلعة « صخرة النسر » وهى قلعة فى أعلى منطقة سبته وذلك بعد أن كانوا يعيشون فى أوليلى ـ المدينة الرومانية البربرية ، وفاس التى رأت أجمل أيام مجدهم . وكانوا يشاهدون ارتقاء قبيلة مكناسة والقوتين العظميين فى ذلك الوقت : الأمويون فى أسبانيا والفاطميون فى إفريقية ، ويعترفون تارة بسيادة الأمويين وتارة أخرى بسيادة الفاطميين . وسوف تذهب أواخر سلالة الأدارسة الى إسبانيا للبحث عن موت مشرف بمحاربة المسيحيين .

ورغم عدم قدرتهم أمام الخلفاء المتنازعين ورغم نهايتهم البائسة ، لا شك أن الأدارسة لم يفقدوا مكانتهم الدينية التى عبرت كل العصور الوسطى وساعدت لمدة ستة قرون على نجاح أقاربهم السعديين . فكان أصلهم يؤهلهم للحصول على السلطة المطلقة . والاحترام الذى كان يحيط بهم كان يرجع ربما

(١٣٠) العبر : ٤ : ٢١ .

الى فكرة (البركة) وأنهم مفوضون من قبل القدرة الإلهية .

ومع ذلك فطابعهم الدينى أقل وضوحا من الطابع الدينى للرستميين : فمثلا : لم يشغل انتشار الإسلام مكانة متفوقة فى نشاطهم ويبدو لنا أن مذهبهم لم يكن على يقين تام . ونقرأ للبكرى [١٣١] « أن ادريس نزل على اسحق بن محمد بن عبد الحميد الأوربى المعتزلى فتابعة على مذهبه وذلك فى سنة ١٧٢ هـ (٧٨٨م) » . لكن لدينا بعض التحفظات على تبنى الأمير الإدريسى لفكر المعتزلة وعلى الأفكار التى كان ينشرها هذا المذهب بخصوص حرية الاختيار أو خلق القرآن . نحن نفترض أن المعتزلة أو مذهب الواصلية الذى اعتنقته بعض القبائل كما يقال والذى يضمه البكرى لمذهب الإباضية كان نوع من الشقاق الغير واضح للأتباع .[١٣٢] يكفي أن تعرف أن الذى استقبل إدريس فى المغرب لم يكن مسلما سنيا وأن حفيد الرسول قبل بل التمس أن يصبح ضيفا عليه .

كما كان المغرب الأقصي مجال للصراعات الدينية المذهبية التى تصدت لحكام البلاد أو دخلت معهم فى معارك . ففى نهاية القرن التاسع ثار أحد الخوارج الصفريين ويدعى « عبد الرزاق » فى قلب العاصمة نفسها وأجبر الإدريسى « على بن عمر » على الجلاء من فاس [١٣٣] . كما نعرف أن الخوارج كانوا مستقرين فى سجلماسة (تافيللت) ، وأخيرا فالمغرب الأقصى كان مسرحاً للإنفصال الدينى المعلن : وتعتبر منطقة السهول فى تامسنا (الشاوية الحالية) جنوب أبى رجرج مقر برغواطة ، والجبال المجاورة لتطوان

---

(١٣١) المغرب ص ١١٨ .

(١٣٢) البكري : المغرب ص ٦٧ يتكلم عن طائفة " واصليه إباضية " ؟

(١٣٣) البكرى : ص ١٢٥ .

مقر لأتباع حاميم المتنبئ .

إن طائفة برغواطة التي تجمع بعض قبائل مصمودة معروفة لدينا بما نشره عنها البكرى(١٣٤) . إنها مذهب غريب بطابعها المغربي وبعلاقاتها مع الحركات المذهبية الأخرى وبالاسلام نفسه ، وبإصرارها على البقاء رغم الهجمات المتوالية عليها . لقد ولدت في القرن الثامن (٢هـ) وسوف تبقى حتى منتصف القرن الثاني عشر (٦هـ) . ولقد حاربها بالتتابع كل من الأدارسة وصنهاجة وزناته بنى يفرن والمرابطين ولكنهم لم يستطيعوا هزيمتها ولم يتغلب عليها إلا الموحدين . كانت حركتهم مرتبطة بالخوارج ويرجع ذلك لشخصية مؤسسها وأول أتباعها وبرغواطة التى بدت لنا أولا كاتحاد قبائلى قامت باعتناق المذهب الخارجي المستورد من المشرق ، وشغل « طريف » رئيس برغواطة قيادة احدى فرق جيش ميسرة ، السقاء الذى تزعم الحركة المضادة للعرب . وتوفى طريف ولم يقلع أبدا عن الشعائر الإسلامية رغم مذهبه الخارجى . ولكن ولده صالح هو الذى أتم القطيعة ولكن بدون إتساع حتى لا يعرض الحركة للخطر . ولقد حارب هو أيضا فى صفوف ميسرة . ولقد ورث السلطة عن أبيه وادعى النبوة وأنه « صالح المؤمنين » الذى تعلن عنه آية قرآنية وادعى أنه المهدى المنتظر وألف قرآن يحتوى على أربع وثمانين سورة وحدد الشعائر الدينية وترك مهمة نشرها لسلالته وذهب إلى المشرق . ولكن ابنه «الياس» لم يتكفل بنشر الدين الجديد ودام حكمه خمسين عاما « تظاهر فيها بشدة الارتباط بتعاليم الإسلام » . لكن كان مقدرا على « يونس بن إلياس » الكشف عن دعوة جده وفرض عقيدته بالحديد والنار . وإذا رجعنا إلى تاريخ البكرى نجد أن حركة يونس بدأت نحو ٨٤١ (٢٢٧هـ) وهى فترة

(١٣٤) ص ١٣٤ Voir G. Marcy, Le Dieu des Abadites et les Bergwata, dans Hespéris, 1936, XXII, pp. 34 ss.

عهد الإدارسة ولكن ضعف وانقسام الدولة الإدريسية فى ذلك الوقت يعلل عدم تصدى أمير فاس الإدريسى أو أحد أقاربه بتامسنا لهذه الحركة .

توجد عناصر مختلفة فى بدعة برغواطة فى القرن التاسع وأولها تزييف ساذج وتشويه مقصود للإسلام : تغيير شهر الصوم والأعياد الدينية ، مضاعفة ساعات الصلاة ، تغيير صيغ التجويد وشعائر الوضوء واستبدال الآذان بصياح الديك الذى يصبح مقدسا ، تلاوة قرآن صالح وتحريم أكل السمك إلا مذبوحا وكذلك تحريم أكل البيض ورأس جميع الحيوانات . نجد أيضا فى هذه البدع الفكرة المسيحية ـ اليهودية التى إتبعها الشيعة وهى عودة وظهور المهدى قبل يوم القيامة . إن بعض مبادئها تذكرنا بالخارجية التى كان يعلنها والد صالح ورفاقه . حيث اعتبر المسلمون السنيون مشابهون للكفار : فأصبح محرما مصاهرتهم . لكن هذه البدع إختصاص بربرى لأن قرآن صالح والدعوات التى تردد بعد صلاة الجماعة كانت مكتوبة بلغة بربرية . هذه هي السمة التى تهمنا بالدرجة الأولى ، فهى تعطى لهذه البدعة المنبثقة من الخارجية صفة رد الفعل ضد الإستشراق المفروض .

وبدعة حاميم [١٣٥] تقل فى نسبتها وحجمها واستمرارها عن بدعة صالح البرغواطى ولكنها تعزز هذا الطابع المغربى . إن حاميم نجل « مَنْ الله » ظهر فى الريف فى نهاية القرن التاسع وتوفى سنة ٩٢٧ م (٣١٥هـ) فى معركة مع قوات أرسلها الخليفة الأموى من قرطبة . ومذهبه به التباس من مذهب برغواطة : فالسمك والبيض من الوجبات المحرمة أما لحم الخنزير مسموح به . كما أن أيام الصوم وساعات الصلاة قد تغيرت . وألف حاميم قرآنا بالبربرية . وتكون هذا المذهب لاستخدام أهل البلاد فقط كما هو الحال بالنسبة لمذهب

(١٣٥) انظر البكرى : المغرب ص ١٠٠ .

صالح . ولكن مذهب حاميم له خاصية فريدة جعلته محليا ألا وهى : السدور الذى يعطيه مؤسس هذا المذهب لنساء عائلته : «تانفيت عمته» و « دجْو » شقيقته . وكانت هذه الأخيرة ذات جمال ساحر ، عرافة وساحرة وكان يستشيرها فى وقت الحرب ويبدو أنها كانت تعيد روح الكاهنة أو بطلة أخرى فى تراث البربر . وارتسم الدور التاريخى للمغرب الأقصى بواسطة صالح وحاميم وكل من يحيطون بهم . هذا الدور هو : قطب مقاومة الاستشراق الذى سينمو بتوسع عندما تتحرر بلاد البربر من الشرق . إن بدع القرن التاسع (٣هـ) سبقت حركة الموحدين فى القرن الثانى عشر (٦هـ) .

وتثبت هذه البدع بطريقتها الخاصة أن الإسلام ـ الذى تصوره بقبح وتزييف ـ قد توغل فى أعماق البلاد . ونفترض أيضا أن الأدارسة قد ساعدوا فى نشر الدين الذى يتمسكون به وثبتوا أقدامه . ولكن إذا كانوا عاملا لنشر الإسلام ، فقد كانوا بالتأكيد عاملا للتعريب . فمؤسسة كمدينة فاس جعلت اللغة العربية المستعملة فى أسواقها ومدارسها وبيوتها وعادات سكانها جعلتها تشرق على كل البلاد . فهذه المدينة تضغط على المغرب الأقصى وتحدد مصيره مثل القيروان بالنسبة لإفريقية . وعلى كل لم تكن فاس المركز الوحيد لتوزيع الحضارة الحضرية فمنذ عهد إدريس الأول وإدريس الثانى تسك النقود فى البصرة ، تدغة ، ومطغرة ووجده وتحديد هذه المدن غير معروف لنا لاسيما البصرة ولكننا نفترض أنها كانت ذات أهمية .

إن تقسيم ٨٢٨ (٢١٣هـ) الذى لا نستطيع انكار نتائجه السياسية الوخيمة على وحدة الأسرة الإدريسية ، كان له أيضا الأثر الحميد فى نشر التأثير الحضارى الذى انبعث من فاس وغُرس فى الأجزاء المختلفة للمملكة .

وبدون شك لم يكن التعريب تاما وعميقا ولن يكون أبدا . فالمغرب الأقصى يشمل مناطق صعب الوصول إليها ولم تغيره المؤثرات المشرقية إلا

جزئيـــا وبطريق غير مباشر ، فهو بلد شاذ ولايمكنه استقبالها مباشرة وباستمرار . إن التيارات التى تصله كانت متقطعة ووصلت على فترات . فكل ما هو جديد فى بغداد يصل فاس عن طريق القيروان ولن يبقى الحال علي ذلك . فمنذ القرن الحادى عشر الميلادى (٥هـ) نرى أن ثقافة قرطبة تسود المغرب . ولكن بالنسبة للفترة التى ندرسها والفترة التى تليها مباشرة فإفريقية هى التي كانت تقوم بدور المعلم رغم الخصومات السياسية . والقليل الذى نعرفه عن الحضارة المغربية للقرن التاسع والعاشر يفرض علينا هذا الاعتقاد : فالنقود الإدريسية لها الطابع الأغلبى بدلا من الطابع الأموى وتتميز أقدم مساجد فاس بالمآذن التى تعلوها القباب مثل التى نجدها فى القيروان وسوسة . وفى نهاية القرن العاشر نجد زخرفة المنبر المحفوظ فى مسجد حى الأندلسيين من الطراز المشرقى المنقول بواسطة إفريقية [١٣٦] .

لذلك رغم الثورة التى شكلها الدخول فى الإسلام فولاية إفريقية (تونس) أدت مرة أخرى دورها فى تاريخ الحضارة . فهى التى قدمت لبلاد البربر التى أصبحت مسلمة عناصر حضارتها .

(١٣٦) Voir H. Terrasse, La Mosquée des Andalous á Fés, pp. 35 ss.

الفصل الثالث

مقدمة

I ـ الفاطميون فى بلاد البربر

أ ـ أسباب الانفصال : المذهب الشيعى والسياسة الدينية .

ب ـ السياسة الضريبية .

جـ ـ رد فعل الخوارج : صاحب الحمار .

د ـ السنوات العشرون الأخيرة .

II ـ مملكة بنى زيرى

أ ـ العلاقات مع مصر ـ نحو الانفصال .

ب ـ شعب إفريقية .

جـ ـ الحالة الاقتصادية .

د ـ حياة القصر : الفن الإسلامى والأدب العربى

الفصل الثالث

الأزمة الفاطمية

رأت الحياة الحضرية فى بلاد البربر خلال القرن التاسع (٣هـ) عودة الانتعاش الاقتصادى والنشاط الفكرى . والقرن العاشر لم يوقف هذه الظواهر بل عمل على إفلاسها بإدخال عناصر جديدة إن التأثر بالمشرق الذى تتبعناه منذ منتصف القرن السابع - وهى فترة ظهور العرب الأوائل حتى سقوط الأغالبة - بدأ يعانى من أزمة وصلت الى حد القطيعة بين المشرق والمغرب .

حدث طارئ كان سببا لهذه الأزمة وهو وصول المهدى الفاطمى وانتشار المذهب الشيعى . إنه حدث بدون شك ولكن لم يكن الوحيد من نوعه . لقد بينت التقارب بين الفاطمى وإدريس أو أعوانه الذين جاءوا للمغامرة . أما بالنسبة للمذهب الشيعى فيوحى إلى الأذهان بمذهب الخوارج وهو مذهب مشرقى أيضا كان على البربر الانضمام إليه . ويجب ملاحظة أن المذهب السنى كان يستهجن (يرفض) هذين المذهبين اللذين يمثلان مبدأين متعارضين بالنسبة له من الناحية السياسية والدينية : فالخارجية ترى أن الاستفتاء هو أساس الوصول للحكم لأنهم يعتبرون أن جميع المسلمين متساويين وليس هناك اعتبار للجنس بينما يرى الشيعة أن الإمام الشرعى الوحيد يجب أن يكون من عترة النبى ويرفعون عائلة « على » فوق الإنسانية أجمع . وقد عرفنا سبب نجاح المذهب الخارجى وكيف كان استجابة لآمال البربر المحتقرين والمضطهدين . أما المذهب الشيعى فى ذاته فلم يكن لهم نحوه نفس

الحماس . ومع ذلك فقد كسب بعض القلوب وحظى المهدى وخلفاؤه بمكانة مماثلة لحظوة الإدارسة ولكنهم لم يوفقوا أبدا فى كسب ود أهل البلاد ، ولم يكن للطُعْم (المذهب الشيعى) رواج فى هذه المرة . وسوف نحاول عرض أسباب هذا التناقض ولن نتعرض إلا لسببين أساسيين :

أولاً : استبداد الفاطميين نحو رعاياهم وعدم التصرف باحتراس عند تلقين الشعائر الدينية الجديدة .

ثانياً : نوعية سكان إفريقية وخصوصا حضر القيروان ، مدينة سيدى عقبة المقدسة ، وهى قلعة المذهب السنى التى لا تزال تتوجها هالة من مكانة العلماء ، فالمذهب الشيعى لا يوحى إلا بالشك والاعتراض .

ومع ذلك إذا لقى هذا المذهب بعض النفوذ وإذا كانت عقيدة الفاطميين وجدت بعض المساندة فهذا فقط من جانب البربر الريفيين . وكما جمع إدريس ورفيقه الوفى راشد أنصارا من قبيلة أوربة الكبيرة كذلك المهدى وداعيه المخلص الذى رتب لمجيئه ضما إليهما قبيلة كتامة ذات السلطة الواسعة والتى ستستبدل بعد ذلك بقبيلة صنهاجة الذين سينقذون البلاد من دمار محقق . وسوف تستخدم كتامة وصنهاجة كل قوتها فى خدمة هؤلاء المشرقيين . وعندما يترك الفاطميون البلاد للانتقال الى مصر سوف يرافقهم الكتاميون للتفانى فى خدمة أسرتهم وتبقى صنهاجة فى بلاد البربر لمحاربة أعداء هؤلاء الحكام الفاطميين والمحافظة على وحدة الامبراطورية الفاطمية ، من تهديد الزناتيين . وبذلك يصبح تاريخ المهدى وخلفائه حلقة من تاريخ بلاد البربر ، ومن ناحية أخرى نظراً لأن الزناتيين ، كانوا حلفاء لأموى الأندلس الذين أمدوهم بالمعونات المالية والمساندة المعنوية ، تخطى الصراع بين قبيلتى صنهاجة الفاطميين وزناته الأمويين ، حدود بلاد المغرب ، وأصبح شمال إفريقيا عبارة عن منطقة تصادم وصراع يديرها خليفة قرطبة وخليفة القاهرة .

ورغم أن الخصومة بين الامبراطوريتين الإسلاميتين هى امتداد طبيعى للمعارك فى بلاد البربر فلن نطول فى البحث عن أسبابها ومتابعة تطورها . وبصرف النظر عن الامكانات الواسعة التى نستشفها سوف نقتصر على بلاد البربر نفسها وعلى الأزمة التى تثقل على مصيرها .

I ـ الفاطميون فى بلاد البربر [1]

كان يوما ما من أيام حج عام ٢٨٠ أو ٢٨١ هـ (٨٩٣ ـ ٨٩٤م) . رأى بعض أعيان قبيلة كتامة رجلاً يمنيا يجلس بجوارهم وتحدث معهم . وكان يدعى أبو عبد الله وقد كان فصيحا ومتعلما فلم يلبث أن جذب المغاربة فردوا بكرم على كل أسئلته ولقد سألهم عن المنطقة التى يعيشون فيها وعن عقائدهم وعن الحرية التى يتمتعون بها تجاه أمراء القيروان . فلما عرفوا منه أنه يريد التوجه إلى مصر اقترحوا عليه توصيله الى هناك . لم يكن هذا اللقاء مفاجئا لأن أبا عبد الله كان داعية ، كان مبشرا شيعيا وكانت لديه معلومات عن بلد الكتاميين ويعتبره أرضا صالحة لنجاح الدعوة التى كرس لها حياته .

وكان هذا الحدث موات لقضيته ووصل أبو عبد الله إلى منطقة القبائل الصغرى الممتدة بين سهل سطيف والبحر وباشر رسالته واستقر فى قلعة

---

(1) Sur les Fâtimides voir Wustenfeld, Geschichte der Fatimiden Chalifen, Gottingen, 1881 ; C. H. Becker, Beitrage zur Geschichte Aegyptens, fasc. I ;

ابن خلدون : العبر ٤ : ٤٠ ـ ٦١ ، ابن عذاري : البيان المغرب ١ : ١٣٤ ، ١٤٩ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٦ : ١٢٤ ،، ابن حماد : أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ، تحقيق التهامي نقره ، عبد الحليم عويس ، القاهرة ١٤٠١ هـ .

أيكجان وجعل منها القاعدة الأم للمذهب الشيعى . وقام بتفقيه عدد من البربر وكون جيشا قويا قادرا على التغلب على الأغالبة . وفى مارس سنة ٩٠٩ م (أول رجب ٢٩٥هـ) بعد خمسة عشر عاما من مقابلة مكة ، دخل أبو عبد الله القيروان واستقبله قضاة وأعيان المدينة واستقر فى قصر رقادة الذى فر منه آخر الأغالبة . وفى أوائل يونية توجه نحو الغرب على رأس قواته وهاجم دولة الرستميين فى تاهرت التى سقطت بعد بضعة أيام ، ثم وصل الى سلجماسة فى الجنوب ، فى نواحى تافيللت حيث يقيم المهدى عبيد الله وكان المهدى قد وقع فى قبضة أمراء بنى مدرار في هذه النواحى وكانوا من الخوارج الصفريين فألقوا به فى السجن بناء على أمر الخليفة العباسى . أما الداعية أبو عبد الله الشيعى فقد جاء لتخليصه من السجن بعد أن بسط سلطانه على دولة الأغالبة ودولة الرستميين .

ولكن لم تطل سعادته بنجاح دعوته لأنه بعد وصول المهدى إلى القيروان ، رأى أبو عبد الله أن المهدى لم يكن رجل أحلامه ، لأنه استبعد أبو عبد الله جانبا ، وحكم بدون مشورته . فأعلن أبو عبد الله للكتاميين عن خيبة أمله وتآمر مع بعضهم ضد المهدى الذى خيب آمالهم . ولكن المهدى علم بهذه المؤامرة فحذرهم وعمل على قتل أبو عبد الله الداعية .

يجب الاعتراف بهذا الحق للمهدى الذى لم يتبع ـ للضرورة أو وفق طبيعته ـ السياسة الحذرة والإنسانية الذى نادى بها الداعى ، ولكنه تدارك الخطر الذى سببته شدته . ولتجنب الانتفاضات الشعبية لم يكتف بالابتعاد بعض كيلومترات عن القيروان كما فعل أمراء الأغالبة بل ابتعد مائة كيلومترات الى الشاطئ حيث أمر بتأسيس مدينة المهدية على لسان صغير متقدم فى داخل البحر فصارت قاعدة حكمه (منذ ٣٠٣هـ/ ٩١٥-٩١٦م) وطوال حكم الفاطميين وإقامتهم بالمغرب . ولما تم بناء حامياتها وأبراجها

وأسوارها يقال أنه أعلن عن ارتياحه بهذه الكلمات « اليوم أمنت على الفاطميات » [٢] . وعلى الأقل فالمهدية أمنت مصير ابنه « القائم » . وبعد ثمانيــة وعشرين عامــا من تأسيسها قــاومت هذه المدينـة هجوم أبى يزيـد « صاحب الحمار » وكان القائم محاصراً فيها أثناء ذلك . أما أبو يزيد فقد أصبح سيد المملكة بأكملها بما فى ذلك القيروان . ولم يستطع القائم تملكها خلال فترة الإثنى عشر عاما لحكمه (٩٣٤ - ٩٤٦م/٣٢٢-٣٣٤هـ) ولم يقهر صاحب الحمار إلا « المنصور » ابن القائم وذلك فى عام ٩٤٧ م (٣٣٦هـ) .

وعن هذه الثورة الرهيبة التى جعلت السلطة الفاطميــة توشك على الانهيار ، يجدر بنا إلقاء بعض المعلومات التي تساعد على فهم موقف الشعب البربرى تجاه حكامه المشرقيين .

كان أمل الفاطميين هو الخروج من البلاد بعد أن حصلوا على ثروة سريعة تبعتها سنوات صعبــة وبعد عشرين عاما من انتصــار المنصور علي الثــائر « صاحب الحمار » ترك ابنه المعز إفريقية وتوجه الى مصر وفى ذهنه عدم العودة تاركا لبنى زيرى الصنهاجيين مهمة حكم بلاد المغرب التى أصبحت ولاية تابعة للامبراطورية الفاطمية .

ويوم دخول المعز الى مدينة القاهرة الجديدة مسبوقا بتوابيت أجداده كان تحقيقا للحلم الذي راود هؤلاء الأسلاف لمدة ثلاثة وستين عاما على الأقل ، فتاريخ الفاطميين فى بلاد البربر ـ الذى وضعنا هنا خطوطه العريضة ـ لم يكن إلا فترة تمهيدية ومقدمة لتاريخهم فى مصر لمدة قرنين تعد من أبهر فترات الحضارة الإسلامية . وبالمقارنة بأرض الفراعنة وبالشام وبمدن الحجاز المقدسة ، هذه البلاد التي بسطوا سلطانهم عليها ، لم تحظ بلاد البربر إلا

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٦ : ١٥١ .

بمكانة محدودة . ومع ذلك مكنت هذه البلاد الفاطميين من الاكتفاء لمدة تزيد عن النصف قرن والحصول علي موارد بشرية ومادية ذات قيمة . فكان من الضروري السيطرة على هذه القاعدة ولم تكن المهمة سهلة ؛ وعلي كل فإقامة الفاطميين في إفريقية ـ التي لم يلبثوا أن تركوها ـ قد سببت قلاقل خطيرة ومن أهمها وأعمقها تأثيرا هو إدخال المذهب الشيعي . ومن الضروري ذكر مكونات هذا المذهب الديني والسياسي الذي لمحناه في تاريخ الإدارسة بدون أن يكشف لنا عن نتائجه الأخيرة . (٣)

أ ـ أسباب الانفصال : المذهب الشيعي والسياسة الدينية

إن المذهب الشيعي أساسه الخلافة أو الإمامة بمعنى أن الخلافة الشرعية الوحيدة من الناحية الروحية والزمنية على السواء تخضع للوراثة ويشترط في الإمام ـ خليفة الرسول ـ أن يكون من عترة النبي من ابنته فاطمة وصهره «علي» . وقد تم هذا الاختيار بقرار إلهي ، وكل إمام آخر يتولى الخلافة يعد مغتصبا مثل أبي بكر وعمر وعثمان الذين فضلوا على « علي » . فعلي وحده هو المختار بقرار من النبي ولقد أفضى إليه النبي بعلوم حجبها عن الجميع ليحكم بها المجتمع الإسلامي ، وهو الوحيد الذي ينقلها لأحد أولاده وهو « الحسن » الذي يقوم بنقلها بدوره إلى الإمام الذي يليه من آل بيته ويختاره قبل مماته . فالعلوم تنقل بالوراثة في آل بيت الرسول . والدور المقدر

(٣) Sur cette doctrine, Silvestre de Sacy, Exposé de la religion des Druzes, 2 vol. 1938: de Goeje. M´moire sureles Carmathes du Bahrain, Leyde, 1886: A Bel, La religion musulmane en Berbérie, Paris, 1938, I. pp. 135 ss. : Goldziher, Le dogme et la loi de l"Islám, trad. F. Arin, Paris, 1920. pp. 157 ss.

للأنبياء الذين بعثوا لإظهار « الحق » للأجيال المتلاحقة ورث لسلسلة العلويين المقدسة . فالانضمام لهؤلاء الأئمة يعتبر بند من البنود الأساسية للعقيدة . وبذلك ينتقل المذهب من الخلافة السياسية الى الخلافة الدينية ، كذلك غلب الجانب الدينى فى التشيع الجانب السياسي وتقدم عليه ، وهؤلاء الأئمة محافظون على العلوم المحجوبة عن الآخرين وخاصة ما يتصل بالمعنى التـــأويلى للقرآن ، فهم معصومون بينما يكون الآخرون معرضين للخطأ . ودور « الإجماع » الذى قبله أهل السنة على أنه أحد مصادر التشريع ليس له قيمة عند الشيعة لأن الأئمة معصومون فهم أعلى فى القداسة من الأنبياء على خلاف ما يعتقده أهل السنة ، والشيعيون المتحمسون لاموا على محمد اغتصاب ما كان مؤهل لعلى ويعتبرون أن للعلويين شئ من القدرة الإلهية ، وسنجد بعض هؤلاء المتحمسون فى إفريقية فى حاشية المهدى وخلفائه .

كان أفراد العائلة المبجلة ضحايا معاصريهم مثلما كان « على » . فقد قتل على فى سنة ٦٦١ م (٤٠هـ) بعد أن استبعد عن الخلافة بالتزوير . وراح الحسين حفيد الرسول ضحية محاولة متهورة على يد فرقة أموية فى كربلاء سنة ٦٨١ م (٦١هـ) . لقد أصبح مقتله حدث ضخم ، كما أدخل عذاب الحسين فى المذهب عنصرا عاطفيا ، سيكون الطابع الخاص لهذا المذهب وسببا من أسباب نجاحه . هذه المآسى التى لحقت بالعلويين أعطت مادة غزيرة للشعر والنثر بل لأدب درامى لا يزال موجودا إلى يومنا هذا . ومع ذلك فالتعذيب الحقيقى ، الذى عانوا منه من قبل الأمويين والعباسيين ، لم يقطع سلسلة الأئمة . فالاستمرار النظرى للسلالة ، كان قائما رغم مصاعب المتابعة ، والاضطهاد . ولكن السرية التى اضطر العلويين وأتباعهم اتباعها ، كانت سببا لخلافات كثيرة فيما بين الشيعة أنفسهم وذلك فيما يتعلق بحقوق الإمامة لخلفاء « على » ، فمنذ القرن العاشر انقسموا الى أربع طوائف ، وتعد طائفة

الإسماعيلية واحدة منها وقد خصص لطائفة الإسماعيلية المركز السابع فى سلسلة الأئمة الشرعيين لإسماعيل بن جعفر الذى يرفضه آخرون . وكان إسماعيل هو الأخير الذى ظهر . ومنذ وفاته توارث الإمآمة ثلاثة آخرون ولكنهم كانوا يعيشون مستترين . وابن الثالث يدعى « عبيد الله » وهو المهدى الذى ظهر فى بلاد البربر .

كان هذا هو جوهر المذهب الذى باح به الداعى «أبو عبد الله» للكتاميين ، الذين اعتبرهم أهلا للحصول على الحقيقة ، ولكنه لم يكشف عن شخصية المهدى ، حتى لا يعرض لجاحد للخطر . نحن الآن ملمون بطريقة الدعاة عن المراحل التسع للدعوة التى توصل المشايع تدريجيا الى التضحية العمياء للقضية التى آمن بها ، وتوصله أيضا الى جرأة فكرية تصبح خطيرة لو انتشرت عند عامة الشعب . إن أول صورة لأزمة القرن العاشر الميلادى هى ردود الفعل الناجمة عن المذهب الشيعى فى بلاد البربر المشرقى والوسائل التى استخدمها المهدى وخلفاؤه لعرض هذا المذهب .

سوف تختلف السياسة الدينية للفاطميين ، باختلاف طباع الأئمة ، وحسب ما يعتقدونه مناسبا ، لكسب مودة رعاياهم ، أو جعلهم يخشونهم . فقد كانت سياسة الداعى « أبو عبد الله » وديعة ومقبولة ، وعند قدومه للمغرب كان المذهب السنى بلا شك مضطربا ، وتقشفه الذى ظهر به منذ البداية كان يتعارض مع إباحة الأغالبة . إن التغييرات التى أدخلها المذهب الشيعى فى العبادة ، وتبديل صيغة الآذان ، وذكر " على " وفاطمة والحسن والحسين بعد الرسول في الخطبة ، لقد بدا كل ذلك مشكوكا فيه ، إلا أن الطريقة التى فرضت بها ، لم تكن فظة ، فقد كان يترك بعض الحرية لمن لا يريد الطاعة . ولقد أثمر هذا التصرف الانتهازى . فأظهر كثير من القيروانيين الاستعداد للانضمام للشيعة وكان هذا المذهب يناسب أصحاب المذهب الحنفى لأن ميولهم

أقل شــدة من أصحــاب المذهب المــالكى وقـــد انتفعوا مقابــل ذلك بود « الفاطميين » .

ولكن أبو عبد الله الداعية ، كان محاطا بمساعدين ، أقل تحررا أو أقل مهارة ، منه بدءا بأخيه أبي العباس الذى بقى فى القيروان ، عندما رحل أبو عبد الله للقاء المهدى بسجلماسة ، وحدث آنذاك أن وشى عالم حنفى ، باثنين من القضاة من المذهب المالكى : « ابن البرذون » ، و « أبى هذيل » . فقد قال هذا العالم لأبى العباس إنهما إدعا أن أبا بكر وعمر وعثمان كانوا فى نفس مرتبة « على » . فقدمهم أبو العباس لحاكم القيروان الذي جلدهم بطريقة مشينة وقطع رأسيهما . وعندما علم أبو عبد الله بهذا الخبر ، كتب لأخيه معنفــا . « قد أفسدت علينا من أمر البلد وأهله ما كانت بنا حاجة إلى صلاحه » (٤)

أما المهدى فستكون سياسته مخالفة تماما . فمنذ وصوله إلى إفريقية ، وفى نهاية صلاة الجمعة ، حيث كانت الخطبة بإسمه ، وقف واحد من رجاله محاطا بأتباعه الشيعة ، وأجبروا المصلين على حضور جلسة ، شرحوا فيها مذهبهم . (٥) وقام قاضي القيروان بفرض تعليمات على القضاة مجتمعين ، بألا تعطى الاستشارات ، ولا تحرر العقود ، إلا طبقا للمبادئ المعترف بها لدى الشيعة ، وعلينا أن نتصور مدى المقاومة ، التى تصدت لهذه الأوامر فى مدينة أئمة المذهب المالكى . ولكن كان للسادة الجدد وسائلهم التى تضمن لهم الطاعة . حقا إن بعضا من الحنفية ، إنضموا للشيعة بمحض إرادتهم ؟ ولكن

(٤) ابن عذارى : البيان ، المغرب ١ : ١٥٥ .

(٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٦ : ١٣٣ .

هناك آخرون انضموا إما للإستفادة [٦] أو ضعفا منهم ، والعدد الأكبر الذي كان قد تأثر بالداعى أبو عبد الله ، بدأوا فى الابتعاد عن الشيعة لشخصية المهدى ذاتها .

لم يراعى المهدى تفكير رعاياه ، كما أوصاه أبو عبد الله داعيته بل على العكس ، فقد أمر المهدى بسب الصحابة وزوجات الرسول علنا ، وقد عرفنا كيف أدى تصرفه هذا إلى القطيعة بينه وبين الذى كان مدانا له بعرشه . وفى سنة ٩١١ م (٢٩٨هـ) أمر المهدى بقتل أبى عبد الله وأخيه أبى العباس . ويقال أنه عند دفنهما وقف أمام الجثتين وذكر هذه الكلمات : « رحمك الله ! أبا عبد الله ! وجزاك فى الآخرة بقديم سعيك ! ولا رحمك الله أبا العباس ! فإنك صددته عن السبيل . وأوردته موارد الهلاك ! » [٧]

. نحن نسلم باحتمال حدوث هذه المرثية ولكننا نتسائل هل كان هذا اعترافا من المهدى بحق الداعية ؟ وهل كان مستعدا لتبنى سياسته الحذرة ؟ من المؤكد أن قتل أبى عبد الله ومجافاة الكتاميين الذين ساندوه تتفق مع التغيير الذى حدث فى سياسة الأمير . فقد لاحظ أن انتشار المذاهب الشيعية والنتائج التى يستخلصها البسطاء لم تكن دون خطورة ، فحظر على المبشرين عدم متابعة دعايتهم فى عامة الشعب ، وكذلك لم يستمر اضطهاد السّنيين . ولكن يبدو أن هذا العمل لم يكن من صنع « عبيد الله » بل من صنع أعوانه المتحمسين المحيطين به ، والذين يبدون أكثر شيعية من المهدى نفسه ،

(٦) انظر الى الأمثلة التى ذكرها أبو العرب والخشنى : طبقات علماء إفريقية وتونس ص ١٩٨ـ١٩٩ حاشية (٤) .

(٧) ابن عذارى : البيان المغرب ١ : ١٦٤ ، ابن حماد : أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ص ٤٣ .

وخصوصا طبقة الشعراء . كان المهدى يعاقب الموظفين الذين يجهرون بالسنة علنا ، خصوصا أثناء القيام بوظائفهم . ففى سنة ٩١٩ م (٣٠٧هـ) فى القيروان قتل المؤذن « عروس » بعد جلده وقطع لسانه بناء على شهادة عديد من المشارقة بأنه لم يؤذن بصيغة الشيعة . [٨] وفى سنة ٩٢٣ م (٣١١هـ) جاءته وشاية ضد القاضى « محمد الهذلى » بأنه أفتى طبقا لمذهب مالك ، فأمر بعقابه فأخذوه وجردوه من ملابسه وضربوه بالعصا فى المسجد الكبير وأعلنوا عن خطيئته وعقابه فى أسواق القيروان . وفى نفس الوقت كان المهدى يغضب على المتحمسين لمذهبه من الصفوة ، إذا تجاوزوا حدودهم ، كما كان يعاقب العامة من الشيعة إذا استغلوا المذهب لتحليل ما حرم الله مما يعرضه لانتقاد رعيته . ففى سنة ٩٢١ م (٣٠٩هـ) أمر بحبس مائتين من الشيعة لأنهم أعلنوا عن آرائهم فى القيروان وتونس وباجة واستسلموا للفساد . ويقول المؤرخ « كثر القول من الناس فى هذا » [٩] . وكان من بين هؤلاء الناس المشهورين فى إفريقية « أحمد البلوى » تاجر الرقيق الذى جعل قبلته رقادة عندما كان عبيد الله موجودا بها ، ثم غيرها بعد ذلك نحو المهدية عندما انتقل إليها الإمام ، وكان يقول « لست ممن يعبد من لا يُرى ! » . وقد قال شاعر عندما استقر عبيد الله فى رقاده :

حل برقـــــادة المسيح ....

حل بها الله ذو المعالى وكل شئ سواه ريح [١٠]

ولكن المهدى أبدى استنكاره لهذا الكلام . ولنا أن نفترض أن المهدى لم

(٨) البيان المغرب ١ : ١٨٢-١٨٣ .

(٩) البيان المغرب ١ : ١٨٥-١٨٦ .

(١٠) البيان المغرب ١ : ١٦٠ ، ١٨٦ .

يكن متأكدا من هذه القدرة التى نسبها إليه المنافقون من أنصاره فى ذلك الوقت خصوصا أنه لم يتمكن من القضاء على المذهب السنى بإفريقية بعد .

أما خليفته أبى القاسم فقد كان حازما فى آرائه أو ربما واثقا من قدرته .. لذلك جعل الانفصال بين المذهب السنى والشيعى بيّناً منذ توليه الحكم . ونقرأ لابن تغرى بردى « وكان ... زنديقا ملعونا ..... أظهر سب الأنبياء عليهم السلام ، وكان مناديه ينادى العنوا الغار وما حوى ـ يقصد هنا الرسول وأبا بكر ـ وقتل خلقا من العلمـــاء » [(١١)] . ويدعى ابن عـــذارى [(١٢)] أنـــه « من تكلم عُذب ، وقتل » . وكما هي العادة ، لم يكن المحيطون به بعيدين عن البدع وعن الشذوذ ، ففى سنة ٩٤٣ م (٣٣١هـ) أمر حاكم مدينة القيروان بتعليق « عظام رؤوس أكباش وحمير وغيرها على أبواب الحوانيت والدروب عليها قراطيس معلقة مكتوب فيها أسماء يعنون رؤوس الصحابة » [(١٣)]. ويبدو أنه فى هذا العهد ظهر التعصب الشيعى وأن أبا القاسم جعل الانفصال المذهبى الموجود أصلا بين الأفارقة و المشرقيين لا رجعة فيه . وازداد اضطهاد العلماء ورجال الدين السنيين كما تضاعف الحكم بالإعدام لكل مناوئ للمذهب الشيعى ومن المحتمل أن تكون هناك مبالغة فى عدد قتلى السنة ولم يكن هناك أربعة آلاف عـــالم وزاهد وصالح قد قتلوا فى المهدية كما روى لنا المالكى[(١٤)]. ولكن حتى هذه المبالغات والطابع المروع الذى تذخر به قصص استشهادهم تؤكد شعور العصيان الذى أيقظته سياسة الشيعة فى روح أهل

(١١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ٣ : ٢٨٧ .

(١٢) البيان : ١ : ٢١٦ .

(١٣) المالكى : رياض النفوس ٢ : ٣٣٨ .

(١٤) المالكى : رياض النفوس ٢ : ٣٤٥ A. Bel, La religion musulmane en Berbérie, I, 192-193 .

السنة . وهؤلاء الفقهاء يصبحون اسطورة بعد استشهادهم المفاجئ ، إن الجنود الذين جاءوا لقتل « السدرى » الزاهد قد فروا ملعورين ولم يجدوا من يقوم بتهمة السفاح إلا روميا بعد أن أسكروه . وبعد تنفيذ الحكم صلبوا الجثة وفى المساء انفتح باب فى السماء ونزل عمود من النور ليضيئ خشب الصليب وأنحاء الأرض كلها (١٥) . نحن نتصور تأثير مثل هذه القصص والاستياء الذى تثيره ضد الشيعة . عندما دخل الفاطميون الشيعة فى الصراع مع أهل السنة وممثليها الأجلاء أصبحوا متشابهين بالكفار وأصبحت محاربتهم من أقدس الواجبات . فالورع التقى « جاب الله » عندما كان مع المحاربين لحماية العقيدة فى قصر الطوب ـ أحد رباط الشاطئ ـ عاد الى القيروان وقد أصبحت عاصمة الشيعة وقام بشرح قراره هكذا « كنا نحرس عدوا بيننا وبينه البحر فتركناه وأقبلنا على حراسة هذا الذى حل بساحتنا لأنه أشد علينا من الروم » وبعد صلاة الفجر اتجه نحو رقادة مزودا بقوسه وجعبته وسيفه ودرعه وقام بالحراسة طول اليوم (١٦) . ولم يستطع المسلمون الورعون الوفاء بواجبهم الدينى فى المساجد حيث كان الشيعة يصلون الجمعة على مذهب الظالمين . ولم يستطيعوا الشراء من الأسواق ولا تناول المواد الغذائية مثل اللحوم التى أصبحت نجسة بسبب الضرائب غير المشروعة . ومن البديهى أن تصبح الحكومة غير شرعية بسبب الضرائب نفسها . لم تكن فقط سياستهم الدينية سببا من أسباب الأزمة بل كانت هناك أيضا سياستهم الضريبية .

ب ـ السياسة الضريبية

لم تكن مبادئ المهدى فى هذا المجال مماثلة للمبادئ التى اتبعها الداعى أبو

---

(١٥) المالكى : رياض النفوس ٢ : ١٧٣ـ١٧٤ .

(١٦) المالكى : رياض النفوس ٢ : ٣٧ .

عبد الله . فقد قام أبو عبد الله قبل الاستيلاء على القيروان ولهدف دعائى واضح بإبداء احترامه للمذهب السنى فيما يختص بالضرائب . وعندما وصل طبنة طلب إحضار مجموع الضرائب التى جمعت باسم آخر الأغالبة وتحرى عن طريقة جمعها وأعاد لدافعى الضرائب ما كان مخالفا « على ما ينصه الله عز وجل » . هذا الإنشغال بالشرعية أكسبه فى قلوب المهتمين ومهد لخضوع الآخرين خصوصا أهل القيروان . ولما وقعت العاصمة أظهر نفس الحكمة تجاه أموال السكان بالرغم من إغضابه للكتاميين الأوفياء الذين اتبعوه على أمل المشاركة فى السلب .

ووصل المهدى ولم يلبث أن لاحظ أهل القيروان بالفرق . فمنذ أول لقاء طمأنهم المهدى على حياتهم وحياة أبنائهم ولكنه لم يوعدهم بشئ فيما يخص أموالهم . فوجد البعض أنه من الأفضل التركيز على هذه النقطة الدقيقة فماطل المهدى ولم يجب . ويقول ابن عذارى[17] « فخافة أهل العقل من ذلك الوقت » . وقد كان لهذا الخوف ما يبرره ، لأنه يبدو أن الفاطميين قد استغلوا موارد البلاد ، التى لم يفكر فيها الأغالبة الذين تمرد الشعب عليهم .

نحن نفترض أن احتياجات الفاطميين كانت من نوع آخر ، وكانت ملحة عن احتياجات السادة السابقين . فقد كان الفاطميون أقل بذخا ، وحتى المصروفات المخصصة لدعايتهم كانت تشغل بندا متواضعا فى الميزانية . ولكن المهام الحربية هى التى كانت تمتص مبالغاً ضخمة ، مثل الرواتب والتسليح ، وخصوصا تجهيز الحملات الحربية لغزو مصر ، وانتقال الفاطميون من المغرب إليها . ففى سبيل الغزو الذى سيبقى شاغلهم الدائم ، كان الفاطميون مضطرين للحصول من بلاد البربر على الموارد المالية المطلوبة كما يحصلون

---

(١٧) البيان : المغرب ١ : ١٤١ ، ١٥٨ .

على الجنود . ويحكى أن المهدى عندما كان عائدا من تافيلالت ، مر بأرض كتامة واستولى على الأموال الموجودة فى أيكجان . فكان هذا هو أول عمل له كإمام وربما العمل الأكثر تميزاً لحكومته . ولتزويد الخزانة كان المهدى وخلفاؤه يعتمدون بدون شك على حملات السلب على طول الشواطئ المسيحية وخصوصا إيطاليا وكانت هذه الحملات منظمة من قبل الحكومة أو من الأفراد مقابل ضريبة عشر الغنائم تسدد للدولة ، ولكنهم كانوا يحصلون منها على منافع أقل من جباية الضرائب فى الدولة الفاطمية . ويبدو أن الفاطميين قد عينوا موظفين عديدين ، للقيام بمهام محددة ، مثل الإشراف على المصروفات والجباية والمراجعة والاسترداد وحراسة الخزائن العامة .

نحن ملمون إلماما تاما بالضرائب الفاطمية ، بواسطة الجغرافى ابن حوقل (١٨) . لقد جمع معلومات مطابقة من اثنين من كبار موظفى المالية ، الذين كانوا يباشرون عملهم ، الأول فى سنة ٩٤٦ م (٣٣٨هـ) أثناء حكم المنصور ، والثانى فى سنة ٩٦١ م (٣٥٠هـ) أثناء حكم المعز ، أى أثناء رحيل هذا الإمام الى مصر ، واستطاع اختبار النظام الجمركى للفاطميين شخصيا ، لأنه كان مضطرا بصفته تاجرا أن يساعد فى تنمية الخزانة الفاطمية .

بخلاف الضرائب الشرعية التي تتفق مع الشرع والقرآن ، مثل الزكاة ، وضريبة العشر المدفوعة بانتظام من المسلمين ، وبخلاف الخراج ، ضريبة الأرض المفروضة على غير المسلمين . بعد أن أعاد « عبد الله » تنظيم الضرائب التى

(١٨) المسالك والممالك أو صورة الأرض ، وعن دوره كموظف عند الفاطميين . أنظر :
- Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, éd. 1932, II, pp. 125, 129.
- R. Brunschvig, Un aspect de la littérature historico-géographique de l'Islam (Mélanges Gaudefroy-Demombynes), p. 149 .

فرضها الأغالبة والتى استنكرها الداعى لعدم شرعيتها ، يبدو أنه قام بوضع غيرها ، فالخراج تحت اسمه الحقيقى وتحت اسم الضريبة على الاراضى القروية سرى على جميع الأراضى المزروعة الخاضعة لضريبة العشر أيا كان صاحبها . واضطر الرعاة الرحل لدفع حق استغلال المراعى لأغنامهم التي لم تفلت هى الأخرى من ضريبة العشر (١٩)

والأهم من ذلك الضرائب غير المباشرة ، التى تضاعفت بطريقة تعسفية ، مثل رسوم مرور المدن ، التى تفرض على البضائع الداخلة والخارجة من المدينة ، ويجبيها موظفى الجمارك فى مواقع الحراسة . كانت ضرائب العبور هذه مثمرة جدا خصوصا فى مدن الجنوب مثل سجلماسة التى تعتبر الملتقى الرئيسى لقوافل عبور الصحراء ، وكذلك أماكن المرور الاجبارى مثل مراكز منطقة طرابلس (٢٠) . ولم تكن الرسوم الجمركية تفرض فقط على البضائع العابرة ، بل يبدو أنها كانت تفرض على المسافرين كذلك . وهذا النوع من الجباية كان يسبب أحيانا مضايقة شديدة . ففى سنة ٩٢١ م (٣٠٩هـ) الزم عبيد الله جميع حجاج بلاد البربر بعدم المرور إلا من الطريق المار بالمهدية « لأداء ما وظف عليهم من المغارم فى الشطور » (٢١) . نحن نتخيل مدى السخط الذى أثاره هذا العبء المفروض على كثيرين بالالتزام بمسار متعب

(١٩) ابن حوقل ٧١ ، ٩٤ ، ١٠٠ ، البيان : المغرب ١ : ١٧٣ ، أبو العرب : طبقات علماء إفريقية وتونس وطبقات الخشنى ص ٢٣١ عندما تكلم عن العالم أبو جعفر أحمد الذى توفى سنة ٩٣١ ويقول لنا أنه كان ثريا جدا فى شبابه ولكنه أفلس بسبب الضرائب التى فرضت على العقارات .

(٢٠) ابن حوقل : ص ٧١ ، ٧٨ ، ٨٥ ، ٩٤ ، ٩٧ .

(٢١) البيان المغرب ١ : ١٨٦ .

ومكلف أدى الى عرقلة حرية ممارسة الحج .

والضرائب المستقطعة على المبيعات في الأسواق كانت تضاف على المكوس وحقوق الجمارك . وكانت بعض المصانع مثقلة أيضا بالرسوم ولذلك تراودنا الرغبة فى شرح العمل الذى خصصه المنصور لمندوب التفتيش الذى كان يجبى الضرائب فى « مرسى الخرز » (اليوم تسمى القاله) . فقد كان عليه مراجعة ناتج صيد المرجان [٢٢] .

كل هذه الضرائب التى لا تنص عليها الشريعة الإسلامية ـ وعليه تكون غير مشروعة ـ كانت تزيد باستمرار من أموال الفاطميين ، وكانت هذه الأموال تتزايد باستمرار بأرباح ومنافع غريبة مثل ما يسمى فى القانون الفرنسى القديم « أحباس » [٢٣] وكذلك مثل « الارتفاق » وهو هبة للخليفة من المرشحين للوظائف العمومية : ولقد أقال عبيد الله قاضيا من القيروان لوداعته الزائدة واستبدله بقاض من طرابلس الذى أثرى بفضل الاختلاسات من المؤسسات الدينية والرشاوى ولكنه استطاع استمالة الإمام بإهدائه جزءا من ممتلكاته [٢٤] . كما توجد ضرائب خاصة لا ترجع إلا لاستبداد سادة البلاد الذين لم يهتموا بتبرير جبايتها مثل ضريبة عام ٩١٧ م (٣٠٥هـ) ويقول لنا ابن عذارى « وفيها أخذ أهل الضياع بأعمال إفريقية بمغرم سمى التضييع ، وزعموا أنه من بقايا التقسيط» [٢٥] ويشير نفس المؤلف أنه بعد عامين كان

---

(٢٢) ابن حوقل : ص ٧٦ .

(٢٣) البيان المغرب ١ : ١٩٠ـ١٩١ .

(٢٤) البيان المغرب ١ : ١٨٨ .

(٢٥) البيان المغرب ١ : ١٨٠ـ١٨١ .

بإفريقية « طاعون شديد وغلاء سعر ، مع الجور الشامل من الشيعة والتعلل على أموال الناس من كل جهة » (٢٦) .

ولنا بعض التحفظات فيما يخص شهادة ابن عذارى والكتاب المجهولين الذين استقى منهم معلوماته وكانوا بالتأكيد ضد الفاطميين . ومع ذلك يبرز إحساس مماثل من الصورة التى رسمها لهم ابن حوقل باعتباره مارس التجارة وكان معجبا ببحبوحة عيشهم . وكان مشكوكا فيه على أنه كان جاسوسا فى خدمة الفاطميين . نحن لا نشك فى أن إفريقية عانت من نظام ضرائبى شديد القسوة . فقد كانت الضرائب متعددة وثقيلة وابن حوقل يوضح لنا الطريقة الظالمة لجبايتها ، الجباة المكلفون بذلك يحاولون اعتصار دافع الضرائب ، لأن الزائد عما يدفع للخزانة كان ربحا لهم (٢٧) . فكان موظفو السلطة يجدون الوسائل لجعل سلطان الفاطميين غير محتمل ومكروها حتما ، بالإضافة الى تجاوزات قبيلة كتامة التى أدت إلي عدم شعبية الفاطميين .

أثار تعاون هؤلاء البربر الجبليين مع المشرقيين زوابع رهيبة فى البلاد ، فبصفتهم الأنصار الأوائل لهذه الدعوة ، وقيامهم بالخدمات المطلوبة منهم ، كانت تعطيهم حقوق جعلت منهم طبقة مفضلة ، تماثل تماما الجند العربى الذين سببوا كثيرا من المتاعب للأغالبة . لقد كانوا أوفياء للداعى الذى دربهم على المذهب ولعبوا دورا كبيرا في الحرب . وبعد الاستيلاء على القيروان ، قبلوا منه النواهى التى فرضها علي شهوتهم للسلب ، رغم الاحباط الذى انتابهم بخصوص الأمان الذى وهبه للحضريين . ولقد عوضهم المهدى عن ذلك ويقول لنا ابن الأثير أن المهدى وزع على رؤسائهم حريم الأمراء المهزومين وعينهم فى

---

(٢٦) البيان المغرب ١ : ١٨١ .

(٢٧) ابن حوقل : ص ٩٤ .

مراكز قيادية ذات عائد كبير فى أعمال إفريقية [٢٨] . ولكن بقى الكثير منهم أكثر إخلاصا لأبى عبد الله الداعية ، الذي كان دائم الوفاء بوعوده ، عن الإمام المهدى ، فقد اشتركوا فى المؤامرة التى كانت تهدف إلى التخلص من عبيد الله ، ونحن نعرف كيف استطاع المهدى اخماد الثورة ، وقتل داعيته وأصبح سيدا للموقف . ولكنه كان يعامل كتامة بشدة ، فقد قتل بعض رؤسائهم ، ولعدم ثقته فى إخلاص الآخرين كان يمتنع عن مخالطتهم أو على الأقل لا يدعهم يقتربون منه جماعة [٢٩] . ولكنه فى الوقت نفسه لا يستغنى عن خدماتهم ، فقد كان الجيش كله من كتامة ، وكان المهدى يعتمد على هذا الجيش فى حكم البلاد ، وفى محاولة غزو مصر ، فحاول استمالة مودتهم ، وبذلك فقد استغلوا هذا الموقف ووجدوا أن الوقت قد حان لهم للحصول على الفرصة التى انتزعت منهم ، وطلبوا منه سلب القيروان وفى سنة ٢٩٩ هـ (٩١١م) بدأوا فى إرهاق أهل القيروان ، الذين قاوموا تسلطهم ، ويروى عن ابن عذارى أن تجار السوق بالمدينة قتلوا أكثر من ألف من كتامة ، وقام حاكم المدينة باخفاء جثثهم فى المراحيض [٣٠] .

فموقف الحكومة الفاطمية من هذه العملية ، مضافا إليه الإحساس الذى سببه قتل الداعى ، كل ذلك أثار غضب كتامة الذين يتولون الحراسة بالقرب من القيروان ، والمتمركزين فى منطقة القبائل الصغرى ، فاندلعت ثورة أخذت طابع « مقاومة البـــدع » ، وكان على رأس الثوار شاب أعلنوا أنه المهدى

(٢٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٦ : ١٣٣ .

(٢٩) البيان المغرب ١ : ١٦٥ .

(٣٠) البيان المغرب ١ : ١٦٦ .

المنتظر ، ويقول البيان (٣١) : « وجعلوه قبلة يصلون إليه » وأصدروا كتاب يحتوى على شريعة زعموا أنها أوحى بها الله . وأصبح الثوار مسيطرين علي منطقة الزاب كلها ـ وهى جزء كبير لمحافظة قسطنطينية ـ فزحفت نحوهم حملة عسكرية مكونة من زعماء كتامة المخلصين لعبيد الله ، ولكن جزءا منهم انضم للذين جاءوا لمحاربتهم . وفى ربيع العام التالى سنة ٩١٢ م (٣٠٠هـ) استطاع الجيش الاستيلاء على قسطنطينية وبعض المراكز الأخرى وكان برئاسة أبى القاسم ابن المهدى ، ولكن حدث انقسام بالجيش ، واستطاع أبو القاسم اعادة المنشقين ، وأخمدت الثورة ، وأعادت بعض أحكام الإعدام لبعض الثائرين ، زعماء قبيلة كتامة الى صوابهم .

كان هؤلاء الجبليون (كتامة) أداة قليلة المرونة وكان عدم طاعتهم يثير قلاقل خطيرة للفاطميين كما أن الطريقة التى يستعملونها تجاه السكان تثير قلاقل أخطر . وكان رد الفعل واضح فى جبال الأوراس ومنطقة طرابلس .

جـ ـ رد فعل الخوارج : صاحب الحمار

ففى هذه المناطق تقريبا ستندلع ثورة « صاحب الحمار » التى كادت أن تطيح بدولة الفاطميين وتدفعها الى الانهيار ، ولقد ولدت هذه الثورة فى الجنوب التونسى ، الذى يمتد الى بلاد طرابلس ، وسوف تنتشر بفضل مساعدة سكان جبال الأوراس ، وتلاقى مساندة فعالة من جانب سكان القيروان . لقد قلت أن هذه الثورة سوف تهز بلاد البربر الشرقي ، لمدة إثنى عشر عاماً لحكم أبى القاسم ، كما يحلو للروايات الشيعية إبراز أهميتها ، بجعل المهدى يعلن

(٣١) ١ : ١٦٦ ، ابن خلدون : العبر ٤ : ٤٨ ـ ٤٩ .

عنها بوضوح أثناء تأسيس المهدية ـ الملجأ المستقبلي لأهل بيته ـ وفيما يخص دراستنا ، تبدو هذه الثورة كمرحلة هامة للأزمة الفاطمية ، وكمظهر جماعي للانفصال بين العالم البربري والسادة المشرقيين . وإذا نظرنا إلى أفراد هذه الثورة ، والمذاهب التي ينتمون إليها ، نرى أنها تربط ثورات الخوارج القديمة التي سكنت منذ أكثر من قرن ، بالعودة للمذهب السني الذي سوف يتوطد وسوف نحاول إيضاح أحداث هذه النقطة بالذات . ونرى أولاً أنه من الأفضل تقديم بطل المغامرة : أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني (٣٢) .

كان أبوه تاجرا من بلاد الجريد ، وكان يتاجر عن طريق القوافل ، ويقيم أحيانا في الجنوب التونسي ، وأحيانا في بلاد السودان ، وولد أبو يزيد سنة ٨٨٠ م (٢٦٧هـ) في السوادن من جارية اشتراها أبوه في مدينة تادمكة الصحراوية ، وقضى فترة طفولته في ضاحية من ضواحي توزر، وتعلم القرآن وتعرف على خوارج النكارية وانضم لهم . وذهب الى تاهرت الرستمية وكانت مركزا للمعرفة خصوصا في نظر شاب يريد التعمق في تعاليم المذهب ، وزاول مهنة يقوم بها أي طالب علم لكسب العيش : فقام بتعليم القرآن للأطفال ، وعندما استولى الشيعة على تاهرت عاد إلى (٣٣) الجريد وعاش بنفس الطريقة في تقيوس ولكنه باشر رسالته . وطبقا لتعاليم الإسلام فقد وضع نفسه رقيبا على المجتمع المحيط به ، وكان يحاسب أهل وطنه على عقائدهم وتصرفاتهم ، وفي الوقت نفسه يهاجم تجاوزات السلطة في البلاد ، فكان

(٣٢) عن أبي يزيد ، راجع أبو زكريا : سير الأئمة وأخبارهم ص ١١٦ ـ ١٢٢ ، ابن حماد : أخبار ملوك بني عبيدو وسيرتهم ص ٥٣ ـ ٥٨ ، ابن عذاري : البيان ١ : ٢١٦ـ٢١٨ ، ابن الأثير : الكامل ٦ : ٢٠٢ـ٢١١ ، ابن خلدون : العبر ٤ : ٥٢ـ٥٥ .

(٣٣) ابن خلدون : العبر ٤ : ٥٢ ـ ٥٣ .

يعترض على الضرائب الغير مشروعة ، ويضع مبدأ مقاومة صاحب السلطة الظالم . وكانت النتيجة أن استمال مودة الناس بتصرفه كمصلح للعادات ، وكمعارض للسلطة ، وفى الوقت نفسه انزعج الممثلون المخلصون للمهدى . وعندما شعر أبو يزيد بالخطر تابع دعايته ولكن بحكمة حتى مات المهدى الفاطمى فى ٩٣٤ م (٣٢٢هـ) ، فوجد أن الفرصة أصبحت مواتية لتوطيد ثورته .

يقال أن أبا القاسم أخفى نبأ وفاة أبيه لمدة عام خوفا من الانتفاضة ، ثم بدأ فى استخدام العنف الذى كان من طباعه ، فأمر بالقبض على أبى يزيد الذى هرب من بلاد الجريد وأدى فريضة الحج ، وفى سنة ٩٣٦ م (٣٢٥هـ) عاد الى توزر متخفيا . وكعادة كثير من مدن الجنوب كان يدير توزر مجلس من شيوخ العائلات المحلية ، فتخوفوا من هذه السلطة الروحية التى تهددهم وأرادوا فى الوقت نفسه الاحتفاظ بامتنان السلطة المركزية فقام ابن فرقان ـ رئيس المجلس ـ بالوشاية لممثل الخليفة ، فقبض على أبى يزيد وسجن . طالب أنصاره وجماعته المخلصة بالإفراج عنه بزعامة أبناء الأثنين و أبى عمار ، الذى يعتبر روح الجماعة ، وهو معلمه العجوز الأعمى الذى دربه على مذهب النكارية واعتمد على أبى يزيد فى انتشاره ، وبقى بجانب تلميذه الحبيب يلعب دور المرشد ولم يتخلى عنه فى وقت الشدة .

ولما لم يفرج حاكم المدينة عن أبى يزيد قام أعوانه بتهريبه ، ووجد أبو يزيد أن الجريد غير آمنة فابتعد نحو الجنوب الغربى واستقر فى وارجله ، وأصبحت منطقة الواحات هذه ملجأ لخوارج تاهرت منذ سقوط الرستميين ، ومركزا مناسبا للدعاية بين القبائل . جمع أبو يزيد أنصارا جدد من بنى برزال فى هدنة ، وخصوصا من هوارة الأوراس ، وعرض عليهم سياسته التى ستصبح مهمتهم ألا وهى : محاربة الفاطميين وطردهم من القيروان ، وتكوين

حكومة مكونة من مجلس للشيوخ ، وكان هذا مطابقا لسياسة الخوارج ببلاد المغرب ؛ ولم يعلن عن نفسه إماما أو خليفة أو شيخا للمؤمنين ، كان متقشفا ويلبس قميصا قصيرا من الصوف . وفي سنة ٩٤٣ م (٣٣٢هـ) بعد أن جمع قوات هائلة بدأ الصراع مع الفاطميين .

كان أبو يزيد يبلغ من العمر ستين عاما عندما قاد هذا الجيش وكان يتبعه العجوز الأعمى . وفي هذا السن استطاع تخريب إفريقية ولمدة ثلاث سنوات : هزم القوات المعادية ، حدد إقامة الفاطميين ولو لفترة داخل أسوار المهدية ، وأوصل الإمام الفاطمي إلى مشارف حتفه . كان صغير القامة ويعرج منذ طفولته وكان سكان مرمجانه قد وهبوه حمارا رماديا فاستخدمه لفترة مما أكسبه لقب « صاحب الحمار » . لن نهتم بالتطورات الاستراتيجية التي تبدو بسيطة ، ولا بالاستيلاء المتواصل للمدن مثل مجانه ومرمجانه ولربس وباجه ورقاده والقيروان وسوسه بقدر اهتمامنا بالظروف التي تدور فيها هذه المغامرة المذهلة وردود الفعل التي تثيرها .

حتى لو أخذنا في الاعتبار عدم تعاطف المؤرخين مع ممثل البدع ، فقد كانت تسود البلاد الانتفاضات والقسوة التي وصفها مؤرخ « مالا تفعله أعداء الدين » [٣٤] . كانوا يبترون الرجال ويشقون بطون النساء . ونرى الطريق الذي يسلكه صاحب الحمار قد ملئ ببقايا الجثث ومحفوف بالمدن والقرى المسلوبة والمشتعلة . كان لا شفقة له وساخرا أمام ضحاياه . ويجيب دائما على المتظلمين بسبب السلب قائلا : « عندما يحتفظ الانسان بدينه لا يحتاج لما يفقده » . ونحن نشك في صدقه عندما يتكلم عن اللامبالاة بمتاع الدنيا ، فبعد انتصار من انتصاراته خلع قميصه المصنوع من الصوف ، وترك حمارة

(٣٤) القيرواني (ابن أبي دينار) : المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس ص ٥٩ .

الرمادي ، ولبس الحرير وامتطى حصانا أصيلا ، وقد استهجن هذا التصرف كل من معلمه العجوز وأعوانه ، ولكنه عاد الى عادته القديمة بعد النكسات التالية التي أصابت ثورته .

نحن نفترض أن التخريب لم يكن من صنيعته بل كان من أتباعه . كان الريفيون البربر ينزلون من الجبال عند مهاجمة المدن والمزارع ويقومون بالدور الذي كانوا متخصصين فيه عبر التاريخ في زمن الأسقف روتاتوس (*) وزمن الكاهنة . وأثناء السلب يبدو على هؤلاء الريفيين حقدهم الحاسد للحضريين ومزارعي السهول ، فكان الدين والدفاع عن البلاد تسترا وذريعة لهذه الانتفاضات .

أما نجاح أبي يزيد فيرجع الى الأمل الذي زرعه في الشعب لتحرير البلاد من الفاطميين الطغاة . إذن كانت حربه للتحرير ونجاحاته الأولى جعلت حتى الذين لا يقبلون مذهبه ينضمون إليه ، ويقول لنا ابن خلدون (٣٥) « والتحم أبو يزيد باجه واستباحها .... وارتدت البرابر من كل ناحية » وموقف القيروانيين متميز في هذا الشأن (٣٦) . أن الانتفاضة لصالح أبي يزيد

(*) هو مؤسس الدوناتيسيه مات في سنة ٣٥٥م ، ولقد بقي لمدة أربعين عاما يعمل على انتشار هذا المذهب المسيحي في شمال إفريقيا ، وذلك أنه تمتع بخصال الزعيم لقد اشتهر بالاستقامة والخطابة وكان كاتبا شديد الشكيمة ، صعب المراس ذا بأس أنوفا . أنظر جوليان : تاريخ إفريقيا الشمالية ـ ترجمة محمد المزالي والبشير سلامة ١ : ٢٩٦ ، ٣٠١ .

(٣٥) ابن خلدون : العبر ٧ : ٢٠ .

(٣٦) المالكي : رياض النفوس ٢ : ٢٩٧ـ٢٩٨ ترجمة رقم ٢٢٨ ، ٢ : ٣٠٩ـ٣١٠ ترجمة ٢٣٠ ، ٢ : ٣٣٩ ترجمة ٢٣٥ .. هذا الحديث لا يتفق مع حديث ابن خلدون : العبر ٧ : ٢٠ . لقد انضم القيروانيون لأبي يزيد تحت تهديده بلهجة عامة .

جعلت أئمة السنة في المدينة المقدسة يتحولون الى جانبه وعندما استنهض الناس الممسى فى الخروج مع أبى يزيد ، فقال لهم : « أمهلونى الليلة . فلما أصبح أتوا إليه فقال لهم فقد قرأت القرآن من أوله الى آخره فما وجدت فيه ما يوجب القعود » . إن الاختيار بين المذهبين بيّنْ : « لأن الخوارج من أهل القبلة لا يزول عنهم اسم الإسلام ويورِثون ويرثون » بينما الفاطميون « مجوس زال عنهم اسم الإسلام فلا يتوارث معهم ولا ينسب إليهم » . واجتمع رجال الدين فى مسجد القيروان الكبير ـ مسجد سيدى عقبة ـ الذى شارك فى المظاهر الأولى للانفصال . وطالت المناقشات وأنهى أبو العرب المناقشة بحديث عن الرسول أنار الطريق فى هذا الشأن « يكون فى آخر الزمان قوم يسمون الرافضة (وهذا اسم من أسماء الشيعة) فإن أدركتموهم فاقتلوهم فإنهم كفار ». وصاح الجميع بصوت اهتزت له أرجاء المسجد « الله أكبر » . ومن البديهى أن التحالف مع صاحب الحمار لا يلزم فقهاء القيروان بشئ وقد أعرب الشيخ السبائى عن أمله قائلا : « فإن ظفرنا بهم لم ندخل تحت طاعة أبى يزيد ، لأنه خارجي ، والله عز وجل يسلط عليه إماما عادلا فيخرجه من بين أظهرنا ويقطع أمره عنا » .

وبذلك بدا هذا المغامر لأهل القيروان وكأنه أداة القدر التى سوف تخلص البلاد من الفاطميين المكروهين ، ولو كان ذلك فى عهد أسلافهم من معاصرى سحنون لاعتبروا مذهبه من الأخطاء المستنكرة . وعلى كل حال بدأ صاحب الحمار معاملة سكان المدينة السنية بدون مداراة وكان ماهرا فى ضمهم إليه ضد العدو المشترك ، ويلومهم على موقفهم السلبى . إن حماس المذهب عنده يخف حسب مقتضيات سياسته . كذلك أراد استمالة الأمويين بقرطبة ، للحصول على مساندة معنوية وربما مساندة مالية ، وبلا شك للحصول على التعاون الفعلى لقبيلة زناته المنحازين للخلافة الأموية ، وأوفد وفدا لتقديم خدماته

للخليفة الناصر الأموى ، وتكونت علاقات صداقة كما كان فى عهد أئمة تاهرت بين المعسكر الخارجي والعاصمة الأندلسية . لقد كان صاحب الحمار من أنفع الحلفاء للخلفاء الأمويين رغم مبادئه وأوشك على تخليصهم الى الأبد من الإمام المنافس .

بعد هزيمة الجيوش التى أرادت الحد من نشاطه ، وبعد أن سلب الحقول ، استطاع تقريبا الاستيلاء على كل مدن المملكة وعين فيها ولاة له ، وعسكر أمام المهدية فى ٤ يناير سنة ٩٤٥ م (جمادى الأولى ٣٣٣هـ) .ودامت عمليات الحصار ثمانية أشهر : توالت فيها المساعدات إلى قوات الخوارج التى تركزت بضواحى المهديــة الممتدة بشبه الجزيرة ، والمحاولات المتعددة لغزو المدينة نفسها ، ولكن مساعدة قبيلة صنهاجة التى انضمت للفاطميين بقيادة زيرى بنى مناد الصنهاجى وقامت بمهاجمة القوات المحاصرة ، استطاعت تزويد المهدية بالامدادات وتقوية حاميتها للصمود [٣٧] ، وفى سبتمبر سنة ٩٤٥ تخلى عن صاحب الحمار جزء من قواته واضطر إلى رفع الحصار عن المهدية التى كانت فى حالة وخيمة ، وانسحب نحو القيروان ولم يستقبله سكانها بحماس ، وكان سكان جميع المدن التى ضمها قد قاموا بذبح ولاته أو علي استعداد لتسليمهم للفاطميين .

إن الحظ قد خان أبا يزيد ولكنه لم يهزم بعد ، ولن يهزم إلا فى مارس سنة ٩٤٧ م (٣٣٦هـ) وخلال الثمانية عشر شهرا أبدى من العزم ومن المقاومة ما يعطى لصورة هذا المغامر ملامح خاصة ، فقوى الجيوش واستولى علي مدن

(٣٧) انظر النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، الدولة الفاطمية ببلاد المغرب ، تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد ص ٥٤ـ٥٥ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٦ : ٣٠٥ـ٣٠٦ .

وانسحب نحو الغرب ثم هاجم ثانية واحتمى فى مرتفعات « كياته » التى تتاخم « هدنه » من الشمال ، وتحصن فى قلعة كتامه وصد الهجوم وعندما وقعت القلعة فى يد الأعداء ولجأ الى أحد قصورها ويسقط القصر بدوره حمل جريحا الى الجبال وأخيرا وقع فى أيدى الخليفة الفاطمى الذى حبسه فى قفص حيث لفظ الثائر العجوز أنفاسه الأخيرة .

د ـ السنوات العشرون الأخيرة

لقد تغلبت حكومة الشيعة على الأزمة الرهيبة التى أثارهـا صاحب الحمار ، ولكن الخطر كان كبيرا ، والخليفة المنصور الذي نفذ صبره أخذ طريق القيروان ومعه جثة عدوه ، وكان قد سلخها وحشاها بالقطن للافتخار بانتصاره على أبى يزيد « صاحب الحمار » . وسبقته رسالة تعلن لأهل القيروان أن أباه « القائم » قد مات منذ أكثر من أربعة عشر شهرا (مايو ٩٤٦ م) وإذا كان قد أخفى عنهم هذا الخبر « من أجل الحرب ، ولئلا يسر بذلك الدجال اللعين » (٣٨) .

وعند الاقتراب من القيروان ، قابله أعيان المدينة بالطبول والأعلام وخيول الاستعراض ، ليهنئوه على انتصاره . وكان سلفه المهدى قد استقبل بمثل هذه الحفاوة . ولكن المنصور كان لا يثق فى أهل القيروان ولم ينس انضمامهم لحزب صاحب الحمار . وذكرهم بهذا الموقف بعرض مخيف للذى اختاروه مرشدا لهم . كانت الجثة محملة على جمل يطوف شوارع المدينة وبجانبها اثنين من القرود يشدون لحيتها ويصفعونها (٣٩) .

(٣٨) ابن حماد : أخبار ملوك بنى عبيدو وسيرتهم ص ٧٧ .

(٣٩) ابن حماد : أخبار ملوك بنى عبيدو وسيرتهم ص ٧٨ .

ورغم تشككنا فى إخلاص أهل القيروان ، فالمدينة السنية كانت تحتفظ بوقار تقليدى ، يشجع الخليفة على الاقتراب منها ، رغم انحطاط دورها كعاصمة . فترك المهدية بذكرياتها الأليمة وأسس على مسافة عدة مئات من الأمتار من القيروان « مدينة صبره أو المنصورية » التى سكنتها آنذاك ، فأكثر من القصور والحدائق ، وبينما كانت المهدية خندقا مجهزا لأيام الصعاب ، فالمنصورية تدل علي أيام المجد ومدينة البذخ التى تؤكد انتصار الفاطميين ، والجديرة بعالم الشهرة .

توطدت هذه السياسة فى عهد المنصور ، واتبعها بعد ذلك ابنه المعز الذى استولى على الحكم فى سنة ٩٥٣ م (٣٤١هـ) وهو الذى نقل الخلافة الى مصر فى سنة ٩٧٣ م (٣٦١هـ) .

رأت هذه السنوات العشرون الأخيرة لعهدهم فى إفريقية ، توطيدا وانتشارا ملحوظا لسلطة الفاطميين فى البلاد التى سيتركونها . ولقد قام زعيم بنى زيرى الصنهاجيين بحملة عسكرية لقمع الانتفاضات الأخيرة للخوارج فى الأوراس والزاب . أما الخليفة فقد أرسل قائده ومولاه « جوهر » على رأس جيش من كتامه وصنهاجه ، جاب هذا الجيش كل بلاد البربر منتصرا حتى وصل الى المحيط الأطلسى . هذه الحملة التى تذكرنا بحملات عقبة وخلفائه ، كان الهدف منها ليس فقط السلب والاستيلاء على الأسرى بل الهدف الأساسى كان دحر سلطة الأمويين السنية واخراج خلافة قرطبة من شمال إفريقيا كلها . وقد نجحت هذه الخطة ووصلت تقريبا الى النتيجة المنشودة ، فكانت الخطب باسم العاهل الشيعى فى جميع المساجد الكبيرة لبلاد البربر باستثناء مدينتى « سبته » ، و « طنجه » . هذا لا يعنى تحقيق الانتصار الروحى رغم محاولات الخليفة فرض سلطانه على رعاياه وخصوصا أهل القيروان ، لقد كان المعز يستخدم تارة القهر وتارة الحلم ، ففى القيروان كان

التجول في الشوارع بعد صلاة العشاء يعرض صاحبه للموت(٤٠)، ولم يتردد الخليفة في تثبيت تعاليم الصلاة الخاصة بالشيعة ، ولكن الشعب كان ينساها ، لأنه كان وفيا لتعاليمه السنية التقليدية . وفي سنة ٩٦٠م(٣٤٩هـ) أصدر أوامر قاطعة خاصة بالأذان الشيعي من أعلى المآذن ، وبساعات وتعاليم الصلاة ، وكان محرم على النساء النواح والندب خلف الجنازات ، كما حرم على العميان قراءة القرآن على المقابر إلا ساعة الدفن (٤١) .

ومع ذلك كان الأمير يبدو أحيانا متسامحا للغاية ، تجاه الذين يكنون له العداء ،، وكان يدرك ذلك ، ولكن كانت له سياسته . فقد طلب سماع هجاء عنيف منظوم ضده ، وفي النهاية أغدق على المؤلف الهدايا (٤٢) والثناء . وقصة الشيعي الذي أغضب معلما عجوزا ، فعاقبه المعلم بشدة وأبدى عصيانه للحاكم ، ولما ساقوه الى المعز أمر له بعشر قطع ذهبية وألزمه بعدم تكرار ذلك . ويقال أن المدرس احتفظ بهذه النقود كأجر للجنود الذين سيدمرون في المستقبل القصور الفاطمية . (٤٣)

إن شدة إدارته ، تتوافق أحيانا مع حلمه ، الذي لا حدود له ، فتارة يبدو بسيطا وتارة أخرى محبا للفخامة ، وربما يرجع هذا الى ميوله الطبيعية أو الى مقتضيات دعايته . إن المؤرخ المقريزي (٤٤) يصفه لنا وهو يستقبل رؤساء

(٤٠) Quatremére, La vie du Khalife Moezz lidin Allah, dans Journal asiatique, 1836, II, p. 409 .

(٤١) البيان المغرب ١ : ٢٢٣ .

(٤٢) Quatremére, loc. ctt., p. 417 .

(٤٣) Quatremére, p. 411-416

(٤٤) Cité par Quatremére, ibid., pp. 418-420

كتامه فى حجرة ليست مزينة إلا بالكتب والمحبرة ، ويدعوهم الأمير الى تقليد زهده وقناعته ومثابرته ، وطلب منهم أيضا معاملة رؤسائهم معاملة حسنة ، وينصحهم بعدم الزواج إلا من واحدة ، ولكنه كان يبدى كل الفخامة فى تصرفاته العامة . فى سنة ٩٦٢ م (٣٥١هـ) عندما أراد ختن أولاده أمر بأن يختن فى نفس الوقت جميع الأطفـال من « تافيلالت » الى « برقـه » ولى صقلية ويحصل الجميع على هدايا وملابس فاخرة فى احتفال شيعى ضخم (٤٥) .

من الجائز أن يكون هذا الكرم نتيجة لدوافع سياسية : نفس الدوافع التى جعلته ينصب على طريقة الخلفاء العباسيين ، وهى عادة لم تكن مألوفة فى بلاد البربر(٤٦)، والتى حثت أسلافه على الظهور للجمهور تحت المظلة (٤٧)، والتى كانت سببا فى تأسيس المنصورية وقصورها الجميلة (٤٨) .

II مملكة بنى زيرى

أ ـ العلاقات مع مصر : من الخضوع الى الانفصال

برحيل الخليفة المعز الى مصر سنة ٩٧٣م (٣٦٢ هـ) تحقيقا لآمال عائلته ، وتنصيب أمير بربري ليمثله فى البلاد التى تركها ، تصل « الأزمة الفاطمية » الى الانفكاك وتقترب من الانقلاب الذى عجل بالكارثة . ويدوم هذا الفصل

(٤٥) Quatremére, d'aprés Nowairi, Journal asiatique, 1836, II, 421.

(٤٦) ابن حماد : أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ص ٨٣ ومابعدها .

(٤٧) البيان المغرب ١ : ٢٠٨ .

(٤٨) Voir G. Marçais, Manuel d'art musulman, I, pp. 118-120.

الى الانفكاك وتقترب من الانقلاب الذى عجل بالكارثة . ويدوم هذا الفصل الأخير للمأساة ثلاثة أرباع من القرن الذى يشهد فى إفريقية توسع دولة تابعة للقاهرة ألا وهى « مملكة بنى زيرى » (٤٩) . وحكام هذه المملكة من الصنهاجيين ، وسيحكم هذه المملكة خلفا عن سلف أربع حكام : بلكين بن زيرى سنة ٩٧٣-٩٨٤ م (٣٦٢-٣٧٤هـ) ، المنصور بن بلكين سنة ٩٨٤-٩٩٦ م (٣٧٤-٣٨٦هـ) ، باديس بن المنصور سنة ٩٩٦-١٠١٦ م (٣٨٦-٤٠٧هـ) والمعز بن باديس الذى خلع طاعة الفاطميين وكان سببا فى هجرة العرب الرحل الى إفريقية . ويمكننا تأمل تاريخ السلالة كله مرتبطا بهذا الحدث المتميز الذي يشغل المكان الرئيسى في دراستنا هذه ، سنولى اهتمامنا إذن بتطور العلاقات بين بنى زيرى والفاطميين ، ذلك التطور الذى سينتهى بالانفصال وسنهمل الحياة الداخلية للملكة ولن نهتم إلا بالملامح المساعدة على فهم الحالة الاقتصاديـة والاجتماعية والفكريـة لبلاد البربر عشية الغزو الهلالى .

إن اسم صنهاجة بنى زيرى ليس غريبا علينا ، فقد جاء بهم القدر ليخلصوا الفاطميين فى أصعب الأوقات التي حاصر فيها صاحب الحمار مدينة المهدية . إذا كانت كتامه منطقة القبائل الصغرى ، هم المجموعة الأولى من المحاربين الذين أسسوا الدولة فصنهاجة هم المجموعة التالية التى وطدت أركان هذه الدولة ، وقد حصلوا على مقابل ذلك مما أدى الى حسد كتامه لهم . وصنهاجة أهل حضر وجبليون مثل كتامه ، ولكنهم مفضلون على كتامة ، لأنهم يمتلكون أراضى أوسع وموارد أوفر ، قادرة على مقاومة هجوم زناته الرحل ،

(٤٩) عن بنى زيرى انظر : ابن خلدون : العبر ٦ : ٢٠٥-٢١٤ ، ابن عذارى : البيان المغرب ١ : ٢٢٨ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٧ : ٤٧ . G. Marçais, art. Ztrides dans l'Encyclopédia de l'Islam

جيرانهم من الغرب وأعدائهم بالوراثـــة . وتمتد مقاطعتهم من تاهرت حتى الزاب وتشمل مراكز مثل مليانـــه ، ميديه ، الجزائر ، وحمزه ، وزعيم هذه القبائل « بلكين » كان وفيا للفاطميين وكان يمدهم بنصائحه ، وتلتف حوله عشيرة متماسكة ومهولة .

لقد اختاره الخليفة لإدارة أمور بلاد البربر ، أى إفريقية وأراضى المغرب المسموح له بضمها للامبراطورية الفاطمية ، وكان بلكين يتمتع ظاهريا بسلطات واسعة جدا : سلطات حربية لأنه كان قائدا للجيش ، وسلطات مالية لأنه يشرف على جمع الضرائب ، وسلطات ادارية لأن جميع الولاة كانوا تحت قيادته ، لقد بقى التنظيم والهيكل الوظيفى الفاطمى على ما هو عليه ، بل ووطد المعز قبل سفره هذا الهيكل بتعيين ثلاثة من كبار موظفى المالية لجباية الضرائب وإرسال جزء منها الى القاهرة ، ولكن هؤلاء العمال كغيرهم كانوا خاضعين لمراقبة بلكين .

وبتخصيص هذه المهام لبلكين ، أراد المعز رفع الأمير الصنهاجى فوق جميع رؤساء بلاد البربر ، وجعله واليا لمقاطعة هامة ، وقام بلكين بتغيير اسمه البربرى واتخذ اسما غربيا « يوسف » ولقب نفسه « أبو الفتوح » أى رجل الفتوحات ، ولقب سيف الدولة . كما أهداه الخليفة أجمل خيوله ، وألبسه زى قائد الجند ، وقلده بسلاسل ذهبية دليلا على التقدير السامى وعلامة للتبعية ولكنها فى الوقت نفسه تعطى لممثل أمير المؤمنين تفوقا رسميا لا جدال فيه .

بعد رحيل المعز ، كانت طاعة الأمير التابع كاملة ، وكان الخليفة قد كلفه بإشهار ولايته بالقيام بحملة ضد قبيلة زناته ، ليثبت لهم أن الفاطميين لا يزالون بالبلاد ، وقام بلكين بالزحف نحو زناته فاكتسح تاهرت ، واستعاد تلمسان ، وبدلا من استغلال هذه الانتصارات فإنه يعود الى القيروان ، لأن المعز أصدر له الأوامر بألا يتعدى هذه الحدود . كان المعز يحتفظ لنفسه بمراقبة

العمليات الحربية من مصر . وعلى كل فالخدمات التى قام بها بلكين لها مكافأتها لأن المعز أضاف له مقاطعة « المسيلة » الخصبة عندما علم بأنه عاقب زناته .

وفى سنة ٩٧٣ م (٣٦٥هـ) مات المعز الفاطمى ، وتولى الحكم ابنــه العزيز ، فقامت قافلة من إفريقية لتقديم الولاء والهدايا من بلكين للخليفة الجديد ، ورافق بلكين هذه القافلة لمسافة بعيدة عن القيروان ، ومعه كثير من سكانها ، فجدد الخليفة تعيين بلكين وأضاف له مدن أجدابيه وسرت وطرابلس والبلاد التابعة لها .

ومع ذلك فبرغم التعبير عن الثقة وعلامات الخضوع ، إلا أن غياب العاهل الذى رشح الوالى الصنهاجى ، فكك العلاقات التي تربط القيروان بالقاهرة ، كما يبدو أن المدن التى استلمها بلكين قد وطدت مركزه وشجعته على التحرر . وابن الأثير يوحى لنا بذلك إذ يروى (٥٠) « واستبد بالملك ، وكان يظهر الطاعة مجاملة ومراقبة لا طائل وراءها » . كان ابن الأثير ملما بأمور المغرب رغم أنه مشرقى ، ونحن نعتد بما يقوله ، ويبدو أن الخليفة الفاطمى قد اتخذ تدابير خاصة تقاوم عزيمة التحرر هذه ، وتضمن سيطرته عليها ، وذلك باستمالة الشعوب التى يحكمها تابعه . فمنذ بداية حكمه أرسل لبلاد البربر قطع ذهبية مسكوكة باسمه وأمر بتداولها ، وحينما فرض بلكين علي سكان إفريقية ضريبة جسيمة لإرسال ناتجها الى القاهرة ، أمر الخليفة ، بلكين بإيقاف جبايتها وأعاد للناس جزءا من المبالغ التي وصلته ، نرى من ذلك أن العزيز كان يتدخل إذن فى الإدارة المالية التى يديرها الأمير ، كما كان يتدخل أحيانا فى النزاع العائلى : فقد هرب الى القاهرة إثنان من أولاد

(٥٠) الكامل فى التاريخ ٧ : ٧٦-٧٧ .

زيرى كانا فى السجن بأمر أخيهما ، فاستقبلهما العزيز بحفاوة وأعيدا الى بلكين وأمره العزيز بألا يقوم بأى عمل ضدهما ، وقد أطاع بلكين هذا الأمر . ومع ذلك كان بلكين لا يخضع دائما ، ففى سنة ٩٨١ م (٣٧١هـ) طلب منه العزيز إرسال ألف من أمهر رجال عشيرته الى مصر ، فرد عليه الأمير بأنه فى حاجة الى خدماتهم ، واكتفى الخليفة بهذا الرد ولم يلح فى طلبه .

تولى المنصور الحكم سنة ٩٨٤ م (٣٧٣هـ) بعد موت أبيه بلكين « وكان على سنن أبيه » (٥١) ولكنه كان مستعدا لعبور مرحلة جديدة نحو الاستقلال . وكان يريد اكتساب شعبية فى إفريقية ، وفى نفس الوقت لا يريد الخضوع لمطالبات القاهرة . وانجلى هذا الميل المزدوج منذ بداية حكمه ، ولكنه ازداد بوضوح أكثر عند حفيده «المعز» وكانت النهاية المنطقية هي الانفصال . ويقول البيان (٥٢) « إنه ولى الإمارة ... بمدينة أشير ـ المدينة الحصينة بجبل تيطري بالزاب مقر أجداده ـ وعندما وصله نبأ وفاة أبيه وجاءه وفد من أهل القيروان ليقدموا له العزاء والولاء ، فاستقبلهم بلطف وقال لهم « لقد شق على تعبكم في حركتكم ، غير أن سرورى فى رؤيتكم » وأمر بإعطائهم عشرة آلاف دينـــار لسد مصاريف السفر والضيافة . فدعوا له وقدموا له التمنيات وانصرفوا ، ولكنه استدعاهم مرة ثانية وأعلن لهم « إن أبى وجدى أخذا الناس بالسيف قهراً ، وأنا لا آخذهم إلا بالإحسان . وما أنا فى هذا الملك ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب ، لأنى ورثته عن آبائى وأجدادى ، وورثوه عن آبائهم وأجدادهم حِمْير ! » وأطال فى هذا الموضوع .

هل تحول هذا الإفصاح الشفوى الى تصرفات استقلالية متميزة ؟ نحن

---

(٥١) ابن خلدون : العبر ٦ : ٢٠٧ .

(٥٢) البيان المغرب ١ : ٢٣٩ـ٢٤٠ .

تراودنا الرغبـــة فى تصديقه لأن تجديد الجهاز الادارى اللى قام به بعض ارادته [٥٣] هو نوع من التصرف الاستقلالى ما هو إذن موقف الخليفة تجاه هذا التابع ذا النزعة الاستقلالية ؟ لم يلجأ الخليفة العزيز ، لا للعتاب الغير مجدى ، ولا لعمل مباشرلا يملك الوسائل لدعمه ، بل سيكتفى بالمقاومة فى تكتم : سيحرض منافسين ليهاجموا حاكما واثقا من نفسه ، هولاء المنافسون هم أفراد قبيلة كتامة المقيمون بالبلاد .

كان زعماء كتامة يعيشون في جبال منطقة القبائل ، وهى منطقة تابعة لأمراء القيروان نظريا ، ولكنها فى الواقع لا تخضع لهم ، لأنها تحت سيطرة زعماء كتامه ، الذين يحسدون صنهاجة ، ومن السهولة اثارة كتامة ضدهم . ففى سنة ٩٨٦م(٣٧٦هـ) وصل الى القيـروان داعية شيعى يدعى « أبو الفهم » وكانت له مهمة سرية [٥٤] : كان عليه أن يذهب الى مقر كتامة ، وكان حاكم القيروان آنذاك من سلالة الأغالبة ، ورغم أنه معين من قبل الأمير الزيـرى ، إلا أنه كان على أتم الاستعداد لخيانته ، لذلك سهل مهمة أبى الفهم . واستقر أبو الفهم فى منطقة القبائل الصغرى ، وجند فرسان ومشاه من كتامه ، واستعد للهجوم على رأس جيش للاستيلاء على إفريقية . فقام المنصور بإبلاغ الخليفة بهذا الموقف المقلق ، ولكن الخليفة لم يندهش لهذا النبأ لأنه يوافق نواياه ، فأرسل رسولين من القاهرة لإبلاغ المنصور ، بألا يقوم بأى محاولة تجاه أبى الفهم وأنه فى حالة عصيان هذا الأمر ، سوف تقبض عليه كتامة ويرسلوه للخليفة مكبلا بالحبال .

---

(٥٣) ابن الأثير : الكامل ٧ : ١٢١ .

(٥٤) انظر البيان ١ : ٢٤١ ، ابن الأثير : الكامل ٧ : ١٣٢ ، النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، القسم الخاص بإفريقية والأندلس ص ٣٢١ .

لم يكن المنصور من الذين يخضعون لمثل هذه التهديدات ، فقام بحجز الرسولين ، وجمع قوات صنهاجة وحرسه الأسود وزحف ضد العدو . استولى على ميله ، ركيزة كتامة وقوض أسوارها ، وتقابل مع العدو بالقرب من سطيف ودحره ، وقبض المنصور على أبي الفهم ونكل به ، وقام العبيد الزنوج بتقسيم جثته وأكلوا لحمها في محضر الرسولين ، اللذين أبلغا الخليفة عن قصة آكلي لحوم البشر المرعبة . وجد الخليفة أنه من الحكمة التغاضي عما حدث ، وأرسل للمنصور رسولا آخر محملا بالهدايا ، ولم ينبس بكلمة عن أبي الفهم ، كان من الواضح أن تراجع العاهل الفاطمي يدل على أنه لا يملك لا الرغبة ولا الوسيلة للتدخل شخصيا ضد بلاد البربر التي تسير نحو الانفصال.

وبعد عامين ٩٨٩ م (٣٧٩ هـ) قامت كتامة بثورة ثانية أخطر من الأولى ، وأسفرت عن الخضوع التام لهؤلاء الجهليين المشاغبين ، ونحن نشك في الحياد التام للخليفة ، وعلي كل فالمحرض وصاحب الفكرة ادعى أنه ينتمي لعائلة الفاطميين الذين لم يتدخلوا علانية .

رغم رغبات الخليفة العزيز الدفينة ، أو محاولاته الغير مباشرة ، لحصر سلطان تابعه المنصور أو ردع عزيمته للتحرر ، إلا أنه كان يعلن عن ثقته لهذا التابع . ففي سنة ٩٩٢ م (٣٨٢هـ) استلم المنصور مرسوما من الخليفة يعترف فيه بابنه باديس وليا للعهد . ويقول البيان [٥٥] « فسر المنصور بذلك . وجاءته الهدايا من البلدان» . ويكفي هذا النص ليبين لنا أن الأمير مهما كانت رغبته في التحرر ؛ فهو في حاجة الي الخليفة لمساندة سلطانه وضمان استمرار سلالته ، وفعلا عندما مات المنصور بعد أربع سنوات ٩٩٦ م (٣٨٦ هـ) خلفه

(٥٥) ١ : ٢٤٦ .

باديس بدون مشاكل تذكر . لقد قامت محاولة معارضة من أعمام العاهل الجديد ولكنها ردعت بواسطة عبيد باديس وأبيه .

وأثناء الواحد والعشرين عام اللذى حكم فيها باديس ، بقيت الروابط بين إفريقية ومصر ودية للغاية ، ويبدو أن باديس أثبت على أنه تابع أكثر احتراما من أبيه ، فقد ازدادت الوفود بين العاصمتين محملة بالهدايا كدليل على التقدير مما يوحى بالصداقة المتبادلة .

لو إكتفينا بهذه الروابط الودية التى قام البيان [٥٦] باقتباس إحصاء تواريخها من المؤلفين مثل « ابن الرقيق » لتصورنا أن السماء بين القيروان والقاهرة لم تشبها شائبة . إلا أن الأحداث المعقدة التى دارت في طرابلس توحى إلينا بأن سياسة الخليفة لم تتغير كثيرا منذ ثورة كتامة [٥٧]. ومثلما فعل مع كتامـة نراه يحرض منافسـا ضد تابعـه فى القيروان ، يهدد سلامـة المملكة ، ويتحلل من هذا التحريض إذا كان رد فعل الأمير الصنهاجي شديدا .

على هامش هذا الوفاق الرسمى ، كانت تتمخض وتستمر صراعات مصالح تنبئ بأزمات خطيرة . إذ بينما كان الأمير باديس يعلن احترامه للخليفة الفاطمى طالما الأخير لا يتطلع للمساس بسلطانه ، نجد أن شعب إفريقية من ناحيته ، يبدى عواطفه المضادة للشيعة كلما سنحت الظروف بذلك . والبيان

---

(٥٦) انظر سنوات ٩٩٧م (٣٨٧هـ) ، ٩٩٨م(٣٨٨هـ) ، ١٠١٣م(٤٠٣هـ) ، ١٠١٤م(٤٠٤هـ) .

(٥٧) ابن خلدون : العبر ٦ : ٦١٣ ، ابن الأثير : الكامل ص ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ورحلة التجانى ص ١٨١ ، ١٨٢ ، ٢١٨ .

ينقل لنا رواية متميزة فى هذا الصدد (٥٨) .

حدثت هذه الواقعة في بداية حكم باديس ، كان الأمير يعد الهدايا المخصصة للخليفة حين وصله منه الأمر بإيفاد القاضى محمد بن عبد الله بن هاشم الذى كان مريضا الى القاهرة . وكان القاضى من الشخصيات المحبوبة لأهل القيروان ، أراد الأمير الامتثال للأمر وأخذ كل التدابير لتجنب الفتن ، فأعلنت حالة الطوارئ ، وهجم على القاضى عمال باديس ورفعوه بملابسه الداخلية على البساط الجالس عليه ، وخلفه غلام نصرانى يمسكه وبعض أفراد عائلته ، وكان ينتظره خارج منزله جمع غفير من أهل القيروان ، وسار الموكب فى صمت مؤثر حتى رقادة لا يقطعه إلا الدعاء له والثناء عليه ، وكان القاضى على وشك الرحيل الى القاهرة عندما جاء نبأ وفاة العزيز . لقد استجاب الله الى دعوات أهل القيروان ، فأعاد باديس القاضى الى بيته مكرما ولكن جاء هذا التكريم متأخرا ، فقد توفى القاضى فى نفس العام ، وإن دل ذلك على شئ فإنه يدل على أن الأمير كان متعاطفا مع رعاياه .

وسوف يتم التطابق فى التفكير بين والى إفريقية وشعبه خلال حكم «المعز» - الزيرى الرابع- مما يخلق المناخ المناسب للانفصال . فى ٣١ مايو سنة ١٠١٦م (٢١ من ذى الحجة سنة ٤٠٦ هـ) لما مات باديس أثنـــاء معركة قام بها ضد بنى حماد ، أعلن كبار رجال المملكة وزعماء صنهاجة البيعة لإبنه «المعز» ، وكانت سن المعز آنذاك الثامنة وأربعة أشهر وكانت هذه البيعة فى المهدية . ومن المفيد إيجاز أسباب هذا النـزاع والظروف التى سببت وفاة باديس .

إن ميلاد مملكة بنى حماد (٥٩) جاء نتيجة طبيعية للأحداث التى سبق

---

(٥٨) البيان ١ : ٢٤٨ .

(٥٩) عن بنى حماد انظر ابن خلدون : العبر ٦ : ٢٢٧-٢٣٦ ، =

أن عرفناها . فعند رحيل الخليفة الفاطمى الى مصر ، ترك بلكين بن زيرى على رأس ولاية تشمل نصف بلاد البربر تقريبا . وكان على بلكين الحفاظ على سلامة البلاد ، ومتابعة القتال ضد قبيلة زناتة الذين يهددون قوامها . كانت الضيعة الإفريقية فسيحة جدا لحاكم واحد والعمل شاق ، فكان على بلكين وابنه المنصور من بعده طلب المساعدة من أقربائهما ، وكلف المنصور أخاه حماد بن بلكين بحكم المناطق الشرقية لإفريقية أى البلاد الواقعة بين خطى الطول للجزائر العاصمة وحدود الأوراس . فقام حماد بواجبه بمهارة وتضحية ، ولكنه أراد الاستفادة من ذلك ، لتتحول الولاية العسكرية المفوضة بصفة نهائية الى دولة مستقلة ، وتعتبر سنة ١٠٠٧ م (٣٩٨هـ) المرحلة الأولى لهذا التحرر . وفى المرتفعات التى تشرف علي حوض هدنه والتى شهدت منذ ستين عام مضت النهاية المأسوية لصاحب الحمار ، قام حماد بتأسيس قلعة لتكون بمثابة عاصمة له ولسلالته . وتكبر « قلعة بنى حماد » وتنافس القيروان أو صبره « المنصورية » . لم يقاوم الأمير الزيرى هذه الحركـة التحررية ، واستمر حماد فى خدمة المصالح المشتركة بمحاربة زناته بدون كلل ، وكذلك بعض أفراد عائلته الذين أرادو الاستئثار بالإمارة ، وبعد فشلهم فى تحقيق النجاح ، يضطرون الى الانتقال الى الأندلس . بدأ النزاع بين حماد وباديس عندما قـام الخليفة الفاطمى بالاعتراف بالمنصور بن باديس وليا للعهد ، فخصص له باديس ولاية قسطنطينة وتيجست وقصر الإفريقي ، من ولاية عمه الحماديه ، لأنه أراد استعادة جزء هام من مملكته ، وزيادة سلطان عاهل المستقبل ، كما أراد زيادة موارده واكتساب أنصار جدد . ولكن حماد

L. de Beylié, La Kalaa des Beni Hammâd. Une capitale berbére de l'Afrique du Nord au XLe siécle, Paris, 1909 ; G. Marçais, Manuel d'art musulman, chap. II .

رفض التخلى عن هذه المنطقة التى يعتبرها ملكا له ، كما رفض الاعتراف بولى العهد لأنه سبب المشكلة ، وفوق هذا وذاك قطع العلاقـة مع الأمير باديس ، واستعد لمحاربته منكرا لسلطان الخليفة الفاطمى الشيعى الذى أقر أمر فقدانه لأرضه .

إن الأضرار التى لحقت بحماد توضح لنا مدى شرعية انفصاله عن الخليفة وتابعه . وامتزجت المصلحة المادية وبررت بسبب أسمى وهو الطابع الدينى ، فتحلل حماد من ولاية الخليفة الشيعى « الحاكم » وفى نفس الوقت نبذ مذهبه الشيعى المرفوض . ويقول لنا ابن خلدون[٦٠] «وقتل الرافضة وأظهر السنة ، ورضى عن الشيخين (أبو بكر وعمر) ونبذ طاعة العبيديين جملة . وراجع دعوة آل العباس» . إذا كانت هذه المعلومة صحيحة (لم يسجلها إلا ابن خلدون وحده) فنحن أمام حدث هام سوف يكون له بعد ثلاثين عام أثره الواضح على الأمير المعز .

الأعمال الحربية التى بدأها حماد فى يونيه سنة ١٠١٥ م (٤٠٥ هـ) انتهت فى مايو سنة ١٠١٦ (٤٠٦ هـ) لصالح باديس الذى مات فجأة عند محاصرة القلعة ولم يصل بعد الى النصر النهائى . وكان ولى الأمر الفاطمي قد مات أيضا منذ فترة فأصبح الحكم فى يد الأمير « المعز » الذي يبلغ من العمر الثمانى سنوات .

كان هذا الغلام واعيا للمنصب الذي سيتولاه ، فعند وصول خبر وفـاة أبيه ، رفع الجيش الحصار عن القلعة وعاد لتشييع جثمان باديس ، كانت الطبول والرايات تتقدم التابوت ، وكان الموكب على جانبيه حتى وصل أبواب المهدية . شاهد الأمير الصغير العرض الطويل وهو ثابت على جواده ، ثم

---

(٦٠) العبر : ٦ : ٢٢٨ .

جاءت وحدات الجيش وحدة تلو الأخرى تبايعه . وبعد شهر ترك المعز مدينة المهدية واتجه نحو صبره (المنصورية) ودخلها وسط الفرح العام (٦١) .

لقد كسب قلوب الناس بشبابه وطيبة خاطره ، والملاحظ أنه أراد منذ الساعات الأولى اكتساب شعبه مثلما فعل جده المنصور . فقبل استلام جثمان أبيه في المهدية ، حيث بايعه الشعب كان « يركب في كل يوم ، ويعود الى قبة السلام ، ويطعم الناس بين يديه ، وينصرف الى قصره » (٦٢) رُبي المعز في حجر وزيره « ابن أبي الرجال » الذي أدبه ودله على مذهب مالك وعلى السنة ، وكان الشيعة لا يشكون في ذلك ، وما لبثوا أن عرفوا الحقيقة . فالمؤرخون نقلوا لنا عدة روايات عن الحادثة التي كشفت للناس عن مشاعره السنية المالكية .

كان ذلك خلال احتفال في القيروان : خرج المعز الى المصلى في زينته وحشوده وكان لا يزال غلاما ، فكبا به فرسه ، فأسرع الغلام ببعض الدعوات ذاكرا اسم أبا بكر وعمر . فسمعته الشيعه المرافقون لـه ، فبادروا إليه ليقتلوه ، مما أثار حرسه الزنجي ورجاله ، فهجموا على الشيعة وقتلوا منهم الكثير . وهجم الجنود والعامة في القيروان علي « درب المعّلى » - الحي الذي يسكنه الشيعة المتسترون - وقتلوا كل من فيه وسلبوا دورهم وأموالهم فسمى هذا المكان ببركة الدم وبقى معروف بهذا الأسم لمدة قرنين . وقد استطاع لفيف من الشيعة اللجوء الى قصر المنصور فحاصروهم ، ولما اضطروا للخروج قتلوهم عن آخرهم .

منذ ذلك الوقت تكررت حرب الإبادة في مدن إفريقية الرئيسية . وقال

(٦١) ابن عذارى : البيان ١ : ٢٦٧-٢٦٨ .

(٦٢) البيان ١ : ٢٦٧ .

الشاعر القاسم بن مروان مستبشرا

« سوف يقتلون بكل أرض   كما قتلوا بأرض القيروان »

ويصعب علينا وضع جدول زمني مؤكد لهذه الحركات الشعبية ، وليس في استطاعتنا اثبات ما إذا كان الأمير بعيدا عنها ، أو كان يدير هذا الهياج الجماعى كما يقول ابن بسام (٦٣) أو كان يديرها حاكم القيروان لإفساد العلاقة بين سيده والقاهرة كما يقول ابن الأثير . والمؤكد هو أن القاهرة ، لم تدين هذه الضربات . فبعد عدة أشهر من مجزرة القيروان بعث الحاكم لتابعه المعز بالسفارات والهدايا النفيسة ولقبه «شرف الدولة » . « ولم يذكر شيئا عن الاضطهاد الدامى الذي راح ضحيته الشيعة » (٦٤) . وبعد ثلاث سنوات سنة ١٠٢٠ م (٤١١هـ) استلم المعز خلعة رائعة لم ير الناس مثلها وسيفا مرصع بالأحجار الكريمة وقرئت عليه رسالة محملة بشواهد التقدير . وفى نفس العام لما علم الخليفة الفاطمى بسقوط الأمويين فى قرطبة ، أرسل للمعز خمسة عشر علما منسوجا بالخيوط الذهبية ابتهاجا بهذا الحدث السعيد . وقد استقبلها الأمير باستعراض كبير . وكان علي «الظاهر» خليفة الحاكم أن يحتفظ تجاه تابعه بنفس الود .وفى سنة ١٠٢٣ م (٤١٤هـ) كان المعز يبلغ من العمر ستة عشر عام ، ويقول البيان(٦٥) أن الخليفة أرسل له «بتشريف عظيم لشرف الدولة . فقرئت به سجلات ما وصل قبلها مثلها أجل حالاً ولا أعلى مقالاً وأضاف لقبا الى لقبه » فسماه « شرف الدولة وعضدها » ومن بين الهدايا

(٦٣) التجانى : رحلته ص ١٧ ، ١٩ .

(٦٤) ابن الأثير : الكامل ٧ : ٢٩٥ ، ابن عذارى : البيان ١ : ٢٦٩ .

(٦٥) البيان ١ : ٢٧١ .

التي أرسلها إليه « ثلاثة أفراس من خيل ركوبه ، بسروج جليله وخلعة نفيسه من نفيس ثيابه ، ومنجوقين (رايتان) منسوجين بالذهب على قصب لضه ، ... فلقيها شرف الدولة وعضدها أجمل لقاء ، وأعطاها حقها من الإكرام والاعتناء ، وقرئت السجلات بين يديه ، ثم قُرئت بجامع القيروان ، وأمر بنسخها ، وانفذت الى الآفاق ، فكان لها من السرور ما لا يوصف » . هكذا قال ابن عذارى الذي استقى هذه المعلومات من مؤرخين مجهولين لنا اليوم ، ويبدو إنه كان يعكس نوعا من التفاؤل الرسمى . ويبدو أن خلال الخمس والعشرين عام الأولى من حكم المعز لم يكن هناك ما يعكر صفو العلاقات التقليدية بين إفريقية ومصر الفاطمية . وعند قراءة البيان المغرب ، تراودنا الرغبة فى الاعتقاد أن الشعب كان يشارك بصدق وإخلاص السلطان الشاب ، وكانت البلاد تأمل فى التخلص من الشيعة ، الذين أصبح وضعهم غير محتمل فى القيروان . فبعد عامين من المجازر الأولى خرجت طائفة من الشيعة يريدون المهدية للركوب منها الى صقلية ، وفى الطريق « تنافر أهل المنازل عليهم فقتلوهم وفضحوا بعض شواب النساء ومن كان لها منهن جمال ثم قتلوهن » كانت تجاوزات السكان تلاقى التسامح من قبل الصالحين ، وكان الحديث يدور عن كره المشرقيين ، وقد اكتشفوا فى منازل الشيعة كتب تبين كفرهم وفكرهم المناهض . أما بالنسبة للمعز ، فبالرغم من تقدير الخليفة له ، هذا التقدير الذى يرفع من سلطانه ، كان المعز يحظى فى الوقت نفسه بإخلاص شعبه وعرفانه لأنه وضع فيه كل آماله ، كانوا يتداولون القصص عن الأحلام التنبؤية التي رآها ، وكانوا يعلنون عن كرهه للشيعة المقيمين فى مملكته ، لم يعد فى موقفه من الشيعة أى التباس . ويؤكد التجانى [٦٦] أن المعز لم

Journal asiatique, 1852, II, 91 .

(٦٦) رحلته ص ١٩ .

يكف عن كره الفاطميين وكان يلعنهم سراً ، ويحرض علي قتل أنصارهم . ويقول لنا ابن خلدون « وأغضى عنه الظاهر من ذلك وابنه معد المستنصر من بعده . واعتذر بالعامة فقبل واستمر على إقامة الدعوة والمهاداة » (٦٧) .

نحن لا نعرف بالتحديد تاريخ تسلسل أحداث اضطهاد الشيعة من جانب سكان بلاد البربر والعرب فى إفريقية ، كما أننا لا نعرف بالتحديد تواريخ تحلل المعز من الولاء للفاطميين ولا الحجة التى اختارها لخلعهم رسميا .

إن ابن عذارى يحدد الحركة الرئيسية لهذا التحلل من الولاء للفاطميين بسنة ١٠٤١ (٤٣٣هـ) بأن أظهر المعز الولاء للخليفة العباسى « القائم » وبالتالى تحلل من الولاء للفاطميين . أما ابن الأثير وابن خلكان فيحددان تاريخ هذه الواقعة الفاصلة بسنة ١٠٤٣ م (٤٣٥هـ) ويحددها ابن خلدون بسنة ١٠٤٥ م (٤٣٧هـ) ، والذى يهمنا هو أن هذه الوقائع جرت كلها بين سنة ١٠٤١ ، ١٠٤٥ وأن سنة ١٠٤١ كانت بداية التحلل شيئا فشيئا والأعوام التى تليها كانت لتطور المواقف وتأزمها .

جاء عهد خليفة بغداد ردا على ولاء المعز ، وكان هذا العهد مصحوبا بكثير من الهدايـــا ، عبر الطريق البحري بين القسطنطينية (عاصمة الامبراطورية البيزنطية) وإفريقية . (٦٨)

ومع ذلك فان خلع الفاطميين الغير المعلن ، لا يرضى الشعب الذى كان يكن للمشرقيين الحقد الدفين ، وكان يجب على الانفصال السياسى ، أن يترجم بقطيعة رسمية مع هؤلاء المبتدعة . ومن عدة سنوات مضت قاطع كثير من الصالحين من أهل القيروان صلاة الجمعة ، حيث كان الدعاء للخليفة

(٦٧) ابن خلدون : العبر ٦ : ١٨ـ١٩ .

(٦٨) البيان ١ : ٢٧٥ ، ابن الأثير : الكامل ٨ : ٣٩ .

الفاطمى : وصلت هذه القطيعة لدرجة أن المسجد كان يبدو أحيانا خاويا ، فأمر المعز بالكف عن الدعاء للخليفة الفاطمى ، وأمر بعد فترة أن تُلعن الشيعة من فوق منابر المساجد . نقل ابن عذارى[69] عن مؤرخ معاصر له خطبة قيلت بهذه المناسبة فى عيد الأضحى سنة ١٠٤٨ م (٤٤٠هـ) ويقول لنا أن الأمير لم يقتنع بشدة اللعنات وأمر بجعلها أكثر تشددا فى خطبة الجمعة التالية لدرجة أن « أبلغ فى ذلك بما فيه شفاء لنفوس المؤمنين » وأصبحت هذه اللعنات والسباب من الإضافات الاجبارية لكل عمل هام . ولدينا دليل مؤثر فى هذا الشأن : إنه غلاف مصحف أهداه الأمير الزيرى للمسجد الجامع فى القيروان وعليه خط بيده السطور الآتية :

« يقول عبد الله وحبيبه المعز لدينه : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله (ﷺ) وأن أحسن الرجال بعد رسول الله هو أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علىّ (رضى الله عنهم جميعا) ، يا إلهى ، إلعن بنى عبيد ، أعداؤك وأعداء رسولك . ليجعلنا الله نستفيد من الحقد الذى نكنه لهم . لقد أوقفت هذا المصحف لصالح المسجد الجامع فى القيروان بعمل مشكور (محمود) فى نظر الله العظيم . سبحان الله . »

لا يوجد في هذا البلد وثيقة أكثر تأريخا ومدلولا ونوايا : فالأمير الزيرى فى الوقت الذى يلعن فيه سلالة المهدي « عبيد الله » فإنه يمجد الرسول والصحابة وأعطى للخلفاء المكانة التى منحها لهم التاريخ وأن « عليّا » جاء رابعهم . وأن عملية الوقف لصالح المسجد الجامع فى القيروان لها دلالتها ، التى تضاف الي مجموع الأعمال التي تبين احترام الأمير لمؤسسه سيدى عقبة . فقد أهمل الفاطميون هذا المسجد الذى اعتنى به الأغالبة ، وقد أراد

(٦٩) البيان ١ : ٢٧٧-٢٧٨ .

واحد من الفاطميين هدم المحراب ، وتغيير القبلة التى حددها عقبة بنـاء على الرؤية ، ولما لم يستطع ، أراد انتهاك حرمة مقبرة سيدى عقبة لينمحى ذكراه . إن هدايا المعز للمسجد الجليل ، والأعمال التى أمر بها فيه ، والخاصة بتزيين وإثراء مقبرة البطل ، كل هذا يبدو عليه طابع التعويض والعودة الى التراث السنى والوطنى لإفريقية (٧٠) .

إن إصلاح الأسقف وخشب المسجد (٧١) وهدايا المخطوطات الثمينة ووسائل الإضاءة ، كل هذا واكب الإنفصال أو سبقه بقليل . هناك وقائع أخرى جعلت الانفصال أكثر ظهورا ، ففى سنة ١٠٤٩ م (٤٤١هـ) أمر المعز بإحراق رايات الفاطميين والأقمشة المنسوج عليها اسمهم ، بالاضافة الى إجراء أكثر خطورة : وهو إطراح الولاء لهم فى سك النقود ، أى أنه منع تداول النقود التى سكها الفاطميون ، وأمر بتغييرها ، ونتج عن ذلك غلاء فى المواد الغذائية أحس به عامة الشعب . وفى سنة ١٠٥١ م (٤٤٣هـ) أمر المعز صباغى القيروان بصباغة الأقمشة البيضاء المصادرة من سوق القماش باللون الأسود (رمز العباسيين) ، وقام الخياطون بصناعتها عباءات ووزعت علي رجال الدين وأفراد الحاشية . ارتدى الجميع هذه الكسوة العباسية ورافقوا الأمير الى المسجد لسماع خطبة فى تمجيد بنى زيرى والدعاء لخليفة بغداد ، وانتهت الخطبة – كما جرت العادة – بلعنة الفاطميين المنبوذين (٧٢) .

إبن عذارى يحدد هذا العمل الاستعراضى في شهر جمادى الثاني سنة

(٧٠) Voir G. Marçais, Le tombeau de Sidi " Ogba, dans Annales de l'Institut d'études orientales, V, pp. 1 ss .

(٧١) Voir G. Marçais, Coupole et plafons de la Grande Mosquée de Kairouan, Tunis-Paris, 1925, pp. 32 ss .

(٧٢) البيان ١ : ٢٨٠ .

٤٤٣ هـ (اكتوبر – نوفمبر ١٠٥١) . وقد كان الحدث الأخير لأنه سبق مباشرة ظهور الهجرة الهلالية ، وإذا رجعنا لابن خلدون نعرف منه أن الهلالية دخلوا إفريقية فى نفس عام ٤٤٣ هـ . فقد قررت حكومة القاهرة التدخل بطريقتها الخاصة ، كما تدخلت في عملية ، كتامة وعملية طرابلس . فكان على القاهرة تنظيم مصير إفريقية ، بدون التدخل المباشر ، ولكن عن طريق وسيط ثالث ، وبأرخص الأثمان ، ومهما كانت النتيجة فسوف تحصل القاهرة على ما كانت تنتظره . فهى تقوم بمعاقبة تابعا متمردا ، وفى الوقت نفسه تتخلص من ضيوف ثقلاء ، ولم تكن تتوقع أن العقاب سيحدث كوارث بهذا الاتساع ، إن رحيل عرب بنى هلال المستوطنين أصلا على الضفة الشرقية للنيل ، ودخولهم بلاد البربر الشرقية ، سيتبعه توقف النشاط الاقتصادى ، وانقلاب الأحوال السياسية ، وتدهور الحضارة . ولنحاول الآن تحديد صورة هذا العالم قبل أن يزول بمفعول التحلل .

ب – شعب إفريقية

لم تكن مملكة بنى زيرى بنفس الاتساع ، اللي كانت عليه ، عندما وهبها الخليفة الفاطمى لبلكين مؤسس الأسرة . لقد رأينا كيف تصرف خلفاء بلكين لصالح بنى عمومتهم من بنى حماد ، فقد وهبوهم مقاطعة حربية لحمايتها ولكن سرعان ما تحولت هذه المقاطعة إلى دولة مستقلة . ولقد أقرّت هذا التقسيم إتفاقية سنة ١٠١٧ م (٤٠٨هـ) وبذلك فقد أمير القيروان السيطرة على الجزء الأكبر من بلاد صنهاجة القديمة ، من تاهرت حتى حدود الأوراس ، بما فيها العاصمتين أشير القديمة والجديدة ، وكذلك قلعة بنى حماد . كان الأمير الزيرى لا يحتكم إلا على مقاطعة إفريقية القديمة التى أصبحت « إفريقية » وتشمل قسطنطينة وميله من ناحية وطرابلس من ناحية أخرى . أما الحدود التى تفصل بين الدولتين المتنافستين ، فكانت غير واضحة المعالم

وموضوع جدال حتي بعد اتفاقية ١٠١٧ م مما جعلهما ضحية لهذه الكارثة ، لأن التقسيم جعلهما أكثر تعرضا للهجوم ، ولن نميز بين هاتين الدولتين عند تناول الوضع السكاني والاقتصادى .

ففى كل من البلدين يتكون قاع المجتمع من البربر ، والقبائل التى يذكرها البكري ، هى ذاتها تقريبا التى كانت تقيم علي نفس الأرض فى القرن التاسع ، زمن اليعقوبى . وإذا كان اليعقوبى قد أهمل ذكر كتامة منطقة القبائل ، فالبكرى يذكرهم دائما ، ويرجع ذلك للدور التاريخى الذى لعبوه ، ولفت إليهم الأنظار .

أما بالنسبة للعناصر الأخرى والتى سبق أوردها اليعقوبى فى القرن التاسع الميلادى : الفرس ، الروم ، الأفارقة وأخيرا العرب . فالجدير بالذكر هو إختفاء الروم والفرس ، أى سلالة الحكام البيزنطيين القدامى الذين استقروا فى البلاد بعد تعريبه ، وبقايا الفرق العسكرية الفارسية المهاجرة منذ عهد العباسيين . والبكرى لا يعرف لا الفرس ولا الروم . فلا مدن الجريد تحتوى على روم ولا المراكز المحصنة في الطريق الشرقى تحتوى علي فرس ، ومن العبث الاعتقاد بأنهم تركوا البلاد ، بل يمكن التسليم بأنهم اندمجوا مع أبناء الوطن الأصليين . والبكرى يسمح لنا بشرح هذا الاندماج خصوصا علي حدود مملكة الأغالبة القديمة ، ففى بلاد الزاب ببسكرة والمدن الصحراوية المحيطة ، حيث أنشا البيزنطيون المحميات ، تقابل اليعقوبى مع فارسيين ، أما البكرى فلم يجد إلا المولدين (٧٣) . ونعتقد أنهم أبناء أجانب تزوجوا من بنات البربر ، مثلما حدث فى العصر الحديث فى مدن الجزائر ، حيث كان الأتراك يحرسون المراكز

(٧٣) اليعقوبى : البلدان ص ١٠٢ ، البكرى : المغرب ص ٥١-٥٢ ، المولدون موجودون منذ القرن التاسع .. أبو العرب : طبقات علماء إفريقية وتونس ص ١٨٠ ، ١٩٥ ، ٢٢٢ .

وتزوجوا من نساء البربر ، ونتج عن ذلك سلالة كلوغليس Qouloughlis . كذلك الحال فى طبنة عاصمة الزاب فى ذلك الوقت حيث حل الهجنـاء محل الروم ، وقد ثبت وجودهم منذ مائة وخمس وسبعون عام من قبل . وعلى كل فلم يكن الاندماج كاملاً ، مما أدى إلى وجود الفروق بين سكان المنطقة ، وبقاء العنصرية العربية واضحة . ويعطينا البكرى إيضاحات مفيدة فى هذا الشأن حيث يروى : « إذا كانت الحرب بين العرب والمولدين ، استمد العرب بعرب مدينة تهوذا وسطيف ، واستمد المولدون بأهل بسكرة وما والاها » .

وعلى كل حال كانت هناك مراكز ، خلت من العناصر الأجنبية ، التى كانت تشغلها فى الماضى ، بسبب الهجرة لمناطق أخرى ، أو أن الاندماج قد أذابهم مع أبناء الوطن الأصليين . وفى « باغاية » المدينة المحصنة القديمة ، التى كان يعيش فيها فى القرن التاسع « قبائل من الجند ، وعجم من أهل خراسان ، وعجم من عجم البـلد من بقايـا الروم » لا يذكر البكرى أى شئ عن هـذه المجموعـات ، وقد لاحظ فقط أن « أهلها كلهم اليوم على رأى الإباضية » (٧٤) ، وقد قال لنا أن السهول المحيطة ، كانت محتلة بقبائل مزاته وضريسة البربرية ، وكلها تنتمى للخوارج . ونحن نفترض إذن أن البربر الذين يعتنقون المذهب الخارجى الوطني القديم ، حلوا محل العناصر السابقة التى عرفناها ، فى هذا المكان فى النصف الثاني للقرن التاسع .

وقد بحثنا فى عصر الأغالبة مسألة « الأفارقة » وقلنا أنهم من أبناء الوطن الأصليين أو الأجانب ، وكانوا يتكلمون اللاتينية ويحتفظون بالعقيدة المسيحية . ولم تندهش لتضاؤلهم فى القرن التاسع ، فقد قل استعمال اللغة اللاتينية وبدأت المسيحية فى التقهقر . وبعد أن أشار البكرى عن وجـود

(٧٤) اليعقوبى : البلدان ص ١٠٢ ، البكرى : المغرب ص ١٤٤-١٤٥ .

«قبائل أفارقة» فى برقة (شمال شرق ليبيا) يتكلم عن وجودها فى كل من إفريقية وقابس ومنستير عثمان (قرية على بعد يوم من القيروان فى الطريق إلى تونس)(٧٥). نستطيع إذن اعتمادا على رواية البكرى أن نقرر تواجدهم .

نحن لا نشك فى وجود مسيحيين فى الجريد ، وقد قابلهم اليعقوبى ، وسيبقون فيها طيلة العصور الوسطى وحتى القرن الرابع عشر وسوف يتكلم عنهم ابن خلدون (٧٦) . ومع ذلك فمن الواضح أن البكرى الذى كان عليما بأحوال قسطيليه ومراكز المنطقة ، لم يندهش من وجود الأفارقة (٧٧) وقد قابلهم فى قابس ، حيث لم يلاحظ اليعقوبى وجودهم ، وقد ذكرهم البكرى بعد قرن من الزمان . وقد كونوا جزءاً هاما من السكان لدرجة أن الإدريسى لقب قابس « بمدينة الأفارقة » .(٧٨) يبدو أنه كانت هناك مراحل للتركيز التصاعدى للأفارقة وتجمعهم فى المدينة حيث التقاليد اللاتينية والمسيحية كانت لا تزال موجودة .

لقد أشرنا أن فى القرن التاسع كان هناك مسيحيون يزرعون شجر الزيتون في الساحل ، ولم يعد الوضع كذلك بعد مائتى عام ، فالبكرى لم يشر الى

---

(٧٥) البكرى : المغرب ص ٥ ، ١٧ ، ٥٦ .

(٧٦) ابن خلدون : العبر ، ترجمة دى سلان ١ : ٢٣١ ، ٣ : ١٥٦ ، والمسافر مولاى أحمد ذكرهم أيضا فى القرن الثامن عشر، رحلات فى جنوب الجزائر والدول البربرية : العياشى ومولاى أحمد . ترجمة Berbrugger باريس ١٨٤٦ ص ٢٨٩ .

(٧٧) فى قفصه وكانت لغتها هى اللاتينية فى القرن الثانى عشر ، الإدريسى : صفة المغرب وأرض السودان والأندلس من نزهة المشتاق تحقيق دوزى ودى غويه (أمستردام ١٩٦٩) ص ١٠٤ .

(٧٨) الإدريسى : صفة المغرب ص ١٠٦ .

وجود أفارقة إلا فى منستير عثمـــان وهو مركز زراعي لمنطقة مجاورة للساحل . وبالنسبة للآثار يوجد كشوف لنقشين ، على مقبرتين لخادمى الكنيسة (٧٩) قس متوفى فى سنة ١٠٥٠ - ١٠٥١ م والآخر فى سنـة ١٠٤٨ م ، هذه الكشوف تؤكد لنا استمرار العبادة المسيحية حتى فى القيروان عشية الغزو الهلالى ، وكان النقش باللاتينية الوحشية (عامية مبتذلة) تدل على وجود الطقوس الدينية وعلي التضامن الوثيق بين هذه اللغة والمسيحية الإفريقية .

وكان لمدينة المهدية نصرانيتها أيضا مثل مدينة القيروان . ويرجع تطابق عاصمة الفاطميين المهدية مع « جمه » الى فطنة حس حسنى عبد الوهاب . ففى سنة ١٠٥٣ كان أسقف مدينة جمه (المهديه) يدعى أنه متفوق على أسقف قرطاج (٨٠). وكانت مدينة « بونة » تزخر بالمسيحيين الذين كانوا يحتفظون بذكرى القديس أوغسطين (٨١) والبكرى لم يذكر وجودهم فى «طبنة» بينما تعرف اليعقوبى على كثير منهم . كما كانت توجد كنيسة للعذراء فى قلعة بنى حماد (٨٢). إن هجرة بنى حماد من القلعة إلى «بجاية» كانت سببا فى انتقال جزء من مسيحيي القلعة إلى بجاية حيث أرسل إليها

---

(٧٩) Voir Saumagne dans le Bulletin archéologique, 1928, p. 370 ; Seston, Mélanges de l'Ecole de Rome, 1936, pp. 101 ss.

(٨٠) Mas Latrie, Traités de paix et de commerce concernant les relations des Chrétiens avec les Arabes de l'Afrique du Nord au Moyen âge . Documenrs, p. 7. - البكرى المغرب ص ٥٤ .

(٨١) البكرى : المغرب ، ص ٥٤ ـ ٥٥ .

(٨٢) Voir Cénival, Le prétendu évéché de la kal'a des Beni Hammâd, dans Hespéris, XV, 1932, p. 14 .

البابا أسقفا ١٠٧٦ بناء علي طلب بنى حماد (٨٣)

علاوة علي هذه النصرانية الإفريقية التى وصلت الينا مصادفة ، هناك نصرانية قرطاج التى كان الأسقف يطالب لها بأولوية وهمية ، وبذلك نكون قد قمنا ما عدا السهو والخطأ بحصر كل ما تبقى فى بلاد البربر الشرقى ، من المجتمعات الصغيرة الأصلية التي احتفظت بعقيدة الآباء . والمقصود بذلك هم المسيحيون المولودن فى البلاد ، وعددهم كان يقل من سنة إلى أخرى . ففى سنة ١٠٥٣ وصل عدد الأساقفة الى خمسة ، وكان عددهم مائتين تقريبا وقت الغزو الإسلامى (٨٤) لقد بقيت الكنيسة الإفريقية بصعوبة . لقد خنقها الإسلام (٨٥) بدون أى اضطهاد ممكن أن نتخيله ، هناك ملاحظتان ينبثقان من المعلومات القليلة السابقة : أولا : إن المسيحيين ليسوا إلا حضريين (من أهل المدن) وثانيا : بخلاف المراكز القديمة حيث تمثل المسيحية تراثا أصليا ، مثل قابس وبونة وقرطاج نلاحظ أن المدن التى كان يفضلها ، ويتجمع المسيحيون فيها ، حيث توجد كنائسهم واسقفيتهم ، مثل القيروان والمهدية وقلعة بنى حماد وبجاية هى مدن أنشأها المسلمون وكانت عواصم إسلامية ، إن دلت هذه الملاحظات على شئ ، فهى تـدل على أنهم وجدوا فى هذه الأماكن ، التى لم يستقروا فيها إلا من عدة أجيال فقط ، تساهلا لمزاولة عبادتهم ، ووجدوا أنشطة تجعل حياتهم أكثر أمنا فى ظل الحكم الاسلامى .

أما بالنسبة للعنصر العربي ، فقد ازداذ تواجده بإفريقية ، والبكرى قد ذكرهم إثنى عشر مرة ولكننا نشك فى تعداده الغير كامل . فبخلاف القيروان

---

(٨٣) Voir Mas Latrie, Traités de paix et de commerce .. pp. 16-17. Documents, pp. 2-5 .

(٨٤) Mas Latrie, loc, cit .

(٨٥) L'expression est de Seston, loc, cit., p. 118 .

فالمدن التى يجب أن نلاحظهم فيها حسب رأي البكرى هى : بالنسبة لمقاطعة إفريقيا القديمة (إفريقية) قابس ، والمهدية ، منستير عثمان ، ومجانه التى تقع شمال شرق مدينة تبسة ، ومدن ميله وسطيف وطبنه الواقعة على حدود إفريقية الشرقية ومدن ولاية الزاب مثل تلجا وتهوذه .

بخلاف المدن ، هناك نصان يجب تسجيلهما : فى ضواحى المركز القديم «اجّر» على مسافة أربعين كيلومتر شمال غرب القيروان فى منطقة صخرية ووعرة نجد بعض « قبائل من العرب ، ومن البربر ضريسة ومرنيسة » (٨٦). وفى السهول الممتدة على شمال الأوراس غرب باغاية «تمشى ثلاث مراحل» ثلاثة أيام « فى مساكن العرب ، وهوارة ومكناسة وكهينة ووارجله » (٨٧).

وبخلاف سلالة المهاجرين ، الذين يقيمون فى الحضر من أعضاء الحكومات المتتالية والعلماء المسلمين أو حرس الجند ، نجد في بلاد البربر الشرقى ، عرب بدو يسكنون الخيام ، ويعيشون فى تكافل مع المجموعات البربرية ، وقد تشبهوا بهم تقريبا . ولم يحدد البكرى إلى أية قبيلة فى الجزيرة العربية ينتمى هؤلاء العرب : هل كان هذا إهمال من مُخبريه ، أم أن المعنيين أنفسهم لم يهتموا بالأمر ؟ ومن الملاحظ أن مجموعة العرب فى تهوذة ، الذين يتباهون بأنهم قرشيون ، والعرب الذين يقيمون فى قرى تلجة ، ويدعى البعض منهم بأنه يمنى ، والبعض الآخر بأنه من الاوس القيسيين ، فاليعقوبى يكلمنا عنهم ، أما البكرى وهو جغرافى القرن الحادى عشر فلم يقل لنا الى أى سلالة ينتمون . تراودنا إذاً الرغبة فى الاعتقاد بأن ذلك يرجع إلى فقدان نسبى لشخصيتهم وغطرستهم العنصرية ، ودليل ضعف وافتقار واندماج فى

(٨٦) البكرى : المغرب ص ٥٤ .

(٨٧) البكرى : المغرب ص ١٤٤ .

السواد الأعظم . ألم يتفق هذا التدهور مع زوال دورهم فى الدولة ؟ وبمقارنتهم بكتامة وصنهاجة فالعرب لم يصبحوا أسياداً فى البلاد التى غزاها أجدادهم .

هـ - الحالة الاقتصادية فى إفريقية

بخلاف الإنفصال الديني القائم دائما بين شعب إفريقية والسادة المشرقيين ، هناك وضع آخر حرض بنى زيرى على إطراح الولاء لهم . هذا الوضع هو : الإحساس بالاستقلال الناتج عن الازدهار الاقتصادى للملكة . ولم يكن هذا الازدهار موضع جدال ، فبعد أربعة قرون سيدلى ابن خلدون بهذا الرأى عن إفريقية المعز « وكان أضخم ملك عرف للبربر بإفريقية وأترفه وأبذخه »(٨٨). رغم أن رأيه متأثر بالتفاؤل الرسمى المؤرخ الرسمى لبنى زيرى ابن الرقيق ، إلا أن الجغرافيين المحايدين مثل البكرى أكدوا هذا الرأى ، والأكثر تأكيداً هو حصولنا على آثار فنية ترجع إلى هذا العصر . لدينا الانطباع بأننا أمام امتداد أو عودة أو قمة الحضارة التى ظهرت فى القرن التاسع مع الأغالبة ، والتى أوقف نهضتها الاستغلال الضرائبى للفاطميين ، وغزوات صاحب الحمار ، ثم استعادت قوتها بفضل عودة السلام وأعطت أحسن ثمارها وأرقها وآخرها .

ويرجع كتاب البكرى إلى النصف الثانى من القرن الحادى عشر ، ولكنه يصلح للنصف الأول من القرن أى الفترة التى تشغلنا ، فهو يقدم لنا إيضاحات كافية عن موارد إفريقية من الزراعة والصناعة والتجارة .

كانت بلاد البربر الشرقية منتجة للقمح والزيتون والبلح بكثرة متزايدة عن إنتاجها فى عهد الأغالبة . أما البلاد المعروفة بزراعة القمح ، فهى تتركز فى

(٨٨) ابن خلدون : العبر ٦ : ٢١٠ .

الولايات الشمالية (مجردة وواد مليح) ، وكان محصول القمح بباجة مؤكدا ، منذ أيام الرومان في الوقت الذى كان فيه القحط يجتاح كل مكان . وفى بعض السنوات كان التصدير يفوق حمولة ألف دابة يوميا بدون أن يكون له تأثير على الأسعار . (٨٩) كانت مدينة « بل » تتباهى بأحسن أرض لزراعة الحبوب ، وتتباهى مدينة الأنصاريين بانتاج أحسن قمح بإفريقية (٩٠). وعلى كل فقد كانت هذه الزراعة تمتد أكثر نحو الجنوب فى السهول الداخلية التى ستتصحر فى المستقبل . ومدينة « فحص الدرارة » الممتدة غرب القيروان كانت معروفة بالانتاج الوفير عندما تفيض الأنهار المجـــاورة وتروى أرض المنطقة . ويؤكد البكرى أنه « بفحص الدرارة يصاب فيه فى السنة الخصبة للحبة مائة » (٩١) .

وكما هو الحال فى أيامنـــا هذه ، يوجد شجر الزيتون فى هذا السهل الفسيح ، الذى يتاخم الساحل الشرقى ، من صفاقس إلى حدود تونس . ويكلمنا الجغرافى البكرى عن غابة الزيتون المسماة « الساحل » ، هذه الغابة تطوّق مدينة صفاقس وهى المركز الكبير لصناعة الزيت (٩٢) ، وتمتد المزارع فى بعض المناطق نحو الداخل . ولا يُقارن سهل القيروان بما هو عليه اليوم ، ويقول البكرى « ومن عجائب القيروان أنهم يحتطبون الدهر من زيتونها ليس لهم محطبة غيره وان ذلك لا يؤثر فى زيتونها ولا ينقص منه » (٩٣)

(٨٩) البكرى : المغرب ص ٥٦ .

(٩٠) البكرى : المغرب ص ٤٧ ، ٥٤ .

(٩١) البكرى : المغرب ص ٢٤ ، Voir J. Despois, La Tunisie orientale. Sahel et basse steppe, Paris, 1940, pp. 128, 159 .

(٩٢) البكرى المغرب ص ٢٠ ، ٢٤ .

(٩٣) البكرى : المغرب ص ٢٦ .

أما ثروة بلاد الجريد فهى « النخيل » ، « يخرج منها (توزر) فى أكثر الأيام ألف بعير موفورة تمراً وأزيد » [94] ويعطينا البكرى تفاصيل محددة عن الأنواع الجيدة التى تنتجها واحة بسكرة .

ويرى البكرى أن إفريقية بلد غنى ببساتين الفواكه التى سيخربها الغزو الهلالى . ويغطى شجر الفواكه مرتفعات زغوان ويطوّق تونس ، ويزين قرطاج وأطلالها . أما القيروان فتمونها الحدائق المحيطة بها ، والنارنج الذى يأتى من سردانية على بعد ثلاثين كيلومتر من الشمال الغربى . أما التين الطازج فكان يأتى من قلشانه على بعد خمسة عشر كيلومتر نحو الجنوب ، وإذا اتجهنا أكثر جنوبا نجد مدينة قمونية مصدر التين المجفف . ومدينة مذكود الوطن الأم لهذه المنطقة الفنية « وحولها ثمار كثيرة من جميع الأصناف أكثرها شجر التين وهو يفوق تين إفريقية طعما ومنها يحمل التين زبيبا (مجففا) الى القيروان فيكون أعلى من سائر التين ثمنا وأكثر طلبا وهى فى غاية من شجر التين لا تظهر لمن قصدها حتى يبلغها » [95] . كذلك مدينة قابس ، فهى تنتج جميع أنواع الفواكه ولكنها تصدر لمدينة القيروان انتاجها من الموز [96] .

بخلاف هذه الزراعات التى لا تزال من زراعات شمال إفريقيا ، كانت إفريقية تقوم فى القرن العاشر والحادى عشر بزراعة بعض المحاصيل التي ستترقف بعد ذلك . كان قصب السكر ينمو فى قابس وواحات الجريد . أما الزعفران فكان يزرع فى قرطاج والمناطق المرتفعة من الداخل « أربة » ولربس

(٩٤) البكرى : المغرب ص ٤٨ .

(٩٥) البكرى : المغرب ص ٢٩ ، ٧٥ .

(٩٦) البكرى : المغرب ص ١٧ .

ومجانة .[97] والقطن فى قرطاج وواد سهر (حوض هدنــه) بالمسيلة ونجاوس [98] .

والكلام عن القطن يجعلنا نتطرق الى الزراعات الصناعية ، وتبدو إفريقية العصور الوسطي بلدا للمصنوعات ، وقد وجدنا فى القرن التاسع ورشا للنسيج وللسجاد ، وقد تطورت صناعات النسيج منذ ذلك الحين ، وقد اكتسبت شهرة فى هذا المجال كل من قابس وصفاقس وسوسة والقيروان . وشجر التوت الذى ينمو فى قابس جعل « حريرها أطيب الحرير وأرقه » . واكتسبت صفاقس شهرة فى صناعة الجوخ ، ويقول البكرى « وعمل أهلها فى القصارة والكمادة (صبغ الثياب) كعمل أهل الاسكندرية وأكثر وأجود » [99] وفى القيروان تنسج الأقمشة الناعمة ولكنها ترسل للتجهيز عند قصار الأجواخ فى سوسه ، التى تصنع الأقمشة التى يتخللها الخيوط الذهبية [100] وهى من ضمن الهدايا التى يرسلها سلطان بنى زيرى للخليفة فى القاهرة . وأخيرا يجب ذكر مركزا هامـــا فى منطقة قفصــة ، ويدعى « طراق » ، هـــذا المركز يصـــدر الى مصر « الكساء الطراقى » وهو أساس قطع الصوف الكبيرة التى تنسج الآن فى هذه المنطقة . [101]

لقد قيل أن صناعة الأقمشة من الصناعات الهامة فى العصور الوسطى ،

(٩٧) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٨٤ ، ٨٦ .

(٩٨) ابن حوقل : ص ٧٥

(٩٩) البكرى : المغرب ١٧ ، ٢٠ .

(١٠٠) البكرى : المغرب ص ٣٦ .

(١٠١) البكرى : المغرب ص ٤٧ .

مثل التعدين فى العالم الحديث . وبجانب هذا النشاط الإنسانى الهام ، توجد صناعات أخري ذات طابع مفيد مزدوج القيمة الفنية . فالنحاس الذى يحصلون عليه من منطقة القبائـل الصغرى ، كان يصنع بواسطـة النحاسين لعمل الثريا ، ومصابيح المسجد الجامع فى القيروان . أما صناعة الخزف ، فقد كانت مزدهرة في صبره (المنصوريه) وفى تونس ، وقد حصلنـا على شقف كثيرة تعود الى القرن العاشر والحادى عشر ، ويقول البكرى « ويصنع بتونس آنيـة للماء من الخزف تعرف بالريحية شديدة البياض فى نهاية الرقة تكاد تشف » (١٠٢) وتتخيل القلل الرقيقة جدا المصنوعة من الصلصال مثل التي استخرجت فى بجاية . أما بالنسبة للزجاج الذى لم يذكر فى أي نص ، فوجدوه كان مؤكـدا بفضل الاكتشافات الأثرية : لقد تم اكتشاف فرنا للزجاج فى زويله ، وهى ضاحية من مدينة المهدية ، وفى صبرة المجاورة للقيروان وجدوا بقايا زجاجية وقطعا جميلة جدا من الزجاج المنقوش ، وأكواب وقارورات للعطور مماثلة للصناعات المصرية فى ذلك الوقت . كما ازدهر هذا الفن فى قلعة بنى حماد وبجايه اللتان ترتبطان ارتباطا وثيقا فى جميع مجالات الفن .

كانت التجارة الداخلية والخارجية لإفريقية مرتبطة بانتاج الأرض والمصنوعات . وكانت القيروان أنشط مركز للتبادلات التجارية وكذلك صبرة (المنصورية) مدينة الفاطميين التى أصبحت مدينة بنى زيرى . لقد أسسها الخليفة المنصور سنة ٩٤٧ م (٣٣٦هـ) على أبواب مدينة عقبة فأخذت هذه المدينة أهمية اقتصادية كبرى فى عهد ابنه المعز الذى نقل إليها جميع الأسواق وجميع مصانع القيروان (١٠٣) . كان لهذا القرار التعسفى ثلاث أهداف ،

---

(١٠٢) البكرى : المغرب ص ٤٠ ، G. Marçais : " nos Faiences et poteries de Bougie, p. 25 .

(١٠٣) ابن عذارى : البيان ١ : ٢١٩ ، البكرى : المغرب ص ٢٥ .

أولا : ضمان ازدهار المدينة الرسمية ، ثانيا : كان ضربة قاضية للقيروان ، المدينة القديمة المشاغبة المحتفظة بمذهب السنة ، والتي لا تزال تحقد على الفاطميين . ثالثا : الرقابة الفعالة على تداول المواد الغذائية الخاضعة للضرائب . كان يربط القيروان بصبره سوران مرتفعان لدرجة أنه لا يمكن لأحد دخول القيروان ، إلا بالمرور على صبرة ودفع الضرائب ، كما أقيمت مكاتب للجباية على أبواب صبرة ، ويقال أن مكتبا واحدا من هذه المكاتب كان يحصل يوميا على ستة وعشرين ألف درهم (أي ثلاثة عشر ألف فرنك ذهب) (١٠٤)

كانت صفاقس وقابس من أنشط المراكز التجارية بخلاف صبره وتونس وسوسة والمهدية ، وتعتبر المنستير مركزا لأكبر سوق سنوي في يوم عاشوراء (العاشر من المحرم) وهو اليوم الذى يتفق مع تجديد حامية رباط المدينة (١٠٥) . فهى مدن ساحلية يتردد عليها تجارا وراء البحار . وكانت قابس سوقا لمنتجات الجريد «وساحل مدينة قابس مرفأ للسفن من كل مكان» (١٠٦) . وتصدر صفاقس زيتها لمصر وصقلية والمغرب وأوربا (١٠٧) . وفى المنستير تقوم البواخر الوافدة بشحن الملح من المصانع الكبيرة فى هذه المنطقة . وتستخدم هذه الموانئ التجارية فى الصيد ، وخاصة مدينة بونة التى يزورها البحارة الأندلسيون . وتعتبر بحيرة بنزرت المتصلة بالبحر منطقة صيد هامة إذ «أن الصياد فيه إذا أتاه التجار لشراء الحوت ، يقول لهم على أي شئ

(١٠٤) البكرى : المغرب ص ٢٥ .

(١٠٥) البكرى : المغرب ص ٣٦ .

(١٠٦) البكرى : المغرب ص ١٧ .

(١٠٧) البكرى : المغرب ص ٢٠ .

أرسل شبكى فيتفق معهم على عده معلومة .... فيخرج المدة التى اتفقوا عليها لا يكاد يخطئ » (١٠٨) مما يرضى عميل الصياد .

تؤكد لنا هذه الموارد بأن الحياة كانت رغده فى مدن إفريقية على أقل تقدير ، وتجعلنا نفترض بأن الدولة كانت غنية بالضرائب التى كانت تجبيها .

نحن نفتقر لدقة النظام الضرائبى . ولكننا نفترض أن الفاطميين كانوا يحتفظون بجزء من هذه الضرائب ، ويقول لنا ابن خلدون أن الخليفـــة المعز عند رحيلـــه إلى مصر قد أوصى بلكين أن « لا يرفع الجبايـــة عن أهل الباديـــة » (١٠٩). كان يعنى بدون شك ضرائب الرعى التي يدفعها الرحل البربر ، والضرائب التى تدفعها القوافل . وكانت توجد أيضا ضرائب الجمارك والمنح ويقول لنا البكرى : « وجباية ساحل القيروان : سوسه والمهدية وصفاقس وتونس لبيت المال خاصة ثمانون ألف مثقال » (١١٠) (كان المثقال يساوى دينار وهذا الدخل يبلغ مليون ونصف المليون من الفرنك الذهبى) ، ويضيف بأن هذا المبلغ لا يشمل الضرائب المدفوعة عند الدخول والخروج من هذه المدن لأن عائدها لا يدخل خزائن الدولة . إذاً من هو المستفيد من هذه المبالغ التي تحصل في الاتجاهين عند أبواب مدن الساحل بخلاف ضرائب التجارة البحرية ؟ ربما يكون المستفيد هي المدن ذاتها ، ولكننا نفترض أيضا أنها تدخل فى الحساب الخاص للسلطـــان . ويقول لنـــا البكرى وهو يتكلم عـــن بونـــه « ومستخلص بونه غير جباية بيت المال عشرون ألف دينار (١١١). وهى المبالغ

(١٠٨) البكرى : المغرب ص ٥٧ ـ ٥٨ ، ٨٤ .

(١٠٩) ابن خلدون : العبر ٦ : ٢٠٦ .

(١١٠) البكرى : المغرب ص ٣٦ .

(١١١) البكرى : المغرب ص ٥٥ .

التى تورد لخزينة السلطان »

يضاف الى هذه الضرائب ، العائــد الباهظ لممتلكات القصر . ويشير البيان [١١٢] أن السلطان باديس وهب ممتلكات وأراضى « بكل كورة من كور إفريقية » لصديق مفضل لديه . وهذا يعنى أن السلطان كان يمتلك ضيعات هامة فى كل مكان .

لو افترضنا أن ميزانية الأمراء الزيريين كانت تعتمد على نفس موارد الخلفاء الفاطميين . فالمؤكد أن نظامهم الضريبى كان أقل جورا من نظام الفاطميين ، ولكن وكلاؤهم من كتامة هم الذين كانوا يجعلون هذا النظام كريها . كما أن استخدام الضرائب كان مختلفا فى العهدين ، فلم يكن لبنى زيرى خزانة حرب ، كما لم يكن لديهم فكرة الهجرة الى المشرق . فالمال الذى يجمع يبقى فى البلاد ، والأمير هو المتصرف فيه . ونتفق مع مؤرخى بلاد المغرب بأن المصروفات الكماليــة للزيريين ، كانت تمتص جزءا كبيرا من المال العام ، والدخل الخاص للأمراء .

د – حياة القصر و الفن والأدب

إن بنى زيري ظهروا بمظهر الأمراء المترفين ، أكثر من الأغالبة والفاطميين ، ولا يدهشنا ذلك إذا رجعنا إلى أصلهم . إنهم خلفاء الأغالبة كبار القواد العرب للإمبراطورية العباسية ، وخلفاء الفاطميين الذين ينتمون إلى أنبل سلف عربى . أما بنى زيرى فهم فى الواقع ليسوا إلا رؤساء عشيرة بربرية جبلية ، دفعتهم الظروف لحكم المقاطعة القديمة لإفريقيا . فالحرب هى التى

(١١٢) البيان ١ : ٢٦٢ .

ثبتت مصيرهم ومصير رفقائهم ، وستبقى الحرب شاغلهم الشاغل ، ويديرونها بضراوة ، إما عن طريق سلب القبائل المستقرة فى السهول المغربية ، اما ضد زناته أعدائهم بالوراثة . كما أن الصراع بينهم وبين بنى عمومتهم من بنى حماد كان غير إنسانيا ، فقد كان ضاريا لا يقل قسوة عن صراعهم مع أعدائهم . ولكن إنتقال صنهاجة الى إفريقية هدئ من قسوة هؤلاء الشبه همجيين . كان بلكين لا يهتم بمعاملة القيروانيين بدرارة ، أما ابنه المنصور فقد بدأ عهده باستقبال أعيان المدينة القديمة وكان حليما للغاية . وكان تغيير مقرهم تجسيداً لتطورهم الخلقى . فأثناء الثلاثين عام الأولى تذبذب نشاطهم بين قطبين من ناحية : « أشير » قلعة جبال تيطري مركزا لمقرهم الخاص (١١٣) حيث يحدون ببطولة من خطر قبيلة زناته . ومن ناحية أخرى : القيروان وقصور صبره الجميلة حيث يستقرون لمزاولة مهنة الملوك .

وقد تخلص بلكين من هذه المهمة بالاعتماد على الموظفين الذين تركهم الفاطميين ، وعلى رأسهم حاكم إفريقية وهو سليل الأمراء الأغالبة ، وكان رجلا مثقفا ويتمتع بثقة بلكين ، ويقوم إلى حد ما بدور نائب الملك . وكان بلكين يقضى حياته كقائداً للحرب ولا يقيم فى القيروان إلا نادراً . وتبدأ أول مرحلة للتطور على يد ابنه المنصور . فقد ولد فى اشير وترعرع فيها ، وجاء الى إفريقية سنة ٩٨٠م (٣٧٠هـ) بأمر والده ، وعاد إلى أشير وهناك تدرب على الحكم . ثم ترك أحد اخوته حاكما على هذا الموقع الحصين ، وتخلص فى القيروان من نائب الملك ، واختار رقادة مقرا له ، وهي مدينة الحدائق

(١١٣) انظر مقالة ابن شنب فى « موسوعة الإسلام » ،
notre article (Recherches d'Archéologie musulmane - Achir) dans la Revue Africaine, 1922 .

التى أسسها الأغالبة فى سهل القيروان ، وابتداء من سنة ٩٨٧م (٣٧٧هـ) استقر فى القصر الذى شُيد له على أبواب صبرة (المنصورية) عاصمة الفاطميين . ودفن فى هذا القصر فى عام ٩٩٦م (٣٨٦هـ) (١١٤) . ومنذ اقامته فى رقاده أمر المنصور بصناعة سرج مزود بالياقوت والأحجار الكريمة الأخرى ، خرج به فى أحسن زى ، للحضور إلى المصلى ، فى يوم عيد الضحية ليتصدر صلاة الجماعة ، ويقبل ولاء أهل القيروان . (١١٥)

تكررت هذه المواكب بانتظام فى عهد المنصور وخلفاؤه باديس والمعز ، وكانت مصحوبة أحيانا باستعراضات بها من الغرابة والطرافة ، ما يؤثر فى خيال الشعب : عند ذهاب باديس الى المصلى كان يتقدمه فيل ضخم وزرافتان وإبل ناصعة البياض (١١٦) وكلها هبات حصل عليها السلطان : الفيل هدية من الخليفة الفاطمى ، أما الزرافتان والإبل فقد تسلمها من رؤساء إفريقيين ، وصـــار المعز على نفس النمط عندما يتقدمه خمسة عشر راية منسوجة بالذهب ، وصلته من القاهرة .

بعرض تطور علاقات بنى زيرى مع القاهرة حتى وقت الانفصال ، نكون قد حددنا دور هذه السفارات الرسمية ، والألقاب الشرفية ، وهدايا الخليفة ومواكب السلطان ، التي شهدها شعب القيروان وشارك فيها . لم تكن هذه الاستعراضات الرسمية هي المناسبات الوحيدة التى يظهر فيها السلطان بكل جلال ، فالأحداث الهامة لحياته الخاصة وحياة ذويه كان يصاحبها مشاهد يشارك فيها الجمهور ، وقد تضاعفت فى عهد المعز ، وقد شرح لنا المؤرخ ابن

(١١٤) البيان ؛ ١ : ٢٤٢ ـ ٢٤٧ .

(١١٥) البيان ١ : ٢٤٠ .

(١١٦) البيان ١ : ٢٤٩ .

الرقيق عن ظروفها ، أما نحن فقد أشرنا بأنها تخضع لميل شخصى للأمير الشاب ، ورغبة منه فى التقرب الى شعبه ، تلك الرغبـــة التى لم يهتم بها والده (١١٧) .

لقد رأينا في الأيام التي تلت إعلان بيعة أهل المهدية للمعز ، كيف حضر بنفسه المأدبة المقدمة لهم ، وفي سنة ١٠٢١ (٤١٢ هـ) خصص ١٠٠,٠٠٠ (مائة ألف) دينار لجنازة أمه « عمل لها تابوتا من العود الهندي مرصعا بالجوهر وصفائح الذهب ، وسمر التابوت بمسامير الذهب وزنها ألف مثقال ، وأدرجت في مائه وعشرين ثوبا ، وذر عليها من المسك والكافور ما لأحد له ، وقلد التابوت بإحدي وعشرين سبحة من نفس الجوهر .... وأمر المعز بخمسين ناقة ومائة رأس من البقر وألف شاه ، فنحرت وانتهبها الناس ، وفرق في مأتمها علي النساء عشرة آلاف دينار » (١١٨)

« وفي سنة ١٠٢٢ (٤١٣ هـ) تعرس المعز .. فكان له عرس ما تهيأ قط لأحد من ملوك الإسلام » . وفي سنة ١٠٢٣ (٤١٤هـ) فقد عمته أم ملال فحضر مأتمها بالطبول والأعلام وكانت من الترف والبذخ « لم ير لملك ولا لسوقه مثلها » (١١٩) وفي سبتمبر سنة ١٠٢٤ (٤١٥هـ) قامت الاحتفالات بمناسبة زواج الأميرة أم العلو شقيقة المعز ، ففي يوم الأربعاء من غرة شهر شعبان زين الديوان المعظم تمجيدا لها ، ودخل الشعب كله ليشاهد جميع الأحجار الكريمة

---

(١١٧) البيان ١ : ٢٧٨ ، ٢٩٨ . وضع المعز ابنه تميم على فرس وعرضه على الشعب وكان يبلغ من العمر عامين .

(١١٨) البيان ١ : ٢٧١ ، القيروانى (ابن أبى دينار) : المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ص ٨٣ .

(١١٩) البيان ١ : ٢٧٠ ـ ٢٧٢ .

والمنسوجات والأشياء الثمينة والأواني الفضية والذهبية المقدمة لها ، وكانت هذه الهدايـا من أجمل ما صنع أو سمع عنـه حتي الآن ، ويقول ابن الرقيق « فبهر عيون الخلق حال ما عاينوه ، وأبهتهم عظيم ما شاهدوه » (١٢٠)

وحمل كل ذلك إلي مكان ، شيدت فيه المباني والقباب والأخبية ، وكان مهر العروس محملا علي عشرة بغال ، وعلي ظهر كل بغل توجد جارية حسناء ، وكان جملة الأحمال ما يعادل مائة ألف دينار نقدا . وقد قوم تاجر ماهر هدايا الأميرة ، فقدرت بما يزيد علي المليون دينار ، وهذا شئ لم ير قط لامرأة مثلها في إفريقية ، وتقدم الموكب الذي تم يوم الخميس ، جميع عبيد أخيها المعز ، وعبيد أبيها باديس ، وعبيد جدها المنصور ، والشخصيات الهامة في القصر . وقام الفرسان باستعراض مهاراتهم ، وقد انشغلت بذلك ولمدة طويلة جميع المقاطعات في وصف الموكب الأسطوري .

ونستنبط من وصف هذه الأيام المشهودة لمملكة بني زيري ، بعض الملامح التي لم يشهد التاريخ مثيلا لها في أية أسرة حاكمة في شمال إفريقيا . كما نلاحظ المكانة التي تشغلها نساء العائلة الحاكمة ، والتقدير والاحترام الودود الذي يحيطهن به الأمير . وعلي كل لا يجب تشبيه تلك النساء ، بالجوارى الجميلات اللاتى يتكلم عنهن تاريخ الأغالبة . إنهن من سلالة أمراء أصليين ، لا يخضعن للاحتجاز ووضع الحجاب : كان المعز يسمح لرجاله وعبيده بالدخول إلي عمته ، التي أدي بها المرض إلي الموت (١٢١) وقد شاركت أمه وأخته في جنازتها . وعندما مات باديس ذهب إلي المهدية قاضي القيروان وشيوخ صنهاجة لتقديم العزاء إلي شقيقة المتوفي (١٢٢) . لا تظهر تلك النساء

(١٢٠) البيان ١ : ٢٧٢ .

(١٢١) البيان ١ : ٢٧٢ .

(١٢٢) البيان ١ : ٢٦٧ .

بمظهر الشخصيات الرسمية فحسب ، بل تشغل في العائلة دورا ليس بخفي ، وتؤكد شخصيتها في شئون الدولة . كانت أخت باديس ترسل الهدايا إلي أخت الخليفة الفاطمي . وعند جلوس المعز علي العرش ، كانت أمه تتدخل في كل قراراته ، ويقول البيان أن الموظف الكبير الذي كان يدير أملاك الأميرة الأم ، كان يدير بواسطتها أمور الأمير الشاب (١٢٣) .

هؤلاء البربر الذين انتقلوا إلي أفريقية ، واستنفروا فيها ، تعودوا علي البذخ ، وقد ساعدتهم الوفرة علي اشباع هذا الميل . يكلمنا المقريزي عن كنز بني زيري الذي يكيلون منـه هذه الثروات ، وفي رأينا أنه يشابه كنز الفاطميين . وتراودنا الرغبة في التشكك في شهادة المؤرخين لو لم يؤكدها ما وصلنا من مؤلفات أخرى .

نحن مجردون من أى تعصب ، لتقدير أهمية وجمال المقرات التي شيدها الصنهاجيون ، ولا يسمح لنا بتخيل طراز المباني ، إلا أطلال قلعة بني حماد . فرغم غلظتهم وخشونتهم ، وفنهم الذي يبدو إقليميا ، إلا أن بناء القلعة وطابية الفنار ، وقصر البحيرة ، يعطينا فكرة عما كانت عليه مباني بني زيري في صبرة (المنصورية) (١٢٤). ويتضح تأثير مصر ، وما بين النهرين (العراق) في التخطيطات ، والنسب الفسيحة ، وفي الواجهات المزودة بالنوف والمشاك ، الممتدة من القاعدة حتي القمة . وأثبتت إفريقية علي أنها مقاطعة فنية للمشرق ، متقبلة الطرز الوافدة من القاهرة ، بل من الرقــة وبغداد ، وظهر هذا جليا أكثر مما كان عليه في عهد الأغالبة .

---

(١٢٣) البيان ١ : ٢٦١ ـ ٢٧٦ ، القيرواني : المؤنس ص ٨١ ،
B. Roy dans Bulletin archéologique, 1921, pp. 123 ss .

(١٢٤) de Beylié, La Kalaa des Beni Hammad ; G. Marçais, Manuel d'art musulman, I, pp. 120 ss .

كانت المباني التي شيدها بني زيري في صبرة (المنصورية) ، تشابه مباني بني حماد ، ولكننا نتخيلها أكثر رشاقة في خطوطها وشكلها ، وأغني في تزيينها ، وعوضا عن المباني الملكية ، نستطيع الحكم عليها بالأجزاء التي جمعتها القيروان والمسجد الجامع . فالمدينة القديمة التي خلدت استطاعت ترميم ثغور أسوارها بالقرميد التي حصلت عليه من أطلال منافستها (المنصوريـــة) وزينت نفسها بسلخها . والعصابـــة الكبيرة المنقوش عليـــها « عظمة الإسلام » (١٢٥) التي كانت تزين بوابة صبرة تحيط اليوم باب من أبواب القيروان . وتيجان الأعمدة والاسطوانات الرخامية ، المطوقة بالزخارف المنقوشة علي شكل أوراق الشجر ، وذات البروز الخفيفة ، انتقلت من الفناء الداخلي ، وحجرات القصر ، إلي ممرات المسجد ، والمعابد الأخري في القيروان فزخرفة هذه العناصر المعمارية ، وزخرفة شواهد القبور التي تعود إلي النصف الأول من القرن الحادي عشر ، والتي لا تزال منتشرة في المقابر التي تحيط بالمدينة ، تنم عن ذوق رقيق .

كثير من هذه الشواهد كتبت بالخط الكوفي ، وذات زخارف رقيقة توحي بذكري آباء وحاشية السلطان المعز وخاصة نساء أهل بيته . ونحن نجد المعز ذاته حاضرا في المسجد الجامع لسيدي عقبة ، لأن اسمه هو المنشور علي إفريز المقصورة(١٢٦) المشبكة التي كان يحضر بداخلها صلاة الجماعة ، وهي بدون جدال تحفة من أروع ما وصل إليه الفن الإسلامي في حفر الخشب . ويقرأ

(١٢٥) Voir Houdas et Basset, Epigraphie tunisienne, dans Bulletin de correspondance africaine, 1882, pp. 191-192 .

(١٢٦) Houdas et Basset, loc. cit., pp. 180-181 ; S. Flury, Islamische Schriftbander Amida Diarbekir, IXe Jahrundert-Anhang : Kairouan Mayyafariqin, Tirmidh, Bale-Paris, 1920, pp. 35 ss .

أيضا اسم الأمير علي فانوس نحاس مثقوب كان يضئ القاعة . اذ أمر الأمير بمضاعفة هذه الثريات البرونزية التي تتدلي من السقف حتي الآن لزيادة إضاءة المسجد . كما أمر بطلاء أسقف المسجد مما أعاد لها شبابها (١٢٧) بزخارف زهرية ذات إبداع ورشاقة وانسجام تام في الألوان ، يغطي زخرفة الأسقف والعوارض الصغيرة ، هذه الزخارف تمت بوضوح إلي زخرفة الفاطميين في القاهرة ، لكن مصر لا تمتلك مجموعة يمكن مقارنتها بهذه المجموعة . يكفي هذا لتأكيد تعلق الأمير المعز بالمسجد القديم لسيدي عقبة والمكانة البارزة التي تشغلها إفريقية في الفن الإسلامي .

وإذا علقنا علي الشهادة المشكوك فيها لإبن خلدون لا يبدو الأدب العربي مهملا في هذا البلد . وبوضع قائمة مختصرة للأدب في بلاد البربر ، يلاحظ المؤرخ الكبير أن جميع الشعراء الهامين الذي اشتهروا في القرن الرابع عشر (وهو العصر الذي عاش فيه هذا المؤرخ) كانوا غرباء عن البلاد ، ولم يستثني إلا اثنين من أبناء الوطن : ابن شرف وابن رشيق(١٢٨). فالإثنان من أصل بربري ، ويتكلمان العربية ، وينتميان إلي عهد الأمراء الصنهاجيين ، لقد كان ابن خلدون قاسيا في حكمه بعض الشئ ، ولكن هذا الحكم يوحي لنا بملحوظتين :

أولا : إن إفريقية في بداية القرن الحادي عشر الميلادي (٤ هـ) تبدو متأخرة ثلثمائة عام لتدخل بفخر تاريخ الأدب العربي في المشرق .

---

(١٢٧) G. Marçais, Coupole et plafonds de la Grande Mosquée de Katrouan, Tunis-Paris, 1925, pp. 32 ss .

(١٢٨) ابن خلدون : العبر (المقدمة) ١ : ٧٧٨ ـ ٧٧٩ . عن خطاب العمدة لابن رشيق (المصدر نفسه ٧٩١ ، ٧٩٢ ، حسن حسني عبد الوهاب تونس سنة ١٣٣٠هـ "بساط العقيق فى حضارة القيروان وشاعرية ابن رشيق " .

ثانيا : أصبحت بلاد البربر مركزا فكريا مستقلا ، فالظروف التاريخية كانت ملائمة لانتاج أدبي وازدهار فني .

لقد عاش هذان الأديبان في بلاط بني زيري . ولد ابن شرف في القيروان ومات سنة ١٠٦٨ م (٤٦١هـ) في مرسيه ، حيث استقر بعد الغزو الهلالي . لقد كتب تاريخ بني زيري ولكنه فقد ، ولم نعثر عليه لكن ابن عذاري استعار منه الكثير . وعوضنا عن ذلك احتفظنا لـه بدراسة نقديـة لشعراء مشهورين (١٢٩) . إن هؤلاء البربر المستعربين يشبهون الفارسيين : إنهم كتاب مبتكرون ، وفي نفس الوقت متبحرون في فقه اللغة ، وشاغلهم الشاغل هو جمع النماذج الكلاسيكية التي يسترشدون بها . أما ابن رشيق فقد ولد في المسيلة سنة ١٠٠٠ م (٣٩٠ هـ) تقريبا ، ولجأ إلي صقلية ومات فيها ولقد ألف مختارات شعرية ، وكان من حاشية المعز الزيري ، وكرمه في شعره . ويعتبر كتابه « خطاب العمدة » بمثابة توجيه للشعراء . في هذا المؤلف ينصح الشاعر بالبحث عن القافية ، والنقد القاسي الذي يجب علي الشاعر أن يفرضه علي نفسه ، وينصح أيضا بتجنب الأخطاء خصوصا الغموض وعدم السمو بالمعاني . هذه النصائح تتيح لنا الفرصة بمقارنتها بنصائح «بوالو»(*) Boi-leau . فالشعر بالنسبة للشاعرين هو ثمرة ثقافة ارستقراطية ترضي ميول مجتمع ملكي وصفوة حضرية . تشابه آخر غير متوقع يخص الإلهام الديني الذي يعتبره النقاد ان ابن رشيق وبوالو Boileau لا يقدم الابداع الكافي للشاعر . لكن الشاعر المسيحي يري فيه « عدم تقبل الزخارف المبهجة » بينما

---

(١٢٩) حسن حسني عبد الوهاب " رسالة فى النقد الأدبى لابن شرف " دمشق ١٩١٢ .

(*) بوالو (نيقولا) ١٦٣٦ ـ ١٧١١ م أديب وناقد فرنسى له " الأهاجى " و " الرسائل " تمتاز أشعاره بالنفحة الأخلاقية والهجائية .

يعتقد الشاعر المسلم أنه يؤدى حتما إلي توسيع المبتذلات . وعلي كل فمعاصرو ابن رشيق لا يشاركونه الرأي في هذا الموضوع ، وكثير منهم يري في التقوي إلهاما للشعر . فالشقراطسي ـ الذي استمد اسمه من قرية في الجنوب التونسي ـ معروف لدينا كصاحب قصيدة في الإشادة بذكري الرسول .
وأبو الفضل المعروف بابن النحوي (١٣٠) ـ الذي ينتسب إلي منطقة إفريقية نفسها ـ نظم عدة قصائد مماثلة ويبدو لنا علي أنه العقلية الممثلة للتدين وثقافة المجتمع الذي عاش فيه أو بالأحرى رائد التطور المقبل . لقد تتلمذ علي يد الغزالي ـ هذا الصوفي المشرقي والعالم العظيم ـ واجتهد في نشر مذهب أستاذه في المغرب الأقصي خاصة في سجلماسة وفاس . ولكن هذه المستحدثات لم تجد رواجا ولا نجاحا لأن المغرب لم تكن مؤهلة بعد لتقبل تأثير الغزالي . ويقول ابو الفضل : « إنني بين أناس البعض منهم متدينون ولكن ينقصهم التربية والبعض الآخر لديهم التربية ولكنهم يفتقرون إلي الدين » .
وعاد ابن النحوى إلي قلعة بني حماد وعاش فيها زاهدا ومات فيها عام ١١١٠ م (٤٠١ هـ) وينتمي أبو الفضل المعروف بابن النحوي إلي الفكر الجديد الذي سينفتح ، ويرجع ذلك إلي صوفيته وميوله لمبدأ الغزالي . وسوف يثأر له المستقبل ، فضريحه يقام علي القلعة التي خربت عن آخرها ، ويصبح ملاذا للشفاعات الشعبية ، بينما اسم أمراء صنهاجة الذين حكموا البلاد قد امحوا من ذاكرة الناس .

---

(١٣٠) ابن مريم ؛ البستان ترجمة . F. Provczali, Alger, 1910, pp. 331 ss

الجزء الثاني

الغزو الهلالي وآثاره المباشرة

I -

أ ـ الغزو

ب ـ الفوضى في إفريقية

جـ ـ تقدم العرب نحو الغرب

II -

أ ـ المساهمات الممكنة للعرب المهاجرين .

ب ـ الآثار الإقتصادية للغزو : الكارثة العربية

III -

توجه صنهاجة نحو البحر

إتفاقيات وصراعات مع نورماندى صقلية

الغزو الهلالي وآثاره المباشرة

I -

أ ـ الغزو (١)

ترجع فكرة إطلاق جحافل العرب البدو المستوطنين في شرق النيل ، ضد إفريقية المتمردة إلي اليازوري وزير الخليفة الفاطمي « المستنصر » . إن الترحال الاعتباطي للسكان المستقرين أو الرحل لشئ مألوف في الممالك الإسلامية ، ولكن لم يكن وصول بني هلال وبني سليم إلي مصر ، من محض إرادتهم ، بل كان نتيجة ثورة القرامطة التي شاركوا فيها . لقد قامت هذه الحركة في النصف الثاني للقرن العاشر الميلادي علي أساس ديني زائف ، وكانت تمردا علي العباسيين ، ومهدت لنجاح الفاطميين في مصر ، وأصبح خطرها علي الفاطميين أنفسهم أكثر من نفعها ، فطردوا إلي الجنوب الشرقي للجزيرة العربية ، وأرسل بحلفائهم إلي شرق مصر ، وأصبحوا ممقوتين بسبب عصيانهم وسلبهم ، الى أن أقنع الوزير اليازورى ، الخليفة الفاطمي بنقلهم الى إفريقية وتحقيق هدفين فى نفس الوقت ، الأول تخليص البلاد منهم ، والثانى إطلاقهم على إفريقية للقضاء على الدولة الصنهاجية وإنشاء دولة عربية تابعة عوضا عنها . وينسب ابن خلدون الحديث التـالي إلي الوزير اليازوري (٢) : « فإن صدقت المخيلة في ظفرهم بالمعز وصنهاجة ، كانوا أولياء للدعوة وعمالا بتلك القاصية . وارتفع عدوانهم من ساحة الخلافة ، وإن كانت الأخري فلها

---

(١) G. Marçais, Les Arabes en Berbérie du XIe au XIVe siécle, Constantine-Paris, 1913, pp. 39 ss. et les sources citées .

(٢) العبر ٦ : ١٩ .

مابعدها . وأمر العرب البادية أسهل من أمر صنهاجة الملوك » .

نحن نجهل صحة هذا الحديث ، ونجهل أيضا ما إذا كان الوزير يعتقد فعلا في إمكانية تكوين دولة عربية تابعة . ويبدو مؤكدا أنه أعطيت وثائق بتولية المدن والريف بأسماء شيوخ القبائل ولكنها إجراءات تقليدية .

اصطحب الأمراء العرب فرسانهم وعائلاتهم وقطيعهم ، وكانوا مزودين بهذه الوثائق ، ويحمل كل منهم مبالغ مالية وزيا مشرقيا . عبروا نهر النيل واتجهوا نحو المغرب ، أما بالنسبة لعددهم فنحن نجهله . وقد قدر معاصر العدد بخمسين ألف مقاتل والرقم الإجمالي بمليون مقاتل . إنه تقدير مبالغ فيه بكل تأكيد . إنها أول موجه للهجرة وقد تبعتها موجات أخرى . جلبها هذا السراب نحو إفريقية الرومانية ذات الأرض الخصبة ، وكانت مدفوعة بأمل الابتعاد عن المجاعة .

إذا كان الخليفة قد توهم غزو إفريقية بإرسال تابعين بدو ، فالسلطان المعز تصور أخطر من ذلك . عندما علم بقدومهم على حدود مملكته ، واعتقد أنه من الممكن الانتفاع بهم لخدمته . كان جيشه يتكون من السودان الأوفياء وصنهاجة وعشرائة المتمردين وزناتة الغير موثوق فيهم ، والعرب الذين يمكن الاستفادة بهم كمخزن . وقد اعتقد المعز في ذلك ، وتمت معاهدة بينه وبين قائدهم « مؤنس » من قبيلة بني رياح ، ولم يرض البدو بهذا الاتفاق وهم يحلمون بالسلب والإغارة والحصول على ثروات الأرض الموعودة . وعندما وصلوا إلي أول قرية اعتقدوا أنها القيروان فأنزلوا بها الخراب والدمار[3] أراد المعز معاقبة « انتهاك العهد » . ولم تصل محاولة الوفاق إلي شيء وبقي الصراع قائما . ففي ربيع ١٠٥٣ (٤٤٤هـ) جمع السلطان قواته وزحف ضد الغزاة ؛

(٣) ابن عذارى : البيان ١ : ٢٨٨-٢٨٩ .

وتقابل معهم في حيدران في منطقة قابس ، لكن العدو فاجأ جيش القيروان وهو ينصب خيامه فتشتت الجيش وسلب العدو المعسكر ، ولم يقاوم إلا الحرس الأسود الذي أبيد وهو يحمي السلطان المعز ، الذي هرب وعاد إلي قصره في حالة يؤسف لها . وعاشت القيروان أياما من الذعر بعد أن كانت تحتفل بالأمس بعيد الشهداء في جو من الطمأنينة والبهجة . ولم يلبث أن ظهر الفرسان العرب من جديد ، فاستعدت مدينة القيروان للدفاع وجلا السكان عن صبرة (المنصورية) التي سلبت وجردت تماما من كل ما تعتز به .

قضي البدو علي القيروانيين الذين كانوا في السهول ، وفي فصل الأمطار رحلوا نحو الجنوب مما أعطي بعض الراحة والأمل للحضريين . وفي بداية الربيع بدأ العرب في التوجه نحو الشمال مرة أخري ، فحاول المعز صدهم من جديد ، ولكنه تكبد كارثة جديدة ، وعسكر الغزاة في سهل القيروان . حاول المعز إعادة العلاقات مع القواد العرب حتي يبعد هذا الاختناق ، واستطاع البدو دخول المدينة للحصول علي التموين . لكن قام شجار قطع هذا الوفاق مرة ثانية وخشي الجميع من حرب ضروس مما أجبر السلطان علي إحاطة القيروان بسور متين كانت تفتقده من مائتي وثلاثين عام .

احتل العرب المدن المفتوحة مثل أربة ولربس وباجه ، واستطاعت القيروان المحصنة مقاومة هجماتهم لكن الحياة فيها أصبحت صعبة جدا وبات من المستحيل زراعة الأراضي المحيطة بها وتمويل الأسواق .

بدأ المعز يستعد للهجرة بعد أن تحمل لمدة خمس سنوات هذه الحالة التي لا تطاق . وكان قد زوج ثلاث من بناته لثلاث من زعماء جحافل بني رياح . فنقل أمواله إلي المهدية وخرج سرا في حراسة أصهاره نحو مدينة الشاطئ ، وفي اليوم التالي أعلن ابنه أهل القيروان بأنه سيرحل بدوره مع الحرس الأسود ، فكانت الفوضي وترك المدينة ، ثم هجوم العرب والاستيلاء علي

الفريسة التي وعد بها خليفة مصر ، هذه الفريسة هي القيروان ، فكان تخريب القصور وسلبها وكانت الكارثة الكبري التي لا نهوض بعدها .

ب الفوضى في إفريقية

شهدت أسرة بني زيري تفتت دولتها ، بعد أن فقدت النفوذ الذي أولته لها القيروان ، وكل ما كانت تمثله في ماضي الإسلام . ، وسيثير هذا العجز في الحكم المركزي انفجارا فوضويا ـ لكن بنسب أقل ـ مثلما حدث في نفس الوقت تقريبا ، بعد انهيار خلافة قرطبة ، أو تقسيم الإمبراطورية الكارولنجية .

بدأت مدن إفريقية تتخذ حكاما مثل المدن والمقاطعات الأسبانية في أسبانيا ، ففى مدينة قابس وهي حالة نادرة (٤) . كان سلطان المهدية قد أقال بعض قواد صنهاجة فاتصلوا بزعيم قبيلة رياح الذي كلفهم بحكم قابس ، فأعلنوا البيعة له . هذا الاعتراف بالعاهل الذي ولاهم يجعل سيادته شرعية ، ويقول ابن خلدون في هذا الصدد كانت قابس « أول تملك العرب » في إفريقية ولكن عادت المدينة مرة أخري للسلطان الزيري ، ثم انفصلت بعد ذلك واتخذ سكانها حاكما عربيا من عائلة رياح من قبيلة بني جامع الذي أسس فيها أسرة ذات تأثير . أما أمراء المعلقة (٥) الذين استولوا علي مبني من مباني قرطاج ـ ربما المدرج ـ وتحصنوا فيه ، كانوا من عرب رياح ، وسوف يعاونون سلطان المهدية في محاولة استعادة ملكه .

ويتدخل العرب أيضا في صفاقس (٦) ولكن بطريقة غير مباشرة .

(٤) ابن خلدون : العبر ٦ : ٢٢١ .

(٥) ابن خلدون : العبر ٦ : ٢١٨ .

(٦) ابن خلدون : العبر ٦ : ٢٢٤ ، ابن الأثير : الكامل ٨ : ٩١ ، ابن عذارى : البيان ١ : ٢٩٩ .

فالحاكم الذي كان يحكم المدينة باسم السلطان الزيري ، أعلن استقلاله معتمدا علي التحالف مع القبائل المهاجرة المعسكرين في المنطقة ، ولكنه يقتل علي يد فرد من أبناء عمومته الذى حل محله ، فيثور عليه حلفاء الضحية من العرب ويطالبونه بالدية .. فيكون صداقات من العدو حتى يتمكن من السيطرة علي المدينة .

ويحدث في قفصة [7] مثلما حدث في صفاقس ، يقوم الوالي الزيري ابن الرند بقطع علاقاته مع سيده ، ويتفق مع العرب علي أن يعم بلاد الجريد السلام ، وذلك مقابل دفع إتاوة لهم . فيقوي سلطانه ويزداد ملكه ويتكون لديه بلاط يستقبل فيه الشعراء ، ويجد رجال الدين الاحترام اللائق بهم ، وعند موته ١٠٧٢م (٤٦٥هـ) يترك مملكة صغيرة مستقلة يستولي عليها ابنه من بعد ويقوم بتوسيع أرجائها .

وبجانب هؤلاء كبار الموظفين ، الذين استقلوا عن السلالة المخلوعة ، كما ظهر في إفريقية مغامرون وعصابات نصبوا أنفسهم مدافعين عن الحضريين ضد السلاب العرب ، مقابل إتاوة وحدث هذا في بنزرت ولربس والكاف [8]. وبجانب المستفيدين من تمزق المملكة الزيرية ، كان البعض غرباء عن البلاد . ففي قلعة ورغة التي اندثرت في شمال مجردة استعان أهلها بقائد قطع علاقته مع رؤسائه من بني حماد [9] .

أما بالنسبة لأهل تونس [10] فقد أعلنوا البيعة لأمير بني حماد بالقلعة

(٧) ابن خلدون : العبر ٦ : ٢٢٠ .

(٨) ابن خلدون : العبر ٦ : ٢٢٥-٢٢٦ .

(٩) ابن خلدون : العبر ٦ : ٢٢٥-٢٢٦ .

(١٠) بن خلدون : العبر ٦ : ٢١٧ .

وطلبوا منه حاكما للمدينة ، فبعث بابن خراسان وهو قائد من أصل صنهاجي ، فاهتم بشئون البلاد وشارك الشعب وكسب مودته وبما أنه لا يستطيع معاقبة العرب المسيطرين على المنطقة ، فقد قام بالتفاوض معهم ودفع لهم ضرائب مقابل السلام ووضع حد للسلب . وخلفه ابنه من بعده وكان حاكما مطلقا ، وبذلك تأسست في أفريقية القديمة مملكة مستقلة ـ ملكة بني خراسان في تونس ـ وحقق ميلادها الإنفصال مع الماضي والتطلع إلى المستقبل المجهول .

بعد أن تزعزع سلطان حكومة بنى زيرى ، كان من الطبيعى اللجوء الى بنى عمومتهم بنى حماد ، وكانت مملكتهم مسالمة ، واستفادوا ولو لفترة من دمار المملكة المنافسة ، ولكنهم أحسوا بأن الخطر الذى أصاب القيروان سوق يصل القلعة عن قريب ، كما أن تصرفهم المتردد كشف عن هذا التخوف . نحن نتذكر أن فى سنة ١٠١٤م (٤٠٥هـ) تحلل حماد من طاعة ابن أخيه باديس ، وبالتالى نبذ الولاء للخليفة الفاطمى ، طالما أن باديس كان ممثلا له ، ثم أعلن حماد البيعة للخليفة العباسى . وبعد ثلاثين عام عندما انفصل المعز بن باديس عن خليفة القاهرة قام أمير القلعة « القائد بن حماد » بمبايعة الخليفة الفاطمى وحصل من القاهرة على لقب « شرف الدولة » [(١١)] . إنها لعبة التوازن وتغيير المعسكرات طبقا لتغيير الخصوم ولكن أيضا الاستفادة من وضع خسره الخصم ، وتجنب عقاب محتمل وقوعه ، ولا يمكن التنبؤ بخطورته .

إن الإحساس الغـــامض بخطر مشترك أو واجب التضـــامن العائلى جعل « القائد » يرد على نداء ابن عمه المعز أثناء الغزو الهلالى ويرسل له ألف فارس ولكنهم تخاذلوا فى معركة حيدران . ومهما كانت دوافع سياستهم ، فمن المؤكد أن أسياد القلعة استفادوا من العاصفة التى اجتاحت المملكة المجاورة ،

(١١) ابن خلدون : العبر ٦ : ٢٢٩ .

والهروب الذى أخلى القيروان والمدن الزيرية ، جعل الحضريين الأغنياء والتجار والصناع يفرون الى عاصمتهم ، وعرفت القلعة إزدهارا إقتصاديا كان مستبعدا بحكم وضعها الجغرافي . ويقول البكرى [١٢] « وهى اليوم مقصد التجار وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام وساير بلاد المغرب » كانت تتسلق شعاب الجبال للوصول إليها .

إن ظهور العرب على أراضى بنى حماد لم يأخذ مظهر الكارثة ، بل بالعكس ، لقد اعتقدوا كما اعتقد المعز من قبلهم ، أن الاتفاق ممكن والتعاون مفيداً .

ويقع الحدث المتميز فى تاريخ هذه العلاقـــات فى سنـــة ١٠٦٤م (٤٥٦هـ) [١٣]. ففى المهدية كان المعز قد مات من عامين وبدأ ابنه تميم فى محاولة استعادة مملكته . وطلب وفد من عرب الاثبج الهلالية مقابلة الناصر الذى يحكم قلعة بنى حماد ، لمساندتهم ضد عرب رياح ، اللذين يحتلون الجزء الأكبر من المملكة الزيرية ، فتلقى سعيهم هذا بحرارة ، لأن الحرب مع عرب رياح يعطيه فرصة التدخل فى شئون مملكة المهدية ، وضم مدن أصبحت بدون حكام ، وربما محاربة ابن عمه فى عقر داره لتصفية الحساب القديم . فعبأ المحاربين من صنهاجة ، وطلب من ملك فاس أن يرسل له امدادات من زناته ، وسار بنفسه على رأس هذا الجيش الهائل لحسم النزاع بين قبيلتين عربيتين . استولى فى أول الأمر على لربس ثم اتجه نحو الجنوب وتقابل مع الخصم فى سبيبه بالقرب من سوفس Sufés المدينة الرومانية القديمة ، وتشتت زناته فى

(١٢) المغرب ص ٤٩ ، ابن الأثير : الكامل ٨ : ١٠١ـ١٠٢ .

(١٣) Sur l'expédition qui aboutit á la bataille de Sbiba, cf. G. Marçais, Les Arabes en Berbérie, pp. 136-137 .

بداية المعركة مما سبب اندحار صنهاجة ، وبقى ٢٤,٠٠٠ رجل من جيش بنى حماد مجندلين فى ساحة القتال ، ولم ينج الناصر إلا بتضحية أخيه الذى أخذ منه عمامته ورايته محاولا جمع القوات . وعاد الأمير الهارب إلى القلعة بصاحبة مائتى فارس تتعقبه عرب رياح ، الذين بدأوا فى سلب جوانب القلعة والمدن الاخرى كما كانت عادتهم .

رغم هذه النهاية المأسوية لهذه التجربة ، إلا أن الناصر أعادها عدة مرات بدون نفع يذكر . والأسوأ من ذلك هو التدخل المتزايد من جانب العرب فى حياة مملكة بنى حماد . لقد أصبح الجانب الهلالى حليفا غير مجدى ، وجاراً غير محتمل وخطير فى معظم الأحيان . ففى كل صيف يستقر عرب بنى هلال حول القلعة ، ويصبح من المستحيل المرور فى الطرق أو الزراعة ، وللتقليل من أضرارهم تعهد المنصور بن الناصر بتسليم نصف محصول ضيعته الخاصة من البلح والحبوب لهم . وساءت الحالة تدريجيا وبدا وجود القلعة وزوارها شاقا ، لدرجة أن المنصور قرر ترك المدينة التى شاهدت عظمة أجداده ووصلت إلى الذروة ، ولقد مهد أبوه لهذه الهجرة ، إذ كان الناصر قد ضم المنطقة الساحلية لبلاد القبائل ، وكذلك الخليج الجميل المسمى فى الحضارات القديمة بميناء صلداء ، وأسس مدينة هامة سميت بالناصرية ، ولكنها احتفظت باسمها القديم بجاية (١٤) وشيد فيها قصر اللؤلؤ الفخم حيث استقر فيه مؤقتا ، وأقام فيه المنصور من بعده ، ومع ذلك لم يترك القلعة نهائيا ، ففى عهده كان لدولة بنى حماد عاصمتان يربطهما طريق نشأت على جانبيه

(١٤) G. Marçais, Sur deux stéles funéraires hammâdites, dans le Bulletin de la Société historique de Sétif, 1941, p. 174. Sur Bougie, voir Féraud, Histoire des villes de la Province de Constantine, dans le Recueil de la Société archéologique de Constantine, 1869, pp. 85 ss .

الاستراحات الخاصة به ، وانتهت هذه الثنائية مع باديس بن المنصور ففي سنة ١١٠٤ م (٤٩٨هـ) كانت القلعة قد فقدت تماما حظوتها كمقر ملكى ، ولم تعد إلا مركزا به بعض الصناعات مثل النسيج والفخار [١٥] ، لكن بجاية الواقعة لحسن الحظ فى منطقة لا يبلغها البدو بسهولة ، افتتحت دورها التاريخى وتلقت الميراث الفنى للعاصمة القديمة .

جـ - تقدم العرب نحو الغرب

هناك ثلاث نتائج للغزو الهلالى وهى نتائج ملموسة ومسجلة من المؤرخين ومدونه علي الخرائط ، هذه النتائج هى : الانتقال من القلعة الى بجاية ، وهروب بنى زيرى الى المهدية قبل ذلك بخمسين عام ، وتأسيس مملكة مستقلة فى تونس . وسيتبع ذلك نتائج أخرى سوف تؤثر على أبعد المناطق فى بلاد البربر .

لقد نتج عن الانهيار الأساسى تيارا شبه مستمر ، وتتابعت الموجات الواحدة تلو الأخرى لتغطى بعضها أو تنوب عن بعضها ، وإذا ما اعترض هذه الموجات عائق ، تحولت الموجة الى طريق جانبى لتنتشر فى مكان آخر . وسوف يؤثر التقدم من الشرق الى الغرب على الأقاليم المختلفة ولكن لن يدمغ إلا بقليل من الأحداث الجديرة بالذكر لدرجة أن المعاصرين لم يدرجوها فى تاريخهم .

إن استيلاء بنى هلال على ريف مملكة بنى حماد ، سمح لنا بالتعرف علي

(١٥) G. Marçais, Les poteries et faiences de la Qal'a des Beni Hammâd, Constantine, 1913 ; Id., Sur les poteries estampées du Moyen âge, dans les Actes du IV^e Congrés de la Fédération des Sociétés savantes de l'Afrique du Nord, 1938 .

هذه المنازعات الغامضة ، إنهم أقل بأسا من قبائل رياح ، وقد نزحوا الى إفريقية بعدهم ليحصلوا على نصيبهم من الأرض الموعودة ، لم يستطيعوا ابعاد قبائل رياح لذلك اضطروا للتوغل نحو الغرب ، حيث سمح لهم ملوك القلعة بالاستقرار غير مقدرين خطورة هذا الموقف . وسوف نجدهم فى نفس المنطقة بعد ثلاث قرون ، لم يفكروا فى التوسع أو الإثراء (١٦) .

أما حينما نتناول قبيلة عربية أخرى لا تمت للهلالية بصلة ، وهى قبيلة المعقل ، نلاحظ تطور يختلف عما حدث لبنى هلال (١٧) لقد جاء هؤلاء المهاجرون مع الموجة الأولى أو بعدها مباشرة ، ولكنهم لم يتوغلوا فى قلب بلاد البربر الشرقى لقلة عددهم ، واكتفوا بالبقاء على حدود صحراء إفريقية والمغرب الأوسط ، وبينما اقتربت ثعلبة من قبيلة المعقل واستقروا فى سهل متيجه المجاور للجزائر ، نجد معظم عائلاتهم زحفت نحو تافيلالت نتيجة لهجوم الوافدين الجدد . حيث وجدوا ظروف معيشية أفضل وازداد عددهم وتضاعف قطيعهم ، وفى القرن الرابع عشر امتدت البطون المختلفة لقبيلة المعقل فى جنوب جبال الأطلس المغربى حتى المحيط الأطلسى ، وشغلوا من ناحية أخرى وادى ملويه حتى البحر المتوسط ، وكانوا ذا سلطان وجيران مزعجين لملوك فاس ، وسندا نافعا أحيانا لسياسة ملوك تلمسان .

التحالف مع التلمسانيين عزز من وضع بنى معقل ، أما بني سليم فكان حظهم من صنع ملوك تونس ، وهاتان القبيلتان لا يمتان بصلة لبنى هلال ، ولم يكن لهما نصيب فى وليمة القرن الحادى عشر ، التى لم يستفد منها إلا بنى رياح .

(١٦) G. Marçais, Les Arabes en Berbérie, pp. 634 ss . et passim .

(١٧) G. Marçais, loc, cit., pp. 548 ss., 603 ss. et passim .

ولقد استقر بنو سليم فى طرابلس ولم نسمع عنهم إلا نادرا فى القرن الثانى عشر ، ولم يكن ميعادهم مع التاريخ إلا فى بداية القرن الثالث عشر . ففى سنة ١٢٢٨ م (٦٢٥هـ) طلبت منهم حكومة الحفصيين فى تونس ترك مقرهم واحتلال سهل القيروان صيفا ، فقاموا باخراج بنى رياح منه وتخلصت تونس من بنى رياح الذين دحروا واستقروا بدورهم فى منطقة قسطنطينة وعاش بنى سليم حياة رغدة فى إفريقية . (١٨)

يتضح من ذلك أن ملوك البربر كانوا يساعدون على تقدم العرب عن قصد كما فعلوا أيام المعز الزيرى حتى ولو ندموا على ذلك بعد سنوات . وسنكتفى بالمثل الأكثر تأثيرا ألا وهو كيفية وصول بدو الهلالية الى سهول المغرب ، وذلك بارادة خلفاء الموحدين ورغم أنف البدو أنفسهم . ففى سنة ١١٦٠ م (٥٥٥هـ) (١٩) بعد فتح بلاد البربر بأكملها ، كان الخليفة الموحدى « عبد المؤمن » يستعد لترك إفريقية ، والعودة الى مراكش ، وقبل رحيله طلب من عرب رياح ١٠,٠٠٠ مقاتل لمساعدته لمحاربة مسيحيى أسبانيا ، فوافق العرب بحماس وأقسموا على القرآن وزحفوا معه ، ولكنهم تخلوا عنه بعد عدة مراحل . فرجع عبد المؤمن على أعقابه وأراد الانتقام لنكث الوعد ، ولكنه حصل منهم على وعد جديد للتعاون معه ، فذهبوا معه هذه المرة حتى وهران وهناك توسلوا الى الخليفة بالعودة ، فلم يحتفظ الخليفة إلا بألف فقط .

ولقد نجح بعد ذلك ، وسوف يصبح مألوفا بل تقليديا ، انتقال العرب من بلاد البربر الشرقية الى المغرب : نزوح اختيارى أو اعتقالات غفيرة مثل التى

(١٨) Sur les Solaym, G. Marçais, loc. cit, pp. 227 , 429 , 662 ss.

(١٩) G. Marçais, loc. cit., pp. 180 . ss.

حدثت فى ١١٨٧ م (٥٨٣هـ) كان الخليفة الموحدى « المنصور » هو الذي قرر هذه الهجرة الجماعية ، وعند موته بعد ثمان سنوات اعترف لابنه بأن هذا القرار يعتبر واحد من ثلاث قرارات يندم عليها فى أثناء حكمه .

إن « اتجاه العرب نحو الغرب » يبرز لنا بعض الملاحظات التى تأخذ شكل المفارقات.

نلاحظ أولا أن هذا الغزو الذى ظهر من الوهلة الأولى كإعصار مخرب ، لم يشمل إلا إفريقية ، ولم يكن له شكل ملحمى ، إذ لم يقابل العرب ساحة قتال بعد دحر الصنهاجيين مرتين فى سهل حيدران ، ولكن فى سطيف وجبل القرن والحمة هزم العرب بواسطة جيش الموحدين ، إنها هزيمة مدوية والغريب هو نتائج هذه الهزيمة فقد نقل المهزومين العرب الى المغرب ، أى أنه أهم تصاعد فى تقدم العرب نحو الغرب .

طريقة تحقيق هذا التقدم يوحى لنا بملاحظة ثانية ، وهى ملاحظة عامة عن رغبة العرب فى المغامرة . فمن الخطأ الجسيم اعتبار البدو صعاليك أو متشردين أو مستكشفين ، فالبدو لا يميلون الى التنقل الغير مفيد ، وتحركهم منظم حسب ظروف حياتهم . ففى بلاد ذات موارد محدودة تتطلب حياة القطيع معرفة تامة بالمراعى ومراكز المياه ، والتنقل الموسمى يفترض الاستدلال على الآبار والغدران (البرك) التى تحدد جانبيا الطريق المسلوك ومراحله . حتى فى الصحراء فالقوافل لها مراكز ثابتة وموانى للراحة وهى الواحات ، هذه الواحات التى يُزرع فيها البلح ، ويأتى سيد البدو ليأخذ نصيبه منه ، ويخزن البدوى فيها مؤنته التى يجلبها من التل ، أو التى يحملها اليها فى الربيع التالى . ومما لا شك فيه أن رجال القبيلة يقومون بحملات السلب ، فالهجوم المفاجئ على المزارعين ، وخطف قوافل التجار ، وسرقة القطيع ، كانت فى الماضي النشاط الطبيعى للبدوى ، إن الجفاف الدائم الذى يسبب زوال المراعى ،

ونزح الآبار ، هو أحيانا الدافع الذى يدفع القبيلة على الاستكشاف عن مناطق أقل حرمانا ، واستعمال السلاح اذا لزم الأمر . هذا التنقل وترك المواقع المتوارث مع الأجيال ، لا يحدث عن طيب خاطر ولكنه يحدث اضطراريا أو أن مسئولا ما يبين لهم مزاياه أو فرضه بالقوة .

هناك ملاحظة أخيرة عن تدخل العواهل المغاربة فى مراحل الهجرة العربية. إننا نرى الآن وعلى مر العصور أن هذا التدخل غاية فى العشوائية السياسية، ونلاحظ الآثار الوخيمة لهجرة البدو الى الممالك المختلفة ، ونذكر هنا حكم ابن خلدون «ان العرب اذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب»(٢٠). نحن نقدر مدى الكارثة الهلالية ، ونتسائل كيف لم يتبينها أسياد هذه البلاد ، الذين كانوا ضحية لها ، ولكننا لا يجب أن نندهش من ذلك أو نثور عليه ، نحن أنفسنا لا نعرف المرمى الحقيقى للأحداث التى نشاهدها الآن، واستحالة معرفة التاريخ الذى يحدث أمامنا ، يفرض علينا التسامح تجاه سلاطين العصور الوسطى المغاربة ، وعلي كل فنحن نعلل شذوذ هؤلاء الحكام الى حد ما بظروف التوازن للسلالات البربرية ، وبالصعاب المراد التغلب عليها، وبالوهم الذى أصابهم باعتبار أن العرب أصبحوا بالنسبة لهم مرضا لا غنى عنه .

II

أ - المساهمات الممكنة للعرب المهاجرين

إن الغزو الهلالي قد جدد كلية (تماما) ظروف الحياة فى شمال إفريقيا وهو ما نحاول شرحه هنا . ومع ذلك فقبل أن نبدأ فى الرسم التخطيطى لهذا التطور المتعدد ، سنحاول معرفة من هم المحتلون الجدد . ولتكوين فكرة عن

(٢٠) ابن خلدون : العبر ١ : ١٨٧ .

ذلك لا نستطيع إلا اللجوء الى المشابهات التخمينية . يختلف عرب القرن الحادى عشر اختلافا بسيطا عن الذين يعيشون الآن فى اليمن أو فى نجد ، فهم من البدو الرعاة . وهذا ليس إلا احتمالا ، ونأمل ايجاد عناصر عرقية محتفظة بالملامح الجسمانية الأصيلة للمهاجرين فى شعب البربر الحالى ، ومن المحتمل وجود سلالات أصيلة وقليلة التخليط من بنى هلال وبنى سليم فى الجنوب التونسى والجنوب الجزائرى ، ولكن لم تكن الصفات الجسدية لأبناء شبه الجزيرة العربية موضع ملاحظة دقيقة حتى نستطيع تحديد النموذج العربى والاستدلال عنه فى قبيلة ما في الشمال الإفريقى .

إن دراسة اللهجات لجديرة بمدنا بمفاهيم أكثر فائدة ، نحن لا نشك فى أن الغزو الهلالى قد ساعد فى انتشار استخدام اللغة العربية فى الريف البربرى ، وكان هذا الانتشار مستقلا ومختلفا عن الانتشار الذى كان منذ الفتح الإسلامى ، حيث المدن والحاميات وأماكن التبادل التجارى ومراكز الثقافة الإسلامية . هناك مجال لم يفكر فيه أحد ويجب الشروع فيه ألا وهو : تحريات عن الجغرافيا اللغوية التى تحدد مساحات انتشار بعض الكلمات وبعض الصيغ الفعلية المميزة ، ومقارنة لهجات البدو مع لهجات بدو شبه الجزيرة العربية ، دراسة الأشعار التى تخص الشعراء الهلاليين القدامى .... كل هذا يعطينا ارشادات قيمة .

يجب أن تمتد دراسات من نفس النوع فى المجالات المختلفة لدراسة السلالات وفنية وأدوات الحياة اليومية ، كما يجب دراسة الخلاف بين أسلوب وأدوات البدو المستخدمة فى بلاد البربر والتى جلبها العرب وبين مثيلاتها عند البدو البربر ، ويجب الفصل بين ما هو خاص بالمغاربة وما هو خاص بالمشرقيين وما أضافه المشرقيون فوق ذلك .

لقد أدخل العرب فى بلاد البربر أسلوب حياة غير مألوف لديهم . إن

الانتقال الموسمى للرعاة وقطيعهم من الصحراء الى المناطق القريبة من الساحل والأكثر خصوبة كان مطبقا فى شمال إفريقية منذ القدم [٢١] . يلاحظ استرابو Strabon - الجغرافى اليونانى الذى عاش فى القرن الأول الميلادى - عند وصفه لعادات البربر القدامى فى جنوب موريتانيا ونوميديا ومقاطعة إفريقيا ، أنهم يشبهون الـبدو العرب . وهناك المؤرخ اللاتينى سالوست Salluste الذى كان حاكما على نوميديا فى النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد ، والمؤرخ اللاهوتى الأسبانى بول اروز Paul Orose الذى عاش فى القرن الخامس الميلادى ... لقد ذكر الإثنان كذلك البداوة عند البربر . كان للبدو مساكن متحركة يمكن نقلها على عربات ، ولكن ظهور وتعدد الإبل غير من ظروف حياة الرعاة وسمح لهم بالتقدم نحو الجنوب وجعل من الذهاب والإياب الموسمى شبه ضرورة . وتوسع استعمال الإبل فى إفريقية فى القرن الثالث فى عهد سلالة سيفير Séveres [٢٢] . وزاد عدد الجمال وخصوصا وحيدى الصنم في القرن الرابع . ويقول لنا ابن حوقل أن البربر فى القرن العاشر كانوا يمتلكون من الإبل أكثر مما يمتلكه البدو العرب[٢٣]. وكانت قبائل زناته يمتلكون منهم الكثير ، لأنهم كانوا يعيشون فى الصحارى (الصحراء الكبرى) . أما قبائل صنهاجة فلا شك فى استخدامها للإبل لأنها كانت تتنقل فى الصحراء ، ويكفينا ذكر جموع البدو الصحراويين (المرابطين) وهم نموذج تقليدى للبدو الجمالين الذين برزوا فى التاريخ فى عهد العرب الهلالية .

(٢١) Gsell, Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, V, 112,177,215 .

(٢٢) Gsell , I , p . 59 Cette notion , indiquée par Gsell (p. 60 n. 8) a éte développée par E . F. Gautier , Le passé de l'Afrique du Nord, p. 206 .

(٢٣) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٩٥ . G . Marçais , Les Arabes en Berbérie , p. 40

وبخلاف الإبل ، نحن نفترض أن العرب المهاجرين كانوا يمتلكون مثل البربر الماشية ، وهى خراف وماعز ، وأيضا الخيل المستخدمة فى الحروب .

والخيام هى سكن الهلالية والبربر ، وكانت النساء هى التى تقيم فى الخيام وترفعها حسب مقتضيات الحياة البدوية . وقد لاحظ البكرى عشية الغزو الهلالى أن خيام الواصلية والزناتية الخوارج فى منطقة تاهرت كانت تشبه خيام العرب (٢٤) مما يجعلنا نفترض أن خيام الوطنيين فى المناطق الأخرى تختلف عنها ، ولكننا نجهل هذا الاختلاف . كما أننا لا نعرف إذا كانت الخيام التى تأوى رعاة الشمال الإفريقى ، كانت مماثلة للطراز القديم المستخدم فى البلاد ، أو تماثل الطراز المستورد بواسطة الغزاة منذ القرن الحادى عشر . وبمقارنة الخيام التى لا نزال نراها فى صحراء الجزائر وتونس ، وخيام القبائل الصحراوية فى الشام ، والتى تتكون من قطع من القماش الضيق المتلاصق ومدعم بالأوتاد ، نجد أن هناك تشابه ، وفى الوقت نفسه اختلاف بين يجب تحديده (٢٥). ومن ناحية أخرى يبدو أن عرب المشرق كانوا يجهلون الخيام الجلدية التى يستعملها الطوارق . فهل هي من أصل بربرى ؟ أم أنها ميراث من المهاجرين ؟ *

(٢٤) البكرى : المغرب ص ٦٧ .

(٢٥) عن خيمة بدو العرب Alois Musil, Manners and customs of Rwala Bedouins, New-York, 1928, p. 61 . A. de Boucheman, Matériel de la vie bédouine, Documents d'études orientales. Institut français de Damas, III, p. 108 .

* ومن الجدير بالذكر أن القبائل العربية توصلت الى صناعة بعض أنواع الخيام من الجلد قبل دخولها الى بلاد المغرب إذ يروى الألوسى أن " من بيوتهم القشع وكانوا يتخذونه من الجلود ، والقشع : الجلد اليابس ، قال متمم بن نويرة يرثى أخاه مالكا :

ولا بَرَماً تهدى النساء لعرسه　　إذ القَشْع من برد الشتاء تقعقعا =

أما بالنسبة لسرج الجمل والهودج الذى تعتليه النساء خلال السفر فالاختلاف هنا أكثر وضوحا . والباثور le bácaur والأطوش l'attuch الجزائرى أو التونسى بكتلتها البصلية لا تشبه الكتاب ketab أو الدولا dolle بشكلها العريض والمنحنى لإبل القوافل العربية (٢٦) .

ومع ذلك فهناك تشابه كبير بين الأقمشة التى يستخدمها البدو الشاميون كستائر أو جراب للجمال ، وبين التليس Tellis ومزاده musette للبدو وأهل الحضر الجزائريين . وتتكون الزخرفة من قطع من القماش المتوازية ذات العرض المتفاوت بها أشكال هندسية : مثلثات أو رقعة داما (شطرنج) . ويتميز هذا النوع من الزخرفة فى شمال إفريقيا على أنه بربرى أصيل (٢٧) . وليس من العبث أن ترجع هذه الزخرفة إلى غزاة القرن الحادى عشر ، وبذلك يبقى هذا من الذكرى الحسنة التى احتفظت بها البلاد .

ب - الآثار الاقتصادية للغزو : الكارثة العربية

اذا كان العرب لم يدربوا أهل البربر على الحياة البدوية ، وعلى الأرجح لم يغيروا إلا قليلا حياتهم البدوية التى كانوا يعيشونها ، فعلى الأقل رفعوا عدد البدو بنسب من المستحيل تحديدها . وبما أن الحياة الرعوية تتطلب أراض شاسعة لذلك اضطر الرعاة الوطنيون إفساح المجال للغرباء .

فقبيلة زناته هم الذين كانوا يمثلون هذا العنصر البدوى البربرى ، ونحن

- مما يدل على تأثر الطوارق بالقبائل العربية فى مساكنهم . انظر الألوسى : بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ٢ : ٣٩٣-٣٩٤

(٢٦) Voir A. de Boucheman, loc, cit., p. 44

(٢٧) Voir L. Poinssot et J . Revault , Tapis tunisiens , Paris , 1937 , I, p . 9 n 5 .

نعرف من قبل هذه المجموعة العرقية فى بلاد البربر ، ورأينا دورهم فى انتشار وإبقاء البدعة الخارجية ، بمساعدة أمويى قرطبة ، وخصومتهم الطويلة مع صنهاجـــة الذين كانوا دعامة الفاطميين . فزناته كانوا أعداء تقليديين لصنهاجة ، ويبدو أنهم يتميزون عنهم باللغة (يرمز اسم « زناتية » الى مجموعة لهجات بربرية) ، وبطريقة الحياة ، لأن صنهاجة كانت مستقرة ، بينما زناته يتنقلون بعائلاتهم وقطيعهم فى مملكتهم ، التى كنت تشمل نطاق واسع فى جنوب وغرب إفريقية والمغرب الأوسط من الجريد حتى سهول ولاية وهران (٢٨) .

لقد شبت الحرب بينهم وبين البدو العرب عند أول اتصال ، ولكن بدو زناته الذين يفتقرون لروح التضامن والتى عضدها عواهل من البلاد أضعفت جبهتهم ، إلا أن بنى حماد رغم أنهم من صنهاجة فقد صمموا على تكوين تحالف أكثر جدية ، وكان على رأس هذا التحالف أميز زناتى من تلمسان يدعى « بختى » فقدم لهم القوات وعلى رأسها وزيره أبو سعده من قبيلة زناته بنى يفرن ، دام الصراع عدة سنوات تخللها وقفات (هدنة) عندما كان الرحيل الموسمى للصحراء يفصل المحاربين ، لكن بموت أبى سعده قطع هذا التحالف وانفسح الطريق للغزاة .

إن ابن خلدون هو الوحيد الذى يعطينا بعض المعلومات عن أحداث غفل عنها مؤرخو هذه الفترات ، ومع ذلك فالخلافات الغامضة للقبائل التى يرجع سببها الى السيطرة على الطرق التجارية ومياه الآبار تركت بصمتها فى أساطير العرب أنفسهم . فملحمة بنى هلال تحكى لنا قصة نزحهم من نجد حيث المجاعة وأسباب هجرتهم ، كما أنها توضح أن عاهل البلاد التى غزوها ليس

---

(٢٨) Voir G. Marçais, article Zenâta dans l'Encyclopédie de l'Islâm et la bibliographie .

المعز الزيرى عاهل القيروان ، بل خليفة الزناتى ملك تونس الذى نعرفه بالزناتى أبى سعده . أما غرامياته مع الجميلة الهلالية جازية فهى فصل خيالى لإثراء النص البطولى ، كما أن وفاة الزناتى سمح للعرب الهلالية بدخول بلاد السبع ممالك والأربع عشر قصر حيث سيكونوا دائما فى مأمن من البؤس (٢٩) .

إن اكتساب النصر ، نتيجة لوفاة الزناتى ، كان جوهريا أكثر منه وهما فزناته الذين دحروا نحو الغرب لم يعد لهم اتصال بسهول قسنطينه والزاب حيث استقر العرب كأصحاب أرض . وكانت الحدود بينهما هى جبل عمور والزاب على خط طول الجزائر العاصمة .

إذا كانت المنافسة - التى تمخضت عن حياة متشابهه ـ أزاحت البدو الوطنيين أو قللت كثيرا من أملاكهم ، فالخصومة الناتجة عن أساليب حياة مختلفة قد أثارت عند المزارعين المقيمين بؤسا عضالا ، ولقد ظهرت فى هذا المجال الكارثة العربية أكثر وحشية . والصورة المعهودة للخراب نتيجة هجوم الجراد ببلاد المغرب يصور لنا بدقة نتائج الغزو فى جزء هام من الريف البربرى . فإطلاق القطيع وسط المحاصيل ، وتخريب الحدائق وإساءة معاملة سكان الريف وسلب القرى ، تلك كانت بدون شك الحلقات الطبيعية للمرحلة الأولى للغزو الهلالى . واستنادا لحكم ابن خلدون والذى أشرنا اليه والذى يوضح فيه التناقض بين حضارة الحضر والحياة البدوية كما زاولها العرب «فالحجر مثلا إنما حاجتهم اليه لنصبه أثافى القدر فينقلونه من المبانى ويخربونها عليه ويعدونه لذلك . والخشب ايضا انما حاجتهم اليه ليعمدوا به خيامهم ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم فيخربون السقف عليه ..... فطبيعتهم انتهاب ما فى أيدى الناس

(٢٩) Voir J. Schleifer, article Hilâl, dans l'Encyclopédie de l'Islâm .

وان رزقهم من خلال رماحهم وليس عندهم فى أخذ أموال الناس حد ينتهون اليه بل كلما امتدت اعينهم الى مال أو متاع أو ماعون انتهبوه » ثم يضيف بعد ذلك : « وانظر الى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الأوطان من لدن الخليقة كيف تقوض عمرانه واقفر ساكنه وبدلت الأرض فيه غير الأرض فاليمن قرارهم خراب إلا قليلا من الأمصار وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذي كان للفرس أجمع والشام لهذا العهد كذلك وإفريقية والمغرب » (٣٠) . والأذى كان أكبر فى بلاد البربر وخصوصا البربر الشرقى فبعد التدهور الطويل الذى يرجع فى الفترة الأخيرة للاحتلال الرومانى وتفاقمه باحتلال الوندال والبيزنطيين ، ثم الفتح الإسلامى وحركة الخوارج فبعد كل هذا عاد الرخاء الذى دللت عليه شهادات كثيرة . وقد تطرف هذا الرخاء المفقود بالتقهقر الى الماضى . وسيؤكد المراكشى بعد مائـــة وخمسين عام أن قبل الغزو الهلالى « كانت العمارة متصلة من مدينة الاسكندرية الى مدينة القيروان تمشى فيها القوافل ليلا ونهارا » (٣١) كما أن صاحب « الاستبصار » المجهول يضيف إلى هذه اللوحة تفاصيل طريفة «وكانت القوافل إذا خطرت بين هذه القصور (بين لقصه والقيروان) تكم ابلها ودوابها لئلا ترعى ورق الشجر لكثرته على ذلك الطريق. وهى اليوم خربة لا أنس بها من وقت دخلت العرب بلاد إفريقية» (٣٢) وجدير بالذكر أنه فى زمن المراكشى وجامع وثائق «الاستبصار» اجتيحت إفريقية من جديد بواسطة مغامرين شجعان ألا وهم «بنى غانية» الذين وجدوا فى العرب أنشط المساعدين ، وهكذا أعاد هؤلاء البدو الأقوياء دائمى التعطش للسلب ،

---

(٣٠) ابن خلدون : العبر (المقدمة) ١ : ١٨٧-١٨٨

(٣١) المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٣١ .

(٣٢) الاستبصار ص ١٥٤

القلاقل وساعدوا على استفحال التدهور الاقتصادى . وبذلك استمرت عواقب الغزو ، ففى المقاطعة الرومانية القديمة (إفريقية) حول البدو الحقول الخضراء الى صحارى التى لا تزال نراها حتى الآن . لقد قال ابن خلدون « وبدلت الأرض فيه غير الأرض » .

لقد انكمشت الأرض الزراعية حول المدن التى أصبحت وسط حقول مقفرة ، ومع ذلك فمن المهم التفرقة بين المستويات المختلفة فيما يخص الاتصالات التى كانت تربط هؤلاء البدو بهذه المدن ، والجغرافى الإدريسى يقدم لنا الوسيلة لذلك ، فعند وصفه لبلاد البربر فى القرن الثاني عشر قدم لنا إيضاحات عن توسع المد الهلالى والظروف المختلفة للحياة الحضرية للسكان البربر فى المنطقة التى يغمرها هذا المد (٣٣) .

بجانب تونس فالعرب يحتلون أيضا الجزء الأكبر من محافظة قسنطينة ، إنهم يحتلون فقط السهول ولا يتطلعون الى الجبال ... فهى فقيرة وذات منافذ صعبة لدوابهم ، وكانت تستخدم دائما كحصون للوطنيين المهددين من البلاد . وبذلك توسعوا فى حوض هدنة بأكمله فى الجنوب الشرقى للجزائر العاصمة ، ثم وصلت حدودهم الغربية الى وادى ساحل فى جنوب منطقة القبائل الكبرى ، التي بقيت خارج نطاقهم والتى تحتفظ بثبات مدهش بسكانها البربر من العصور الوسطى حتى يومنا هذا ، وبقيت مدينة بجاية - كما نعرف - فى مأمن من غزوهم ، ولم يدخلوا منطقة القبائل الصغرى لكنهم سيطروا على طريق قسطنطينة - القل ، وقد اجتاحوا أيضا السهل البحرى لمدينة بونه وضواحى ميناء طبرقة .

(٣٣) الإدريسى : وصف إفريقيا وإسبانيا ترجمة Dozy et de Goeje, وكل ما يأتي بعده انظر G. Marçais, Les Arabes en Berbérie, p. 150

كانت القيروان أكثر المدن تأثرا بهذه الأحداث ، وبدون شك أكثرها انهيارا ، فقد ماتت فيها التجارة ، وهرب منها سكانها الذين اختنقوا من متطلبات عرب السهل . أما المهدية – العاصمة الجديدة للزيريين – فقد كانت فى وضع أحسن مثل جميع مدن الساحل الشرقي : صفاقس والمنستير وسوسه ولكن بساتين ضاحيتها اختفت تماما . والخصوبة المشهورة لسهل « باجه » جذبت إليها أطماع البدو ، فهم أسياد المنطقة وأصبح البربر يزرعون لهم الأرض التى يمتلكونها وكذلك الواحات . ومدينة باجه التى كانت مزدهرة فى الماضى أصبحت بائسة تعيش فى فزع ، ففى أواخر القرن الثالث عشر يروى لنا أحد المسافرين « أن أهلها لا يفارقون السور خوفا من العربان ، وأنهم يستعدون لدفن الجنائز كما يستعدون ليوم الضراب والطعان » (٣٤) . وبالرغم من قيام علاقات بين سكان طبرقة وجيرانهم العرب وهى علاقات سلمية وعادلة ، ولكنها لم تحقق الأمان المنشود لأن هؤلاء العرب بؤساء بطبيعتهم ولا يحترمون معاهداتهم . وكان الوضع كذلك بالنسبة لخطوط البريد ، فهناك محطات محصنة وأماكن للأسواق على طول الطريق بين قلعة بنى حماد وبجايه وخاصة فى الجزء الذى تسلط عليه العرب . وخضعت هذه الطرق لتقاليد الهدنة ، فإذا قام شجار بين القبائل ودوريات حراسة البريد فالدية مطلوبة اذا كانت الضحية من البدو ، أما اذا كانت الضحية رجل من حامية الموقع فلا يجرؤ أحد على المطالبة بالدية . ومن البديهى أن الابتعاد عن المدينة يعرض الانسان للخطر . وفى « بادس » وهى القلعة الرومانية القديمة على السفح الجنوبى لجبل أوراس ، حيث كان العرب يسيطرون على حقول هذه المنطقة « فلا يتركون أحدا يخرج من هذه المنطقة إلا فى حراسة رجل من القبيلة . » إن الأسوار الضخمة هي بدون شك الحماية الفعالة ولكن لا تستطيع المدينة الحصول على التموين والحياة إلا

(٣٤) العبدرى : الرحلة المغربية ص ٣٧ ـ ٣٨ .

بموافقة العرب . وفى باغاية وهى مدينة رومانية بيزنطية محصنة وتقع فى شمال الأوراس فسكانها « زبائن بطريقة ما عند العرب » الذين فرضوا عليهم حماية باهظة . هناك بعض المدن التى حققت هدوءا نسبيا بدفع أتاوة ، وقد رأينا من قبل عدة أمثلة على ذلك بعد الغزو ، بالاضافة لما يرويه الإدريسى عن مرمجانه الواقعة على الحدود الجزائرية التونسية .

ومع مرور الأيام ، عرف الغزاة أن فى إمكان سكان المدن تقديم خدمات أخرى خلاف دفع الرسوم الاستبدادية ، فكانت بعض المدن الصحراوية تستخدم كمخازن للمواد الغذائية التى يجمعها البدو فى انتظار رحيلهم بها ، ويعرفنا الادريسى أن مدينة مجانه لعبت هذا الدور .

وكانت بعض المدن تتمتع بمقومات مؤلفة للتعامل مع العرب ، ويرجع ذلك إلى موقعها وقدرة جهازها الدفاعى وبراعة حكامها .... كل ذلك مكنها من عقد علاقات حسن الجوار مع العرب . وكان هذا موقف تونس عاصمة بنى خراسان ، التى قام العرب بتموين أهلها : كانت إبلهم تجلب لها القمح والعسل والزبد « لدرجة أن الحلوى التى تصنع فيها كانت من أجود الأنواع » وكذلك بالنسبة لمرسى الخرز (قالة أو بونه) . فقد كان العرب يمدونها بالمواد الغذائية لأنهم كانوا يعسكرون بأعداد وفيرة حول أسوارها . ولكن الوضع الأكثر قبولا هو وضع مدينة قسطنطينة : فقد تحدث أي عدوان على ربوتها وعقدت المدينة النوميدية القديمة مع البدو « اتفاقيات مفيدة » وروابط نافعة للطرفين فيما يخص زراعة الأرض وحفظ المحاصيل .

بذلك وبعد قرن من ظهور بنى هلال أصبح التعاون بين البدو والمستقرين ، هو انعكاس (تعويض) طبيعى لخصومتهم الفطرية ، وقد كان استدراكا للأذى الذى سببه الغزو .

خدمة أخرى قدمها العرب مقابل تعويض باهظ ، ألا وهى السهر على أمن المسافرين ، وكان وجودهم فى المنطقة هو سبب هذه الحاجة ، وبدون اشراف القبيلة أصبح التنقل من مدينة الى أخرى مهمة خطيرة . وعلى كل فالأسباب قليلة للتنقل بين المدن ، فقد أصبح نادرا إن لم يكن معدوما بين المراكز الحرية أو التي تعيش على مواردها الخاصة . وفى هذه النقطة أيضا يجب تحديد المناطق .

كانت بلاد البربر تحتفظ قبل الغزو بشبكة طرق موروثة من العهد الرومانى والبيزنطي ، وكان وجودها استراتيجى أكثر منه تجارى ، مع الفارق الوحيد أن مراحل السفر الإسلامية كانت تبدأ من القيروان بدلا من قرطاج . والبكرى يعدد المراحل التى كانت تسمح بالسفر لمدة أربعين يوم من القيروان الى فاس عن طريق سبيبه ومجانه أو تبسه ، وباغاية ، وبلزمه ومنها يمكن الانعطاف نحو طبنه والوصول الى تافيلالت أو السير مباشرة نحو المسيله وقلعة بنى حماد والاتجاه نحو تاهرت وتلمسان عن طريق السهول العليا التى تسلط عليها بدو زناته ولكن ليس هناك الآن ما يجعل التجار يستخدمون هذه المراحل ونقرأ فى الاستبصار أن « على الطريق من القيروان الى قلعة أبى طويل وهى قلعة حماد ... مدن كثيرة خربتها العرب عند دخولهم بلاد إفريقية » [٣٥] . وكانت سبيبه هي المرحلة الأولى وكانت مدينة قديمة ومركزا لقرى مزدهرة لا نجد فيها الآن إلا عدة مساكن بائسة . والمدن التى لم يهجرها سكانها مثل تونس والقالة أو قسطنطينة اقتنمت بظروف حياتها الجديدة التى خلقها العرب ، فهذه المدن تقع على الساحل أو فى منطقة التل الجبلية . إن ميلاد مملكة تونس وانتقال نشاط القلعة الى بجايه ليست إلا الحلقات الأكثر بروزا لتطور عام وهو : انتقال النشاط الاقتصادى لبلاد البربر من الداخل نحو

(٣٥) الاستبصار ص ١٦١ .

الشمال (البحر) ويتحول الطريق التجارى وكذا انتقال القوات الحربية منذ تلك المرحلة فصاعدا عبر وادى مجردة متجها نحو المغرب ، دون الاعتماد عن الشاطئ .

ولقد أدى ذلك الى تطور ، تجاوز الفائدة الاقتصادية والاطار المرسوم لتاريخ بلاد البربر الإسلامية ، إذ أن شكل الحياة الداخلية للبلاد ، وأضطرار حكام بلاد المغرب وعدد كبير من رعاياهم الأغنياء والعاملين الى الاحتماء بسواحل البلاد بعيدا عن أيدى العرب .·. أدى ذلك الى ابراز دور الغزو الهلالى بتوجيه هؤلاء نحو البحر .

III

توجه صنهاجة نحو البحر : اتفاقيات وصراعات مع نورماندى صقلية

إن مشكلة صقلية تحتل فى العصور الوسطى ، كما كانت تحتل فى العصور القديمة ، كل التاريخ البحرى لبلاد البربر . والفتح الذى حققه الأمراء الأغالبة فى القرن التاسع ، أبدى زروة القوة الإسلامية فى غرب البحر الأبيض المتوسط . لقد كانوا يملكون الجزر والجزء الأكبر من شواطئ القارة ، وكانوا يسيطرون على البحر ويبحرون بحرية فى جميع الاتجاهات .

خلف الفاطميون الأغالبة وورثوا عنهم هذه السيادة ، وكانوا يتقاسمونها بل يتزاحمونها مع أمويي اسبانيا ، وتثاقف الأسطولان فى عدة لقاءات ، وأصبح البحر الأبيض بحيرة إسلامية ، وخصوصا الحوض الغربى منه ، حتى كان المسيحيون لا يستطيعون ابحار لوحا من الخشب وحسب التعبير المعبر لابن خلدون « ولم تظهر للنصرانية فيه ألواح » (٣٦)

(٣٦) ابن خلدون : العبر (المقدمة) ١ : ٣١٥ .

بعد رحيل الفاطميين وانهيار خلافة قرطبة تمكنت البحرية المسيحية من
نال بعض الحرية في الحركة والحصول على بعض المزايا .

عندما ترك الخليفة المعز إفريقية ، كان قد فصل طرابلس وصقلية من
لة التي وهبها لبلكين الزيري ، وقام المعز بتخصيص طرابلس لكتامي ،
بها عادت بعد ذلك الى الدولة الزيرية لتنفصل من جديد ، وتصبح من
مصات عائلة « بني خزرون » الزناتيه (٣٧) أما بالنسبة لصقلية وكلابريا
كانت ملحقة بها ، فقد اعطيت لعربي يدعي حسن بن على الذى كان قد
ه مقدرة في حكم الجزيرة . (٣٨)

لم تكن المهمة سهلة بالنسبة لحكومة صقلية ، فقد كان الوضع الداخلى
طربا ، وكان الشقاق سائدا ومستمرا ، فالمسلمون من العرب والبربر كانوا
نون عصبيات تتصدى بعضها لبعض ، وكان المسيحيون يكونون جمهورا
، كل آماله متجهه نحو القسطنطينية وينتظر منها الخلاص .

ولكن الخلاص سوف يأتى من مكان آخر ، سيكون هذا الخلاص علي أيدى
ليس لهم أية صلة بعالم البحر الأبيض المتوسط ، إنهم النورمان ، سلالة
الشمال السكندنافيين الذين خرجوا من ضباب بحر المانش لتكوين مملكة
إفريقية ، وكان ذلك أثناء غزو آبائهم لبريطانيا العظمى .

وابتداء من سنة ١٠٩١ م (٤٨٤هـ) عادت صقلية مسيحية ، وانقلب
نع في البحر الأبيض على حساب الإسلام ، وحاولت صنهاجة المهدية وقف
الانقلاب . ويعتبر استقرار نورمان الشمال في صقلية وضع عجيب

٣٧) ابن خلدون : العبر ٧ : ٥٥-٥٦

٣٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٧ : ٤٥

ومفارق إذ أن قبيلة صنهاجه التى فرض عليها الاتجاه الى النشاط البحرى ، قبيلة جبلية عاصمتها قلعة أشير بمرتفعات تيطرى ، ويبدو أن أفرادها يخشون البحر ويحذرونه كغالبية أهل البربر ، ويحبون الأرض وليس هناك ما يدفعهم الى المغامرة فى البحار ، واستنفذوا نشاطهم فى الصراع مع جيرانهم من زناته وبنى عمومتهم بنى حماد ، ولكن عندما استقروا فى إفريقية كخلفاء للفاطميين ، وجدوا أنفسهم حكاما لمناطق ساحلية حيث تلتقي فيها تجارة ما وراء البحار ، ومسئولين عن الجهاد البحرى فى إفريقية . رغم طبيعتهم الجبلية التي تبعدهم عن ذلك ، ورغم جهلهم التام بالملاحة لم يلبثوا أن عرفوا أهمية الأسطول فى نجاح عملياتهم فى المغرب . يقول لنا ابن الأثير أن بلكين سلم بأن مدينة سبته لا تؤخذ إلا بأسطول لمحاصرتها (٣٩)، ويوقف الامدادات الآتية اليها من الأندلس .

يبدو أن دوافع انشاء هذا الأسطول قد بدأت فعلا ، لأن المائتى سفينه التى كان يمتلكها الفاطميون قد تبعتهم الى مصر ، وإذا كان قد بقى منها شئ فهى سفن غير مسلحة وخالية من الطاقم ، وقد سعى الى ذلك بلكين أو بالأحرى واليه عبد الله الذى أنابه فى إفريقية . كانت النتيجة تدعو للرثاء ، إذ يبدو أن الوالي اتبع لتجنيد الرجال طريقة « الحشد » التي كانت مستخدمة في البحريةالأوربية القديمة ، هذا ما يجعلنا نصدق نص ابن عذاري (٤٠) فهو يحكي لنا أنه عند ذهاب عبدالله إلي المهدية حيث يتجمع الأسطول « أخذ في حشد البحريين في كل بلده وأمر أن يؤخذ كل من بقي منهم بالقيروان وغيرها وملأ بهم السجون . وأدرك خاصة البلد وعامتهم من الخوف ما لزموا لـه البيوت ، وانتهي حالهم إلي أنه إذا مات أحد عندهم لا يخرجه إلا النساء » .

(٣٩) ابن الأثير : الكامل ٧ : ٧٨

(٤٠) البيان ١ : ٢٢٩

(هل كان المقصود من ذلك الحصول علي الذين كانوا قد خدموا في البحرية سابقا ، أم أن هذا التدبير أصاب كل رجال المدينة ؟ إن هذا التصرف يجعلنا نفترض أن المجندين كانت لديهم بعض المعلومات البحرية ولكنه لا يستبهد الافتراض الثاني) .

« وفى سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦م) خرج الأسطول من المهدية في أول المحرم (٢٩ من أغسطس) فتعذرت الريح عليها ، فأقاموا حتى فرغت أزوادهم وعدموا الماء ، فهرب جميع من فيها من النواتيه والبحريه ، وصاروا الى البر ، فنهبوا ما فى المراكب من عده وسلاح وهربوا الى كل ناحيه فجعل عبد الله الطلب عليهم ، فمن ظفر به قتل »

نحن نجهل الأسلوب الذي حَلَّ محل هذه الطريقة الوحشية ، ونرجح أنه قد يكون التطوع الاختياري الذي يشجعه توزيع الأموال كما هو الحال في تكوين القوات البرية . والمؤكد أنه في عهد المعز كانت البحارة تكون عنصرا ملحوظا من سكان زويلة ، ضاحية المدينة إذ نجدهم في سنة ١٠٥٦ م (٤٤٨هـ) منضمين مع الدهماء في فتنة خطيرة جدا [٤١] .

وفي سنة ١٠٦٨م (٤٦١هـ) في عهد تميم ابن المعز قام عدد من البحارة المسلمين بالجلاء عن صقلية إلي إفريقية بعد أن غزاها النورمان . [٤٢]

أما بناء السفن فقد كان يواجه صعوبات أكبر من تجنيد الرجال ، كان لإفريقية بالتأكيد ترساناتها : هناك تونس حيث جلبوا لها المتخصصين المصريين الذين يعتبرون من الرعيل الأول ، وسوسة حيث تكونت حملات

---

(٤١) ابن الأثير : الكامل ٨ : ٧٤

(٤٢) ابن الأثير : الكامل ٨ : ١٥٨

صقلية ، والمهديه إذ يروى البكري عن ترساناتها أنها كانت تحتوي على مائتي سفينة وتشمل « قبوان كبيران طويلان لآلات المراكب وعددها لئلا ينالها شمس ولا مطر » [٤٣] .

لكن المسألة العضال والأكثر حرجا في حلها ، كانت بالنسبة للزيريين نقص الأخشاب لأن شجر زيتون الساحل لا يصلح لهياكل السفن . ولذلك أصبحت بجاية بعد ذلك أكثر ملائمة من المهدية لصناعة الأساطيل ويروى الإدريسي (القرن الثاني عشر) : « وبها دار صناعة لإنشاء الأساطيـــل ، لأن الخشب فى أوديتها وجبـــالها كثير ، ويجلب إليها من أقاليمها الزيت الطيب والقطران »[٤٤] كما يذكر صاحب « البيان »[٤٥] حدثا يوضح بطريقة مؤثرة كثرة مواد البناء في بجاية وافتقار المهدية لهذه المواد : ففي سنة ١١٤١ م (٥٣٦هـ) استولي الزيري « الحسن» على سفينة مشيدة في بجاية وكانت هذه السفينة عائدة من مصر ، ففرغ عمولتها وتركها في الميناء وحينما هبت عاصفة حطمتها في شهر اكتوبر ، أمر الحسن بجمع حطامها بعناية وشيد بها سفنة جديدة .

ورغم هذه الظروف المعاكسة استمر بنو زيري وخاصة المعز وخلفاؤه في محاولات منتظمة لإنشاء أسطول قوي ، ولقد رأينا المحاولة اليائسة وهروب الطاقم الذي جنده عنوة ، إن هذا الفشل يوضح لنا عن عدم وجود أي إشارة لإنشاء مشروع اسطول بحري لا في عهد المنصور بن بلكين ، ولا في عهد باديس بن المنصور ، أما في عهد المعز فقد قامت أحداث خطيرة جعلت النشاط

---

(٤٣) البكرى : المغرب ص ٣٠

(٤٤) الإدريسى : صفة المغرب وأرض السودان والأندلس ص ٩٠ ـ ٩٢ .

(٤٥) ١ : ٣١٣-٣١٤

البحري في المرتبة الأولي ، فالإعتراف بدولة بني حماد طبقا لوفاق سنة ١٠١٧م (٤٠٨هـ) أنهي نظريا الصراع مع أعداء الغرب . ولكن إقامة دولة زناتية في طرابلس خلق في الشرق جبهة صراع سيكون البحر مسرحا لها . ففي سنة ١٠٢٣م (٤١٤هـ) ذهب المعز إلي المهدية وباشر بنفسه عملية تجنيد البحارة وإعداد السفن التي ستعاون جيشه الزاحف ضد ابن خزرون حاكم طرابلس (٤٦) .

لقد أصبحت الحياة البحرية وتجارة ما وراء البحار والقرصنة من اهتمامات الأمير الزيري . ورغم أن صقلية وجنوب ايطاليا كانت بعيدة عن ملكه إلا أنه لا يمكنه عدم المبالاة أمام المخاطر التي يواجهها الإسلام هناك ، وتهديد المسيحية للازدهار الاقتصادي في إفريقية . ففى سنة ١٠٢٥م (٤١٦هـ) أرسل الأمبراطور باسيل الثاني جيشا لمهاجمة صقلية وكلا بريا ، وأقام هذا الجيش تحصينات قوية فيها بقصد الاستعداد للعمليات الحربية المستقبلية ، فقام المعز بتجهيز أسطول ضخم ، يحددها ابن الأثير بأربعمائة قطعة ، ونعتقد أنها قوارب مستأجرة بهدف نقل القوات ، كانت تحمل المجندين والمتطوعين الذين جاءوا للجهاد وأبحر هذا الأسطول في يناير سنة ١٠٢٦م (٤١٧هـ) وبالقرب من جزيرة قوصره هبت عاصفة قوية أودت بهذا الأسطول ولم ينجو من الرجال إلا القليل (٤٧) .

بعد خمسة وعشرين عام من هذه الحادثة ، جاء الغزو الهلالي والهروب من القيروان والهجرة إلي المهدية وتعرضت البلاد للسلب والفوضي ، وانسحب

(٤٦) البيان : ١ : ٢٧٠ .

(٤٧) ابن الأثير : الكامل ٧ : ٣٢٣ ، Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia, II, p. 423 .

النشاط الاقتصادي نحو الشاطئ نتيجة لاحتلال العرب لجنوب إفريقية وطرابلس وبرقة ، وأصبحت الطرق البرية المؤدية لمصر والشرق غير صالحة ومحرمة علي القوافل ، لذلك كان الطريق البحري هو السبيل الوحيد للتبادل التجاري والحج .

وابتلي السلطان الزيري بهذه المصادفة المؤسفة ، التي تزامنت مع الخطر المسيحي الممثل في النورمان ، وكانت الخسارة علي الجبهتين .

وفي سنة ١٠٥٢ م (٤٤٤هـ) نفس العام الذي دحر فيه العرب وللمرة الثانية القوات الصنهاجية ، تلقي المعز نداءاً من مسلمي صقلية يلتمسون فيه مساعدتهم ضد النورمان بقيادة روجر الأول ، فجمع السلطان مرة أخري عددا هائلا من السفن وشحن فيها الجنود والمؤونة ، وللمرة الثانية بالنسبة للمسلمين كانت النتيجة مشئومة في نواحي جزيرة قوصره ، لأن عاصفة شتوية التهمت معظم الأسطول ، ويروي ابن الأثير علينا الواقعة مبينا نتيجتها المزدوجة « مما أضعف المعز وقوي عليه العرب حتي أخذوا البلاد منه ، فملك حينئذ الفرنج (النورمان) أكثر البلاد علي مهل وتؤده لا يمنعهم أحد واشتغل صاحب افريقية بما دهمه من العرب » (٤٨) .

ومع ذلك فسيحاول تميم بن المعز مرة أخرى العودة الى صقلية سعيا وراء الحصول على ما يعوض الكارثة الإفريقية (٤٩) . إذ نزل أبناؤه الإثنان مع القوات الزيرية فى موقعين على الساحل ، واستقبلوا استقبال المنقذين من سكان الجزيرة المسلمين ، ولكن تصرف الحرس الأسود الذى جلباه معهما أفقدهما الشعبية لدرجة أنهما اضطرا للعودة سنة ١٠٦٨ م (٤٦١هـ) تاركين

(٤٨) ابن الأثير : الكامل ٨ : ١٥٨

(٤٩) ابن الأثير : الكامل ٨ : ١٥٨

صقلية فى أيدى النورمان الذين لن يجدوا أمامهم أية مقاومة .

اذا كان بنو زيرى قد تنازلوا عن الاستئثار بمملكة ما وراء البحار (صقلية وغيرها من الجزر) ، فلم يفقدوا الأمل فى الحصول على الثروة ، على حساب جيرانهم بالبحر الأبيض المتوسط . ويستحقوا منا كل الإعجاب والتعظيم للمقدرة التى أثبتها المعز وخلفاؤه الأربع فى محاولة معالجة وضع ميئوس منه وهو المحافظة على مملكتهم ، وهذا ما توصلوا إليه ولمدة تسعون عام عن طريق استعادة مملكتهم قطعة بعد أخرى ، وتنظيم الحملات البحرية التى كانت بمثابة جهاد مقدس ، وأخيرا محاولة الإثراء بفضل التجارة البحرية .

كانت قرصنة بنى زيرى ذات نشاط ملموس ، ففى عهد تميم بن المعز بلغ العدوان على البلاد المسيحية درجة جعلت الدول الضحية تقرر عملا جماعيا ، فتكون اتحاد حول بيزا وجنوه وشجعه البابا فيكتور الثالث . ودامت الاستعدادات أربع سنوات ، وفى سنة ١٠٨٧ م (٤٨٠هـ) اتجهت ثلثمائة سفينة نحو المهدية (٥٠) ، ورغم وصول رسالة بالحمام الزاجل من قويصرة تحذر المدافعين عن المدينة إلا أنهم فوجئوا بالعدوان . كان تميم غائبا عن المدينة مع الجزء الأكبر من القوات ، كما دب خلاف بين الوزير وأمير البحار ، هذا الخلاف شل حركة أمير البحار ومنعه من المجازفة بمعركة بحرية وحماية الشواطئ . وفى ٦ أغسطس تحطمت السلاسل التى كانت تعترض مدخل الميناء ، ودخل المسيحيون المدينة وسلبوها كما نهبوا ضاحية زويله ، ولم يبحروا إلا بعد منحهم غرامة حربية فادحة واستعادة الأسرى النصارى .

(٥٠) ابن خلدون : العبر ٦ : ٢١٢ ، ابن الأثير : الكامل ٨ : ١٤٧ ، البيان ١ : ٣٠١ ، التجانى رحلته ص ٣٣١ ، القيروانى (ابن أبى دينار) : المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ص ٨٦ . Amari, Storia, p. 170 .

كانت حملة ١٠٨٧ انتصارا له دوي كبير لدى النصرانية ، أما حملة ١١٠٤ م (٤٩٨هـ) التي لم يذكرها إلا ابن عذاري فقد كانت كارثة عليهم (٥١) . لقد نظمها الرومان بمساعدة الخزانة التبشيرية البابوية وكانت تستهدف أيضا المهدية ، لكن في هذه المرة أبحر الأسطول الصنهاجي للمواجهة وفشلت المحاولة تماما .

هذه الهجمات المسيحية المظفرة كانت أو المخيبة للآمال ، لم تفتر أبدا من نشاط الأسطول البحري بإفريقية ، بل زادت في عهد يحيى بن تميم . ويبدو أن التطور البحري مع الكيمياء كانا الشاغل الأساسي للسنوات الثماني التي قضاها في الحكم ، فقد شيد السفن التي كانت تخرب كل عام الشواطئ الأوربية وتعود منها بالأسرى ، ويقول ابن خلدون « وكان له في ذلك آثار ظاهرة عزيزة » .

وجدير بالذكر أنه لا توجد في هذه الحملات ، وهذه الصراعات ، أية اشارة عن صقلية وحكامها من النورمان ، فقد كان بينهم وبين بني زيري حالة هدنة بل تحالف يحترمه كل من الطرفين ، لقد عقد هذا التحالف في سنة ١٠٧٥ م (٤٦٨هـ) « تميم بن المعز وروجار الأول » (٥٢) وبقي في عهد يحيى وعهد ابنه علي أي بين هذان الأميران وروجار الثاني . كان يحتوي هذا التحالف على اتفاقيات اقتصادية ، ولكن المنافسة التجارية كانت سببا في إهماله وفشله .

نحن لا نشك في أن بني زيري كمن سبقوهم في الحكم ، قد نظروا نظرة استحسان الى وجود التبادل بين مملكتهم وبلاد ما وراء البحار ، إذ أن الرسوم

---

(٥١) البيان : ١ : ٣٠٢-٣٠٣

(٥٢) Mas Latrie, Traités de paix, d'aprés Malaterra, p. 28-29 .

الجمركية كانت تساعد علي تمويل الخزانة ، ومع ذلك نحن نفترض أن هذه التجارة لم تكن حرة مطلقا ، فالامراء أو البعض منهم كانوا يقومون باحتكار السفن المهيئة لنقل البضائع أو منح حق الامتياز للغير مقابل مبلغ متفق عليه من المال .

لقد رأينا بعد تقسيم إفريقية وبعد نوائب الدهر المختلفة كيف تكونت مملكة صغيرة عربية فى قابس ألا وهى مملكة « بنى جامع » (٥٣) ، واضطر سلاطين المهدية لقبول هذه السيادة ويبدو أنهم اكتفوا ببسط سلطة شكلية على « بنى جامع » للحفاظ على المظهر ، وكان أرباب قابس يحاولون جاهدين أن يعملوا على ازدهار مدينتهم ، وانتبه واحد منهم وهو « رافع بن مكن » الى بناء سفينة للتجارة الخارجية . ويقول لنا ابن الأثير أن « الأمير يحيي فلم ينكر ... ذلك جريا على عادته فى المداراة . فلما ولى على الأمر بعد أبيه آنف من ذلك وقال لا يكون لأحد من أهل إفريقية أن يناوبنى فى اجراء المركب فى البحر بالتجار » (٥٤) لكن الحاكم العربى لم تكن لديه النية للخضوع الى هذا المطلب ، واستعان بروجار الثاني حاكم صقلية الذي كان ينوى بدون شك الاتجار مع قابس ، فأرسل هذا الأخير أسطول ليحمى مدينة قابس ، فبعث السلطان الزيرى بسفنه أيضا فاضطر الأسطول الصقلى الى الانسحاب تاركا للمسلمين تسوية خلافهم ، وسرعان ما شب الخلاف بين سلطان المهدية والملك النورماندى الذى خاطب الأمير المسلم باسلوب غير لائق ، وكانت القطيعة ، واستعد على بن يحيى للحرب وأعد أسطوله ، ولعدم مقدرته على مواجهة القوه النورمانديه طلب مساعده أبناء عمومته من صنهاجه مرابطى المغرب

(٥٣) عن تاريخ بنى جامع ، انظر ابن خلدون : العبر ٦ : ٢٢١-٢٢٢

(٥٤) ابن الأثير : الكامل ٨ : ٢٧٨

الأقصى والأندلس ضد عدوه الكافر (٥٥) . وفى غضون ذلك مات « على » وخلفه ابنه « الحسن » آخر امراء بنى زيرى ١١٢١ م (٥١٥هـ) .

وفى العام التالى أرسل « على بن يوسف » المرابطى أسطولا الى كلابريا ، وأنزل قوة من المرابطين استولت على مدينة نقوطرة Nicotera وقامت بالسلب وذبح السكان وأسرهم ، ولم يشك الملك روجار الثاني بأن الضربة جاءته من المهدية . فقام بإعداد حملة واسعة ضد المدينة المنافسة ، وأخذت هذه الحملة مظهر الحرب الصليبية ، وفى يوليو سنة ١١٢٣ م (٥١٧هـ) أبحرت ثلثمائة سفينة من ميناء مرسلا Marsala(صقلية) تحت قيادة جورج الانطاكى(٥٦). وعند خروجها من الميناء هاجمتها عاصفة أودت ببعض السفن ، ووصلت بقية السفن الى الشاطئ الإفريقى ، وأنزلت قوات بالقرب من المهدية ، واقتحموا حصنا ولكنهم حوصروا فيه بينما الأسطول كان فى عرض البحر ، ولم يستطع التدخل ، فانسحب أخيرا تاركا المسيحيين داخل الحصن ، وقد أبيدوا جميعا . هذا الفشل جعل الملك روجار الثانى يدرك أن مهاجمة المهدية مهمة خطيرة ، وينبغى عليه إدارتها بحذر ونظام ، وبدأ سرا فى إعداد حملة جديدة وعلى كل فقد كان واضحا أن حكم بنى زيرى كان قد آل الى الانهيار ، فالعرب يسيطرون على السهول ، والمجاعة دائمة فى البلاد ، وبنو حماد دائمو التهديد . وفى سنة ١١٣٥م (٥٣٠هـ) أبحر من بجاية أسطول يحيى بن عبد العزيز (بنى حماد) الى المهدية وفى نفس الوقت كان جيشه يزحف نحو المدينة (٥٧) . وأمام هجوم ذى القربى لم يفكر السلطان فى طلب المساعدة إلا

(٥٥) ابن الأثير : الكامل ٨ : ٢٧٩

(٥٦) البيان : ١ : ٣٠٩ ، ابن خلدون : العبر ٦ : ٢١٤ ، ابن الأثير: الكامل ٨ : ٣١٣ ، القيروانى (ابن أبى دينار) : المؤنس ص ٩٢ ، Amari, Storia, III, p. 385 .

(٥٧) G. Marçais, Les Arabes en Berbérie, p. 141-142 .

من أعداء الأمس والغد وهم العرب البدو الذين لبوا النداء ، والنورمان إذ عقد تحالفا جديدا مع الملك روجار الثانى الذى بعث بعشرين سفينة فانسحب الأسطول والجيش التابعان لبجاية أمام هذا الإمداد المزدوج . فزال الخطر من ناحية وعاد الوفاق بين الحسن والملك المسيحى من ناحية أخرى . كان الحسن مستعدا للتسامح طالما إفريقية البائسة أصبحت تنتظر من صقلية تزويدها بالقمح . أما الملك المسيحى فسوف يستغل هذه الهدنة لإعداد خطه الاستيلاء على المهديه الذى لا مفر منه .

قام الملك بمهاجمة المناطق المجاورة للحدود الزيريه والمناطق الشاذة التى تبعد عن سلطة بنى زيرى بحجة معاقبة القراصنة ولم يقصد قلب المملكة هذه المرة .

إبتداء من عام ١١٣٥ م (٥٣٠هـ) استولى الأسطول الصقلى على «جربه» وكان محملا بقوات غفيرة « من مشهورى فرسان الفرنج جماعة » وقضى على السكان وابتزهم (٥٨) . ومن عام ١١٤٣ م (٥٣٧هـ) توالت الحملات بانتظام وبدأ ذلك بهجوم غير حاسم على طرابلس (٥٩) ، وفى نفس العام سقطت صفاقس وجيجل التى سلبت وحُرقت (٦٠). وانتقلت الحركة نحو المغرب . ففى سنة ١١٤٤ م (٥٣٩هـ) سُلبت مدينة برشك واستولوا على سكانها (٦١) ، وفى عام ١١٤٥ م (٥٤٠ هـ) حدث إنزال فى جزيره قرقنه التي تقع أمام مدينة صفاقس مما أثار الحسن فأرسل الى حليفه المسيحى يذكره

---

(٥٨) ابن الأثير : الكامل ٨ : ٣٥٠ ، البيان ١ : ٣١٢

(٥٩) ابن الأثير : الكامل ٩ : ٦ ، البيان ١ : ٣١٣

(٦٠) البيان ١ : ٣١٣ ، ابن الأثير : الكامل ٩ : ٦

(٦١) ابن الأثير : الكامل ٩ : ١٠

بالمعاهده (٦٢) فاعتذر الملك قائلا بأن سكان الجزيرة لا يطيعون الأمير وسمح لنفسه بمعاقبة قرصنتهم . وفى سنة ١١٤٦ م (٥٤١هـ) تجددت مهاجمة طرابلس بقوات ضخمة (٦٣). وبعد قتال دام ثلاثة أيام ، دب الخلاف بين المدافعين مما ساعد المسيحيون على اقتحام المدينة فسلبوها واحتلوها ستة أشهر ثم انسحبوا منها بعد تعيين واليا عليها من أهلها مقابل الرهائن لضمان طاعته . وفى سنة ١١٤٧ م (٥٤٢هـ) تدخل الملك فى قابس (٦٤) فقد اغتصب مولى لبني جامع الحكم ، فاستعان أنصار الأسرة المبعدة بالسلطان الزيرى مما جعل المغتصب يطلب الحماية من ملك صقلية . زحف الحسن نحو قابس واستولي عليها وأعدم المغتصب بعد تعذيبه . وكانت هذه هي حجة الملك روجار الثانى لنقض المعاهدة ومهاجمة المهدية .

كان الوضع مناسبا هذه المرة لمحاولة جديدة لغزو المهدية . فمنذ ست سنوات والمجاعة تجتاح إفريقية أكثر من أى وقت مضى ، وفى نفس الوقت كان سكان إفريقية يتناقصون : لقد هاجر الكثير منهم إلى صقلية على أمل وجود حياة أفضل فى أرض مسيحية ، وفى نهاية يونيه سنة ١١٤٨ م (٥٤٣هـ) وصل الأسطول الصقلى أمام المهدية (٦٥) بقيادة جورج الانطاكى ، فرأى السلطان الحسن والسكان أن المقاومة مستحيلة وترتب على ذلك الجلاء عن المدينة .

(٦٢) ابن الأثير : الكامل ٩ : ١١

(٦٣) ابن الأثير : الكامل ٩ : ١٢

(٦٤) ابن الأثير : الكامل ٩ : ١٦ ، G . Marçais , Les Arabes en Berbérie , p . 173-174

(٦٥) ابن الأثير: الكامل ٩ : ١٨-١٩ ، البيان ١ : ٣١٣ ، ابن خلدون: العبر ٦ : ٢١٥ ، التجانى: رحلته ص. ٣٤٠-٣٤١ Amari, Storia dei Musulmani, III p.422

وبينما كان آخر بني زيري لاجئا عند سيد قرطاج المستقل ، ثم عند ذى القربى السلطان الحمادى فى بجايــه ، تمكن الصقليون من فتح إفريقية البحرية ، فبعد المهدية جاء الدور على سوسه وقابس وصفاقس . وماعدا تونس وقليبية فى شبه جزيرة رأس بونه ، كانت جميع مدن الساحل تدفع إتاوة للملك روجار الثانى ، الذى أضاف لقب ملك إفريقية إلى لقبه القديم ملك صقلية وإيطاليا . لكن فتحه الجديد كان بلدا شعبه فقير فتفان فى تسكين آلامه ، وسيكتب عنه فى المستقبل المؤرخ التونسى « ابن أبى دينار » : أنه « دفع للتجار رؤوس أموال . وأحسن لفقهائهم ، وجعل قاضيا مرضيا يحكم بين الناس ..... وجبى خراج رعاياها برفق منه وإحسان » . ونحن لا نشك فى هذه الشهادة ولا تدهشنا لأننا نعرف التسامح ورحابة الفكر الجديرة بالمستعمرين المتساهلين والتى تتمثل فى روجار الثاني وتميزه فى مملكته صقلية .

لم يكن ضم شواطئ إفريقية للدولة المسيحية بعد خمس قرون من الفتح الإسلامى إلا إحدى النتائج الغير متوقعة للغزو الهلالى ، لكنها والحق يقال نتيجة غير ثابتة ، فبعد أقل من عشر سنوات ، ثار مسلمو معظم المدن المحتلة ضد الحكام الصقليين ، وفي سنة ١١٥٩ م (٥٥٤هـ) جاء من مراكش الخليفة الموحدي « عبد المؤمن » وعبر كل بلاد البربر فى سبيل تحقيق هدف واحد ألا وهو : إعادة المهدية للإسلام .

كان لتوجه مسلمى شمال إفريقيا نحو القرصنة تطور تاريخى خطير . فقد كان استئنافا لتقليد يعود الى آلاف السنين ، فالقرصنة كانت مشروعة من أجل الصناعات فى العالم القديم ، ففى البحر الأبيض المتوسط كانت القرصنة ترجع بدون شك إلى ما بعد الانتشار الفينيقى ، ولم تتوقف إلا عندما استولت روما على كل الشواطئ وتحكمت فى البحر كله . لكنها عاودت

نشاطها مع الإسلام ، وأصبح سلب الشواطئ المقابلة حسنة من الحسنات ، إذ أن ظروف الحياة التى خلفتها هجرات القرن الحادي عشر البدويه داخل البلاد ، جعل من القرصنة ضرورة لأن المدن الساحلية وجدت فيها أهمّ مواردها . وقد حدد هذا التطور مصير هذه المدن للقرون المقبلة . أما فيما يخص المهدية ، فدورها القتالى وردود فعل الدول المسيحية ينتهى مع فتح الموحدين . لكن الصقليين فى سنة ١١٨٠ (٥٧٦هـ) سوف يستولون عليها . وسوف توقع معاهدة سلام جديدة مع وليم الثانى . وبعد مائتى عام ازدادت جرأة قراصنة هذه المدن المهيبة التى يسميها مؤرخونا « مدينة إفريقيا » وقد نتج عن هذه القرصنة حملة كان فرواسار Froissart مؤرخها [٦٦] ففى عام ١٥٣٩ م (٩٤٦هـ) فرض عليها شارل الخامس حامية أسبانية ، وبعد عام قام أمير البحار التركى « دراغوت » بطرد هذه الحامية . لقد وقعت هذه المدينة فى أيدى المسيحيين بعد أن كانت إسلامية كما كانت أحيانا مهاجمة وأحيانا مضطرة للدفاع عن نفسها وسوف تواصل دورها البطولى كمركز دائم للجهاد المقدس الإسلامى .

وتونس التى كانت عاصمة إفريقية القديمة سوف تتسلح هى الأخرى للصراع وستعانى من هجمات النصرانية . وسيقود لويس التاسع -(القديس لويس) حملته الأخيرة إليها وسوف يضمها شارل الخامس إلى إمبراطوريته الشاسعة .

هنالك أيضا كثير من المدن البحرية لبلاد البربر الشرقى التى خصصت مجهودهـا للعمليات ضد أوروبـا ، والبكرى يقول عن مرسى الخـرز « وفى هذه المدينـة تنشأ السفن والمراكب الحربيـة التى تغزى (تغرو) الى بلاد

(٦٦) Froissart, Chroniques, éd. Buchon, III, p. 79 .

الروم »[٦٧] . ويحدد أنهم كانــوا يتجمعون فيها للانزال فى الجزيرة القريبة « سردينيا » وقد هدمت هذه المدينة سنة ١٢٨٦ م (٦٨٥هـ) وستقام مرسى الخرز مرة أخرى تحت إسمها الفرنسى القل وستكون قاعدتنا الأمامية لتاريخ إنتشارنا الإستعمارى .

وسوف تنضم بونه لهذا التاريخ ، حيث تتناوب تقديم المساعدات ضد الكفار من ناحية ، ثم عقد الاتفاقيات التجارية معهم من ناحية أخرى .

ومن أهم عواصم القرصنة مدينة بجاية - العاصمة الثانية لبنى حماد - التى ستفتح الطريق الذى ستسلكه مدن الساحل لأكثر من ثلاث سنوات . لقد تكلمت عن التسهيلات المجهولة للساحل التونسى ، والتى تقدمها منطقة القبائل لبناء وتجهيز السفن فى بجاية ، وسوف يدوم الحال على ذلك ، فاستغلال الخشب للبحرية سيكون على عاتق إحدى العائلات الكبيرة في بلاد القبائل ، التي ستستخدم العبيد المسيحيين لذلك (هذه العملية يسميها الأتراك «كرستا») . سوف يستخدم الأتراك هذه الموارد المحلية لصالحهم ، ولن يأتوا بجديد فيما يخص القرصنة . وإذا عدنا الى ابن خلدون وروايته عن بجاية - بجاية عصره - ووصفه كيفية تنفيذ الغارة البحرية بالطريقة الآتية :

« يجتمع النفير والطائفة من غزاة البحر ، يضعون الأسطول ويتخيرون له أبطال الرجال ، ثم يركبونه الى سواحل الفرنجة وجزائرهم علي حين غفلة ، فيتخطفون منها ما قدروا عليه . ويصادمون ما يلقون من أساطيل الكفرة فيظفرون بها غالبا ويعودون بالغنائم والسبى والأسرى ، حتى امتلأت سواحل الثغور الغربيــة من بجايــة بأسراهم تضج طرق البلاد بضجة السلاسل

(٦٧) البكرى : المغرب ص ٥٥

والأغلال عندما ينتشرون فى حاجاتهم ويغالون فى فدائهم بما يتعذر منه أو يكاد » (٦٨)

ورغم أن هذا النص يعود إلى حوالي ١٣٩٠ م (٧٩٢هـ) يضيف المؤرخ ابن خلدون أن الغارات البحرية بدأت بالمدينـة قبل ثلاثين عاما من هذا التاريخ ، كما أن هذا النشاط البحرى سوف ينتقل الى مدينة الجزائر العاصمة ويكون محور نشاطها من القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر . ومن المحتمل أن يكون هذا الغزو قد أخذ شكلاً جديدا ومظهرا أكثر انتظاما ، ولكنه كان موجودا من مائتى عام بشكل ما ، ويثبت ذلك ردود الفعل المسيحية ، وتخريب الحقول بواسطة العرب البدو ، واستقرار حكام البلاد فى مدن الشاطئ كل ذلك كاف لتفسير هذا التوجه نحو النشاط البحرى والمقام الذى ستحتله من الآن فصاعدا القرصنة والتجارة لإفريقية مع الشعوب المسيحية ولكن الأخيرة تأتى فى الأهمية الثانية . من هذه الوجهة نستطيع اعتبار القرن الحادى عشر فاتحة لتاريخ الدول البربرية .

سوف يؤثر تطور مماثل على المغربين (الأوسط والأقصى) ، إنه تطور متواز والى حد ما تابع له ، وإذا كانت العوامل هنا مختلفة الى حد ما عن العوامل التى حدثت فى بلاد البربر الشرقية إلا أنها مرتبطة بنفس الحدث الأصلى : ألا وهو الغزو الهلالى . هذا الغزو خرّب المقاطعة القديمة الرومانية لإفريقية ولكنه فى الوقت نفسه دفع البلد البربرى القديم الذى يشمل الموريتانيات الثلاث إلى المرتبة الأولى . وسوف ينصب نظرنا الآن علي هذا الجزء من البلاد .

(٦٨) ابن خلدون : العبر ٦ : ٥٧٨

الجزء الثالث

بلاد البربر محررة من المشرق

مقدمة

الممالك البربرية من القرن الحادي عشر إلي القرن السادس عشر

لقد تحررت بلاد البربر من الوصاية المشرقية ، بقطيعة المعز الزيري مع خليفة القاهرة الفاطمي ، أما الغزو الهلالي فلقد جعل هذا التحرر تاما . إن ابن خلدون يعطينا معلومة مدهشة : فهو يقول أن « يحيى» حفيد المعز اعترف من جديد بسيادة الفاطميين ، وكان ذلك بعد سعين عاما من الانفصال ، ووصلته من القاهرة هدايا ثمينة [١] . لكن لم يكن هذا إلا تغييراً شكليا لم يعالج الكارثة ، ولم يغير شئ مما حدث . فالإنفصال لم يتحمل أى إصلاح ، فسوف يجري تاريخ بلاد البربر من الآن فصاعدا ، خارج أى تدخل فعلي للقوي المشرقية ، وبعيدا عن تأثيرها المشرقي . وعلي كل فلم يعد مصير البلاد بأجمعها ، خاضعا لنفس المنطقة البربرية (إفريقية) . ففي منتصف القرن الحادي عشر (٥هـ) دقت ساعة المغرب وسيحصل شمال إفريقيا علي حكامه المتعاقبين من المغرب .

ولإيضاح المنهج المتبع في الجزء الباقي لدراساتنا ، فمن الضروري ذكر هؤلاء الحكام ، وتقديم هؤلاء الأبطال ، وبيان الخطوط العريضة لتاريخهم ، وعرض تطور وتغيرات المواضيع ، التي سنعرفها خلال هذه الدراسة .

(١) ابن خلدون : العبر ٦ : ٢١٣

إن المرابطين هم أول من يحتلون الساحة ، ولمدة مائة عام تقريبا ، من منتصف القرن الحادي عشر (٥هـ) إلي منتصف القرن الثاني عشر (٦هـ) فهؤلاء البربر البدو من قبيلة صنهاجة ، جاءوا عن طريق الجنوب الغربي ، واستقروا في المغرب ، وأسسوا فيها إمبراطورية ، خلال غزو العرب الهلاليين لإفريقية عن طريق الشرق .

لقد لقبوا بألقاب عديدة ، ولكن هناك لقب يتعلق بلبسهم ؛ وهو «الملثمون» . كانوا مثل أحفادهم الحاليين المعروفين بالطوارق الذين يضعون اللثام وهو قطعة من القماش يغطي بها الرجال وجوههم من أسفل إلي أعلي . أما بالنسبة للقب « المرابطون » فهو يشير إلى الرباط الذى اتخذوه بالقسم الشمالي للسنغال ، حيث تلقوا تدريبا عسكرياً ودينياً ، غيّر هؤلاء الرجال الذين يعيشون على تربية الجمال وتتاجها ، إلي محاربين فى سبيل العقيدة . فبعد أن مارسوا عقيدتهم فى نشر الدين الإسلامى على الزنوج الوثنيين جنوبا ، عبروا الساحل الأطلسى شمالا واندفعوا نحو المغرب ، ثم المغرب الأوسط ، وفتحوا البلاد حتى مدينة الجزائر ، وبعد ذلك يصلون إلى أسبانيا ، حيث يطلب نجدتهم كل من ملك أشبيلية والأمراء المسلمين الآخرين ورؤساء الطوائف المهددين بحركة الاسترداد المسيحية .

وبانتصار الزلاقة المدوى سنة (١٠٨٦م ـ ٤٧٩هـ) ، نجح سلاطين الأندلس فى التخلص من الخطر المسيحى ، ولكن ليس هناك ما ينقذ هؤلاء السلاطين أنفسهم من خطر المرابطين . عندما انتصر هؤلاء الصحراويون أصبحوا أبطال الإسلام المعرض للانحسار ، والمدافعين عن تعاليمه المقدسة ، فأوقفوا فضائح البلاط الأندلسى بضم هذه الممالك ، وأصبحوا بذلك حكاما علي مجال مزدوج : المجال الإفريقى والمجال الأوربى . ومع ذلك لم يلبثوا أن وقعوا بدورهم صرعى اغراءات بلاد الأندلس الجميلة ففى خلال جيلين ، فقدوا صفتهم

الشبه بربرية التى كانت سببا فى نجاحهم ، وهزموا بأفارقة آخرين تتوفر لديهم قوة جديدة .

وهم الموحدون الذين كانوا من البربر المغاربة ، وأصحاب دعوة ، والذين سيمدون نفوذهم على ضفتى البحر الأبيض ، ولكنهم يختلفون عن المرابطين ، فهم ليسوا بدوا صحراويين ، بل جبليين مستقرين وذو قرابة لشلوح المغرب الحديث ، وكان مقرهم فى جبال الأطلس الأعلى ، وكان ابن تومرت ـ مؤسس هذه الطائفة ـ يجند أنصاره من مصموده الذين يسكنون هذه المرتفعات ، فكون قوة قتالية لا تقل عما كان عليه المرابطون فى الماضى . وقام ابن تومرت بتولية عبد المؤمن قائدا حربيا ستؤول إليه مقاليد الأمور بعد ذلك فى سنة ١١٣٠ م (٥٢٣هـ) ويصبح هذا البربرى بدون منازع واحدا من أكبر الأسماء فى ماضى الشمال الإفريقى وأقوى خليفة إذ فتح بلاد البربر بأكملها ، ولم يحقق هذا أى حاكم من قبله : لقد استولى على الساحل التونسى من مسيحيى صقلية ، وعمل علي امتداد امبراطوريته العظمى التى حققت ايرادات ضريبية ضخمة وتمكن أولاد عبد المؤمن من ضم كل أسبانيا الإسلامية كما أوقفوا لفترة حركة الاسترداد المسيحى ، وانتصر حفيده يعقوب المنصور فى موقعة الأرك سنة ١١٩٥ م (٥٩١ هـ) ، لكن الناصر بن يعقوب انهزم فى معركة حصن العقاب سنة ١٢١٢ م (٦٠٩ هـ) فكانت بداية الإضمحلال وضعف دولة الموحدين .

إن مملكة بهذا الاتساع فى بلد مثل شمال إفريقية ، وفى العصور الوسطي ، كانت معرضة أن تكون هشة وضعيفة وكانت المقاطعات الغير مستقرة ، معرضة أيضا لأن تكون فريسة سهلة للأعداء ، ومنذ عهد يعقوب المنصور أصبحت إفريقية مسرحا لقلاقل غاية فى الخطورة . إذ حاول إثنان من الأخوة المغامرين (بنو غانية) من عشيرة المرابطين القدامى ، النهوض بمصير

العائلة المخلوعة ، وقد ساعدهم عرب بني هلال الذين وجدوا هذه الفرصة للسلب المثمر ، وكان بنو غانية على وشك النجاح غير أنهم ساعدوا في خراب هذا البلد ووصل الدمار حتى قلب المغرب الأوسط .

دام الصراع مع هؤلاء الثوار لمدة أربعين عام ، وأنهك الدولة الموحدية وأفقر المقاطعات ، وساعد علي الشقاق ، ولم ينتهي النصف الأول من القرن الثالث عشر (٧هـ) حتى انقسمت امبراطورية الموحدين الى ثلاث أقسام . أعلن حاكم تونس الاستقلال بعد حصوله على صلاحيات واسعة لفرض الاستقرار في افريقية . أما بالنسبة للمغرب الأوسط ، والمغرب الأقصى ، فقد استولى عليهما بنو زناته ، الذين أعادوا للأذهان مغامرة المرابطين ، فزحفوا من الصحراء بجمالهم ، واستولوا على البلاد الخالية من وسائل الدفاع . وبذلك انقسم الشمال الإفريقي إلى ثلاث ممالك : مملكة الحفصيين في تونس ، ومملكة بني عبد الواد في تلمسان ، ومملكة بني مرين في فاس .

كانت مملكة بني مرين في فاس من أقوى هذه الممالك الثلاث وأكثرها حرية في الحركة ، وقد حلت محل الموحدين في مقاطعتهم . واعتقد المرينيون أنهم الوحيدون القادرون ، على القيام بالدور المزدوج لخلفاء القرن الثاني عشر . فقد حاولوا فرض سيطرتهم على أملاك الموحدين ، وتمكنوا من ذلك ، فضموا مملكة تلمسان ، ثم مملكة تونس ، وكلفهم ذلك الكثير ، ولكنهما لم تبقيا في أيديهم إلا قليلا وتمثل الدور الثاني في إسبانيا ، ولكنهم واجهوا نصرانية قوية ، وبعد فترة من النجاح تكبدوا هزيمة سنة ١٣٤٠ م (٧٤١ هـ) (*)

(*) سميت هذه الموقعة في المصادر العربية باسم موقعة طريف ـ أما المصادر الأسبانية فقد سمتها موقعة نهر سلادو del rio Salado على اسم النهر المجاور لطريف في جنوب إسبانيا ، كما سمتها أيضا بموقعة الملوك الأربعة لاشتراك كل من الفرنسو =

أفقدتهم الى الأبد الرغبة في عبور المضيق .

وبعد ٧٥ عام يعبر المسيحيون المضيق لينزلوا هم الى الأرض الإفريقية . ففى سنة ١٤١٥ م (٨١٨ هـ) أصبح البرتغاليون حكاما لسبته ، وهاجم المسيحيون المملكتين الآخريتين ففى سنة ١٥٠٤ م (٩١٠ هـ) استولى اسطول أسبانى على المرسى الكبير ، وبعد ٣١ عام دخل شارل الخامس تونس . هل كان هذا فيض أسبانى على إفريقية امتدادا لحركة الاسترداد المسيحية ؟ هل هى حرب صليبية ردا على حركة الجهاد المقدس ؟ هل هو عقاب للقرصنة البربرية ؟ هلى هو البداية لإمبراطورية استعمارية ؟ مهما كانت الأسباب ، فدخول أوربا مسرح الأحداث الإفريقية سوف يثير ردود فعل عميقة : مثل ظهور المقاومة المسلحة في المغرب الأقصى وانتصارات المملكة الشريفية (الدولة السعدية والدولة العلوية) . وكذلك الترحيب بالأخوة عرّوج القراصنة الأتراك فى المغرب الأوسط بإفريقية كمنقذين وممثلين لخليفة القسطنطينية ، وهكذا عادت بلاد البربر مرة أخرى تحت وصاية المشرق ولو نظريا .

إن الموضوع الأول الذي سنتتبعه فى تطوره خلال أربعة قرون ، هو التحرر من هذه الوصاية ، نتيجة للغزو الهلالى ، وقد وصفنا هنا بيانه ، إذ بينما كان المرابطون والموحدون والحفصيون وبنو عبد الواد والمرينيون ، يعترفون بسلطة المشرق الروحية ، كانوا يستمدون سلطانهم من أنفسهم ولا يخضعون لأحد .

إن هؤلاء الحكام المستقلين سلالة بربرية ، رغم ادعائهم النسب العربى ، بل والعلوى ، كما يخصهم به مؤرخو عصرهم المجاملون . ويعتبر هذا الأصل البربرى لهؤلاء الحكام نقطة بداية ثانية وجب علينا التنويه على استمرارها .

= الحادي عشر ملك قشتالة ، وبدرو الرابع ملك أرجوان والفونسو الرابع ملك البرتغال ، وأبو الحسن المرينى فى المعركة. انظر أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٤١٨ـ٤١٩ .

إذا كانت حكوماتهم لها الطابع البربرى ، فدينهم أكثر تميزا بهذا الطابع ، فالمكانة التي تحتلها المعتقدات فى مهام الحكام ، وفى حياة الشعب ، وفى سير الممالك ، هو حدث لاحظناه فى الجزء الأول من هذا التاريخ ، لكنه يتأصل بكل قوة فى الفترة التى نخوضها الآن . فليس للإسلام قلعة أقوى من المغرب ، ولكنه اسلام بربرى . فهو يأخذ مظهر إسلام شبه وطنى فى عهد الموحدين ، الذى يعتبر قمة السلطان المغربى ، إنه تزييف بربرى للإسلام السلفى المشرقي .

إنه إسلام نضالى ، فبعد أن نقل الغزو الهلالى مركز ثقل شمال إفريقيا من الشرق إلى الغرب ، كان له هذا الأثر الغير مباشر ألا وهو : إعطاء الدور الأول للمغرب الأقصى الذى سيصبح الجبهة الأولى للجهاد المقدس . فموقعه الجغرافى وتقاليده ، تربطه باسبانيا برباط وثيق . وتعتبر أسبانيا الميدان المغلق الذى تصدى فيه الهلال للصليب منذ أربعة قرون ، وكان لا يمكن استمرار هذا الصراع إلا بمساعدة البربر . فالبربر هم الوحيدون تقريبا الذين ضموا شبه الجزيرة للإسلام ، ولم يحتفظ أمير قرطبة بحدودهم ولم يمدوها ، إلا بالقوات البربرية . فتضاؤل هذه الحدود والمحاولة الناجحة لحركة الاسترداد المسيحية ، جعلت تعاون المغاربة أكثر ضرورة ، وكانت أسبانيا الاسلامية تستمد قواتها المناضلة من هذا الخزان الذى لا ينضب ، وتتناوب الفرق ويتعاقب المثلون . ويبدو أن الوظيفة الرئيسية للجميع هو « الجهاد » و « المجاهدون » هم جنود الحرب المقدسة ، أو « المرابطون » كما لقب الأوائل أنفسهم فهم محاربون ورجال دين . نحن نعرف أن البعض وجدوا فى هذا السبيل الفرصة فى توسيع مملكتهم ، ولكنهم حصلوا أيضا على إثراء غير مادى ، لأن التضامن الذي يربطهم بإسبانيا وضعهم أمام حضارة مزدهرة استفادوا منها ونقلوا فوائدها الى المغرب بأجمعه .

ومن الناحية الثقافية ، لم تأنف بلاد البربر المتحررة من المشرق ، أن تكون أرضا تابعة ، ولكن لم تأت إليها النماذج الفنية والمؤثرات الأدبية من مصر أو العراق ، بل كانت تأتى من الأندلس المجاور الذى أصبح امتدادا للمغرب . فسوف يحارب فى شبه الجزيرة كل من المرابطين والموحدين والمرينين ويأتون لبلادهم بالأذواق الجديدة وسلوك جديد فى التفكير والإحساس . وهكذا استجاب المغاربة لدروس قرطبة وغرناطة وأشبيلية الفنيه ، فتزينت المغرب بالمبانى التى لا تقل فى رونقها عن مبانى أمراء المسلمين فى أسبانيا بل تتعداها أحيانا . وينتشر هذا الفن الأسبانى المغربى عبر بلاد البربر من الغرب الى الشرق ويصل الى إفريقية التي سرعان ما نسيت ماضيها الذهبى .

هذه الخصائص العامة التى ترتسم فيها آثار إنفصال العالم البربرى عن المشرق ، إذا أضفنا إليها الظروف التي خلقها وجود العرب البدو فى الحياة الاقتصادية والسياسية فى الأجزاء المختلفة للبلاد ، نكون قد أحصينا النقاط الرئيسية التى استهدفنا دراستها فى الصفحات التالية .

الفصل الأول

المرابطون و رقم المغرب

ما أن تظهر قبيلة قوية من الرعاة البدو أو أكثر من قبيلة فى الصحراء ، وتشعر بالمقدرة على غزو أراض أغنى حيث الحياة أسهل ، حتى تستولى على هذه الأرض وتستبد بالمستقرين فيها ، ثم تقلع عن الصناعة الرعوية والتنقل الموسمى ، وتستقر فى المدن المفتوحة . إن هذا التطور طبيعى ، ويرى ابن خلدون فى ذلك التدرج الطبيعى أحد المقومات لتأسيس الإمبراطوريات . هكذا كان تاريخ المرابطين ، غير أن حلقة هذا الصراع للحياة تصطبغ عادة بهدف سامى ، لذلك كانت حركة المرابطين تبدو من الأساس حدث دينى ، إن الرجال الملثمون هم رجال الرباط ، رجال هذا الدير المحصن الذى انقطعوا فيه لدراسة أمور الدين وممارسة التقوى ، إنهم رابطة تخضع لإرشاد استاذ ، لقد تقدموا لنصرة المبدأ الدينى وكانوا معروفين بصلابة العقيدة .

I

المهمة الدينية والحربية للمرابطين (١)

ليس فى هذا المبدأ أى ابتكار ، فهو الميراث القديم لفقهاء القيروان ، ففى

(١) عن المرابطين انظر المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس ، ابن خلدون : تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر ، البكري : المغرب في بلاد افريقية والمغرب ، =

سنة ١٠٣٥ م (٤٢٨ هـ) وعند العودة من الحج ، توقف زعماء من قبيلة لمتونه فى القيروان ، وسنحت لهم الفرصة لحضور دروسا فى الفقه لأبى عمران الفقيه الفاسى المقيم فى المدينة الإفريقية المقدسة ، لتعليم وتدريس المذهب المالكي . لقد أعجبوا هؤلاء الزعماء بعلم ذلك الفقيه المالكى ، وذكروا له ما فى قومهم من جهل بالكتاب والسنة ، وطلبوا منه تعيين واحدا من تلاميذه ، للحضور الى الصحراء ليعلمهم العقيدة والشريعة . لقد تأثر الفقيه من صدق عزيمتهم ، وأراد تلبية رغبتهم ، لكن تلامذته استصعبوا دخول أرض الصحراء وتعليم المتوحشين . فلما لم ينجح الفقيه أبو عمران فى إقناع أحد تلاميذه بالقيروان ، زودهم برسالة موجهة الى تلميذه المغربى « وجاج بن زولو » بسجلماسة الذى جمع تلاميذه بعد استلام الرسالة وعرضها عليهم ، فوافق واحد منهم وهو « عبد الله بن ياسين » ، وكان عالما من أهل الورع والفضل ، لقد استقبله الرؤساء الصحراويين بكل السرور والترحيب وبدأ عبد الله فى تعليمهم شرائع الإسلام ويفقههم فى دين الله .

هدأ الحماس بعد قليل لأن ابن ياسين كان مصلحا متشددا ، فقد حرم على البدو الزواج بأكثر من أربع ، ولكنهم لم يتحملوا هذا النهى ، وفروض أخرى مثل الضريبة الشرعية . فأمام ما وجده من صعاب . فكر ابن ياسين فى السفر الى السودان ، للبحث عن تلاميذ أكثر طاعة . لكن زعيم قبيلة لمتونة ، الذي كان سببا فى وجوده بينهم ، لم يتركه فارتبط به وانشق عن رفاقه المتصلبين

Codera, Decadencia y desaparicion de los Almoravides, Saragosse, 1899 ; A, Bel, Les Benou Ghanya, Paris, 1903 ; Id. article Almoravides dans l'Encyclopédie de l'Islâm ; Lévi-Provençal, Réflexions sur l'empire almoravide au début du XIe siécle dans Cinquantenaire de la Facutlté des Lettres d'Alger, 1932 .

فى الدناسة . فاتجه الإثنان الى جزيرة فى مصب نهر السنغال (*) وتبعهم عدد صغير من وجوه القبائل حيث اعتزلوا وانقطعوا للعبادة ، ودراسة أمور الدين وممارسة التقوى . كان لهذا التصرف تأثيرا أقوى من المواعظ واللعنات .. ولم يمر عليهم وقت طويل حتى اجتمع له ألف رجل من الأشراف .

لم يكن ابن ياسين من علماء الكلام ، مثل فقهاء القيروان ، بل كان فقيها مالكيا لا يدرس إلا القرآن والشريعة والعبادات .. كان مالكيا لبدو صحراويين ، رعاة للجمال .

إذن فلا ضرورة للعودة الى الوراء ، فدراسة القرآن وحديث الرسول غير مجدية وخطيرة سوف تثير فضول مشكوك فى أمره لذلك هجر المرابطون دراسة " الأصول " فى الدين والشريعة ، وخصوصا دراسة الحديث ، واهتموا بدراسة " الفروع " وتشمل الفقه (القانون المدنى) والعبادات .

وعلى كل فنحن لا نهتم بالمذهب الذى لقنه ابن ياسين لتلاميذه ، بل بالمنهج الذى أخضعهم اليه (٢) . لقد مرّس هؤلاء المستقلين ، على الطاعة اللازمة ، وعاقب أخطاؤهم بشدة . ولقد وضع جدولا صارما للعقوبات : حد المفترى عقوبتها ثمانون سوطا ، والتأخير عن ميعاد صلاة الجماعة عشرون سوطا ، ومن فاتته ركعة ضرب خمس أسواط ، وهناك بعض العقاب الذي ينزل بالفرد تبعا للتقصير المرتكب ويجب على الفرد تحمل ذلك بروح التوبة . كما يجب على قريب العهد بطائفة المرابطين تحمل مائة جلدة ، كعقاب للذنوب السالفة ،

---

* لعلها جزيرة تيدرة ، الواقعة بين أنوا كشوط وانواذيبو ، انظر محمد ولد داده : مفهوم الملك في المغرب ص ١٠١ .

(٢) عن بداية المرابطين وحياتهم في الصحراء حتي سنة ١٠٦٧ انظر البكري : المغرب ص ١٦٤ ـ ١٧٢

وتعبيرا عن التوبة الصادقة . وليس هناك ما يخفف شدة الجزاء حتى لو اعترف القاتل بجريمته تلقائيا ، وأبدى الرغبة فى السلوك المستقيم وجب عليه الإعدام . أما الأخطاء الأخرى الخطيرة فهى تؤدى الى الحرمان الحقيقى المماثل لحرمان الخوارج الإباضية التى تشترك مع المرابطين فى عديد من التعاليم .

وتعطى هذه الطائفة اهتماما كبيرا للمسائل المتعلقة بالطعام وقد رفض ابن ياسين أكل لحوم وشرب لبن القطيع الذى لم يدفع عنه الضريبة تلك الضريبة التي تحلل أكله .

والمرابطون طائفة دينية يعيشون داخل الرباط ، ولكنهم فى الوقت نفسه زمرة من المحاربين . لقد اختار ابن ياسين القائد الحربى يحيى بن عمر اللذى بقى هو ورجاله خاضعين للزعيم الروحى «حارس القانون» ويقولون له « أيها الشيخ المبارك : مرنا بما شئت تجدنا سامعين مطيعين . ولو أمرتنا بقتل آبائنا لفعلنا »

إن صاحب « القرطاس » [٣] الذى يقص علينا هذا الحديث ، فبالرغم من عدم التأكد من صحة روايته ، فهى غير مستبعدة ، وتسمح لنا بتصور القوة التى تمثلها هذه المجموعة المتعصبة التى أصبحت آلة للحروب .

وترجع هذه الرواية الصور التي يرسمها لنا المؤرخون للأمراء المرابطين ، فقد قدموا لنا يوسف بن تاشفين ، كنموذج تام للجندى الراهب ، وقد تولى الحكم فى سنة ١٠٦١ م (٤٥٣ هـ) ودام حكمه ستة وأربعين عام ، وعاصر ميلاد وقمة الامبراطورية ، ويقول عنه القرطاس : « كان جوادا كريما ، سخيا ، زاهدا فى الدنيا ، لباسه صوف ، لم يلبس قط غيره ، وأكله الشعير ولحوم الإبل

(٣) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ص ١٢٥

وألبانها ، مقتصرا على ذلك ، لم ينتقل عنه مدة عمره الى أن توفى . » (٤)

هذه البساطة وهذه القناعة تناسب البدوى الذى يعيش فى الصحراء والمعتاد على الحرمان ، وقليل الاهتمام بمباهج الحياة ، التى يزحم الحضرى بها حياته . إن هذا الزهد المتباهى يناسب عادات المصلحين المسلمين ، خصوصا فى بلاد البربر . إذ كانت معظم الإصلاحات فى جميع الأديان تدعى بأنها عودة الى الطهارة الأولى (المنابع الأولى للدين) ، فهذه النزعة تبدو طبيعية فى الإسلام عن أى دين آخر . ليس هناك إصلاح إسلامي ، لم يأخذ منذ المبدأ مظاهر المغالاة في السنة ، والإدعاء بتجديد إسلام أفضل ، أكثر تجريدا ، وخلوا من كل البدع والعبادات الكمالية ، وأقرب الى التقشف الأولى . كان يوسف بن تاشفين زاهدا بالوراثة وبنزعته الدينية ، وبنشأته الصحراوية ، لذلك بدا نموذجا للبطل الاسلامي الذى استردته العقيدة المعرضة للخطر ، أو المجهولة بهذه المناطق .

إن صورة ابنه وخليفته «على» طبقا لما وصفه المراكشى ورغم أنه بعيد عن التقريظ إلاأنها صورة بناءة :« فجرى على سنن أبيه فى إيثار الجهاد ، وإخافة العدو وحماية البلاد ، وكان حسن السيرة ، جيد الطوية ، نزيه النفس ، بعيدا عن الظلم ، كان الى أن يعد فى الزهاد ، والمتبتلين ، أقرب منه الى أن يعد فى الملوك والمتغلبين ، واشتد إيثاره لأهل الفقه والدين » (٥)

تشير هذه السمة الأخيرة الى أهم وجه من أوجه الحياة الدينية للمرابطين . لقد مرت السلطة الروحية بعد ابن ياسين منشئ الحركة ، الى ابن حمدين الذى

(٤) المصدر السابق ص ١٣٦ .

(٥) المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١١٠

لم يكن له خليفة ، وتلقاها من بعده الفقهاء المتخصصين فى الفقه المالكى ولازموا عمل ابن ياسين واستمروا فى توجيه أعمال الخلفاء . وفترة المرابطين هى عهد الفقـهاء ، ويذكرنا دورهم ، بدور رجال الدين القيروانيين أيام الأغالبة ، والإباضية فى مملكة تاهرت ، ولكنهم يختلفون عنهم قليلا ، أنهم مشتركون اشتراكا مباشرا فى سير أمور الدولة ، وفى حياة السلالة الحاكمة . لقد خصص لهم ابن تاشفين مرتبات وسوف يقوم ابنه بزيادتها .. إنهم يحضرون مجلس الأمير ، ويرافقونه فى تنقلاته .. وبما أنهم يساهمون فى الحكومة المركزية ، فهم يعاونون الحكومة والعدالة فى المقاطعات ، ويصبح هذا التعاون كاملا ودائما فى عهد على بن يوسف . ويقول المراكشى كان إذا ولى أحدا من قضاته ، كان فيما يعهد إليه ، ألا يقطع أمرا ولا يبت حكما فى صغير من الأمور ولا كبير ، إلا بمحضر أربعة من الفقهاء .

إنهم يختلفون عن رجال الدين الإباضية ، فلا يكونون مجلسا قويا له سلطة روحية مستبدة ، لمراقبة الحكم والتصديق على تجاوزاته . فالفقهاء ليست لهم السلطة ، إلا اذا طلب منهم ذلك ، إنهم فقهاء بالمعنى الحقيقى للكلمة . إن الفقهاء يبدون رأيهم « بالفتاوى » علاوة علي الارشادات ، التى يطلبها منهم الأمير وعملاؤه فى كل مناسبة ، وفيما يخص مزاولة الحياة اليومية . والفتوى بوجه عام هي إجابة يطلبها المسلم المتردد فى الحصول على حقوقه ، والحريص على واجباته ، أما بالنسبة الى موضوعنا فهى أسلوب تتصرف الحكومة فى حدوده ، وطريقة يطلبها الأمير لتطبيق عمل نافع مشكوك فى شرعيته . ويبدو أن الفتاوى لم تكن معروفة قبل وصول المرابطين الى أسبانيا . وقد صدرت الفتاوي الأولى - عدا السهو والغلط - بمناسبة المنازعات التي نشبت بين الأمراء الأفارقة وأمراء الأندلس ، هذه المنازعات التى أدت الى قتال المسلمين بعضهم البعض . ومن السهل معرفة الأسباب : إن

الفتوى الصادرة من سلطة لا جدال عليها ، لا تملى على الفرد سلوكا معينا فقط ، بل تفرض على المتضرر قبولها لشرعيتها ، مهما كانت صارمة . عندما قص علينا المؤرخون أن أبرز الفقهاء فى أسبانيا حينما طالب ابن تاشفين بمحاربة المسيحيين ، كان يتكلم عن رسالة وعن توجيه . ولكن عندما أراد ابن تاشفين الحصول من المعتمد ملك أشبيلية على الجزيرة الخضراء كقاعدة لعملياته الحربية ، طلب الأمير المرابط من الفقهاء إصدار فتوى معلنين فيها أن من واجبه محاربة ملك ليون وقشتالة المسيحى ، وأن عليه الاستيلاء على الجزيرة الخضراء للقيام بواجبه ، إذا لم تقدم له من قبل ملك أشبيلية ، وقد حصل فعلا على هذه الفتوى .

إن الفقهاء الأندلسيين هم أنفع المساعدين لسياسة المرابطين ، فالبطل الإفريقى هو المنتقم للإسلام ، وفى نفس الوقت محافظ على الطائفة الدينية ، ويجد دائما فى هؤلاء الصالحين فى شبه الجزيرة المساعدين الأكثر إخلاصا . ففى سنة ١٠٩٠ م (٤٨٣ هـ) حصل منهم على فتوى جماعية تبيح استبعاد جميع أمراء المسلمين الصغار ، إنهم رؤساء الطوائف الذين طلبوا منه المساعدة . فقد أدينوا بالاستهتار والفجور والكفر ، والمثل السيئ لشعوبهم ، فقد عابوا عليهم جباية الضرائب التى لا ينص عليها الدين رغم أوامر ابن تاشفين ، وعقد تحالفات مع ملك القلاع عدو الإسلام . لقد تحلل ابن تاشفين من وعوده تجاههم ، والعمل المجدى هو خلعهم من على عروشهم .

كانت هذه الفتوي قيمة ، وأقرها الأمير المرابط من فقهاء المغرب الذين لم نتكلم عنهم بعد فى هذا الصدد ، كما وصله من المشرق استحسان وموافقة من إثنين من أكبر علماء الدين فى ذلك الوقت وهم : الطرطوشى والغزالى .

إن علماء الدين فى العالم الإسلامي يتابعون بإعجاب أخبار المغاربة الذين يدافعون عن حدود الإسلام ، ولكن من الخطأ اعتبارهم أداة طيعة لرفعة

المرابطين ، فإنهم يشعرون أمام هذه السلطة بقوة سلتطهم الروحية لترجيح السنة ، إذا أرادت السلطة الدنيوية الحصول على بعض الحريات . لذلك يجب من الناحية الشرعية تبرير تدخل الفقهاء فى العلاقات بين المرابطين وخلفاء بغداد .

إن تسلسل الأحداث غير مؤكد ، ويعطينا المؤرخون ، وعلم المسكوكات ، معلومات غير متطابقة ، وقد ناقشها ماكس فان برشم فى موضوع ممتاز تحت عنوان « ألقاب خلفاء المغرب » (٦) . ونرجع لابن الأثير رغم أنه مشرقى إلا أنه شديد الإلمام بتاريخ البربر ويعطينا ولمرتين شرحا مقبولا للأحداث (٧) . إنه يضع هذه الأحداث بعد انتصار الزلاقة إذ بعد أن يعود ابن تاشفين الى المغرب منتصرا ، ويحصل وهو فى عاصمته مراكش على استسلام المناطق المختلفة التي كانت متمردة عليه ، يقوم الفقهاء بتخفيف الغرور الذى قد يصيبه نتيجة لهذه الانتصارات فقالوا له ينبغى أن تكون ولايتك من الخليفة ، لتجب طاعتك على الكافة فأرسل الى الخليفة العباسى رسولا ومعه هدايا كثيرة وكتب معه كتابا يذكر ما فتح الله من بلاد الفرنج وما اعتمده من نصرة الإسلام ، ويطلب تقليدا بولاية البلاد ، فكتب له تقليد من ديوان الخلافة بما أراد ولقبه أمير المسلمين وسيرت إليه الخلع فسر بذلك ابن تاشفين سرورا كثيرا ، وجعل الخطبة باسم أمير المؤمنين العباسى ولقب نفسه بأمير المسلمين . ويقول فان برشم « إنه لقب خليفة مزيف » . هذا اللقب كان غير معروف من قبل فى بلاد البربر وقد منح للمرابطين ، إن لم يكن قرروه لأنفسهم . هذا اللقب أولاهم بسمة شبه دينية ، اتجهوا بفضلها ، ورغم الفقهاء ، نحو التحرر الذى سيحققه الموحدون بعد أربعين عام .

(٦) Journal asiatique, 1907, I , p. 270 .

(٧) ابن الأثير : الكامل ٨ : ٧١ ، ٢٣٦

لقد حكم المرابطون غرب إفريقية (موريتانيا والصحراء) والمغرب وأسبانيا ، بعيدا عن أية رقابة مشرقية ، فى مقابل هذا الاحترام للخليفة البعيد ، وتمتعت مملكتهم باستقلال تام . إنها مملكة بربرية ، وهم أنفسهم يحتفظون فى ظــاهرهم بالطابــع البربرى الصحراوى الذى كانوا عليه فى الماضى . ففى المدن الأندلسية التي حكموها ، أصبح اللثام علامة شرف وإشارة المنتصرين ، ولبسه محرم على غيرهم ، وسيبقى حتى آخر يوم من سلطانهم (٨) وحتى بعد ذلك ، لدرجة أنه بعد نصف قرن ، عندما جاء أخوتهم « بنو غانية » من جزر البليار ، ونزلوا فى بجاية لإعادة حكم ابن تاشفين وسلالته ، كانوا لا يزالون ملثمين بالقناع الأسود (٩) .

إلا أن نساءهم مثل نساء الطوارق المعاصرين ، كن يخرجن سافرات ، ويتمتعن بحرية فى المظهر ، تؤكد أصلهن البربرى ، وعاداتهن البدوية . إن الأحداث المعاصرة لقيام الدولة تمنح لنساء العشيرة مكانة مرموقة ، وخاصة لزينب الحسناء ، وكان الحصول على هذه المكانة شرطا أساسيا للمارسة القيادة ولقب « ساحرة » المطلق عليها يوحى إلينا بذكرى الكاهنة ، البطلة المشهورة للمقاومة البربرية . وسوف تشترك النساء فى تاريخ المرابطين حتى النهاية ، وحتى فى تاريخهم الحربى ، فقد قامت واحدة منهن بقيادة الدفاع عن قلعة مراكش ، وقد احتفظن بطبيعة الحياة التى كن يعشنها فى المعسكرات الصحراوية . ويتأكد لنا ذلك بحلقة من ملحمة المصلح الموحدى ابن تومرت .

---

(٨) البيدق : أخبار المهدي بن تومرت ص ٥٦ ـ ٥٧ Lévi-Provençal, Documents inédits d'histoire almohade, Paris, 1928, p. 108

(٩) الغبرينى : عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تحقيق رابح بونار ، الجزائر ١٩٧١ م ، ص ٦٨ ، ابن عبدون فى Journal asiatique, 1934, II, p. 218 .

ونرجع بهذه القصة الى ابن الأثير (١٠) عندما كان فى مراكش « فبينما هو فى بعض الأيام فى طريقه ، إذ رأى أخت أمير المؤمنين فى موكبها ومعها من الجوارى الحسان عدة كثيرة وهن مسفرات ، وكانت هذه عادة الملثمين يسفر نساؤهم وجوههن ، ويتلثم الرجال فحين رأى النساء كذلك أنكر عليهم وأمرهن بستر وجوههن وضرب هو وأصحابه دوابهن فسقطت أخت أمير المؤمنين عن دابتها » .

وهكذا نرى أن الذى يثير سخط ابن تومرت هو التأصل عند المرابطين لهذه العادات البدائية التى لم تمحها حياة المدن . إنه يلعن أيضا الممارسات التي أصيبوا بها من العدوى الأجنبية والعادات التى تعودوا عليها فى أسبانيا .

II

الأندلس وتطور العادات

عندما نزل الصحراويون للمرة الأولي في شبه الجزيرة ، كان ذلك في سنة ١٠٨٦ (٤٧٩هـ) وكان قد مضي علي انهيار خلافة قرطبة ستة وخمسين عام إنه نصف قرن لتاريخ غامض ، ليس به مجد ، نحن نعرف أنه بعد فترة من الفوضي والشقاق ، عاد توازن نسبي بتقسيم الدولة الأموية الأندلسية بين أمراء صغار. وقد قرن المؤرخون العرب والمؤرخون الأسبان هذه الفترة بتسمية سخيفة وهى : ملوك الطوائف أو رؤساء الطوائف . لم تضف هذه الأسرات أى شئ للمجد الحربي للإسلام ، حتي أسرة العباديين في أشبيلية وهي أقوى هذه الأسرات . ومع ذلك تبدو هذه الفترة بصورة مشرقة في تاريخ الحضارة

(١٠) ابن الأثير : الكامل ٨ : ٢٩٥ ، عن دور النساء انظر المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١١٤ ـ ١١٥ ، ١٢٠ .

الإسلامية . لقد تقاسم الأمراء ميراث الأمويين بما فيـه الفن الذي نما في قرطبة ، وازدهار قصور هؤلاء الأمراء ، غرس هذا الفن في الأقاليم وساعد علي تطوره ولقد وجد الأدب أيضا حظه في هذه القصور الجديدة وازدهر الشعر (١١) ، والشعر الوصفي وشعر الغزل الذي يتغني بجمال الحياة ولكن يتخلله أحيانا إحساس عميق بعدم الأمان الذي يحيط به ويعمل علي زوال سعادته ، لقد قال المعتمد ـ الملك الشاعر الذي مات بائسا في سجن مغربي ـ :

« أنفض يديك من الدنيا وساكنها   فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا » (*)

أما تطور العلوم الدينية فلم يكن لها مجال عند رؤساء الطوائف .

سوف يحكم المرابطون الذين نزحوا من الصحراء هذا العالم الأندلسي ، حيث الفن والحفلات الدنيوية التي تُشغل عن هموم الساعة . لم تكن هذه الأباطيل الدنيوية في بادئ الأمر خلابة بالنسبة لهم ، بل كانت تثيرهم . وقد أصرّ المؤرخون علي التناقض القائم بين أمراء الأندلس والذين جاءوا لنجدتهم . فبالنسبة لشعراء بلاط أشبيلية يعتبر يوسف بن تاشفين ، نموذجا للرجل الهمجي لأنه لا يستسيغ الشعر العربي . أما بالنسبة للذين يروا في هذا المتوحش ، المنقذ الغير منتظر للإسلام ، فقد أرخوا لنا أحاديثه الأخلاقية مع المعتمد والمحيطين به ، عن رغباتهم التافهة ، والنفقات الباهظة لإشباع هذه الرغبات ، والعبء الذي يقع علي الشعب نتيجة لذلك (١٢) .

(١١) عن هذا الشعر ، أنظر Henri Pérés, La poésie andalouse en arabe classique au XIe siécle, Paris, 1937 .

(*) أنظر ابن خاقان : قلائد العقيان ص ٣٢ .

(١٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٧١ ، ٧ : ١٢٠ ، ـ

لكن هذه الشدة في المبادئ لن تلبث أن تلين ، فالسحر الأندلسي له مفعوله ، نحن نقر أن ابن تاشفين احتفظ حتي النهايـة بتقشف الجندي الناسك ، لكن هذا الفاتح كان من البراعة ليأخذ من نهاية هؤلاء الملوك عبرة . ومن المحتمل أنه لم يتذوق شخصياً الشعر الأندلسي ، لكنه تنبه أن الشعراء كانوا من لوازم البلاط الأندلسي ، ومن الصالح اختيار رجال حكومته من بين المثقفين في البلاد ، خصوصا إذا أثبتوا مقدرة علي ذلك . ومن البديهي أن الشعراء أنفسهم كانوا مستعدين لتقديم الولاء لهؤلاء المنتصرين الأفارقة : ابن عبدون شاعر ملوك بطليوس رثا أسياده في مرثية مشهورة وشبّه فيها سقوطهم بأكبر كوارث التاريخ (١٣) ولكنه لم يتردد في خدمة الذين أسقطوهم . وبعد أن ذكر المراكشي أن « عامة الفضلاء من أهل كل شأن منسوبون إليها (الأندلس) فهي مطلع شموس العلوم وأقمارها » يقول لنا بعد فتح ابن تاشفين لاشبيلية واعتقال المعتمد « فانقطع الى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه فى عصر من الأعصار » (١٤) . ونفس المؤرخ قدم لنا « علي بن تاشفين » كنموذج للزهد والتقوى . ورأى عهده انتصار الفقهاء ، وفي نفس الوقت يشير إلي تطور الأذواق والعادات عند الأفارقة الملحوظ . إن «علي»

Dozy, Recherches sur l'histoire politique et littéraire de = l'Espagne, 2e éd. Leyde 1881, I. p. 343 , et contra, F. Codera, Decadencia y desaparicion de los Almoravides, p. 191 .

(١٣) Dozy, Commentaire historique sur le poéme d'Ibn Abdoûn par Ibn Badroûn, Leyde, 1846 .

(١٤) المراكشي : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ١٠٤ .

لم يذهب أبدا إلي الصحراء مسقط رأس أبيه ، وكانت أمه جارية مسيحية وقد ولد في سبته وهي مدينة شبه أندلسية ، كما قضي الجزء الأكبر من حكمه في أسبانيا . هذا الحكم دام ستة وثلاثين عام (١١٠٦ ـ ١١٤٢) . وقد رأت هذه الفترة التعجيل في أسبانيه المغرب ، وتبني أمير المسلمين لعادات رؤساء الطوائف دون مراعاة لمبادئ المرابطين .

ومن المحتمل أنــه في عهد علي بن يوسف ، يرجع تكوين الحرس المسيحي (١٥) نحن نعرف المكانة التي كان يحتله هؤلاء المرتزقة في الجيوش الأسبانية في ذلك الوقت ، ونعرف على الأقل أشهر قوادهم « رودريج دياز دو فيفار الكمبيادور (١٦) وشهرته « السيد » . لم يستحق هؤلاء المرتزقة المكانة التي استحقها « السيد » عند الشعراء وكتاب الدراما ، ومع ذلك فكثير منهم كانت له سمات مشتركة معه ، هذه السمات هي : العزم والشجاعة وحب المغامرة والرغبة في الإثراء التي تتفق مع المثل الأعلي الشريف ، روح الاستقلال المتعادلة مع الإخلاص تجاه الرئيس الحالي مسلما كان أو مسيحيا ، عدم الإنسانية المخيبة للآمال أحيانا وهي ترجع إلي متطلبات مهنتهم . هكذا كان الفارفنيز Alvar Fanz أو جارسيا اوردنيز Garcia Ordenez وهما من قشتالة وكذلك الربرتير Reverter من قطلانيا أشجع المدافعين عن

---

(١٥) J. Alemany, Milicias cristianas al servicio de los sultanes musulmanes, dans Homenaje a D. Francisco Codera, Saragosse, 1904 p. 135 .

(١٦) R. Menendez Pidal, La Espana del Cid, 2 vol. Madrid 1928 ; R. Dozy, Recherches sur l'histoire politique et littéraire de l'Espagne, p. 128 , E. Lévi-Provençal, Le Cid de l'histoire dans la Revue historique, 1937, p. 58 .

المرابطين وقد استشهد في معركة مع الموحدين (١٧) .

لقد عينه علي بن يوسف « قائدا للروم » وكان تحت قيادته كثير من المسيحيين المجندين مثل الربرتير نفسه ومن بين أسرى حرب أسبانيا ، ولكن كثير منهم كانوا متطوعين ، جاءوا بمحض إرادتهم إلي أرض إسلامية ، مثل طائفة الأغزاز المرتزقة الأتراك الذين جاءوا أيضا في نفس الوقت . فالأتراك والمسيحيون كانوا يقدمون للمرابطين الخيالة التي تنقصهم ، وكان المسيحيون موضع تفضيل من قبل العاهل الإسلامي ، فكانت لهم كنيستهم (كانت في مراكش كنيسة مهداة إلي القديسة أولالى Sainte-Eulalie) وقساوستهم وأسقفهم . ويروي تاريخ الإمبراطور الفونس السابع أن عدة آلاف منهم ، عادوا مع أفراد الكنيسة إلي طليطلة سنة ١١٤٧ (٥٤٢ هـ) أثناء احتلال الموحدين لمراكش ، ونحن لا نقبل هذا الخبر بسهولة إذا كان المقصود بهم عبيدا (١٨) إن حملات المرابطين علي أسبانيا ، وغزواتهم في البلاد المسيحية ، كانت تحتفظ بطابع الجهاد المقدس الذي يقوم المرابطون وأتباعهم المسلمين به أما عمل الخيالة المسيحية المرتزقة فقد كان في بلاد البربر ، وكانوا يشغلون القلاع التي تحمي البلاد المفتوحة ، ويقومون بتحصيل الضرائب فكان هذا العمل موضوعا للدعاية الموحدين ضد المرابطين ، بجانب المواضيع الأخري التي خدموا بها طائفتهم .

قدمت مسألة الضرائب حجة قويه لأعداء الأسرة الحاكمة ، ففي بلد

(١٧) ابن خلدون : العبر ٦ : ٣٠٧ . Codera , Decadencia y desaparicion, p. 27 .

(١٨) de Cenival, L'église chrétienne de Marrakech au XIIIe siécle, dans Hespéris, 1927 p. 69 .

إسلامي مسألـة الضرائب لها طابع ديني ، وكان ابن تاشفين وفيـا لتعاليم ابن ياسين ـ القائد الروحي للصحراويين ـ وقد امتنع عن جباية أية ضرائب غير شرعية [19] ووازن بين الموارد الشرعية وموازنة الدولة ، والموارد الشرعية هي : الزكاة المستقطعة من دخل المسلمين ، والجزية وضريبة الأرض المفروضة علي المسيحين واليهود المقيين علي أرض إسلامية ، علاوة علي خمس الغنيمة المأخوذة من الكفار . إن العودة إلي الجهاد المقدس ونجاحها قد ساعد علي ازدياد هذا الدخل . كما كان الفقهاء يشجعون الأمير علي استغلال اليهود ، الذين يقيمون بكثرة في المدن الأسبانية ، وكانوا أغنياء ويربحون الكثير من أعمالهم . وطبقا لنصيحة أحد الفقهاء ، قام ابن تاشفين بانذار اليهود الأغنياء الذين يكونون سكان ليسانه Lucena علي اعتناق الإسلام ، ثم وافق على إعفائهم من ذلك مقابل دفع ضريبة باهظة . وقد ساعد الاعتدال في المطالبات الضريبية للمسلمين ، علي رغبة الصحراويين للذهاب إلي شبه الجزيرة ، وجعل وجودهم مقبولا ، ونحن لانزال نتذكر عتاب ابن تاشفين لرؤساء الطوائف في هذا الصدد . كما أنه حاول جباية ضريبة استثنائية من سكان المريه إلا أنه واجه معارضة صارمة من قاضي المدينة . [20]

ويبدو أن ابنه «علي» الذي كان يكن للسلطات الدينية كل الاحترام ، قد أعاد في المغرب الضرائب الغير شرعية ، وخاصة ضريبة الأسواق والمسماة «قبالة» وهي ضريبة غير مقبولة من الشعب ، إلا أنه كان في حاجة إليها أو كان من المهارة ليجعل الفقهاء يقبلون مخالفة تتطلبها الحالة الإقتصادية

(١٩) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس ص ١٣٧ .

(٢٠) Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne , éd. 1932, III, p. 158, 159, 161 .

للدولة . إن الجغرافي الإدريسي (منتصف القرن الثاني عشر) عندما يكلمنا عن مراكش [٢١] يخبرنا عرضا « وأهل مراكش يأكلون الجراد ، ويباع فيها كل يوم منه ثلاثون حملا ، وعليه قباله ، وكان أكثر الصنائع بمراكش متقبلة عليها مال لازم مثل سوق الدخان والصابون والنحاس الأصفر وغزل النسيج وغيرهما ، وكانت القبالة على كل شئ يباع ، فلما صار الأمر للموحدين قطعوا تلك القبالات وأرحوا منها ، واستحلوا قتل المتقبلين لها ، فلا ذكر لها في بلادهم » . وبذلك استأنف الموحدون ضد المرابطين وبنجاح الحملة التي سهلت نجاح المرابطين في خلع الملوك الأندلسيين . فهؤلاء الملوك قد اقترحوا وبدون قصد علي المتصرين هذه الضرائب في نفس الوقت الذي بثوا فيهم حب الشعر وأشياء حديثة أخري مشبوهة !

وعلي كل فقد تأثرت حياة المغرب بهذه العدوي ، والمقصود هنا حياة الحضر فبعد أن انهارت الخلافة ، وفقدت الممالك الصغيرة الاستقلال الزائل ، قامت الأندلس بضم المغرب الغربي وجعلت منه مقاطعة لثقافتها الأدبية والفنية . والقليل الذي تبقي من معمار نهاية القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر يؤكد تأثير فن قرطبة ومدينة الزهراء أو العواصم الأسبانية الأخرى مثل طليطلة وأشبيلية وسرقسطة علي فن المرابطين . والمسجد الجامع في تلمسان الذي يعود إلي ١١٣٦ (٥٣١هـ) هو أحسن ما تبقي من آثار الأسرةالإفريقية الحاكمة [٢٢] فتصميمهم ساحة الصلاة ، وخطوط الأقواس ، وبناء القبة

(٢١) الادريسي : صفة المغرب وأرض السودان والأندلس من نزهة المشتاق ، تحقيق دوزي ودي خويه . (أمستردام ١٩٦٩ م) ص ٦٧ ـ ٦٨ .

(٢٢) H. Terrasse, L'art hispano-mauresque des origines au XIIIe siécle, Paris, 1932, G. Marçais, Manuel d'art musulman, p. 213 ; W. et G. Marçais, Les monuments arabes de Tlemcen, Paris, 1903, p. 140 .

وتكوين المحراب وكل ذلك اتبع أسلوب المسجد الجامع في قرطبة . ولقد استمر هذا المسجد رغم سقوط مؤسسيه ، الأثر الرئيسي للإسلام المغربي . إنه كالكوكب الميت ، فبؤرته المضيئة استمرت في إلقاء ضوئها بعيدا رغم أنها أطفئت من أكثر من قرن .

الباب الثاني

الموحدون [1] و قمة المغرب

مقدمة

بسقوط مراكش ١١٤٧ م (٥٤١ هـ) ، نصب الموحدون أنفسهم حكاما على مصير بلاد البربر ،. ولم يكن قد انتهى بعد تاريخ المرابطين . فبفضل هؤلاء الحكام الجدد ، ستحقق البلاد مرحلة قاطعة نحو التحرر من الوصاية المشرقية . لقد خصص يوسف بن تاشفين المرابطي لنفسه لقب أمير المسلمين «الخليفة المزيف» ، أما عبد المؤمن الموحدى فسوف يحمل لقب أمير المؤمنين . إن عهد الموحدين ، وبصورة أدق ، فترة المائة والعشرين عام ، التى تبدأ مع قدوم عبد المؤمن سنة ١١٣٢ م (٥٢٦ هـ) حتى كارثة العقاب سنة ١٢١٢ م (٦٠٩ هـ) ، تضع المغرب الإسلامى فى قمة جميع المجالات ، رغم التهديد والتخريب الذى قام به بنو غانية فى البلاد . لقد مد الموحدون النفوذ العسكرى أبعد من الحدود التى توقف عندها المرابطون ، وبذلك فتحوا جميع بلاد

---

(١) عن تاريخ الموحدين أنظر المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ١١٥ ومابعدها ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٨ : ٢٩٤ ومابعدها ، ابن أبى زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس ص ١٧٢ ومابعدها ، ابن خلدون : العبر ٦ : ٣٠٠ ومابعدها ، الزركشى : تاريخ الدولتين ، Chronique des Almohades et des Hafcides (Recueil de la Société archéologique de Constantine, 1884) ; A. Bel, art, Almohades dans l'Encyclopédie de l'Islâm .

البربر ، فجميع الأراضى بين المحيط الأطلسى وخليج قابس ، احتلتها يد واحدة ، وهذا ما لم يحدث من قبل ، حتى أيام مجد الاحتلال الرومانى . وكانت البيعة واحدة ، من شعوب هذه البلاد التى تفيض على الأندلس ، الى السلطة الروحية والدنيوية الموحدية ، كما أن الايرادات التى تحققها هذه البلاد تؤول الى بيت مال (خزينة) واحد حيث مركز هذه الامبراطورية المترامية الأطراف فى المغرب الأقصى . هذه الامبراطورية التى أسسها ابن تومرت ، هذا البربرى من الأطلس المغربى ، بالدعوه ، وبفضل عزيمة لا تعرف الكلل ، فقد قام بإعلان الدعوة ، وفرضها بعد ذلك برابرة من أمثاله ، وللمرة الأولى كان المغرب بسبيل القيام بدور تاريخى كبير ، وأن يصبح واحدا من أقطاب العالم الإسلامي حتى أن مكانة الخليفة الموحدى فرضت نفسها على بلاد إسلامية قديمة مثل مصر . وقد لاحظ ابن الزبير الرحالة ذلك ، كما سبق ولاحظنا أن السلطة الفاطمية ، نشأت هى أيضا عند البربر الجهليين ، ولكنهم لم يكونوا إلا أداة لطموح رجل مشرقى ، ولم تلبث الحركة أن خرجت من المغرب الى المشرق . أما حركة الموحدين ، فقد أثارها رجل مغربى واحتفظ بالمغرب مركزا له ، ويثبت طابعها المحلى ليس فقط شخصية مؤسسها ، بل فى الآمال التى يبلورها ويحققها انتظار الرجل المناسب الذى حقق من ثلاث قرون مضت ، لحاج بنى برغواطة ، وحميم بنى غمارة ، إن هاتين البدعتين فى القرن التاسع ، تسبق حركة الموحدين فى القرن الثانى عشر . لم تكن هذه البدع ، إلا حلقات فى سلسلة التاريخ الإقليمى ، الذى بقى دويه محدودا فى الزمان والمكان . أما حركة الموحدين سيكون لها امتداد واسع ودائم . حقا إن كلمة الموحدين ، لا تذكرنا بالاضطرابات التى هزت المغرب منذ إسلاميته ، بل تذكرنا هذه الكلمة بالأزمات الدينية الموسمية التي كان مسرحها شمال إفريقيا : مثل بدعة الاسقف دونات ، والثوره الخارجية ، والحركة الموحدية . وتبدو هذه البدع على

فترات عدة قرون ، كأحداث متشابهة جدا ، وظواهر لنفس روح الانفصال ، وازدهار موسمى للطائفية البربرية (٢)

I

ابن تومرت و تكوين المذهب الموحدى

هناك غموض يحيط بميلاد ابن تومرت ، والفترة التى سبقت تبشيره . وقد زيف نسبه ليصبح من الأشراف ، ولا نستطيع أن نقرر شيئا حاسما ، فيما يتعلق بالنسب الشريف الذى ادعاه لنفسه . أما تحديد قبيلته « هرغة » فمشكوك فيه : هل نحددها فى قلب الأطلسى الكبير المغربى مع قبائل المصامدة الذين تبنوا عقيدته ، أو من الأرجح تحديدها فى الجنوب على الجانب الشمالى لجبال الأطلس الصغير ؟ نحن نجهل أيضا تاريخ ميلاده ، هل كان عام ١٠٧٦ م (٤٦٩ هـ) ، أو ١٠٨٠ م (٤٧٣ هـ) ، أو ١٠٨٩ م (٤٨٢ هـ) ؟ . ونجهل أيضا عمره عندما اتجه الى المشرق ، ونجهل مراحل سفره ذهابا وايابا . وقد بين جولد سيهر Goldziher أسباب عدم التأكد من كل ذلك (٣) ولكنه أشار أن الطالب المغربى الشاب لم يستطع مقابلة الغزالى العالم الدينى

---

(٢) عن هذا المذهب انظر : Goldziher, Mohammed Ibn Toumert et la théologie de l'Islam dans l'Afrique au XI[e] siécle, préface au Livre d'Ibn Toumert . ابن تومرت : العقيدة ، Codera, Decadencia y desaparicion de los Almoravides, Saragosse, 1899 ; A. Bel, La religion musulmane en Berbérie, Paris, 1938, p. 233 .

(٣) Goldziher, Mohammed Ibn Toumert, p. 5 .

المشرقى الكبير . لا نستطيع الوقوف على أرض صلبه ، إلا عند وصول ابن تومرت الى تونس ، وذلك بفضل نص البيذق [٤] وكان البيذق هذا أحد رفاقه فى رحلته ، ولكنه كان كاتب مذكرات متواضع . عاد ابن تومرت من تونس الى تنيملل ، مارا بقسنطينة وبجاية وتلمسان وفاس ومكناس ومراكش وأغمات . وكان يلقب نفسه « الفقيه السوسى » وكان يجوب القرى والمدن حيث تزايد أتباعه ، وكان ينام فى مسجد المدينة التى يمر بها ، ويأتى الناس إليه لسماع دعوته ، وكان يقيم مددا متفاوتة فى المدن التى يمر بها ، ليعلم الناس أمور الدين . كان قوي الحجة ، فأخـذ فى إصلاح العادات وأخلاق الناس ، وينتقد ما يشاهـده فى مختلف المجالات : يتدخل فى الحفلات الريفية ، ويعارض فى اجتماع الرجال والنساء ، ويشتت مجامعهم ، وينتقد الترف فى الملبس ، ويكسر الآلات الموسيقية فى احتفالات العرس ، وعند الباعة ، ويتفقد السلطات المحلية ، وإذا أحس بخطر ينجم عن تصرفاته هذه كان يسارع بالاختفاء ويتابع مسيرته بعد ذلك .

وتعتبر مراكش هى المرحلة الحاسمة فى طريق عودته الى وطنه ، إنها عاصمة دولة المرابطين ، وسيؤكد فيها موقفه النضالى تجاه حكام المغرب ، والكشف عن الدعوة التى أتى بها من المشرق . لقد وجد فى هذه المدينة الكبيرة « من المنكرات أكثر مما عاينه فى طريقه » [٥] فازداد حماسه للنهى عن المنكر فأينما رأى منكرا من آلة موسيقية ، أو أوانى الخمر إلا كسرها ، وقد أشرنا من قبل عن مهاجمته هو ورفاقه لموكب شقيقة الأمير ووصيفاتها السافرات .

(٤) البيذق : أخبار المهدى بن تومرت ، تحقيق عبد الحميد حاجيات الجزائر ١٩٧٤م ، ص ٣٤ ومابعدها .

(٥) ابن الأثير : الكامل ٨ : ٢٩٥ .

إن دور الرقيب ، والقضاء الروحي ، الذي تولاه ابن تومرت ، في كل مكان وزمان ، لهو فرض على كل مؤمن ، فمن وجد منكرا ، عليه التدخل لمنعه بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه وإن لم يستطع فبقلبه « وهو أضعف الإيمان » (٦) لقد رأينا كثير من المصلحين مثل أبي يزيد « صاحب الحمار » يضعون أنفسهم حكاما متعصبين لتحقيق معتقداتهم الإصلاحية ، وعرفنا عن ابن تومرت نفس المواقف قبل رحيله الى المشرق ، ونفترض أن التعاليم التي درسها هناك ، قد رسخت عنده هذه الرسالة . إن تغيير المنكر هو أساس الشريعة وركن من أركان الإسلام . فإذا كان ابن تومرت ، لم يحضر أحاديث أبي حامد الغزالي (٧) ـ ويبدو هذا محتملا ـ فإنه كان متأثرا بأفكاره ، ولقد استوحى من هذه الأفكار عندما كان في مراكش ، وجادل جماعة من الفقهاء ، في حضرة الأمير علي بن يوسف . أفحمهم جميعا ، وكشف عن جهلهم في الشريعة والعقيدة . وكان من بينهم الأندلسي مالك بن وهيب أحد كبار علماء عصره وهو الذي أدرك خطورة أقـوال ابن تومرت ولذلك سيصبح من ألد أعدائه . واستنادا الى الغزالي كان ابن تومرت يعتبر الفقه والفتاوى من العلوم الدنيوية فليس هذا هو الدين وليس علما من علوم الدين .

إن ابن تومرت يعلن بضرورة تفسير القرآن تفسيرا مجازيا ، استنادا الى الغزالي ، الذي استند الى الأشعري ، المنحدر من المعتزلة . إذا أخذ ما ورد في

---

(٦) Goldziher, Mohammed ibn Toumert, p. 85 .

(٧) عن الغزالي أنظر D. B. Macdonald, art, Al-Ghazali dans l'Encyclopédie de l'Islâm ; Goldziher, Le dogme et la loi de l'Islam, Paris 1920 , p. 149 ; Wensinck, La pensée de Ghazzâli, Paris, 1940 ; M. Asin Palacios, La espiritualidad de Algazel, 2 vol, Madrid, 1924-1925 ; J. Obermann, Der philosophische und religioese Subjectivismus Ghazalis Vienne 1921 .

القرآن بأن الله يرى ويسمع ... ألخ فهذه الصفات مجرد صور ومجازات ، أما اذا أخذت بالمعنى الظاهر ، وقيل أن لله عيونا يبصر بها ، وآذانا يسمع بها ، فقد اتصف الله بصفات من ذاته ، وأصبح على شكل إنسان ، وبذلك أخذ المتكلمون المرابطـون ، وبالتـالى هدموا التجريد ، ووحـدة الله المطلقـة أو « توحيده » ، وانتهوا الى الشرك والتشبيه . إذن تصور ابن تومرت لوحدة الله هي النقطة الأساسية فى مذهبه ، وعلى أساس هذا التصور أصبح مدافعا عن هذا المذهب ، الذي سماه « التوحيد » وسمى أتباعه « الموحدون » .

لن يبقى ابن تومرت تلميذا للذين كونوا فكره بل تحرر بطريقته من الوصاية المشرقية . إذا كان قد إنجذب لتعاليم الغزالى ، أو أتباعه ، فإنه لم يتبنى كل أفكار الغزالى ، الذى جدد العلوم الدينية ، لأنه يختلف عنه فى الطباع . نحن نعرف أن الغزالى بعد أن كان الفقيه والمتكلم المشهور فى المدرسة النظامية ببغداد ، أعتقد عند سن الأربعين ، أن العقلانية لا توصل الى الحقيقة ، فاعتزل الدنيا وبدأ يبشر بحب الله والخوف من عذاب الآخرة ، وأصبح معلما لحركة صوفيه واسعة ، هزت المغرب نفسه . رغم أن ابن تومرت كان زاهدا ، إلا أنه لا يميل الى الصوفيه ، وليس فى مذهبه أى شئ من دين المحبة ، ويختلف بتكوينه وثقافته وطباعه ، عن الاستاذ المشرقى العظيم ، المعروف بمرونة الطبع والتسامح أحيانا . فابن تومرت مغربى جبلى ، وسوف يستخدم القوة والحيلة لنجاح المبادئ التى جلبها معه ، إنه يريد غرس هذه المبادئ فى عامة الشعب ، على عكس الغزالى والفلاسفة الذين لا يرون أن تكون نتائج تفكيرهم « علما للعامة » ، وسوف يفرض دعوته ومفاهيمه عن التوحيد والتجريد على المصامدة الجهلة الذين يسهل التأثير فيهم لقد عرض مذهبه بلغة البربر ، حتى يكون مفهوما أكثر ، وعلى كل فهو لم يهتم باقناعهم لأنه يفرض عليهم عقيدته ، لم يكن إذن مبشرا بل داعي لتجنيد

مناضلين للجهاد المقدس ، فهو المطاع لأنه لا يخطئ ولا يخدع : إنه الإمام المعصوم .

لم يكن قد وصل الى هذه المرتبة وهو فى مراكش ، التى تركها خوفا من القبض عليه . وبفضل نص تابعه الوفى « البيذق » عرفنا مراحل جولته عبر بلاد الأطلس ، حتى وصل الى هرغة وهى القرية التي ولد فيها ، كما عرفنا وصوله الي تينملل بوادى نفيس ، حيث استقر وأعلن أنه المهديّ . ومثلما فعل ابن ياسين ، الفقيه البربرى للمرابطين ، قام المهدى بجمع كبار المصامده ، وخاطب رؤساء العشيرة ، وشرع فى تدريبهم تدريجيا . ودون لهم رسالة بها معتقداته ، بلغة البربر ، وبعد أن كسب ثقتهم ، دعاهم الى اتباع مبادئه ، التى لا تهدف ـ كما يدعى ـ إلا الى إصلاح العادات ، ومنعهم بطريقة قاطعة بعدم سفك الدماء ، ومتابعة خصوماتهم الداخلية ، وصراعهم العشائرى ، الذى يضعف وحده المصامدة ، وفى نفس الوقت عمل على اختيار صحابته من الذين كانوا أكثر تأهيلا لنشر دعوته ، وأخذ يرسلهم الى القبائل ، لتجنيد أنصار من بين رؤسائها . وعندما وثق في ولائهم بدأ يكلمهم عن « المهدي » المنتظر سليل محمد الذى « يرفع الباطل ويثبت الحق ويملأ الدنيا عدلا ، كما ملئت قبله ظلما وجورا » . وأشعل فيهم الرغبة لرؤيته ، ثم أعلن لهم بعد ذلك أنه المهدي . وعرض عليهم الأحاديث التى تنبئ بظهوره والنسب الذى يربطه بالرسول . ويقول المراكشى : « فبايعوه على ذلك ، وقال أبايعكم على ما بايع عليه أصحاب رسول الله (ﷺ) » (٨) . هذه النقطة بالذات تؤكد الفكرة المتسلطة عليه ، فقد حاول ابن تومرت الاقتداء بالنبى ، فى كثير من المواقف ، وبذل كل وسعه فى سبيل ذلك ، لأنه كان يعرف كل تفاصيل

(٨) المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ١٢٠ ـ ١٢١ .

سيرة النبى ، بما كان يحفظ من أحـاديث . وكما فعل النبى بالهجرة الى المدينة ، كانت مدينة تنيملل المرحلة الأخيرة لهجرة ابن تومرت . ولكن قبل الوصول اليها فرض على نفسه وعلى أتباعه خلوة فى غار إيجلي ، للتعبد والصلاة ، كما فعل محمد عندما اعتكف فى غار حراء . أطلق على أتباعه اسم الأنصار اقتداء بما فعل الرسول بأنصاره سكان المدينة . قام ابن تومرت بإعلان النبوة تحت شجرة خروب ، ويذكرنا هذا الموقف بقسم الشجرة ، هذا القسم الذى ربط المسلمين بنبيهم والذي ذكره القرآن . والكتاب الذى تركه لنا ابن تومرت ، مملوء بالأحاديث المزيفة ، المنسوبة للنبى ، والتى يكيفها ابن تومرت حسب الظروف .

بهذا الاقتداء ، استطاع ابن تومرت تأسيس امبراطورية جديدة ، غرسها قوية فى أرض المغرب ، لأنه أراد خلق مجتمع فاضل مماثل للإسلام الأول . لكن هذه الحركة بخصائصها وبروح صاحبها تعتبر حدث بربرى ، كما أن الاعتقاد فى المهدى والأمل فى ظهوره كانت متأصلة كما قلنا فى معتقدات البلاد . ويبدو أن المغرب ـ من بين كل الأقاليم الإسلامية ـ كانت مشغولة بهذا الانتظار . وبالنسبة للمغرب كانت الآمال كلها متبلورة ولظروف غامضة نحو منطقة السوس ، وكانوا حتى نهاية القرن الرابع عشر لا يزالون ينتظرونه ، ويقول ابن خلدون «ونجد الكثير من ضعفاء البصائر يقصدون رباطا بماسة .... واعتقادهم أنه منهم أو قائمون بدعوته ... فتقوى عندهم الأوهام فى ظهوره هناك بخروجه عن ربقة الدولة ومنال الأحكام والقهر » (٩)

ولا شك أن ابن تومرت قد استفاد من هذه المعتقدات التى كانت تجعل من المهدى بطلا للفلوكلور المغربى ، التي كانت تلمح بإمكان المغرب القيام بتجديد

(٩) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٢٨ .

الإسلام وهكذا كانت الأرض المغربية مجهزة لاحتضان ما يناسبها من معتقدات ، وأسرع الإمام المعصوم باستغلال ذلك ، فرغم أصله البربرى ولهجته القروية ، فقد أضاف الى نفسه ألقابا شريفة أسوة بما يتبعه العرب ، هادفا لتأسيس دولة دينية على غرار دولة الرسول بالمدينة . هذه الدولة الإسلامية هى دولة بربرية تقتبس مقوماتها من المجتمع الذى نشأت بين جدرانه والذى سيساعد على نموها .

ورغم اختلاف آراء المؤرخين حول التنظيم الموحدى ، إلا أنه يمكن تصوره كالآتي : كان فى قمة التسلسل « الجماعة » أو « جماعة العشرة » إنهم أتباعه الذين رافقوه فى سيرته والأشخاص المخلصون الموثوق بهم مثل الخليفة المستقبلى « عبد المؤمن » « وأبو حفص عمر » الذى سيكون أخلص المساعدين « للمهدى » و « البشير » الذى سيتكفل بالتخلص الدامى من المعارضين والمشكوك فى إخلاصهم والذي مات وهو يحارب المرابطين .

هناك مجلس آخر للحكم وهو « مجلس الخمسين » الذى يضم ممثلين عن قبائل مصامده الأطلس ويكونون ركيزة الدولة الناشئة ، والقبائل الممثلة هى : قبيلة هرغة التي ينتمى إليها ابن تومرت ، وقبيلة تينملل التى استقر فيها ، وقبيلة هنتاته وجدميوه وجنفيسة (١٠) . ويكتب روبرت مونتانى : (كانت معظم هذه البطون تكون جمهوريات صغيرة يرأسها « مزوار » يشابه بدون شك «المقدم » وهو القاضى المعين لمدة عام ولا يزال حتى الآن يزاول مهمته فى نفس الوديان . وخلال الاجتماعات العامة كانت تؤخذ القرارات الهامة ، وقد رأينا فى بداية الحركة الدور الهام الذى لعبته مجالس هؤلاء الزعماء الصغار) . قدمت هذه الجماعات الريفية التماسك المطلوب للمجلس ، لكنه تماسك نسبى

(١٠) R. Montagne, Les Berbéres et le maghzen dans le sud du Maroc, Paris, 1930, p. 62 .

لأن مجلس القبيلة هو بمثابة مجلس شعبى وكانت اجتماعاته صاخبة بها الغيرة والمشاجرات . وكان ابن تومرت يعرف ذلك جيدا ، وتدخل فى أكثر من شجار ، وشك فى إخلاص البعض ، ووجد أنه من الأفضل التخلص منهم ، وكان « البشير » المخلص هو المكلف بهذه العملية . لم يدم قتل المشكوك فيهم وعائلاتهم أقل من أربعين يوما . وبعد هذا الفرز ولسد الفراغ ، يدخل أعضاء جدد فى جماعة الخمسين ، كان هؤلاء الأعضاء من بطون هنتاته ومن رجال تنيملل . ليس هذا كل شئ ، بل قام ابن تومرت بتقوية الركيزة القبائلية للموحدين ، بعمل رمزى ، يتجاوب مع مطامع البربر وعاداتهم القديمة ، ويذكرنا فى الوقت نفسه بالمؤاخاة . التي قام بها الرسول بين المهاجرين ـ رفقاء هجرته ـ والانصار فى المدينة . لقد جعل أيضا أعضاء قبيلة هرغة ، يتبنون أتباعه الغرباء عن قبائل الموحدين . ليصبح أفراد هرغة وأخوتهم المزعومين ، من بين المجموعات التى تكون الشعب المختار . ويظهر هذا التفضيل الموجود بين القبائل من جهة وبين أفراد كل قبيلة من جهة ثانية ، فى الاستعراضات التى تجمع الموحدين المسلمين ، وبطريقة جوهرية عند تقسيم الغنائم .

كان لهذه التنظيمات دور سياسى بجانب دورها الحربى . وكما يقول صاحب الحلل الموشية : « وكان ابن تومرت يعقد الأمور العظام مع أصحابه العشرة ، لا يحضر معهم غيرهم ـ فإذا جاء أمر أهون أحضر الخمسين » وكان دورها استشارى ويتعلق بإعطاء المعلومات ، وإسداء النصائح (١١) .

بموجب مبادئ غير واضحة لنا ، ولكن تبدو حقا وراثيا ، استمر ممثلو هذه العائلات فى المساهمه فى الحكومة ، وتكوين مجلسا للشيوخ الموحدين ، لقد

---

(١١) الحلل الموشيه فى ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامه ، الدار البيضاء ١٩٧٩م ، ص ١٠٨ ـ ١٠٩ .

أعطى المهدى للهيئة الحاكمة ، نفس هيكل التنظيم القبائلى ، وبذلك وهب الاستقرار للارستقراطية بالامبراطورية الموحدية ، واستقرار العشيرة ، التي ستبقى حارسة على تراث المهدى من جيل الى جيل .

وأسرة أبى حفص عمر الهنتاتى كانت من أبرز هذه الأسرات ، وكان أبو حفص من أبرز زعماء الموحدين الأوائل ، ويقول عنه ابن خلدون : « كان يسمى بين الموحدين بالشيخ » .

كان أبو حفص صاحبا مخلصا ، وتلميذا أمينا للمهدى ، وكان شديد الإخلاص لدعوة الموحدين ولعبد المؤمن ، مات المهدى واستمرت وفاته سرا لمدة ثلاث سنوات ، تـأكد فيها أبو حفص أن عبد المؤمن هو الأجدر بالسلطة العليا ، ومهد مع عضوين آخرين فى الجماعة لإعلان ذلك على الموحدين . ويجب أن تدار الأمور بكل حذر ، لأن المرشحين كثيرون ، وكل منهم يعتمد على قوة وأهمية قبيلته . لكن الخوف من اختيار حاكم يتجاوز فى حكمه ، اعتمادا على قوة عشيرته ، جعل أبو حفص يرشح عبد المؤمن « لكونه غريبا بينهم » [(١٢)] . ويبدو أن الدعاية التي قام بها الشيخ أبو حفص قد دعمت هذه الحجة .

إن عبد المؤمن لا تنقصه المهارة فى المناورات ، وكان عليه استخدامها تجاه الشيخ أبى حفص نفسه ، ويروى ابن الأثير فى هذا الصدد ، أن أبا حفص كان ينوى خلافة عبد المؤمن ، بموجب اتفاق مبرم بينهما [(١٣)] . لكن عبد المؤمن كان كثير الذرية ، (يعرف من أولاده ثلاثة عشر) وكان يريد تأسيس أسرة

(١٢) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ص ١٨٤ .

(١٣) ابن الأثير : الكامل ٩ : ٥٠ .

حاكمة ، ولكن كان من الصعب تحقيق ذلك ، لعدم وجود عشيرة ينتمى إليها تساانده . إن الغربة التى كانت سببا فى انتخابه ، هى نفسها التى جعلته عاجزا عن تحقيق آماله أمام تحالف الموحدين .

لم يكن بعد ، قد قام بإحضار أفراد من قبيلته كومية وهران الى مراكش لدمجهم فى قبائل مصمودة كما نظمها المهدى (١٤) . وعوضا عن خلفاء طبيعيين ، لجأ عبد المؤمن الى العرب ، للحصول على تعيين خليفة لضمان المستقبل .

كان هؤلاء العرب ، ممثلين للعائلات الهلالية الكبيرة ، التي هزمها الخليفة الموحدى أثناء معاركة الحربية فى إفريقية ، وأحضرها الى المغرب ، أو التي طلبها بعد ذلك لمساعدته فى محاربة المسيحيين فى أسبانيا (١٥) . وكان كريما معهم ، فجعل منهم أنصارا أوفياء ، قادرين على موازنة السلطة المتشككة لشيوخ الموحدين . اقترح عبد المؤمن على العرب فكرة طلب تعيين ابنه محمد وريثا للخلافة ، فصمم العرب على ذلك ، ولكنه صاح وتمسك بالادعاءات الشرعية للشيخ « أبى حفص » فى الخلافة . أما أبو حفص فقد وجد أنه من الحذر عدم طلب هذا الحق ، وكان من نتيجة هذه الحيلة ، أن استسلم عبد المؤمن الى هذا الاجبار ، وبذلك تأسست أسرة عبد المؤمن وقام الخليفة بإشراك أفراد عائلته فى الحكومة . ولما كان عبد المؤمن حاكما على امبراطورية إفريقية ـ أندلسية ، فقد جزءها الى مقاطعات ، وخصص إدارتها لأبنائه « ممثلين لعبد المؤمن » . لقد حصل عبد المؤمن على هذه النتيجة ،

(١٤) ابن خلدون : العبر ٦ : ١٦٧ ـ ١٦٨ ، جزء من خطاب التنصيب على العرش فى
Levi Provençal, Documents inédits d'histoire almohade, p. 66.

(١٥) G. Marçais, Les Arabes en Berbérie, p. 180 .

بفضل مهارته وعزمه كزعيم بربرى كبير ، زعيم يعرف كيف يوارى نواياه ، بدلا من فرض رغباته بالقوة ، ولكنه لا يتراجع أمام أبشع الأساليب ، إذا اقتضى الأمر ذلك ، مثل الذبح الجماعى للقبائل المغربية الانفصالية ويعطينا البيذق وبهدوء مخيف إحصاءا رسميا عنها (١٦)

إذا كان مستقبل الأسرة الحاكمة قد أصبح مضمونا ، إلا أنه كان خاضعا للظروف التى يفرضها النظام الموحدى . لقد عين عبد المؤمن ابنه « يوسف » وليا للعهد ، بدلا من ابنه محمد الأكبر الذى أظهر عجزا عن ولاية العهد فى الخلافة ، فكان لابد من التصديق على هذا التغيير من الموحدين ، وخصوصا موافقة الشيخ الجليل « أبو حفص » الذى تأخر فى إبداء رأيه . وقد قال ابن خلدون : « أن أبا حفص لم يقر هذا القرار ، إلا بعد أربع سنوات من وفاة عبد المؤمن » حتى استبد غرضه فى حكم أمضاه بمقعد سلطانه وأعجب بفضله ، وأعطاه صفقة يمينه وأعلن بالرضا لخلافته فكانت عند يوسف وقومه من أعظم البشائر وتسمى بأمير المؤمنين سنة ٥٦٣ هـ (١١٦٧ م) (١٧)

كان دور أبى حفص هو إقرار المرشح للخلافة ، والإشراف على السلطة العليا ، ولم يخرج هذا الدور من عائلته . ومع دوام سلالة بنى عبد المؤمن ، دامت سلالة الحفصيين متقلدة سلطة روحية يعترف بها الجميع . ونحن نفترض أن الشيوخ الموحدين الآخرين كانوا يتمتعون بسلطة مماثلة ، ولكنها أقل منها فى النفوذ ، مما يدل على استمرار النظام الذى أسسه المهدى ، والمستوحي من العادات البربرية ، ولكن ينقصنا فقط التعرف بدقة على دور هؤلاء الشيوخ فى الدولة .

(١٦) البيذق : أخبار المهدى بن تومرت ص ١٠٣، ١٢٨، ١٣٩، ١٤٤ .

(١٧) ابن خلدون : العبر ٦ : ٣٧٢ .

يبدو أنهم كانوا يقومون بالقيادات الحربية مثل أبى حفص وأولاده . وكانوا يوكلون لهم بوحدات قتالية للحرب فى بلاد البربر وفى أسبانيا .

كانوا يشاركون فى الحياة السياسية ، مثلما كانوا يفعلون قبل موت ابن تومرت ، الذي لم يكن يتحمل أقـل معارضـة له ، لكنه كان يستمع لنصائحهم ، ولا يحرم أهل بيته من المساندة الروحية لهؤلاء الشيوخ ، عندما كان يكلفهم بتمثيله فى الأقاليم ، وعند تعيين أحد أمراء بنى عبد المؤمن حاكما لإقليم ما ، يضم له شيخ له صفة الوزير ، ونحن نتصوره مستشارا ذو خبرة ، وباعثا للإحترام ، يعطى صفة الشرعية للأعمال الحربية التي يقوم بها الأمير الشاب ، وهو في الوقت نفسه حافظا على التقليد الموحدى المفروض على الخليفة نفسه .

سوف يلجأ خلفاء عبد المؤمن إلى أراء الشيوخ ، أو يتحملون وصايتهم بشئ من الخضوع ، أو الصبر حسب طباع كل منهم ، وحسب مبادئ حكومتهم والسلطة المتوفرة لهم . ففى عهد أبى يعقوب يوسف (١١٦٣ ـ ١١٨٤ م / ٥٥٨ ـ ٥٨٠ هـ) وعهد يعقوب المنصور (١١٨٤ ـ ١١٩٨ م / ٥٨٠ ـ ٥٩٤ هـ) الملتزمين كان الشيوخ من أنفع المساعدين للسلطة ، وفى عهد الناصر (١١٩٨ ـ ١٢١٣ م / ٥٩٤ ـ ٦١١ هـ) بدأت تظهر المحن ، فثورة بنى غانية التي عاونها العرب ، كانت تسود المغرب الشرقى (١٨) ولجأ الخليفة الى شيوخ الموحدين فى هذه الظروف الخطيرة ، وارتأى الجميع عقد سلام معهم ، لكن أبو محمد بن الشيخ الجليل أبي حفص هو الوحيد الذى اقترح الشروع فى حملة كللت فعلا بالنجاح . وبعد ست سنوات استشاره الناصر مرة أخرى ، ليعرف إذا كان من الواجب التدخل فى أسبانيا أم لا ،

---

(١٨) A. Bel, Les Benou Ghânya, ... Paris, 1903 .

وخلافا لما أبداه الشيخ الموحدى من رأى يتلخص فى عدم التدخل ، اشتبك الناصر مع المسيحيين ، وكانت كارثة العقاب سنة ١٢١٢ م (٦٠٩ هـ) .

مات الناصر فى العام التالى ، وترك العرش لابن يبلغ من العمر ستة عشر عام ، والذى حكم تحت اسم المستنصر (١٢١٣ - ١٢٢٤ م/ ٦١٠ - ٦٢١هـ) ، وكان المستنصر قاصرا ، فأصبح للشيوخ أهمية لم يعهدوها من قبل ، كما أن صغر سنه جعل أبا محمد الحفصى ابن الشيخ الجليل أبي حفص يجدد مرة أخرى تصرف أبيه ، ويقول لنا ابن خلدون [١٩] : « وغلب عليه ابن جامع ومشيخة الموحدين فقاموا بأمره . وتأخرت بيعة أبى محمد ابن الشيخ أبى حفص من إفريقية لصغر سن المستنصر . ثم وقعت المحاولة من الوزير ابن جامع وصاحب الأشغال عبد العزيز بن أبى زيد فوصلت بيعته » .

تحرر المستنصر من وصاية الشيوخ بعد أن كبر . أما خليفته عبد الواحد ١٢٢٤ م (٦٢١ هـ) فلم يستطع التخلص من سيطرتهم ، ففى عهد هذا العجوز الصالح الوديع ، سجل الشيوخ تقدما حاسما ورخيما لمستقبل الأسرة الحاكمة . مما اضطره بعد ثمانية أشهر لاعتزال العرش أمام استبداد الشيوخ ، وبعد ثلاثة عشر يوما كان قد شنق ، ويقول صاحب «القرطاس» : « فكان أول من خلع وقتل من بنى عبد المؤمن ، ولم يكن ذلك فيمن تقدمهم من ملوكهم ، ورجع أشياخ الموحدين كالأتراك مع بنى العباس ، فكان فعلهم ذلك سببا لخراب دولتهم ، وذهاب سلطانهم ، وقتل ملوكهم وأشياخهم ، وهو أول باب فتحه القوم على أنفسهم للفتنة » [٢٠]. نصب الشيوخ «العادل» ولكنه شنق بدوره

(١٩) العبر ٦ : ٣٣٧ .

(٢٠) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

بعد حكم دام ثلاث سنوات (١٢٢٤ ـ ١٢٢٧ م / ٦٢١ ـ ٦٢٤ هـ) . إن السلطة المتزايدة للشيوخ عجلت بانحطاط سلالة بنى عبد المؤمن ، وكان هذا الانحطاط محتوما . لكن المأمون الذى خلف العادل حاول وقف هذا النفوذ .

لقد ولد فى مالقة وعاش حتى سن الرجولة فى أسبانيا ، حيث حصل على ثقافة إسلامية واسعة ، وكانت له صلات ودية مع المسيحيين ، وجاء الى المغرب فوجد نفسه محاطا بأعداء ، أو بأنصار مشكوك فى ولائهم ، بدءا بالشيوخ الموحدين الذين قتلوا اثنين من أسرته . وفى الحال قاطع علنا مذهب ابن تومرت ، وأعلن من على منبر المسجد الجامع بمراكش : « أيها الناس لا تدعوه بالمهدى المعصوم ، وادعوه بالغوى الملموم فإنه لا معصوم إلا الأنبياء ولا مهدى إلا عيسى » [٢١]. لقد قام الخليفة بنكران المذهب الذى حصل بموجبه على السلطة العليا ، إن هذه الإشارة المتناقضة للخليفة سوف يلازمها إعدام جماعى للشيوخ المشاغبين حراس المذهب الموحدى .

تحطمت وانهارت هذه الامبراطورية الشاسعة ، بعد أن فقدت الركيزة التي كانت تشكل أساس قوتها ، وسقطت الأندلس الشرقية فى يد ابن هود أمير سرقسطة . وفى إفريقية أعلن حفيد الشيخ أبى حفص استقلاله ، وفى سبتة قام أخو المأمون بثورة ، واستولى يحيى ابن الخليفة الناصر على سجلماسة ومراكش أيضا .

تولى الرشيد الحكم بعد أبيه المأمون ، وكان ذو عزم ومهارة كما حاول بدون جدوى تجديد عهد بنى عبد المؤمن ، وإعادة الوحدة بعودة مؤسسات المهدى ، لكن المغرب أصبح فريسة للمشاغبين ، فكبار الدولة فى ثورة ، ويطالبون بالعرش ، ويجدون مساعدين لا يكلون من القبائل العربيه المهاجرة . كل ذلك

---

(٢١) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ص ٢٥١ .

سهل نجاح أعداء الموحدى : إنهم الغزاة « المرينيون » . لقد أصبحت أيام دولة الموحدون معدودة .

II

الحروب والمهمة الدينية للموحدين

لا مبرر للدهشة ، إذا كان الضعف الداخلى لهذه الدولة ، قد وافقه ازدياد الأخطار الخارجية ، فتاريخ امبراطورية الموحدين تاريخ قتال ، والمجتمع الموحدى فى فكر مؤسسه هو آلة حرب ، كما أن القبائل السبع الموحديه (ست قبائل مصمودية زائد قبيلة كومية) كانت أهم نواة فى الجيش . فالبعض كان بمثابة حامية لمراكش ، والبعض الآخر باق فى بلده تحت الطلب . وينضم لهذه القوة البربرية العرب الذين أتوا من إفريقيـة إلى المغرب عن إضطرار أو إختيار ، ثم المرتزقة الاتراك (الغز) ، ثم الأندلسيون المجندون من شبه الجزيرة للجهاد المقدس ، وأخيرا المرتزقة المسيحيون الذين جندوا بالجيش الموحدى ابتداء من عهد المأمون ، ويعتبر هذا التجنيد دليل متأخر على إهمال مبادئ المهدى .

كان استخدام كل من هذه القوى مستمرا ، فعهد الموحدين يقدم لنا مادة وفيرة لتاريخ حربى . لن أقوم بسرد هذا التاريخ ولكننى سأكتفى بإحصاء ملامحه الكبرى .

انحصرت أول معركة شرع فيها المهدى فى المناطق المجاورة لتينملل ، وحقق بها إخضاع القبائل المتمردة على الدعوة ، أما أول مواجهة مع قوات المرابطين التي تسيطر على السهول ، فقد باءت بالفشل الدامى . بدأ بعد ذلك الانتشار المنتظم للدولة الموحدين عن طريق مرتفعات الأطلس ، ثم الريف حيث قاتل

المصامدة الجبليون على أرض ملائمة لهم .

يعتبر عبد المؤمن من الخلفاء الفاتحين ، لقد قاتل سبع سنوات حتى سنة ١١٤٧ م (٥٤٢ هـ) وانتهي القتال بسقوط مراكش والاستيلاء عليها ، حيث ذبح آخر المرابطين . أصبح حاكما للمغرب الأقصى وحتى حدود المغرب الأوسط ، كما قام بعمليات جريئة فى أسبانيا أخضع بها الأمراء الذين أعلنوا استقلالهم . وفى سنة ١١٥٢ م (٥٤٧ هـ) شرع شخصيا فى فتح إفريقية ، واستولى عليها سنة ١١٥٨ م (٥٥٣ هـ) وتم النصر سنة ١١٦١ م (٥٥٦ هـ) وضاع فى العاصفة الموحديه كل ما تبقى من أسرات صنهاجة وبني زيرى وبنى حماد والأسرات التى اقتسمت ما تبقى منهم . وأبعد المسيحيين عن المهدية ، وروض العرب الهلالية ، ودعاهم للمساهمة فى الجهاد المقدس . وهكذا جمع عبد المؤمن كل بلاد البربر فى يده القوية ، وقسمها الى مقاطعات ، ومسحها بقصد جبايـــة الضرائب ، وقد فاجـأه الموت أثناء شروعه فى الذهاب الى إسبانيا .

أما ردع الثورات التى تهز الدولة البربرية الواسعة ، ومحاربة المسيحيين ، فكان فى عهد يوسف الذى استشهد على أبواب شنترين .

وفى عهد يعقوب سيجد ميدان القتال هنا وهناك انتصارات مدوية ، وأيضا تهديدات ملحة . كان انتصار الأرك فى سنة ١١٩٥ م (٥٩١ هـ) ذروة مجهود الموحدين لانتصار الاسلام . وفى بلاد البربر ينبئ نزول بنى غانية بجاية ـ الممثلين لبقايا المرابطين ـ بالصعوبات التى غرقت فيها أسرة الموحدين الحاكمة .

وسوف ترى العهود التالية تطور هذين الحدثين المرموقين فمن ناحية هناك متابعة الجهاد المقدس الذى انتهى بكارثة العقاب سنة ١٢١٢ م (٦٠٩ هـ) ،

ومن ناحية أخرى استيلاء المشاغبين المرابطين على إفريقية ، وتطلب ذلك تعيين حاكم نشط من سلالة الحفصيين الذى أعاد الوضع المتهدم ولكن فى الوقت نفسه مهّد انفصال هذه المقاطعة الشاذة عن الامبراطورية .

هذا النشاط الحربى للموحدين ، الذى لم ينعم إلا براحة محدودة ، نتيجة للمهمة الروحية ، التي اعتبر الموحدون أنفسهم مكلفين بها . إن أنصار ابن تومرت ، يمثلون الاسلام المناضل أكثر من المرابطين ، فمحاربة المرابطين «أنصار التشبيه » هي فى الأصل حرب دينية ، وقبل أن يقضي عبد المؤمن عليهم قام بتنقية المغرب من بدعة برغواطة الذين استقروا فى السهول المغربية ، منذ خمسمائة عام ، رغم هجوم الحكام المتتاليين على بلادهم بما فيهم المرابطين (٢٢) . وبعد أن تحققت وحدة العقيدة بالحديد والنار فى بلاد البربر الغربى ، حارب الموحدون المسيحيين فى إفريقية وأسبانيا ، يعتبر تحرير المهدية ، وانتصار الأرك ، من أمجد المعارك التاريخية للماضى الإسلامى . كان لكل من الانتصارين دويا عميقا فى البلاد الإسلامية ، لدرجة أنه في سنة ١١٨٦ م (٥٨٢ هـ) بعث السلطان صلاح الدين الأيوبى من مصر وفدا يطلب من الخليفة يعقوب المنصور الموحدى إرسال أسطول لمساعدته فى محاصرة عكا وصور وطرابلس المحتلة من الصليبيين (٢٣) . لقد انقلب الوضع بطريقة غير متوقعة : أصبح المشرق ينتظر المساعدة من بلاد البربر الإسلامية ليتحرر .

(٢٢) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ص ١٣٣ ، ١٩٠ ـ ١٩١ .

(٢٣) ابن خلدون : العبر ٦ : ٣٣٠ ـ ٣٣١ .

III

أهل الذمة و العادات والفن الموحدى

إن القتال هو العنصر الأساسى لتاريخ الموحدين ويتركز هذا القتال ضد الكفار ، ليس فقط بالمصادمات البطولية بل بالتدابير الشرعية ، نتيجة لنفس الحماس الدينى . فقبل الاستيلاء على المهدية ، استولى عبد المؤمن على تونس ، وكان يحكمها بنو خراسان ، ويروى ابن الأثير أن عبد المؤمن « عرض الإسلام على من بها من اليهود والنصـــاري ، فمن أسلم سلم ، ومن امتنع قتل » (٢٤). لم تكن هذه الشدة ثورة تعصب حانق بسبب النجاح ، أو النتيجة الوحشية المباشرة للاستيلاء على مدينة كان أهل الذمة يمثلون فيها نسبة كبيرة ، لقد كانت هذه الشدة توافق روح الموحدين . هناك نص هام للمراكشى يثبت لنا فيه ، أن الاجبار على الإسلام ، كان القاعدة المفروضة على اليهود ، وأن هذه القاعـــدة لا تعفيهم ـ هم وأولادهم ـ من الإذلال بملبس شاذ ، يساعد على مراقبتهم ، ويعرضهم الى كل أنواع المهانة . هذا هو النص (٢٥)

« وفى آخر أيام أبي يوسف ١١٩٨ م (٥٩٤ هـ) أمر أن يتميز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم ، وذلك ثياب كحلية وأكمام مفرطة السعة تصل الى قريب من أقدامهم ، وبدلا من العمائم كلوتات على أشنع صورة كأنها البراديع تبلغ الى تحت آذانهم فشاع هذا الزى فى جميع يهود

(٢٤) ابن الأثير : الكامل ٩ : ٦٣ .

(٢٥) المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٠٣ . Reccueil de la Société archéologique de Constantine , 1894, p. 19-20 , 45 ; F. Fangan, dans Revue des études juives, VI, p. 81, 268, VII, 94 .

المغرب . ولم يزالوا كذلك بقية أيامه وصدراً من أيام ابنه أبى عبد الله إلى أن غيره أبو عبد الله المذكور بعد أن توسلوا إليه بكل وسيلة واستشفعوا بكل من يظنون أن شفاعته تنفعهم فأمرهم أبو عبد الله بلبسان ثياب صفر وعمائم صفر فهم على هذا الزى إلى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ هـ . وإنما حمل أبا يوسف على ما صنعه من أفرادهم بهذا الزى وتمييزه إياهم به شكه فى إسلامهم وكان يقول لو صح عندى إسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين فى أنكحتهم وسائر أمورهم ، ولو صح عندى كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم وجعلت أموالهم فيئا للمسلمين ولكني متردد فى أمرهم » .

حقا إن هؤلاء اليهود الذين أسلموا تحت طائلة الموت ، استمروا فى صميم قلوبهم أوفياء لعقيدة أسلافهم . وسوف يعودون علانية لمزاولة عباداتهم ، بعدما انتهى الاضطهاد الموحدى .

أما النصرانية البربرية ، فقد كانت هي الأخري ضحية لنفس التعصب ، لكنها كانت ممثلة بمجموعات أقل كثافة ، ولم يتبق حتى وقت المحن . لقد اختفت مع الموحدين الجماعات المسيحية التي شاهدناها متميزة عشية الغزو الهلالى ، خصوصا فى المدن التى أسسها الإسلام . أما أسقف قرطاج الذى ظهر أثناء عقد الصلح سنة ١١٩٢ م (٥٨٨ هـ) لم يكن إلا صاحب جاه ، ذو صفة شرفية ، وليس له أى سلطة ، كما تخيله ماس لاترى Mas Latrée [٢٦].

لا يزال يوجد والحق يقال مسيحيون فى بلاد البربر ، ولكنهم ليسوا من أبناء الوطن ، ولكنهم أجانب ، ومسموح بوجودهم ، نظرا الى المنافع التى تأتى من وراءهم . ولو افترضنا أنهم طردوا من البلاد أثر غزو عبد المؤمن إفريقية ،

(٢٦) Mas Latrie, Traités de paix et de commerce, Paris, 1865, I. Introduction historique, p. 69 .

إلا أنه خلال عصر عبد المؤمن نفسه ، وعهد يوسف ويعقوب ، أصبح مجئ تجار جنوة وبيزة مقبولا . ومع ذلك يبدو أن العلاقات بين أوربا وبلاد البربر أصبحت أصعب عما كانت عليه خلال فترة حكم صنهاجة وبني خراسان . ففى سنة ١١٨١ م (٥٧٧ هـ) تضاعفت احتجاجات جمهورية بيزة ، ضد المضايقات التي كان يلاقيها مواطنوها ، من قبل الموظفين الموحدين فى بجاية . وفى سنة ١١٨٦ م (٥٨٢ هـ) كان حق التجارة الممنوح لرعايا بيزة مقصورا على أربع مواني إفريقية . ويبدو أن المذهب الموحدى يتنافى مع التسامح الدينى . أما الموقف المضاد للخليفة المأمون ، فله قيمة التجربة المعكوسة ، لأن هذا الأمير كان أندلسيا أكثر منه مغربيا ، وعندما أنكر علانية مذهب المهدى ، أظهر تعاطفه للمسيحية ، واستدعى المرتزقة المسيحيين الذين طردهم أسلافه من المغرب ، وتعهد بعدم اجبارهم على الإسلام ، كما ترك لرعاياه حرية اعتناق دين المسيح . أما خلفاؤه فلم يستطيعوا الاستغناء عن الحرس الكفار والجند المسيحيين رغم أنهم استأنفوا علاقتهم مع التراث الموحدى ، وسوف يتبادلون بهذه المناسبة المراسلات مع البابوات . يا للفرق بين الرسالة التى كتبها جريجوار السابع للناصر سلطان بنى حماد فى بجاية [٢٧] ، والرسالة الموجهة من المرتضى آخر خليفة موحدى الى البابا اينوسنت الرابع . فالرسالة الأولى كلها ود وتسامح وتوحى بالرغبة للتفاهم المشترك للدينين . أما الرسالة الثانية فكانت تؤكد من بدايتها على التعارض المتشدد للإسلام تجاه عقيدة الثالوث المقدس ، ثم تصبح بعد ذلك مهينة وجارحة لو سلمنا أن الله « الغفور فوق الآراء التي يجهر بها المعتقدون فى الثالوث والوثنيون والملحدون» [٢٨]. لقد

(٢٧) Mas Latrie, op. cit., pp. 22-23 .

(٢٨) E. Tisserant et G. Wiet, Une lettre de l'Almohade Murtada au Pape Innocent IV, dans Hespéris, 1926, p. 34 .

حدث فعلا انقلاب بين تحرير الرسالتين لأن الأميران المسلمان ينتميان الى عالمين مختلفين ، والعالم الثانى حل محل العالم الأول ، وأراد إلغاء ذكراه المخجلة .

كان البابا جريجوار السابع صديقا لسلطان بنى حماد ، وكانت مدينة بجاية عاصمة لهم ، فاعتبرها ابن تومرت مدينة للضلال . رأى فيها الرجال يلبسون ملابس تعطيهم مظهر النساء ، وعماماتهم كانت من الأناقة لدرجة أنها تذكرنا بالوثنية ، وينتعلون النعال ذات السيور المذهبة (٢٩) . بدا هذا البذخ لهذا الزاهد البربرى ، على أنه قمة الفساد ، فطاف بالمدينة وكسر آلات الملاهى وأوانى الخمر . ولم يكن الخلفاء بعيدين عن هذا التشدد ، ففى سنة ١١٨٥ م (٥٨١ هـ) اضطرب يعقوب المنصور من حب سكان أشبيلية للنبيذ ، فأمر بإغلاق الحوانيت التى تبيعه ، وأمر بمعاقبة من يفاجأ وكان به رائحة النبيذ .

ومن بين التغيرات التى نتجت عن انتصار المذهب الموحدى ، العلاقات الاجتماعية بين النساء والرجال ، لقد أشرنا الى الدور الذى كانت تقوم به أميرات صنهاجة عشية الغزو الهلالى ، ورأينا الأمير الزيرى المعز يسمح لرجال بلاطه بزيارة عمته المريضة (٣٠) ولاحظنا أيضا المكانة التى كان يتبوأها النساء فى مجتمع المرابطين . أما تاريخ الموحدين فلا يقدم لنا شيئا من هذا القبيل ، ونحن نجهل كل شئ عن نسائهم وبناتهم . وما عدا السهو والخطأ فهناك حالة واحدة يقدمها لنا صاحب القرطاس عن زوجة الخليفة المأمون وهي أم ولد رومية (مسيحية) تدعى حباب ويقول عنها « كانت من دهاة النساء

(٢٩) البيذق : أخبار المهدى بن تومرت ص ٣٦ .

(٣٠) البيذق : أخبار المهدى بن تومرت ص ٣٧ ، ٤٦ ، ٤٨ .

وعقلاتهن » (٣١) وتعتبر هـذه من الحالات الشـاذة المتميزة . نعجب لافتقارنا الى صور نسائية فى أروقة ملوك بنى عبد المؤمن ؟ ألم نرى ابن تومرت فى بجاية وهو يلقى بلعناته على الجماهير ، حيث الرجال والنساء مجتمعون ؟ (٣٢) لقد جعل المذهب الموحدى سجن الحريم فى أسبانيا ، وفى بلاد البربر ، أكثر شيوعا وأكثر صرامة .

لم يقل الفن عن العادات ، فى إعطائنا دليلا عن ظهور أخلاقيـات صارمة ، ودين مناهض ، وبدون بسمة .

إن المنشآت المعمارية التى تركها لنا عهد الموحدين ، ليست إلا مساجد وأعمال حربية ، ولا نعرف شيئا عن قصورهم . ولكن يبدو من المحتمل أنها كانت تختلف بصورة محسوسة ، عن منشآت الأمويين والفاطميين ، وأي تمثيل لكائنات حية على وجه الخصوص كان ممنوعا . ونحن نعرف أن هذه الصور كانت لأسباب عديدة مريبة للمسلمين المتشددين . ومع ذلك فمعظم الأسرات الحاكمة ، تقبلتها فى تزيين مساكنها ، والأدوات التي تستخدمها . كما نجدها فى دمشق وبغداد ، وفى القاهرة وقرطبة ، وفى مدينة الزهراء والقيروان . لقد عرفت أندلس الخلفاء رواجا لصناديق العاج المزينة بصور أغراض الصيد والحفلات الدنيوية . وترك لنا القرن العاشر والحادى عشر دنان من الرخام بها نقش بارز لأشكال إنسانية وحيوانية . والخزف المزخرف بالشخصيات ليس نادرا . إن كل ما اكتشف حتى الآن من قطع لا يمكن أن نخص به عهد الموحدين . لقد اختفت الزخرفة من خيال الفنان الموحدى .

وعلى كل فهذا لا يدل على انحطاط الفن المعمارى ، إن القليل الذى

(٣١) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ص ٢٥٤ .

(٣٢) البيذق : أخبار المهدى بن تومرت ص ٣٦ .

يتبقى لنا من المسجد فى تينملل ، والمئذنة ومصلى الكتيبية ، وباب أجناو فى مراكش ، وأبواب المدينة وبرج حسان بالرباط ، كل ذلك لا يقل فى عظمته عن أحسن المنشآت فى مصر وبلاد فارس ، ويشرف بلون منازع عبقرية الإسلام المعمارية (٣٣) . ويبدو لنا فن الموحدين ، أكثر وحدة من فن الأمويين ، وأقل كثافة من فن المرابطين ، كما أنه يفرض علينا الإعجاب بتوازنه وجماله القوى ، حيث نجد فيه انعكاس زهد المهدى وفي نفس الوقت الرجولة البربرية ، لقد عرفت البلاد أشرف فنها التشكيلى بفضل حكام القرن الثانى عشر . ويتجاوب النضج التام للفن المغربى مع عظمة القوى الحربية للمغرب ، ولا يمكن تجاهل العلاقات الموجودة بين اتسـاع مملكة بنى عبد المؤمن ، والخصائص الجديدة التي تبينها المبانى المعاصرة لهم . إن الإحساس بالعظمة الذى نادرا ما تشعر به أمام المنشآت الإسلامية ، والذي يتجلي فى المسجد وبرج حسان اللذين لم ينتهى بنائهما ، ألم يعبر هذا الإحساس عن قوة الامبراطورية وعظمتها بل وعن عظمة ملوكها ؟ وبطريقة أكثر إيضاحا : إن انتشـار الغزوات التى حققها عبد المؤمن والمنصور ، عبر عنها تطور فى الطراز ، فالانتصار الحربي الذى جعل المغاربة حكاما لإفريقية ، وضع أمام أعينهم المبانى الفاطمية والصنهاجية ذات الإلهام المشرقى . ومع تمردهم على البزخ الدنيوى للبلاد المنضمة ، قام المعماريون والمزخرفون الإسبانيو - مغاربة بالحصول على تعاليم ودروس . حقا إنه لم يكن وحيا كاملا . سوف نجد فى الفن الأندلسى للقرن العاشر أكثر من علامة لأثر القيروان والقاهرة . ومع ذلك يتضاعف هذا الاقتباس فى عهد الموحدين ، فمثلا شكل حنيه أو رسم سعفة

(٣٣) Voir H. Basset et H. Terrasse, Sanctuaires et forteresses almohades (Collection Hespéris), Paris, 1932 ; H. Terrasse, L'Art hispano-mauresque des origines au XIIIe siécle, pp. 249 ss .

تبنتها مراكش ، إنها مستوحاة من نماذج فى إفريقية . وبذلك تكون نوع من التوفيقية (الألفة) يشرحها ظهور سلطة واحدة لكل المغرب الإسلامي(٣٤) .

وعلى كل فنقل التعبيرات الفنية من المشرق للمغرب ، له تيار معاكس فى الاتجاه المضاد ، وسوف تبقى نتائجه بعد زوال الامبراطورية الموحدية ، والدول البربرية التى تقاسمت بقاياها وخصوصا مملكة تونس ، سوف يحتفظون بأثر هذه الامبراطورية حتى القرن السادس عشر ، وحتى بعد ذلك . ففى تونس أيام احتلال الأتراك لها ، كانت هناك أكثر من تنظيمات حكومية ، وأكثر من عادة حضرية ، ترجع إلى الأمراء الحفصيين الذين يعتبرون الخلفاء المباشرين للموحدين ، فقد أيقظوا البلاد ذات الثقافة العريقة من سباتها ، وجددوا إطار حياتها ، بتشييد مبانى مماثلة للمنشآت التى تفخر بها المغرب وأسبانيا .

ويعد رواج الطراز المغربى والأندلسى نتيجة هامة لسيطرة الحركة الموحدية ، ذات الأصل البربري الريفى ، التى حركها ابن تومرت وجعلها تتجاوز أعظم مراحل الثقافة الإسبانية المغربية ، وحقق لها الازدهار الواسع والمدوى . لقد قدر لهذا الوقت أن شاهد قمة الفكر الإسلامي بدون أن يكون لهم شأن كبير فى ذلك ، وإثراء الميراث الفكرى لشعوب لم يحرصوا أبدا على جعلها تستفيد منه . لا نستطيع إغفال أن أوربا المسيحية ، ستكون مدينة بأغلى ميراث ، للعلماء الناجحين عند الموحدين ، ربما رغم أنفهم ، إذ سوف يأخذ الغرب فى العصور الوسطى وعصر النهضة ، كنوز العلوم والفلسفة الإغريقية من كتب الأطباء الثلاثة ندماء الخليفة يوسف ، إنهم ابن طفيل وابن زهير وابن رشد .

(٣٤) G. Marçais, Manuel d'art musulman, I, pp. 424-425 .

الباب الثالث

ميراث الموحدين وانحطاط المغرب

مقدمة

فى كتاب « المقدمة » يشبه ابن خلدون الامبراطوريات بأنظمة حية ، ويحدد فترة بقاءها فى المتوسط . بمائة وعشرين عاما ، تتناوب خلالها ثلاثة أجيال ، وكل جيل يستمر لمدة أربعين عاما ، وتمر هذه الامبراطوريات بالمراحل الثلاثة لحياة الإنسان وهى الشباب والنضوج والكهولة .[1] وبعد نهاية المائة والعشرين عام الحتمية ، قد تستطيع الامبراطورية البقاء بذاتها ولكن صمودها يظل ضعيفا ، وسوف ينهار بمجرد ما يصوب إليها خصم شجاع ضرباته الشابة ، ثم يحتل مكانها ويفتتح مرحلة جديدة نهايتها الطبيعية تأتى بعد مائة وعشرين عام كذلك .

وهذا البيان المتشائم ليس من نسج الخيال ، فالأسباب التى يبرزها المؤرخ الفيلسوف ، عن عظمة وانحطاط الامبراطوريات ، اقتبسها من دراسة الدول الإسلامية ، التي يعرفها أكثر من أى شئ آخر . كما أن القوانين الاجتماعية التى يضعها ، تصلح لمعظم هذه الدول بصفة عامه ، ولكن تراودنا الرغبة فى الاعتقاد ، أن تاريخ الموحدين على الأخص هو الذى أوحى إليه بوضع هذه القوانين .

(١) ابن خلدون : المقدمة ، الطبعة التجارية بالقاهرة ، ص ١٧٠ ـ ١٧١ .

فى سنة ١٢٤٤ م (٦٤٢ هـ) كان عمر الامبراطورية التى أسسها ابن تومرت مائة وعشرين عام ، ولذلك بدأ صمودها يضعف . فأعلن أبو زكريا الحفصى ـ حاكم إفريقية ـ استقلاله ، واعترف بسيادته كل من أمراء الأندلس المسلمون ، وسكان سبتة وطنجة . وعندما رفض أمير تلمسان المتمرد على طاعة الموحدين ، هاجمه أبو زكريا وفرض عليه الخضوع الذى طلبه . وفى المغرب الأقصى شرع المرينيون الذين كانوا يسيطرون على جزء كبير من سهوله فى مهاجمة المدن ، فسقطت مكناس سنة ١٢٤٤ م (٦٤٢ هـ) . ورغم أن امبراطورية الموحدين كانت تحتضر ، إلا أنها استمرت خمسة وعشرين عام وانتهت فى سنة ١٢٦٩ م (٦٦٨ هـ) بسقوط مراكش . ومع ذلك فقبل هذا الحدث الأخير تخلص شمال إفريقية من حكام القرن الثانى عشر وتقاسمت ميراثهم ثلاث ممالك .

الممالك البربرية الثلاث

لقد رأى القرن التاسع (٣هـ) شمال إفريقيا ممثلا فى ثلاث ممالك : مملكة الأغالبة فى القيروان ، والمملكة الرستمية فى تاهرت ، ومملكة الأدارسة فى فاس . لم تكن حدود هذه الممالك متجاورة ولكن كان بينها مناطق فوضوية لتجمعات مستقلة الى حد مـا ، حدود مطاطة ، مناطق نفوذ موضع جدال دائم . ولقد شاهد القرن الثالث عشر (٧هـ) تقسيما مماثلا بقيت ملامحه حتى يومنا هذا مع شئ من التغيير . فخلال فترة أربعمائة عام وضع التاريخ أمامنا لوحتين ثلاثيتين من المفيد مقارنة كل منها . وتوضيح الفوارق التى أبرزتها التطورات التى تكلمنا عنه .

إن الشئ الذى لفت إنتباهنا فى القرن التاسع ، والذى فرض على الممالك الثلاث دورا رئيسيا فى بلاد البربر ، هو أصل حكام هذه الممالك . فالأغالبة والأدارسة كانوا عربا ، أما الرستميون فقد كانوا فرسا ، ونتج عن استقرارهم فى البلاد وصول كثير من المهاجرين من المشرق خلقوا حولهم حياة مشرقية . أما حكام القرن الثالث عشر ، فهم من البرابرة وينتمون الى قبيلتين كبيرتين ، وقد قام ابن خلدون وعلماء الأنساب الغربيون ، بتوزيع السكان الأصليين بينهما . فالحفصيون ـ حكام إفريقية ـ ينتمون لقبائل مصمودة ويعدون من البرانس ، والمرينيون وبنو عبد الواد الذين يتقاسمون بقية المغرب ، ينتمون لقبائل زناتة الذين يقال عنهم « البرابرة البتر » . ونحن نعرف مصمودة وزناته . لقد رأينا انتصار مصمودة الأطلس ، صناع عظمة الموحدين ، كما رأينا الخدمات التى قدمها الحفصيون للموحدين ورأينا ولاءهم وبسالتهم . كانوا دائما مشتركين فى القتال وخصوصا فى الأندلس ، حيث أقاموا طويلا وكذلك فى مقاطعة إفريقية التي أنقذوها من بنى غانية ، وحافظوا عليها للخلفاء . ولكن انكار المأمون لعقائد المهدى برر انفصالهم ، كما أدى انهيار بنى عبد المؤمن الى جعلهم حكاما مستقلين ، والخلفاء الشرعيين للخلافة الراحلة[٢] .

(٢) عن الحفصيين R. Brunschvig, La Berbérie orientale sous les Hafsides des origines á la fin du XVe siécle,

أهم المراجع ، ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، الزركشى : تاريخ الدولتين الموحديه والحفصيه ، القيروانى (ابن أبى دينار) : المؤنس ، التجانى : الرحلة ، ابن القنفذ : الفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية ،

R. Brunschvig, Deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord au XVe siécle ,

، عبد الباسط بن خليل : اتفاقيات تجارة وسلام .

أما قبيلة زناتة التي ينتمى إليها المرينيون وبني عبد الواد ، فظهورهم ودورهم الذى قاموا به فى نهاية العصور الوسطى ، جاء نتيجة للغزو الهلالى . إنهم يمثلون هذا العنصر البدوى البربرى ، الذى اضطره انتشار البدو العرب الى الهجرة نحو الغرب . كما أنهم عاشوا لأكثر من قرن فى الصحراء بين الزاب وتافيلالت ، جنبا الى جنب ، ورغم القرابة التي جمعت العشيرتين فى زناته ، إلا أنهما كانتا متنازعتين دائما ، وقد أتاحت الظروف لبنى عبد الواد ، [٣] الزحف نحو الشمال والحصول على حق الانتفاع بريف مقاطعة وهران الحالية ، وعندما غزا الموحدون البلاد اعترفوا لهم بهذا الامتياز ، فأصبحت تلمسان مقرا للزعيم « عبد الواد » ، ومع سقوط الخلافة أصبح بنو عبد الواد حكاما للمقاطعة والمدينة .

أما ظهور المرينيين [٤] فقد كان أكثر صراعاً ، إذ بدأوا هجومهم ضد

(٣) عن بنى عبد الواد : انظر ، ابن خلدون : العبر ، أبو زكريا يحيى بن خلدون : بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد ، التنسى: تاريخ بنى زيان ، ملوك تلمسان،
Bargés, Complément á l'histoire des Beni Zeyan, rois de Tlemcen ; Bargés, Tlemcen, capitale dù royaume de ce nom ; Brosselard, Mémoire épigraphique et historique sur les tombeaux des Emirs Beni Zeyan ; W. et G. Marçais, Les monuments arabes de Tlemcen ; G. Marçais. Le Makhzen des Beni Abd el-Wad, rois de Tlemcen .

(٤) عن المرينيين ، أنظر ، ابن خلدون : العبر ، ابن أبى زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس ، ابن الأحمر : روض النسرين فى دولة بنى مرين ، ابن مرزوق : المسند الصحيح الحسن فى مآثر ومحاسن مولانا أبى الحسن ، العمرى : مسالك الابصار فى ممالك الأمصار ،
A. Cour, Les derniers Merinides ; A. Cour, Les dynastie marocaine des Beni Wattas ; A. Bel, Inscriptions arabes de Fés ; G. Marçais, art. Merinides dans l'Encyclopédie de L'Islam .

الحدود الجزائرية المغربية ، فى منتصف القرن الثالث عشر (٦هـ) وقد هزموا ، فانتظروا أكثر من خمسين عام للقيام بمحاولة جديدة ، إذ بينما كانوا يتنقلون فى وادى ملوية علموا أن أهم قوات الموحدين مشتبكة فى أسبانيا ، وأن المقاومة فى البلاد ضعيفة ، فوجهوا ضربة قوية نحو الشمال كللت بالنجاح ، كانت هذه أول مراحل غزو المغرب الأقصى الذى دام خمسة وثلاثون عام ، ورغم ما تخلل هذا الغزو من توقف وهزائم وانتصارات ، إلا أنهم تمكنوا من ضم السهول التى دافعت عنها بـدون جدوى القبائـل العربيـة المهاجرة ، كمـا استطاعوا الاستيلاء على مكناس وفاس وتازة والرباط وسلا ، وفى سنة ١٢٦٩ م (٦٦٨ هـ) دخلوا مراكش .

ها هم الحكام الجدد للأجزاء الثلاثة لشمال إفريقيا ، ولا داعى للخوض فى التفاصيل المتشعبة والغير هامة لتاريخهم ، وسوف نشير فقط الى المواضيع المهمة التي ساعدنا التاريخ على ابرازها ، وطبقا لمقصودنا فسوف نحدد التباين العميق الذى يقدمه تاريخ هذه الدول ، مع تاريخ ممالك القرن التاسع .

ومن بين هذه الفوارق هناك فارق يفرض نفسه على المؤرخ ، لقد تعرضنا لحياة كل من الممالك الثلاث فى القرن التاسع على حده دون التعرض للمملكتين الأخريتين ، ولكن يبدو اسلوب هذا العرض يصعب تطبيقه على الثلاث ممالك التى نتكلم عنها الآن ، فالذى يعقد مهمة المؤرخ هو ترابط هذه الأسرات البربرية ، والمصالح أو الآمال التى تربط بعضهم البعض وتتعارض أحيانا ، والمنازعات التي تنشأ دوريا بينهما .

منذ الصفحات الأولى لهذا التاريخ يوجد نزاع قديم بين يغمراسن مؤسس أسرة عبد الواد وبين ابن عمه بني مرين ، والمنافسة بين تلمسان وجيرانها صراع مورروث من ماضى بعيد ، صراع كان سببه سرقة جمال أو احتلال بئر . ولن ينتهى هذا الصراع بين مملكتى زناتة إلا بانتهائهم . لقد كان استقلال تلمسان

على وشك الانهيار لأكثر من عشرين مرة . وسوف يحدث عمليا من سنة ١٢٩٩ م (٦٩٩ هـ) الى سنة ١٣٠٧ م (٧٠٧هـ) حيث يحاصرها الجيش المغربي ويعزلها ويشل حركتها ، واحتلت تلمسان فعلا من سنة ١٣٣٧ م (٧٣٨هـ) حتى سنة ١٣٤٨ م (٧٤٩هـ) من خلفاء فاس بعد طرد حكامها من بني عبد الواد . إن حياة تلمسان كانت غير مستقرة حتي قبل حصارها ، واحتلال المغاربة لها ، لأن مقاطعة بنى عبد الواد كانت أهم موقع لانتشار القبائل المرينيه فى بلاد البربر . كانت الرغبة فى الانتشار بالنسبة للمرينين تراث قديم طوال تاريخهم .

نشأت الممالك الثلاث بفضل انهيار الموحدين ، وادعت كل من مملكتى الحفصيين والمرينيين بأحقيتهما لوراثة الموحدين ، فى هذا الغرب الإسلامى ، الذى كان يحكمه الموحدون بدون منازع . ادعى بنو حفص أنهم الورثة الروحيون لهذا الميـراث ، ولهم الحق فى ذلك ، ألم يكن سلفهم أبو حفص صديقا ولجيا المهدى ، والحارث الأمين لتراثه ، والسند المخلص لعبد المؤمن ؟ أليس الحفصيون أسرة نبيلة كأسرة عبد المؤمن ؟ وإذا كان أبو زكريا ـ مؤسس الأسرة ـ قد منح نفسه لقب أمير المؤمنين ، فقد أضاف ابنه من بعده كناية الخليفة المستنصر ، وحصل على تقدير شريف مكه ، وهى أكبر سلطة دينية فى الإسلام (٥) ، وبعد عام ونصف بارك حاكم مصر هذا اللقب ، ولكنه لقب زائل ولم يبق المستنصر زعيما روحيا مقبولا من المشرق ، إلا لعدة سنوات ، لأن مصر لم تلبث أن فرضت حمايتها على المدن المقدسة بالجزيرة العربية . أما بالنسبة للمغرب فقد أبدت للأسرة الحفصية احتراما أكثر دواما ، فمنذ حكم أبى زكريا الذى تحرر من مراكش، فرض سلطانه على ملك تلمسان ، واعترفت

(٥) ابن خلدون : العبر ٦ : ٤٠٢ R. Brunschvig, La Berbérie orientale sous les Hafsides, p. 45

وطنجه وأخيرا المرينيون . وسيحصل المستنصر بعد ذلك على ولاء العاهل الزنجى لكانم وبرنو ، وقد جاء نواب من هذه البلاد البعيدة ، ودخلوا تونس محملين بالهدايا ومنها ظرافة كانت محل الإعجاب الشعبى .

كما أن أحداً لم يستطيع أحد مزاحمة بنى حفص فى نفوذهم الروحى ، كذلك لم يستطيع أحد المجادلة فى أن السيطرة التي كانت للموحدين فى بلاد البربر ، قد انتقلت الى بني مرين فى فاس . فبعد أن احتل بنو مرين ممتلكات الموحدين ، وغزوا عواصمهم ، ومهد قوتهم ؛ تطلعوا لإعادة ملحمة عبد المؤمن ويعقوب المنصور المجيدة ، ولكن بإمكسانيات محدودة وبالتالى كان نجاحهم أقل . إذ ذهبوا للجهاد فى أسبانيا ، تلبية لنداء المسلمين الذين كانوا عرضة لابتزاز ملك قشتالة (لقد طلب المسلمون من قبل النجدة من الموحدين) . ولقد حارب إثنان من الأمراء شخصيا هناك ، ولكن سرعان ما أصبحت الأندلس ، المنفى لافراد العائلة الحاكمة المشكوك فى ولائها أو المشاغبه كما كانت أرض الاستشهاد للمتطوعين فى سبيل العقيدة [٦] . مثلما كانت صقلية ميدان جهاد ومنفى إجبارى للمشاغبين أيام أمراء الأغالبة ، أما بخصوص الحملات المنتظمة ، لقد كانت هزيمة أبى الحسن فى سنة ١٣٤٠ م (٧٤١هـ) واستيلاء المسيحيون على الجزيرة الخضراء نهاية المرينيين .

إن تاريخ المرينيين صورة مصغرة لملحمة الموحدين ، حينما اكتسحوا شمال إفريقيا ، فلم تكن تلمسان إلا مرحلة أولى للطريق الى تونس ، وضم مملكة عبد الواد ، ما هى إلا الطريق الى ضم مملكة بنى حفص أى انتشار السيطرة على كل شمال إفريقيا . وقد تحقق ذلك فى سنة ١٣٤٧ م (٧٤٨ هـ) بواسطة أبى الحسن المرينى ولكن لم يستمر هذا الاحتلال إلا عام واحد ، ولا يمكن

---

(٦) ابن خلدون : العبر ٧ : ٢٥٢ ـ ٢٥٣ .

لأحد انكار تفوق ملوك فاس رغم هذا السقوط ، إن هذا التفوق لشئ واقعى وقد ثبت ذلك خارج حدود المغرب الأقصى . ولمعاصر مشرقى مثل « العمرى » كانت الممالك الثلاث فى بلاد البربر تعتبر تحت سيطرة بنى مرين ، " وحيث يقال اليوم صاحب الغرب ، فهو المراد (أبو الحسن المرينى)" (٧) .

هذا التفوق الذى يرتكز على قوة حربية عظيمة ، جعل كل من حكام بلاد البربر وأسبانيا يخشون المرينيين ويعاملونهم بمداراة .

ففى الأندلس ، بعد أن طلب ملك غرناطة مساعدة المرينيين ضد ملك قشتالة ، أحس أنه وقع ضحية طمع المنقذين ، فلجأ الى ملك قشتالة لحمايته . واتفق الملكان ـ المسلم والمسيحى ـ مع ملك تلمسان المنافس التقليدى لجاره المرينى ، ومقابل منافع قيمة ، لحجز المرينيين العدو المشترك على أرض إفريقية ، ومنعهم من الرحيل للجهاد المقدس بالأندلس (٨) .

وكما كان يخشاه حكام أسبانيا ، المسلمين والمسيحيين فى الطرف الآخر من المضيق ، كان يخشاه كذلك حكام بلاد المغرب ، إن أسباب الخلاف بين تلمسان وتونس كثيرة ، وأهمها بجاية ، فقد كان بنو عبد الواد غير قادرين على التوسع نحو الغرب ، بسبب قوة بنى مرين الحربية ، لذلك أرادوا التوسع تجاه الشرق وضم بجاية ، وانتزاع المدينة الغنية من بنى حفص ، فقام هؤلاء بطلب المساعـدة من السلطان المرينى لحماية المدينة ، لما بينهما من معاهدة ولاء ونسب ، تجعله يتضامن مع بنى حفص . كما أنه كان متعجلا لمحاربة أعداؤه ملوك تلمسان من جهة ، والتدخل فى شئون تونس من جهه ثانيه . فحاصر

(٧) العمرى : مسالك الابصار فى ممالك الأمصار ، من الباب الثامن الى الباب الرابع عشر ، تحقيق وتعليق مصطفى أبو ضيف أحمد ، الدار البيضاء ١٩٨٨م ص ١٢٣ .

(٨) ابن خلدون : العبر ٧ : ١١٩ ـ ١٢٠ .

تلمسان واستولى عليها ، كانت المهمة موفقة مما يتعارض مع أماني حاكم تونس . إذ يروى العمري : « وحدثني من له اطلاع على ما حدثني به قال : وكان صاحب إفريقيــة مع انقياده الى المريني ـ وعداوته ليسلطان بني عبد الواد ـ وقيام المريني على عدوه في هواه ، لا يؤثر في الباطن أن المريني يظفر بصاحب تلمسان عدوه ليكون له به شغل عن قصده ، وانتزاع إفريقية منه لعلمه أن تلمسان حجاب بينهما وإنه لا طاقة له بالمريني ، ولا قبل له به ، ويحق له الخوف فإنه في قبضته متى أراد »[٩]

وهكذا نرى أن تضارب المصالح والتحالف بين الدول المغربية ، ينعكس على تاريخهم الداخلي ، ويجعل توازنهم غير مستقر ، وبالتالي يجعلنا بعيدين كل البعد عن ممالك القرن التاسع ، على الأقل ظاهريا ، وخاصة بسبب وفرة المعلومات التي حصلنا عليها . لقد عرف أدارســة فاس ، وكذلك بنو مرين ، ومن عاصرهم من الأسرات الحاكمة ، المنافسين على الحكم ، والكارثة الوراثية عنصر يجعل هذه الأزمات تتفاقم ويساعد على ازديادها ، أما العرب المهاجرون ، الذين غيروا جميع ظروف الحياة ببلاد البربر ، فهو عنصر جديد لم يعرفه القرن التاسع .[١٠]

---

(٩) العمري : مسالك الابصار في ممالك الامصار ، من الباب الثامن الى الباب الرابع عشر ، ص ١٢٢ .

(١٠) G. Marçais, Les Arabes en Berbérie, Paris-Constantine, 1913, p. 716 et passim .

II

دور العرب

منذ وصول القبائل الهلالية الأولى عن طريق طرابلس ، رأت إفريقيا الشمالية خيامهم السمراء مرفوعة ، ودوابهم منتشرة فى جميع أجزاءها ، ما عدا الجبال وبعض السهول الساحلية . ولقد انتشر عرب بنى هلال وبنى سليم أو معقل حتى سواحل البحر الأطلسى باحتلال الأراضى بالقوة ، بعد دحر أو استعباد سكانها ، وبالتسلل من الشرق للغرب ، عبر الأراضى الشاغرة على الجوانب الصحراوية ، وبالانتقال الاتفاقى لجماعتهم لخدمة الحكام البربر .

سواء عانى حكام البلاد من تعديهم ، أو تمنوا حضورهم ، فقد كان يجب على الجميع مراعاة وجودهم . كما كان على الجميع قبول ما نسميه « سياسة عربية » ، ولقد كان هذا منذ اليوم الأول كما رأينا ، فالمعز الزيرى الذي واجه الصدمة الأولي لهذا الغزو ، منح ثقته لبنى رياح ، لأنه كان يأمل فى الحصول على معاونتهم المفيدة . وكان على كل أسرة حاكمة أن تختار عشيرة بدوية ، لتقوم معها بدور مماثل لدور قبيلة « المخزن » فى المغرب القديم ، وهى قبيلة كانت تساعد الأسرة الحاكمة مقابل مزايا تمنح لها .

كانت الخدمات التى تطلب من العرب ، محصورة فيما يمكن أن تقدمه قوة مقاتلة ، مرابطة فى البلاد ومستنفرة للسخرة ، ورئيسها كان مستعدا لتجنيد الفرسان . كان فى وقت السلم مكلفا بجباية الضرائب ، أو مساندة الأمير ، أو الموظف المكلف بالجباية ، وفى وقت الحرب يقدم القوات التى تضاف الى قوات السلطان ، والمشكلة من القبائل الخاصة ، والمرتزقة المسيحيين ، أو الأتراك ، والقبائل الحليفة . والمعروف أن الموحدين نقلوا عرب إفريقية الى المغرب ،

لاستخدامهم فى الجهاد المقدس ، ولقد ظهروا حقا فى المكان المناسب ، ضمن القوات التي عبرت المضيق ، وبعضهم كانوا يعملون فى الحراسة . وفى سنة ١٢٢٤ م (٦٢١ هـ) كان عدد فرسانهم فى حصون الأندلس خمسة آلاف عدا المشاة . وفى بلاد البربر ، كانوا يشاركون فى جميع المنازعات الهامة ، لأن كل خصم كان يستعين بقوات من جنسه . كانت الخصومة بين الأمراء تنطلق عادة بسبب خلاف قديم بين القبائل . ومع ذلك فاستخدامهم كان خاضعا لبعض الظروف الزمنية والتاريخية . كعادة القبائل ، تقوم القبيلة بأكملها بمرافقة رجالها المحاربين ، لذلك يكون الرجال غير مستعدين لترك أرضهم . أو الابتعاد عن حدودها . وبما أنهم يملكون النخيل فى الواحات ، وجمالهم فى حاجة للعودة الى الصحراء كل خريف ، فإنهم عمليا لا يستخدمون فى المناطق المجاورة للبحر ، إلا فى الفصل الحار . وأثناء الحرب الصليبية الثامنة (حملة لويس على تونس فى سنة ١٢٧٠ م/ ٦٦٨ هـ) كان اقتراب موعد رحيل القوات العربية من الأسباب التى دفعت الخليفة الحفصى المستنصر ، الى عقد الصلح مع الأمراء المسيحيين .

ورغم أن هذه الخدمات التى يقدمها العرب محدودة ومؤقتة ، إلا أنها باهظة التكاليف ، فجزء كبير من الضرائب المحصلة تبقى فى أيدى الجباة العرب ، كما أن الاستعداد للقتال يرافقه عادة توزيع الأموال والمؤن والعتاد عليهم ، ولا ينسى الأمير رؤساء القبائل عند توزيع الهبــات على مدار العـام بمناسبة بعض الأعيــاد . بالإضافــة الى أجر جوهرى وهو يتــألف من «الاقطاع» ، [١١] إن هذه الكلمة غير محدد طبيعتها وتشمل أشياءا كثيرة متنوعة ، إن الإقطاع هو عبارة عن جزء من ممتلكات العرش ، يسمح الأمير لأحد رعاياه أو لمجموعة من الرعايا بالاستفادة به . وتكون أحيانا منح امتياز

(١١) G. Marçais, Les Arabes en Berbérie, p. 245 .

أرض ، اغتصبتها القبيلة ، ولا يقدر الأمير على استردادها . أو منح الضرائب المحصلة من القرويين أو الحضر لمنطقة ما أو مدينة ، وقد يصبح الاقطاع وراثى ، ولكنه يتطلب الولاء للعاهل الذى وهبه ولخليفته ، كما يجب على الورثة المستفيدين منه تجديده كلما اقتضى الأمر . فهذا الولاء ، وحق الاقطاع ، الذى يعطى زعيم القبيلة الوسيلة لتسليح رجاله فى حالة الحرب ، يجعل هذا التنظيم الإسلامى القديم يتناسب مع « نظمنا الاقطاعية » . وملخص القول هو أن الإقطاع يشابه منح حق استغلال ولاية أو مقاطعة ولكن ينقصه شئ هام وهو : إن الخدمات المتبادلة ، يجب أن توفر عند الأمراء العرب تضامنا مماثلا ، للتضامن الذى يربط التابع بالسلطان ، رغم ما اشتهر به زعماء القبائل ـ إلا نادرا ـ من عدم الثبات على المبدأ ، وعدم الإخلاص . والأمير يعرف ذلك جيدا ، وعنده الوسائل التى يتعامل بها معهم ، وعليه أن يعرف الأطراف المتعارضة ، والمشاكل التي تتمخض بين البدو المقيمين فى ملكه ، لكي يشعلها اذا لزم الأمر ، ويقوم بتحريض خصم على آخر متمرد ، إذن سياسة « فرق تسد » كانت فى الدول البربرية ، ألف باء السياسة العربية . وزيادة فى الحرص كان يحصل الأمير منهم على رهائن : فالقصر الملكي يأوى أولاد رؤساء القبائل ضمانا لحسن نوايا آبائهم .

وعلى كل فهذا النوع من كرم الضيافة المفروض ، مألوف فى القصور البربرية ، فهناك أمراء من تلمسان يتمتعون فى البلاط التونسى باعتقال مشرف ، كما أن هناك أمراء تونسيون يعيشون فى مشوار تلمسان (*) فى قفص من الذهب . إنهم رهائن ، أو بالأحرى لاجئين يحتمل ترشيحهم لعرش

(*) قصر وقلعة أقامها ملوك بنى عبد الواد بتلمسان لتكون مقرا رسميا لإقامتهم فيه مساكنهم ومسجدهم ومستودعاتهم، أنظر جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ٢:٢٠٩.

المملكة المنافسة ، وربما يقدمون فى المستقبل المبرر للتدخل فى شئونها . إن القبائل العربية لا تجهل هى الأخرى هذه المؤامرات المدبرة ، ويجد طموح الأمراء فى الأسرة الحاكمة لـدى هذه القبائل تشجيعا ومساندة . وهذا بدون شك ، شكل من أخطر أشكال الكارثة العربية فى العصر الذى نقوم بدراسته . إذا كانت الأزمات الوراثية ، كما قلنا هي مرض فطرى للامبراطورية الإسلامية فى بلاد البربر ، فوجود العرب يسهلها ويجعلها تتفاقم ، والمطالب بالعرش الذى يعيش فى معسكر البدو ، يجد لديهم المساعدين المستعدين لمساندة حقوقه ، فهى فرصة طيبة لهم لنهب وابتزاز السكان الآمنين . ولو فرض ونجح المطالب بالعرش ، سوف يعترف بخدماتهم وسيحقق لهم الثروة ، بمنحهم امتيازات الأراضى والضرائب .

بذلك يتدخل العرب فى تقلبات الأسرات البربرية الحاكمة ، ويصحبون لهم مزاولة الحكم ، إن أهمية دورهم يعتمد بالطبع على عددهم ، ولكنه يعتمد كذلك على قوة أو ضعف المملكة . من هنا نرى اختلاف دور المشكلة العربية ، فى الممالك الثلاث فى بلاد البربر .

فى المغرب الأقصى يشكل العرب جزءا ضئيلا من السكان ، والعاهل المرينى لديه من القوة ما يكفيه للسيطرة عليهم ، تنقلاتهم محدودة ولا ينتشرون فى الصحراء ، زعمائهم مراقبون ويعتمدون على مرتبات الدولة ، التى تمكنت من السيطرة عليهم تقريبا ، ولذلك كانوا مساعدين نافعين لحكومة فاس . أما فى إفريقية ، فوضعهم يختلف تماما وقد لاحظ ذلك أبو الحسن المرينى . ففى سنة ١٣٤٨ م (٧٤٩ هـ) بعد غزو تونس وجلاء بنى حفص عنها ، وجد أبو الحسن نفسه أمام عرب بنى سليم الذين احتلوا الأرض واستقروا بها منذ ثلاثة قرون ، واعتبروا أنفسهم أسيادا لها . فأراد القضاء على مكانتهم ، ومعاملتهم كما يعامل العرب فى مملكته ، ولكنه اصطدم

بتحالفهم ، وتعثر بأذيال الخيبة . وكانت هزيمة أبى الحسن فى القيروان أول ضربة أصابت سلطان مملكة فاس .

إن العرب قوة مهولة فى إفريقية ، ولكنهم يشكلون فى المغرب الأوسط خطرا مميتا ، إذ أن الصعاب التي كانت مملكة تلمسان تتغلب عليها دوريا ، أعطت لبعض القبائل العربية فرصا ، لتحقيق كثير من التقدم . وقد شاركوا فى استقرار بني عبد الواد ، لكن الهجمات التى عرضت وجود بنى عبد الواد للخطر ، وحرمتهم لفترة من عاصمتهم ، سمحت للقبائل العربية الحليفة لبنى مرين ، بالاستقرار فى وسط الإقليم . وبذلك كان صناع الإصلاح عربا ، ووجب مكافأتهم بسخاء . وقد لاحظ ابن خلدون فى عام ١٣٨٠ م (٧٨٢ هـ) « تغلب العرب على الضواحي والكثير من الأمصار . وتقلص ظل الدولة عن القاصية ، وارتدادها على عقبها الى مراكزها بسيف البحر ، وتضاؤل قدرتها على قدرتهم ، واعطاء اليد فى مغالبتهم ببذل رغائب الأموال ، واقطاع البلاد والنزول عن الكثير من الأمصار » (١٢)

تبين هذه الشهادة أثر الدور الذى قام بـه الغزو الهلالى فى النظام السياسي ، ودوره ككارثة موقوتة ، كما تبين أيضا الوضع المخالف لممالك القرن الرابع عشر ، عن ممالك القرن التاسع ، وتبين عشرون شهادة أخرى خاصة بالجغرافيين ، مدى الخراب الذى نشروه ، والدمار الذى أصابوا به الحياة الاقتصادية ، وزراعة السهول ، والبستنة على مشارف المدن . ورغم ذلك فقد لعبوا دوراً ايجابيا في تطور التجارة ببلاد المغرب الى حد ما . لقد رأينا الخطر الذى ساد فى داخل البلاد منذ وصولهم إليها ، وغلق طرق المشرق الداخليه البرية مما حول نشاط بربر صنهاجة نحو البحر . واحترافهم القرصنة على حساب

(١٢) ابن خلدون : العبر ٧ : ١٨٦ .

الدول المسيحية ، والتجارة مع نفس هذه الدول ، مما وفر للمدن الساحلية جزءا كبيرا من مواردها . كانت تونس وبجاية أعشاش للقراصنة ، وفى الوقت نفسه موانى تجارية أمينة ، وساعد وصول اللاجئين الأندلسيين على ازدهار هذه الحياة البحرية . كما تضاعفت وانتظمت العلاقات الاقتصادية بين إفريقية وأوربا المسيحية ، فى عهد بنى حفص ، وذلك بفضل انشاء قناصل ما وراء البحار (١٣) . هذه القناصل أنشأها الصليبيون فى المشرق ودخلت بلاد البربر فى الربع الثانى من القرن الثالث عشر . كانت قنصلية البندقية التى انشئت فى تونس سنة ١٢٣١ م (٦٢٩ هـ) من أقدم القنصليات التي عرفناها ، وتأتى من بعدها قنصليات مارسيليا وجنوه وبيزة وصقلية وأراجون ، حتى النرويج عزمت فى سنة ١٢٦٢ م (٦٦٠ هـ) على إرسال وفد لمقابلة المستنصر الحفصى لعقد اتفاقيات تجاريه .

وكما كان تطور التجارة البحرية في بلاد البربر الشرقية ، نتيجة غير مباشرة للغزو الهلالي ، كذلك يرجع إليهم الفضل في ظهور حركة الاتصال السهل والمستمر بين بلاد البربر الغربية وواحات إفريقية السوداء ، لأن التنقلات الدورية للبدو الهلالية خلقت إتصالات وسهلت تبادل المواد الغذائية . إنهم يستغلون بدون شك سكان القصور (الواحات) الصحراوية ولكنهم يزودونهم بالقمح الذي ينقلونه من التل (١٤) . وفي أسواق الشمال ، يبيعون البلح ، وإنتاج قطيعهم . أما النشاط الاقتصادي الذي شهدناه في القرن التاسع في مدينة تاهرت نتيجة جهود بدو زناتة انتقل في القرن الرابع عشر إلي تلمسان ولكن علي نطاق أوسع نتيجة لجهود قوافل البدو الهلاليـة . وتبدو

---

(١٣) Brunschvig, La Berbérie orientale sous les Hafcides, I, p. 434 .

(١٤) العياشى : الرحلة العياشية أو ماء الموائد ، الترجمة الفرنسية ١٨٤٦م ص ٤٥ـ٤٦ .

لنا مدينة تلمسان مدينة غنية ، حيث الحياة السهلة رغم متطلبات حلفائها العرب ، ورغم التهديد الدوري الذي يثقل على كاهل حكامها الذين ينفقون معظم دخلهم . إن تلمسان تقع في تقاطع الطريق الممتد من إفريقية شرقا إلي فاس غربا ثم يتجه بعد ذلك نحو المحيط الأطلسي عبر تازة ، والطريق الممتد من شاطئ البحر المتوسط شمالا إلي تافيلالت وجورارا والسودان جنوبا ، هذا الموقع جعل من تلمسان سوق كبير . كان الطريق شمال ـ جنوب دائم الارتياد ، لأن المواد الثمينة لبلاد السودان ، كانت تغذي الأسواق الواقعة عليه ، خصوصا الذهب والعبيد وكذلك المصنوعات التي تأتي من أوربا ، عن طريق موانئ وهران وهنين . ويشير الإدريسي (١٥) أنه يكفي يومان من الإبحار للوصول من هنين إلي المرية الأسبانية ، التي تصنع الأقمشة الحريرية والخزف . كانت المنسوجات الأوربية تتكدس في القيصرية ، وهي حي النشاط التجارى المغلق بالأسوار ، ويذكرنا بهذا السوق مكيال معياري من الرخام يرجع إلي سنة ١٣٢٨ م (٧٢٨هـ) وسوف يستمر هذا النشاط الإقتصادي حتي القرن السادس عشر . ويقول لنا ليون الأفريقي (١٦) أن تجار تلمسان « يعملون جاهدين لجعل مدينتهم جيدة التموين » ويصفهم لنا كبرجوازيين « مخلصون جدا وشرفاء في معاملتهم التجارية » . وعلي كل فنحن نعرف أن البعض منهم كانت لهم في التجارة نظريات ذات طابع حديث والدليل علي ذلك رابطة إخوان مكاري الخمس : إثنان منهم يعيشون في تلمسان ، وإثنان آخران أسسا شركة في ولاته علي مسافة ٤٠٠ كيلو متر من تمبوكتو ، أما الخامس فقد استقر في تافيلالت ويقوم بدور الوسيط . كانوا قد مهدوا الطرق ، وحفروا الآبار ،

(١٥) الإدريسي : صفة المغرب وأرض السودان والأندلس ص ١٩٧ .

(١٦) ليون الافريقى : وصف افريقيا ، ترجمة عبد الرحمن حميده ، منشورات جامعة الامام ، الرياض ١٣٩٩ هـ ، ص ٣٩١ .

ونظموا القوافل بين الشركة الرئيسية وفروعها ، وقد استفاد التجار التلمسانيون من ذلك (١٧)

واشتهرت أيضا مدينة فاس عاصمة بنى مرين كعاصمة تجارية ، تقع على الطريق شرق - غرب الذى يمر عبر تلمسان . كان لمدينة فاس سوقها التجارى « القيصرية » حيث تتكدس واردات ما وراء البحار . وكانت تربطها علاقات تجارية هامة مع غرناطة «آخر عاصمة للإسلام الأسبانى» كما قال Terrasse .

وكما حدث فى القرن التاسع ، أشرقت الحياة فى بلاد البربر فى نهاية العصور الوسطى ، من هذه المدن الثلاث المعروفة بدورها الاقتصادى . ولكن لم تكن تونس أو تلمسان مركزا دينيا ، كما كانت القيروان وتساهرت فى الماضى . لكن مدينة فاس هى التي كانت تستحق هذا الدور . ونحن نعتقد أنه بجانب النشاط السياسى للمدينة والرغبة فى الاقتراب من مساجد الأدارسة المقدسة ، والانتفاع بسمعتهم الحسنة ، كل ذلك حث بنى مرين على تفضيل العاصمة الإسلامية الأولى (فاس) فى المغرب ، على مراكش ، مركز الامبراطوريتين السالفتين .

III

الحياة الدينية

لا نستطيع الجزم بأن الدين كان يحتل فى بلاد البربر ، مكانة أقل من المكانة ، التي كان يحتلها منذ أربعمائة عـام ، إذ لو رجعنا الى آراء مؤرخيهم ، تراودنا الرغبة فى الاعتقاد ، أن الدين كان يسيطر على تصرفات

(١٧) Bargès, Tlemcen, capitale du royaume de ce nom, p. 208 .

الحكام . يقول صاحب القرطاس (١٨) : أن بنى مرين الأوائل اتخذوا مظهر المرابطين المصلحين ، بل والمظهر الوثنى للقديسين البرابرة الى حد ما . ويقال أن الأمير عبد الحق « كانت له بركة معروفة ، ودعوة مجابة موصوفة ، كانت قلنسوته وسراويله يتبرك بها فى جميع أحياء زناته ، تحمل الى الحوامل اللواتى صعب عليهن الوضع فيهون الله تعالى عليهن الوضع ويسهل عليهن الولادة ببركته » وبشرح أدق نستطيع أن نقول أن أصلهم البدوي وزهدهم الورع أحيا النموذج الصحراوى المتقشف الذى حققه ابن تاشفين إذ كان عبد الحق «لا يأكل إلا الحلال المحض من طيب كسبه من لحوم إبله وغنمه وألبانها ، ومما يعانيه بيده من الصيد» . إنهم يستأنفون تراث المرابطين ، نحن لا نستطيع الإقرار بصحة هذه الصورة ، لكن الجدير بالذكر ، هو أن الأمير يبدو لرعاياه ، بالمظهر الذى يروق لهم ، وأنه يجسد المثل الأعلى للحاكم .

كان الحماس الدينى فى المغرب قويا ، كما كان عليه فى إفريقية فى عهد علماء القيروان . ولكن طرأ على الإسلام المغربي تغيرات ملموسة ، ويتضح ذلك فى مدارس تونس وفاس وتلمسان التى تميزت بالجمال ، الذى قد يغضب أى معاصر للفقيه سحنون ، كما اختلفت الأهداف من تأسيس هذه الدور العلميه الفخمه وكذلك دوافع كل من المشتغلين بالتدريس بها والدارسين الذين دفعهم حب المعرفة النزيه لدروس الاساتذه القدامى .

نشأت المدرســـة فى المشرق ، مثل كل المؤسسات التى أثمرت فى بلاد البربر ، كانت قد ظهرت فى بلاد فارس خلال القرن الحادى عشر (٥ هـ) (ولقد شرحنا فى بداية هذا الكتاب الظروف التاريخية التى نشأت فيها) ، ومنها

(١٨) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ص ٢٨٥ ، ابن الأحمر : روضة النسرين ، الترجمة الفرنسية ، ص ٥٦ .

امتدت الى سوريا ومصر والمغرب . ويحدثنا العمرى [١٩] عن مدرسة فى مراكش ـ عاصمة الموحدين ـ خلط بينها وبين مدرسة من المدارس التي عرفها فى مصر . فهى مدرسة للحديث حيث يدرس فيها مذهب المهدّي . ولقد تبنت سياسة بناء المدارس للتعليم كل الأسرات البربرية الحاكمة فى القرن الثالث عشر والرابع عشر (٧ ، ٨ هـ) ، مثل بنو حفص رواد هذه السياسة ثم بنو مرين وبنو عبد الواد . ولكن المرينيين ضاعفوا من عدد هذه المدارس ، وبالنسبة لكل من المرينيين والأتراك السلاجقة الذين أنشأوا هذه المدارس ، كانت المدرسة عبارة عن دار للعلوم الدينية ، وخاصة الفقه ، لتزويد الأمير بالموظفين المتعلمين المخلصين وكذلك بالقضاة وأعوانهم . ورغم أن هذه المدارس كانت تدرس المذهب السنى المرتبط بمذهب مالك ، وما تمتعت به من تنظيمات دينية أهمها توفير المصلى للدارسين بها إلا أن تأسيس هذه المدارس لم يكن محبذا من قبل المسلمين المتحمسين . إنهم يستنكرون الكسب المادى الذى يصبو إليه الطلبة والمدرسون عن طريق تعليم القرآن والحديث على السواء ، وذهب البعض الى القول بأن « المدارس قضت على العلوم الحقيقية » [٢٠]

لقد انفتحت المغرب تلقائيا للصوفية [٢١] مع التطور الإسلامى الذى أدى الى ظهور المدرسة ، وتصدر الدولة للتعليم الدينى ، فالصوفيّة استيراد

---

(١٩) العمرى : مسالك الابصار ص ١٣٢ ـ ١٣٣ .

(٢٠) ابن مريم : البستان فى ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان ، الترجمة الفرنسية ص ٢٤٩ .

(٢١) L. Massignon, art. Tasawwuf dans l'Encyclopédie de l'Islam ; A. Bel, La religion musulmane en Berbérie, I, pp. 305 ; L'Islam mystique, dans Revue Africaine, 1928 .

مشرقى أيضا ، ولكنها استغرقت طويلا لتقصد بلاد المغرب . لم تعرف بلاد البربر شئ من الازدهار المبهر ، لزهاد القرن الثامن والتاسع (٢ ، ٣ هـ) ، من صوفية عهد خلفاء بغداد ولم تعرف الصوفيه إلا فى القرن الحادى عشر والثانى عشر (٥ ، ٦ هـ) ، ربما نتيجة للتخمر الدينى الذى نتج عن حركات المرابطين والموحدين ، وبالتأكيد نتيجة غير متوقعة ولا مأمولة لأصحاب هذه الحركات . بالإضافة الى تأثير سلطان الغزالى ، الذى قام الفقهاء المرابطون بإحراق كتبه ، وقد أشرنا من قبل الى ما أخذه عنه المذهب الموحدى ، فانتشار كتاب « إحياء علوم الدين » فى المغرب والأندلس ، هو بدون منازع واحد من أعظم الأحداث فى تاريخ الإسلام المغربى . لقد بين الغزالي فى كتابه ، أن الابتعاد عن متاع الدنيا ، وحب الله ، أنفع من الناحية الروحية من الطرق الجدليــة العقيمة . وعلى غراره وطبقا للمنهج الذى أعده الصوفيون المشرقيون ، وبالتقشف والصلاة والتأمل الدائم ، حاول كثير من الرجال الأتقياء الابتعاد عن الدنيا والخروج من الجسد ، والاقتراب من الله على مراحل متتابعة والتفاني فيه . ولقد توصل البعض الى ذلك وأسعدتهم فرحة النشوة ، بل والاتيان بالمعجزات ، فوهبهم الضمير الشعبى هالة الأولياء .

ومثل هؤلاء الصوفيــة أحباء الله فى بلاد المغــرب هو « سيــدى بومدين » [٢٢]، أندلسي من مقاطعة أشبيلية ، أتى الى افريقية ، وتلقي المبادئ من زاهد بربرى ومات ودفن سنة ١١٩٧ م (٥٩٣هـ) فى قرية مجاورة لتلمسان . كانت هذه القرية المعروفة « بالعُباد » مخصصة للرجال الأتقياء ومركزا للتدريب الصوفى خلال حياة سيدى بومدين وسوف تستمر بعد ذلك .

(٢٢) Bargés, Vie du célébre marabout Cidi Abou Medien, Paris, 1884 ; A. Bel, Sidi Bou Medyan et son maitre Ed-Deqqaq á Fés (Mélanges René Basset, Paris, 1923 .

كانت الصوفية مادة دراسية منتظمة ، ولا تبدو متنافرة مع تحصيل الدين أو الفقه ، وكان الناس يتلقون العلم فى « العُباد » ويعيشون فى عزلة . وقد زود المكان بالمنشآت الدينية ، بفضل سخاء بنى مرين . وبعد أن استولى السلطان أبو الحسن على تلمسان سنة ١٣٣٧ م (٧٣٨هـ) ، ضم لضريح سيدى بومدين مسجد كبير ومدرسة وحمامات عامة وملحقات أخرى . لقد أبدى أبو الحسن المرينى بهذا العمل تعظيمه الشخصى لحبيب الله ، وربما كان يحاول استرضاء رعاياه الجدد ـ التلمسانيين ـ بتمجيد ذكرى ولى مدينتهم ، إذ كانت حماية المتدنيين عنصرا من عناصر سياسة المرينيين منذ بداية حكمهم .

إن الصوفية وتعظيم الأولياء الذى هو امتداد لها ، طبعت التدين البربري ابتداءا من نهايـــة العصور الوسطى ، ولم يهرب من سيطرتها أحد ، لا الرؤساء ، ولا الشعب ، ولا أي طبقة من طبقات المجتمع ، ولا أي جزء من أجزاء بلاد البربر . ويحيط بنو حفص الأولياء فى تونس بكل احترام ، كما يفعل بنو مرين فى فاس ويروى ليون الإفريقي « وأصبح كل جاهل يود أن يكون صوفيا ، بدعوى أن ليست هناك حاجة لدراسة العقيدة لأن روح القدس تمنح معرفة الحقيقة لكل من كان له قلب طاهر » . وعوضا عن ذلك اكتسبت الصوفيه أهمية سياسية وحربية هائلة بانتشارها بين الجمهور بفضل تجنيد أفراد الطريقة [٢٣]

سوف تقوم بلاد البربر بصفة عامة ، والمغرب الأقصي بصفة خاصة ، بتنظيم المقاومة ضد البرتغاليين والأسبان بواسطة هذه الطرق الدينية ، إذ بعد أن استعاد المسيحيون شبه الجزيره الأيبيرية بأكملها ، وغزوا أرض الإسلام .

---

(٢٣) انظر وصف الريقها ص ٢٧ ،

L. Rinn, Marabouts et khouan, Alger, 1884 ; O. Depont et X. Coppolani, Les confréries musulmanes, Alger, 1897 .

واستقروا على شواطئ إفريقية استقرارا محدودا . أصبح الشمال الإفريقي غير مستقر ، لا للمهاجرين العرب ولا لأبناء الوطن من البربر . بل ولا للغازين من المسيحيين ، إذ كان احتلالهم للساحل غير مستقرا كذلك ، فلم تبق تونس أسبانية ، إلا لمدة تسعة وثلاثين عام ، وبجاية ستة وأربعين عام ، أما وهران لقد بقيت أسبانية لمدة ثلاثة قرون ولم تعد للإسلام إلا سنة ١٧٩١ م (١٢٠٦هـ) ومزغان (الجديدة) بقيت برتغالية لمدة مائتي وستة وخمسين عام.

كان الكافر العنيد (المسيحيون) مرابطا في بعض نقاط الساحل ، فإذا أضفنا الى وجوده ، مزاولة المسلمين للقرصنة التقليدية التى يقدم لها الجهاد المقدس الحجة الحميدة ، والتى تطورت مع حكومة الأتراك الى نوع من السياسة الوطنية ، سندرك السمات الثابتة منذ الآن لبلاد البربر الإسلامي والتى كونتها عدة قرون ، فمنذ التقلبات التى توالت بعد الغزو الهلالى فى القرن الحادى عشر (٥هـ) ، ومنذ غزو النورمان للسواحل وظهور المرابطين فى المغرب الأقصي ، اتخذ هذا البلد الكبير وضعه القتالى . وأصبح يمثل الإسلام المناضل ، وسيكون في طرف العالم الإسلامي الغربى برج العقيدة الذى لا يتزحزح .

IV

الأثر الأندلسى و الحضارة الإسبانية المغربية

لقد تأثر المغرب فى نهاية العصور الوسطي بالتأثيرات الأخيرة التي أتت إليه من إسبانيا الإسلامية ، رغم العداء والكره تجاه الأجنبى الكافر . لقد جمع بقايا ماضي جميل ، والصورة التى حاولنا رسمها عن المغرب ، لا تزال ناقصة

إذا لم نذكر الإثراء الذى حصل عليه .

ولقد عرفنا من قبل أن بلاد البربر المتحررة من المشرق قد أصبحت ـ من الناحية الثقافية على الأقل ـ تحت وصاية الأندلس . ولقد رأينا نمو « الفن الإسباني المغربى » ، وهذه التسمية التقليدية تدل على ذلك . فكانت الروابط لا تزال وثيقة ، والمتبادلات مستمرة بين الدول الإسلامية فى إفريقية ، ومملكة غرناطة حيث انحصرت الحياة الأندلسية . ولكن حان الوقت ليبقى التيار فى اتجاه واحد ، فمع كل تقدم للاسترداد الإسباني ، يرتد المسلمون نحو مدن وريف بلاد البربر ، للاستقرار فيها بدون أمل للعودة . إنها أرض اللجوء ؛ رأيناها تقوم بهذا الدور بالنسبة للمشرقيين الذين لم يقدم لهم المشرق إقامة مريحة ، وإنها الآن تقوم بهذا الدور من جديد بالنسبة للأندلسيين الرافضين للإقامة تحت السيطرة المسيحية ، رغم التيسير المقدم لهم ، إنهم يأتون للانضمام الى ذويهم ، وسوف نرى سنة ١٦١٠ م (١٠١٩هـ) آخر وأسوأ مأساة لطرد المسلمين الذين اضطروا للارتداد الى المسيحية ، لقد كانت نهاية المسلمين فى إسبانيا .

كان معظم هؤلاء المهاجرين من نخبة أهل الحضر ، أو على الأقل من الطبقات المثقفة ، وكانوا يشكلون مساهمة نافعة ، بالنسبة لحضارة الممالك البربرية . ولقد وضح هذا التأثير الأندلسى ، بسبب كثافة عددهم والوظائف المقدمة لهم فى مأواهم الجديد ، والأصالة الراسخة لمستقبليهم . وكانت إفريقية أكثر استعدادا فى هذا المجال عن المغربيين ،، والمغرب الأقصى كان أكثر استقبالا لخبراتهم من المغرب الأوسط .

وبالمقارنة بين شرق المغرب (إفريقية) والمغرب الأقصى كان المغرب الأوسط ولا يزال حتى يومنا هذا بلدا ريفيا كبيرا ، والمدن به نادرة ، ولا تجد الحضارة أرضا خصبة لنموها ، ومنطقة وهران التى أقام فيها بنو عبد الواد عاصمتهم ،

كانت منطقة سهول صحراوية مرتفعة ، ينتشر الرعاة البدو فيها ويعيشون حياتهم البدوية حتى قرب الساحل . وعلى كل فبنو عبد الواد أنفسهم كانوا من البدو الرحل ، ويعود تحضرهم الى بداية القرن الثالث عشر (٧ هـ) ، ولكن لم تتأثر طريقة حياتهم بهذا التحضر . فالتطور هنا لا يمكن أن يكون إلا جزئيا ويتدرج ، وليس هناك أطرف من سيرة يغمراسن مؤسس الأسرة الحاكمة ، لقد وُلد فى مكان ما بالصحراء وعاش فى الخيام ، وبعد موت أخيه وجد نفسه متقلدا زمام زعامة بدو بنى عبد الواد ، ومنذ ذلك الحين عاش فى حصن قديم بتلمسان . كان هذا القصر يجاور المسجد الجامع ، ويسكنه من قبل حكام المدينة الموحدين . إختار الوزراء من بين أفراد عائلته ، وكذلك الحاجب ، والمعاونون ، وقد استقبل الوفود ، واستمع للشعر المنظم باللغة العربية خصيصا لمديحه ، وكافأ الشعراء . وحينما مات عن ثلاثة وسبعين عام ، من المؤكد أنه لم يتكلم إلا لهجة زناته البربرية ويبدو أنه لم يكن يعرف غيرها . حكى لنا المؤرخون عن بعض أحاديثه بهذه اللهجة التى يعتبرونها وحشية بدائية ، لقد قال للمتملقين الذين نسبوا عائلته لإدريس حفيد النبى : « إذا كان هذا حقيقة ، فسوف يفيدنا عند الله ، ولكن فى هذا العالم لا ندين بثروتنا إلا لسيوفنا » (٢٤) كان يستمد قوته من تماسك عشيرته ، واحتفظ طيلة حياته بمظهر زعيم قبيلة بربرية كبيرة ، كما بقى طابع قصره بتلمسان بدويا حتى فى عهد ابنه عثمان وحفيده أبى زيان . أما فى عهد أبى حمو الأول يروى لنا ابن خلدون « هو أول ملوك زناته ، رتب مراسم الملك وهذب قواعده » ، ويذكر أيضا هذا الرأى لأمير عربى الذى يروى أن زناته « كانوا رؤساء باديه » (٢٥) . يعود هذا التطور الى تأثير الأندلسيين اللاجئين

(٢٤) التنسى ترجمة Bargés : إضافة لتاريخ بنى زيان، ملوك تلمسان (Paris 1837) ص٣.

(٢٥) ابن خلدون : العبر ٧ : ١٣٢ .

والمحيطين بأبى حمو (٢٦) منهم عائلة « الملاح » ، الذين كانوا رجال مال ، جاءوا من قرطبة ، واختار أبو حمو منهم أربع وزراء على التوالى ، إنهم موالى من من أصل مسيحي ومثقفون ، كان أبرز وأنشط أفراد هذه العائلة هلال القطلانى الذى كان عبدا عند سلطان غرناطة . وبعد انتقاله الى تلمسان وأصبح من كبار موظفى الدولة ، وأخذت ثروته فى الاتساع فى عهد ابى تاشفين ابن أبى حمو ، لأنه ساعده للوصول الى العرش .

ولقد تجملت مدينة تلمسان فى عهد هذا العاهل الجديد ، ونستطيع القول بأن عهده ، شهد نهضة هندسية وعمرانية واسعة ، ويفيدنا ابن خلدون عن ذلك « وأغرى دولته بتشييد القصور واتخاذ الرياض والبساتين » (٢٧) والمدرسة التى أسسها ابن تاشفين كانت من أفخم ما شيد فى المغرب الأوسط ، ولم تستفد مدينة تلمسان من احتلال المرينيين لها بعكس مساجد ضواحيها ، ومدينة المنصورة التي بناها المرينيون خلال حصارهم لمدينة تلمسان . ولذلك كان رحيلهم سببا فى إهمال ودمار مدينة المنصورة ، وإعادة ازدهار المدينة القديمة تلمسان . ويعتبر أبو حمو الثاني صاحب هذا التجديد ١٣٥٩م (٧٦٠ هـ) إنه أمير فنان وأديب ، لقد ولد وشب فى الأندلس ، وكان محاطا بالعلماء ، والشعراء ، وكان ينظم الشعر وألف رسالة سياسية أدبية عن فن الحكم ، وبفضله رأى قصر المشوار أجمل لياليه ، وذكرى المولد النبوى كانت فرصة سنوية للاحتفال يقدمه السلطان لشعبه ، كان أبو حمو يحكم محاطا برؤساء قبيلته وكبار موظفى المملكة (٢٨) . كانوا يسمعون قصائد المناسبات

---

(٢٦) ابن خلدون : العبر ٧ : ١٤٠ ـ ١٤١ .

(٢٧) ابن خلدون : العبر ٧ : ١٤٢ . G. Marçais, Remarques sur les méder-sas funéraires (Mélanges) p. 271 .

(٢٨) يحيى بن خلدون : تاريخ بنى عبد الواد ترجمة II A. Bel ص ٤٧ .

وهم جالسون على البساط والأرائك فى القاعة الكبيرة ، المزينة بساعة حائط آلية ، ويضيئها شمعدانات من النحاس المذهب ، ويطوف الوصفاء بملابسهم الحريرية المتعـددة الألوان ، ومعهم مجامر العطور ، ويرشون الجالسين بماء الورد . وفى نهاية الليل تقام الموائد المحملة بالطعام والمشهيات ، وفى النهاية يقوم الجميع بصلاة الفجر وينصرف الأمير . إن الانطباع الذى تتركه لنا هذه القصة ، يدل على إنها ليست لاحتفال قصر فخم وبهى ، بل هي تسلية تقليدية تلائم مجتمع برجوازى ، رقيق ومتدين ومثقف ومعتدل الميول ، ولم يتخلص بعد من بساطة أسلافه . فحياة تلمسان الأمس ، لم تتغير كثيرا عن حياة المعاصرين لأبى حمو . كان عصر بنى عبد الواد هو عصر ازدهار تلمسان الكبير ، رغم المخاطر التي جعلت من وجود المملكة معجزة دائمة ، وهى لا تحتفظ فقط بالمنشآت المعمارية التى تتوجها ، وتجعلها مدينة فن . بل بالتقاليد القديمة الممتعة ، ولا تزال البنات تنشدن باللغة العامية القصائد الصغيرة على إيقاع يشبه الرقصات الأندلسية (٢٩) . لقد دمغ الأثر الإسبانى ، عادات السكان البربر ، رغم أنه أثر متأخر ومحدود .

أما مدينة فاس ـ عاصمة المرينيين ـ فقد كانت أكثر اتساعا وسكانها ضعف سكان مدينة تلمسان ، إنها تنتمى الى ماضى إسلامى جليل ، وقد استفادت بالتأثيرات الإفريقية ، قبل أن تصلها التأثيرات الأندلسية . وقد استفاد بنو مرين بهذا التراث بعد أن أصبحوا حكاما للبلاد بجدع الأنف ، ويعقوب هو الذى تمكن من الاستيلاء على الحكم ، وكان معاصرا ليغمراسن ابن عبد الواد . كان بالطبع يحتفظ بذكرى أسلافه ، ولكن لا يبدو عليه طابع الزعيم البدوى وكان لإثنين من أولاده ألقابا بربرية ، وحتى منتصف القرن

(٢٩) W. Marçais, Le Dialecte arabe parlé á Tlemcen, Paris , 1902 pp. 207 ss.

الرابع عشر (٨هـ) كانت تخصص الأسماء البربرية للأميرات . لقد أتم يعقوب العمل الشبه رسمى كعاهل إسلامى ، ألا وهو إنشاء عاصمة له ، هذه العاصمة هى فاس الجديدة - مدينة بنى مرين - وهى ملحقة رسمية للمدينة الدينية والتجارية للأدارسة . وسيهتم أمراء المغرب الأقصى من بعده بعملية البناء ، وكان أكثرهم اهتماما أبو الحسن وابنه أبو عنان وتعد هذه الفترة ذروة الأسرة الحاكمة . يذكر ابن مرزوق - مؤرخ أبى الحسن المرينى - فى عدة أبواب المنشآت التى شيدها سيده (٣٠) . يتكلم ابن مرزوق عن أسوار المدن والكبارى والقناطر ، وبعد ذلك يتكلم عن المساجد الجامعة والمصلات ، والمستشفيات ، وخصوصا المدارس التى نشرها المرينيون ونحن نعرف الدور الذى قامت به هذه المدارس ، كان العصر غير موات للأدب (ويعلن ابن خلدون إنهم لا يهتمون بالشعر) ، ولكن العلوم التقليدية ازدهرت ، مثل تفسير القرآن وعلوم الدين والفقه والفلسفة والقواعد . كان أبو الحسن المرينى محاطا بالعلماء ، ويشارك فى مناقشاتهم العلمية ، ويرافقونه فى تنقلاته ، ويغدق عليهم بالامتيازات . كان هذا دليلا على دخله الوفير ، ولقوته الحربية ، وسيطرته السياسية . وأثناء غزو إفريقية ، دخل تونس برفقة مجموعة من العلماء ، ولقد تركوا عند الشاب ابن خلدون انطباعا حسنا لدرجة أنه شرع فى اللحاق بهم فى فاس ، بعد تفكك جيش بنى مرين . وقبل الشروع فى الرحيل ، كان ابن خلدون قد ارتبط مع عالم منهم استقر فى تونس ، وكان يدعى الآبلى (٣١) رجل دين وفقيه ، وفى نفس الوقت عالم رياضيات وفلسفة ، ويبدو أنه كان ممثلا لهيئته وزمنه . إن الاسم الذى يحمله يشير الى

(٣٠) ابن مرزوق : المسند الصحيح الحسن فى مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن ، ص ٣٩٧ وما بعدها .

(٣١) ابن مريم : البستان فى ذكر الأولياء ، الترجمة الفرنسية ص ٢٤٦ .

مدينة آبله الأندلسيه . كانت هذه المدينة مهدا لعائلته . لجأ أجداده الى تلمسان بعد استيلاء المسيحيين على أشبيلية . ولد الآبلى فى تلمسان سنة ١٢٨٢ م (٦٨١ هـ) وتركها أثناء الحصار ، وذهب الى مكة للحج ، وعند عودته الى المغرب عاش فى تونس وتلمسان ، وأخيرا فى فاس الجديدة حيث أصبح من ندماء أبى الحسن .

إن نوائب المغرب الإسلامي ، هي التى أدت الى مولده فى شمال إفريقيا ، وربطت اسمه بأسرة بنى مرين . أما ابن مرزوق وآخرين فتبدو صورهم ثانوية بجوار صورة عبد الرحمن بن خلدون الذى احتل كل الحياة الفكرية لعصره والتى ظهرت واضحة عند الحفصيين فى تونس .

دلائل كثيرة تشير الى أن العائلة الحاكمة فى تونس ، تمثل بأصلها وأسلوب حياتها ، نوعا من الارستقراطية التي تفرض نفسها على الأسرات الحاكمة الأخرى بتفوقها ، مما يجعل هؤلاء الحكام يتمنون الاتصال بها ، وأحد هذه المظاهر هو الإقبال الذى يبديه حكام تلمسان وفاس فى طلب أيدى أميرات بنى حفص لأبنائهم .

فى سنة ١٢٨٢ م (٦٨١ هـ) أرسل يغمراسن نوابا من نبلاء بنى عبد الواد لطلب يد ابنة أخ المستنصر لابنه عثمان ، وهى « إحدى بناته المقصورات فى خيام الخلافة » وتزوجها عثمان بمجرد وصولها الى تلمسان . ويقول ابن خلدون « فكان ذلك مفخرا لدولته وذكرا له ولقومه » (٣٢)

فى سنة ١٣٣٠ م (٧٣١ هـ) خطب أبو سعيد المرينى ، الأميرة فاطمة أخت أبى زكريا الحفصى (٣٣) ، لإبنه أبى الحسن ، السلطان المستقبلى ،

(٣٢) ابن خلدون : العبر ٧ : ١٢١ .

(٣٣) ابن خلدون : العبر ٧ : ٣٣٣ .

وجاءت العروس عن طريق البحر مصحوبة بأسطول وكانت موضع حفاوة واستقبال فخم ، وكانت حقائبها محملة على مطايا مسرجة بالحرير والذهب والفضة ، ويشير ابن خلدون الى أنه « احتفل لوافدها ، وأعراسها غاية الاحتفال بما لم يسمع مثله فى دولتهم » ، وبعد عشر سنوات ماتت السلطانة فاطمة فى معسكر المرينى عند حصار طريف وحزن أبو الحسن عليها كثيرا ، ويقول ابن خلدون فى هذا الشأن [٣٤] « وبقى في نفسه منها شئ حنينا الى ما شغفته به من خلالها وعزة سلطانها وقيامها على بيتها .. وظفرها فى تصريفها ، والاستمتاع بأصول الترف وللاذة العيش فى عشيرتها . فسما أمله الى الاعتياض عنها ببعض أخواتها ، وأوفد فى خطبتها » ولقى هذا الطلب استقبالا حارا ، لكن مصير فاطمة لم يغر أميرات بنى حفص ، وأظهر صهر أبى الحسن نفورا شديدا لترك ابنه أخرى تغامر فى البلاد المغربية ، لكن السفراء استطاعوا اقناعه بدبلوماسيتهم الصبورة . وبعد ست سنوات عاد السفراء أخيرا الى المغرب ، ومعهم الأميرة عزونة فى موكب عظيم ، وحتى تقيم العروس فى فاس ، كلف السلطان أبو الحسن جيشا من الفنانين ببناء قصر وضع هو نفسه تصميمه ، ولم يستغرق البناء أكثر من ثمانية أيام .

من البديهى أن هذا النوع من الاتحاد له أثر سياسى منتظر من قبل الحكام البرابرة ، وإنهم يستغلونه فى كثير من الأحيان ، ولكنه يبين أيضا رغبتهم فى شهرة قصورهم ، وتجميل حياتهم الخاصة .

هناك عناصر عديدة تشارك فى إحاطة العائلة الحاكمة فى تونس بهالة من الشهرة والنفوذ : أولا : أصالة حكامها ، فالحفصيون هم الورثة الأصليون لخلفاء القرن الثانى عشر العظام ، كما أن اسم سلفهم ـ الشيخ أبو حفص ـ له

(٣٤) العبر ٧ : ٣٥٣ ، ملحوظة : سيطلب ابن أبو الحسن أبى عنان يد أميرة تونسية ـ انظر ابن مريم : البستان ، حياة ابن مرزوق ، ترجمة . Provenzali p. 212

شهرة اسم عبد المؤمن فى المغرب ، بل أشهر منه فى الأندلس حيث استشهد حفيد له فى معركة الأرك المجيدة .

ثانيا : البلد المتميز الذى استقروا فيه منذ عدة أجيال . إن مشرقيا مثل العمري لا يرى فى أهـل إفريقية ، الخشونـة التى يجدهـا فى أهل البربر ، « ولأهل إفريقية لطف أخلاق وشمائل بالنسبة الى أهل بر العدوة وسائر بلاد المغرب » [٣٥] . ويمتدح بديهتهم الحاضرة وأخلاقهم الودودة وبهجة معشرهم ، إنها ملامح سيكلوجية لسكان الحضر ، المنتمين لمنطقة انطبعت بطابع الحضارات القرطاجية والرومانية والبيزنطية والإسلامية ، والتى تدين لحكامها المتتاليين بالتغيرات المتلاحقة للحياة الحضرية .

رغم كثرة الحكام على مر العصور ، انطبعت مدن إفريقية بطابع الحكام المسلمين ، وتأثرت بهم تأثرا ملموسا ، قادرا على جعل المغاربة ينفعلون به . لقد تعاقب الخلفاء والسلاطين والأمراء الوارد أسمائهم فى هذا الكتاب ، وهم أمراء أغالبة وخلفاء فاطميون ، وسلاطين بنى زيرى ، وذلك ابتداء من نهضة القرن التاسع حتى الغزو الهلالى . ولقد ساهموا جميعا فى جعل هذا البلد نشطا ومزدهرا . عندما دخل أبو الحسن المرينى مدينة تونس سنة ١٣٤٧ م (٧٤٨ هـ) أراد مشاهدة « حجر القصر ومساكن الخلفاء ، فطاف عليها ودخل منه الى الرياض المتصلة به المدعوة برأس الطابية - الحديقة الملحقة بالقصر - ، فطاف على بساتينه وجوائزه ، ..... وارتحل من الغد الى القيروان فجال فى نواحيها . ووقف على آثار الأولين ومصانع الأقدمين والطلول الماثلة لصنهاجة والعبيديين ، وزار أحداث العلماء والصالحين . ثم سار الى المهدية ووقف على ساحل البحر ، ونظر فى عاقبة الذين كانوا من قبل أشد قوة وآثارا فى

(٣٥) العمرى : مسالك الابصار ص ١٠٣ .

الأرض ، واعتبر بأحوالهم. ومر في طريقه بقصر الأجم ورباط المنستير»(٣٦)

إن الذى أثر فى هذا المغربى ، والذى قدم له درسا في التواضع ، وبداية لعالم جديد ، هو كل ما كانت تدين به إفريقية ، لماضيها الروماني وماضيها المشرقى ، بل ولاتصالها بمصر ـ رغم القطيعة ـ حيث كانت تحصل عن طريقها على المؤثرات الأسيوية . والعمرى يقول أن هذا الطابع الحضرى الذى يميز شعب إفريقية « وما ذلك إلا مجاورتهم لمصر وقربهم من أهلها ومخالطتهم لهم. . . » . ولكن العمرى مصرى ومشكوك فى تمييزه لبلده . ومع ذلك فالطابع المشرقى الصريح المتأثرة به مدينة تونس الحديثة ، والمكانة التى تحظى بها القاهرة فى هذه المدينة ، ... كل هذا يحثنا على الاعتقاد بأن العمرى كان على حق . وسنتقبل عن طيب خاطر ما قاله عن الحركة الحضارية المحسوسة للأندلسيين والتي لا تقل عن الأثر المصرى (٣٧) .

لقد كان الأندلسيون كثيرى العدد فى إفريقية ، وارتبط مجيئهم ارتباطا وثيقا ، بتأسيس دولة بنى حفص . فأبو زكريا ـ مؤسس الأسرة الحاكمة ـ كان واليا لمقاطعة أشبيلية ، وجعلها شبه مملكة قبل تعيينه فى بلاد البربر الشرقى ، لمعالجة ثوراتها المتعددة وخلال الوقت الذي قضاه فى أشبيلية كانت المدينة الأندلسية الكبيرة تمر بأجمل أيامها الأخيرة ، ولما تمكن فرديناند الثالث من انتزاع المدينة فى سنة ١٢٤٨ م (٦٤٦ هـ) حدثت الهجرة الأشبيلية الغفيرة الى بلاد المغرب واتجه الجزء الأكبر من الصفوة الأشبيلية بالطبع الى تونس . لقد وجد المهاجرون فى هذه المدينة ، بيئة مضيافة ، كما وجدوا

---

(٣٦) ابن خلدون : العبر ٧ : ٣٥٧ ـ ٣٥٨ .

(٣٧) عن هذا التأثير المزدوج ، انظر مسالك الابصـــار ص ١٠٣ ، ابن خلدون : المقدمـــة ص ١٧٤ .

الوسيلة لمزاولة نشاطهم في ظل الأسرة الحاكمة الجديدة . وكان من بينهم الفنان والمعمارى والمزخرف والرسام والبستانى ، الذين أسهموا فى نقل التراث الأندلسى ـ المغربى الى إفريقية . وكان من بينهم أيضا المثقفون ورجال الحكومة ، الذين عاونوا فى إدارة الدولة . وكان بدون شك من أبرز العائلات المهاجرة عائلة ابن خلدون ، وكان أحد أفراد العائلة ويدعى أبى بكر قد استقر فى تونس وأصبح وزيرا للشئون المالية . وابنه محمود كان كبيراً للحجاب ، ثم رئيس وزراء وزاول القيادات الحربية . وكان لمحمد ابن عالم شديد التقوى عين مفتيا . أما حفيده عبد الرحمن ، فقد ولد فى تونس سنة ١٣٣٢ م (٧٢٢ هـ) وهو المؤرخ الفيلسوف الذى نعرفه (٣٨) وعبر حياته الوظيفية المضطربة توصل لكتابة مؤلفه التاريخى الأكثر ثراء ، الذى تُدان به للثقافة العربية الإسلامية .

وفى الامكان ذكر أكثر من كاتب ، لكنهم لا يملكون عبقرية صاحب « المقدمة » . فقد كان بلاط أبى زكريا وبلاط المستنصر حافلين بالأندلسيين ذى القدرة العالية ، كانوا يكونون مجتمعا فخورا بأصالته ، ويزودون القصر التونسى بعطر الأدب والكياسة والتأنق ، وبتعبير أدق كانوا عبارة عن زمرة تتسابق في الحصول على انعام الخلفاء ، والتفوق على مجموع الموحدين ، ممثلوا التراث الدينى والمغربى . وبعد ثلاث قرون ونصف كانت تونس والريف التونسي ، هما اللذان يستقبلان النصيب الأكبر من المسلمين الأندلسيين الذين طردهم فيليب الثالث . (٣٩)

(٣٨) انظر سيرته الذاتية بكتابه العبر " التعريف بابن خلدون ٧ : ٣٠٥ ومابعدها .

(٣٩) انظر حسنى حسنى عبد الوهاب Coup d'oeil sur les apports ethniques en Tunisie, dans la Revue tunisienne, 1917, p. 305 ; G. Marçais, Testour et sa grande mosquée, ibid., 1942 . p. 147 .

وهكذا ورث هذا البلد القديم (إفريقية) الحضارة التى صنعت مجد الإسلام الغربى . بالإضافة الى الحضارات التى تراكمت فيها من قبل ، فالآثار التي تركها الاستعمار الفينيقى والاحتلال الرومانى والوصاية المشرقية ، وأخيرا الهجرة الأندلسية التى شكلت صورة إفريقية وساعدت على تمييزها عن مقاطعات شمال إفريقية الأخرى .

الخاتمة

هكذا تبدو لنا بلاد البربر في نهاية عصورنا الوسطى . ودخول الأتراك مسرح الأحداث سيفتح لهذه البلاد بابا آخر للتاريخ . ومع كل فلن يغير هؤلاء الممثلون الجدد مسارها بصورة محسوسة كما فعل الفاتحون العرب في القرن السادس (الأول الهجرى) والمهاجرون العرب فى القرن الحادى عشر (٥هـ) ، كما أن السمات التى حاولنا بها تمييز مناطقها الثلاث ستبقى صحيحة الى حد ما حتى العصر الحديث . ولكن كيف وجدت فرنسا هذه المناطق عندما دخلتها ؟ هذا هو ما سوف نبينه في الكلمات الآتية .

كان المغرب الأوسط هو أكثر المناطق الثلاث تأثرا بسبب تدخل الأتراك ، والقرصنة التى زاولوها لم تكن جديدة على المنطقة لأننا رأينا تطورها بعد الغزو الهلالي . فقراصنة بجاية والمهاجرون الأندلسيون مهدوا الطريق لرؤساء مدينة الجزائر وذلك قبل الأخوة بربروسا واضمحلت مدينة تلمسان وبجاية ، وتناقص سكانها ، بعد أن كانتا بمثابة عواصم ، كما انحط النشاط الفكرى فيهما . وبخلاف هذه المدن سيبقى المغرب الأوسط حتى سنة ١٨٣٠م (١٢٤٦ هـ) كما كان فى نهاية العصور الوسطى ، سيبقى بلدا قرويا كبيرا ينمو جزئيا ، بلدا لمناطق جبلية حيث الحياة الصعبة والسهول الصحراوية الغير

صالحة إلا لرعاة البدو . لقد عطل القهر التركى الحياة الاقتصادية بعد أن أوقفت القبائل العربية نهضتها .

كانت سيطرة الأتراك أقل سوءا فى إفريقية ، وتونس على وجه الخصوص مدانة لهم بالكثير ، حيث استقر المبدأ الوراثى منذ بداية القرن الثامن عشر (١٢ هـ) واستفادت تونس من استقرار ، لم تتمتع به دولة الجزائر (العاصمة) . وعلى كل فأصل هؤلاء الحكام الجدد ، وطد تراثاً لا يزال حيا ، لأنهم كانوا واعين لعملهم وحريصين على صالح شعوبهم . إن دولة تونس التى حررت بلاد البربر من المشرق ، ودفعت ثمن الانفصال افتقارا محتوما ، بقيت البلاد الأكثر مشرقية ، والأقل بربرية في شمال إفريقية ، ويرجع ذلك الى موقعها الجغرافى وإصرار ماضيها ، والذكرى البديهية لعصرها الذهبى ، لقد كانت وبقيت حتى العصر الحديث ، المنطقة التى كانت فيها الثقافة العربية أكثر رسوخا وأكثر انتشارا ، وفى نفس الوقت كانت مدنها ترحب بالتأثيرات الخارجية .

هناك تعارض جغرافى بين تونس والمغرب ، وهذا التعارض لم يقل مع مرور الزمان . يقع المغرب فى الطرف الآخر لشمال إفريقية وله واجهتان بحريتان مثل تونس ، لكن الواجهة البحرية لتونس تربط داخل البلاد بعالم البحر الأبيض والمشرق ، أما الساحل المغربى للمغرب ، فينفتح على المحيط الأطلسى أي على الفراغ (حتى العصر الحديث) . وبمنظور المشرق ، تعتبر دولة تونس المغرب الأدنى ودولة المغرب هى المغرب الأقصى . بقى المغرب على خلاف تونس ـ البلد البربرى أساسا لأن اللهجات البربرية تغطى أوسع المساحات كما أن الاطارات الاجتماعية القديمة باقية وراسخة . ويعتبر المغرب من الناحية العنصرية والثقافية البلد الأقل تعريبا لأنه لم يتعرض إلا بطريق غير مباشر ، عن طريق التيار الذى تنقله إليه إفريقية أو التيار المعاكس الذى يأتى إليه

من أسبانيـا . ولقد أثرت فيه الحضارة الأندلسية تأثيرا عميقا وبقيت حضارته . لقد ازدهر فن المدن المغربية بالأموال الأسبانية ـ المغربية أيام الموحدين والمرينيين ، وعندما اقتصر المغرب على موارده الخاصة ، تجمد وانحط ، هذا الفن ينطبق عليه الى حد ما الحكم الذى يذكر دائما بأن تدهور المغرب الأقصى بدأ مع بنى وطاس أقارب المرينيين : « بعد بنى مرين وبنى وطاس ، لا يوجد ناس » .

ولم يؤد اختفاء الإسلام الأندلسى الى تدهور حياته الفكرية فحسب ، بل استرداد المسيحية لأراضيها عرقل تطوره . وبينما كانت تونس تنفتح على التأثيرات الأوربية ، كان احتلال الكفار (المسيحيون) للمدن البحرية قد جعل المغرب يصمد فى موقفه الدفاعى ، وأهاج غداؤه للأجانب .

. بينما أصبحت أسبانيا حاجزا بين المغرب وأوربا ، وضع المغرب قواته الذاتية لمقاومة سيطرة الحكام الشرقيين وبذلك تجنب التبعية العثمانية التى فرضت على المناطق البربرية الأخرى . والموجة التركية التي غطت معظم العالم الإسلامى ، والتى مرت ببلاد فارس واكتسحت الامبراطرية البيزنطية ، واندفعت حتي ليبيا ، وغمرت شبه جزيرة البلقان والأناضول ، وسوريا والعراق والعربية السعودية ومصر ، وطرابلس وتونس والجزائر ، هذه الموجة ضعفت وتلاشت أمام الحدود المغربية .

هذه المغامرة الشاذة والوضع الجغرافى وطابع السكان البربري ، وهذا التدين الذى بينت الصفحات السابقة مظاهره ، كل هذا فرض على المغرب مكانة خاصة فى العالم الإسلامي ، وجعل منه ملجأ لإسلام سلفى وطبعه بأصالة قوية لا تستثنى التغيرات المستقبلية

فهرس

الجزء الأول

شمال أفريقيا تحت وصاية المشرق

الموضوع	الصفحة
د ـ الحياة الاقتصادية	٨٧
هـ ـ الحياة الدينية والفن الاسلامى	١٠١
II ـ بلاد البربر الخارجية ومملكة تاهرت .	١١٧
III ـ بلاد البربر العلوية ومملكة الأدراسة	١٣٥
- **الفصل الثالث : الأزمة الفاطمية**	
مقدمة	١٥١
I ـ الفاطميون فى بلاد البربر .	١٥٣
أ ـ أسباب الانفصال : المذهب الشيعى والسياسة الدينية .	١٥٦
ب ـ السياسة الضريبية .	١٦٣
جـ ـ رد فعل الخوارج وثورة أبى يزيد (صاحب الحمار)	١٧٠
د ـ العشرون عام الأخيرة .	١٧٧
II ـ مملكة الزيريين (الصنهاجيين)	
أ ـ العلاقات مع القاهرة ـ نحو القطيعة .	١٨٠
ب ـ شعب أفريقية .	١٩٧
جـ ـ الحالة الاقتصادية .	٢٠٤
د ـ الحياة الملكية ، الفن الاسلامى والأدب العربى .	٢١١

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة
ـ الفصل الثانى : الموحدون وقمة المغرب	
مقدمة	٢٨٨
I ـ ابن تومرت ومذهب الموحدين	٢٩٠
II ـ الحروب والمهمة الدينية للموحدين	٣٠٤
III ـ أهل الذمة وعادات وفن الموحدين	٣٠٧
الفصل الثالث : ميراث الموحدين وتدهور المغرب	
مقدمة	٣١٤
I ـ الممالك الثلاث فى شمال أفريقية	٣١٥
II ـ دور العرب	٣٢٣
III ـ الحياة الدينية	٣٣٠
IV ـ تأثير الأندلس والحضارة الأسبانية العربية	٣٣٥
ـ خاتمة	٣٤٦
ـ الفهرس	٣٤٩